المركز القومي للترجمة

المشروع القومي للترجمة

أرنولد توينبي

مختصر دراسة للتاريخ

الجزء الثالث

ترجمة: فؤاد محمد شبل

مراجعة: محمد شفيق غربال

أحمد عزت عبد الكريم

تقديم هذه الطبعة: عبادة كحيلة

ميراث الترجمة

1716

مختصر دراسة للتاريخ

(الجزء الثالث)

المركز القومي للترجمة
تأسس في أكتوبر سنة ٢٠٠٦ بإشراف: جابر عصفور

إشراف: فيصل يونس

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1716
- مختصر دراسة للتاريخ (الجزء الثالث)
- أرنولد توينبي
- فؤاد محمد شبل
- محمد شفيق غربال، وأحمد عزت عبد الكريم
- عيادة كحيلة
- 2011

هذه ترجمة كتاب:

A Study of History (Vol. III)

By: Arnold J. Toynbee

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: [illegible] Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

مختصر دراسة للتاريخ
(الجزء الثالث)

تأليف : أرنولد توينبي

ترجمة : فؤاد محمد شبل

مراجعة : محمد شفيق غربال

وأحمد عزت عبد الكريم

تقديم هذه الطبعة : عبادة كحيلة



2011

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

توينبى، أرنولد، ١٨٨٩ - ١٩٧٥

مختصر دراسة للتاريخ (الجزء الثالث) / تأليف: أرنولد توينبى، ترجمة: فؤاد محمد شبل، مراجعة: محمد شفيق غربال، أحمد عزت عبد الكريم.
القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١١
٤٨٤ ص، ٢٤ سم
١- التأريخ
(أ) شبل، فؤاد محمد (مترجم)
(ب) غربال، محمد شفيق، ١٨٩٤ - ١٩٦١ (مراجع)
(جـ) عبد الكريم، أحمد عزت (مراجع مشارك)
(د) العنوان ٩٠٧,٢

رقم الإيداع ٤٩٧١ / ٢٠١١
الترقيم الدولى : 978-977-704-487-5
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

للمترجم

١ ـ تقرير غرفة الإسكندرية التجارية عن الأحوال الاقتصادية لمصر والعالم ١٩٣٦ / ١٩٣٧

٢ ـ النظام المالى فى الإسلام

٣ ـ عصب الحرب

٤ ـ الدستور السوفييتى ـ دراسة تحليلية انتقادية (رسالة جامعية)

٥ ـ المدينة الفاضلة ـ بحث فى النظام الاقتصادى والاجتماعى عند الكتاب المثاليين

٦ ـ السياسات الاقتصادية الدولية

٧ ـ دراسات فى اقتصاديات القارة الإفريقية

٨ ـ مختصر دراسة للتاريخ للأستاذ توينبي ـ ترجمة (أربعة أجزاء)



تقديم

اتجه الأستاذ العلامة أرنولد توينبي خلال الجزئين الماضيين من هذه الدراسة ، إلى البحث عن ميادين للدراسة التاريخية قابلة للفهم بذواتها فى نطاق حدودها المكانية والزمنية المعينة . فقاده البحث إلى العثور عن هذه الميادين فى مجتمعات دعاها بـ « الحضارات » . فكان أن عمل على إثبات شخصية أكبر قدر ممكن من الحضارات . ووجد خلال بحثه ، أدلة العلاقة بين الحضارات ، فى طائفة من المظاهر الاجتماعية المميزة تتمثل فى :

أقلية مسيطرة — بروليتاريا داخلية — بروليتاريا خارجية .

فأما الأقليات المسيطرة ، فإنها هى الطبقات المبدعة فى المجتمع التى أنجبت المدارس الفلسفية التى ألهمت وقتاً ما إنشاء الدول العالمية .

وأما البروليتاريات الداخلية ، فعن طريقها نشأت الأديان السامية التى تطورت إلى عقائد دينية عالمية .

وتولدت عن البروليتاريات الخارجية : عصور البطولة ، التى تنبعث عنها الملاحم الشعرية .

وتتولى الدول العالمية والأديان العالمية وعصور البطولة ، ربط الحضارات بعضها إلى البعض الآخر . وهذا ما يبحثه الأستاذ توينبى فى هذا الجزء من الدراسة .

ثم ينتقل من هذا البحث إلى دراسة الاتصال بين الحضارات فى المكان . فالحضارات تتلاقى وتتصادم ويؤثر بعضها فى البعض الآخر . ويتناول الجزء الحالى من الدراسة بحث التلاقى والتصادم بين الحضارة الغربية من ناحية

وكل من : روسيا ، الإمبراطورية العثمانية ، الهند ، الصين واليابان ، العالم الإسلامى ، اليهود ؛ من الناحية الأخرى .

ثم يلقى المؤلف بعد ذلك نظرة على الاتصالات التى جرت بين حضارات الجيل الأول : السندية ، الصينية ، المصرية ، السومرية .

ويطيب لى أن أزجى خالص الشكر والتقدير إلى الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم أستاذ التاريخ الحديث وعميد كلية آداب عين شمس على تفضله باستكمال مراجعة هذا الجزء . ولقد كانت لإرشاداته القيمة وتوجيهاته السديدة أثر عظيم فى استكمال ترجمة هذه الدراسة التاريخية الفلسفية ، بعد وفاة الأستاذ المؤرخ الكبير محمد شفيق غربال رحمه الله الذى تولى مراجعة الجزءين الأول والثانى وبعض فصول هذا الجزء .

والله تعالى أسأله التوفيق والسداد .

القاهرة فى ١٤ يوليه ١٩٦٤ — فؤاد محمد شبل

الباب السادس

الدول العالمية



الفصل الثالث والعشرون

غايات أم ذرائع ؟

انحصرت نقطة بداية هذا الكتاب ؛ فى البحث عن ميادين للدراسة التاريخية ؛ قابلة للفهم بذاتها ، فى نطاق حدودها المكانية والزمنية المعيّنة ؛ وذلك مع إغفال الإشارة إلى الوقائع التاريخية الدخيلة .

وقادنا البحث عن هذه الوحدات المستقلة بذواتها ؛ إلى العثور عليها فى مجتمعات من الأنواع التى دعوناها بـ « الحضارات » :

وما برحنا نعمل وفقاً للافتراض القائل بأن الدراسة المقارنة لمبادئ الواحد والعشرين حضارة التى وفّقنا فى إثبات شخصيتها ، وفى بحث ارتقائها وانهيارها وتحللها ؛ تضم بين طياتها كل شىء ذى مغزى فى التاريخ البشرى ؛ منذ أن انبعثت الحضارات الأولى إلى الوجود من بين ثنايا المجتمعات البدائية . على أننا قد عثرنا ، بين الفينة والفينة ، على دلائل تُنبي بأن مفتاحنا الرئيسى الأول ، قد لا يكفى لفتح جميع تلك الأبواب التى علينا اجتيازها لبلوغ نهاية رحلتنا الذهنية .

وفى غضون مرحلة إثبات شخصية اكبر قدر ممكن من الحضارت التى تبين وجودها ؛ ألفينا — فى بداية البحث — أن بعضها يتصل بالبعض الآخر فى وضع دعوناه بـ « الأبوّة والبنوة » . ووجدنا كذلك ؛ أدلة هذه العلاقة فى طائفة من المظاهر الاجتماعية المميزة تتمثل فى :

أقلية سيطرة — بروليتاريا داخلية — بروليتاريا خارجية :

وينشق المجتمع الثابت النسب فى سياق مرحلة تحلله إلى تلك المظاهر :

وظاهر أن الأقليات المسيطرة ، هى التى أنجبت الفلسفات التى ألهمت إنشاء الدول العالمية وقتا ما :

ونشأت عن البروليتاريات الداخلية ، الأديان السامية التى رنت إلى التطور إلى عقائد دينية عالمية .

وتولّدت عن البروليتاريات الخارجية ؛ عصور البطولة التى هى ملاحم عصابات الحرب من المتبربرين .

وظاهر أن هذه المراحل والنظم تؤلّف بوجه الإجمال رباط الأبوة والبنوة بين حضارتين :

وليس هذا الرباط بين حضارتين غير معاصرتين (فى قياس الزمن) ؛ هو نوع العلاقة الوحيدة بين الحضارات التى تُضفى عليها من ضَوئها ، الدراسة المقارنة للدول العالمية والأديان العالمية وعصور البطولة . ذلك لأن قوام هذه الشظايا ، عناصر دخيلة تناثرت عن حضارات أخرى تُعاصر الحضارات التى انهارت ثم تحللت . فكان أن توافرت لها حرية الامتزاج بها ، اجتماعياً وثقافياً . ويُنبئنا التاريخ أن بعض الدول العالمية ، ثمرة جهد أجانب من بناة الامبراطوريات ؛ وأن بعض الأديان السامية قد بثّت فيها الحياة ، إلهامات أجنبية الأصل ؛ وأن بعض عصابات الحرب من المتبربرين ، قد تشرّب صبغة من ثقافة دخيلة عليه .

وهكذا ؛ تتولّى الدول والأديان العالمية وعصور البطولة ، ربط الحضارات بعضها إلى البعض الآخر ؛ سواء المعاصرة لها أم غير المعاصرة : ويُثير هذا سؤالا مداره فيما إن كنا مُحقّين فى بحث مظاهر فرعية ترتبت عن تحلل إحدى الحضارات ؛ أفلا يجدر بنا السعى لدراستها ، الدراسة التى تستحقها ؟

ولن نتأكد من استيعابنا تاريخ البشرية بأسره (بعد مرحلتها البدائية) ، إلا ببحثنا الشروط اللازمة لكل نوع من النظم الثلاثة ليُصبح ميداناً للدراسة قابلا للفهم بذاته . وأن نأخذ فى الحسبان كذلك ؛ البديل القائل بأنها تكوّن أجزاءاً من كُلٍّ أعظم ، يضمّها بين طياته هى والحضارات على السواء ؛

ولقد اقتضى منا ذلك البحث ؛ تكريس نهاية الباب الخامس من هذه الدراسة ، وسنبرئ ذمتنا منه فى الأبواب السادس والسابع والثامن ؛

على أننا سنعنى فى الوقت الحاضر ؛ بدراسة موضوع الدول العالمية ؛ وعسانا نبدأ بالتساؤل فيما إذا كانت غايات أم ذرائع لتحقيق شيء أعلى منها . ولعل خير سبيل لمعالجة الموضوع ، تذكير أنفسنا بطائفة من المظاهر البارزة للدول العلمية ؛ وهى مظاهر سبق أن تأكّدنا منها فعلا :

المظهر الأول – تنبعث الدول العالمية بعد انهيار الحضارة ، لا قبله ؛ وتتولى هذه الدول تحقيق الوحدة السياسية لكيان الحضارة الاجتماعى ؛ ولا يعتبر قيامها صيفا حقيقياً ، لكنه « صيف هنـدى »[1] يُخفى وراءه الخريف ويُنذر بالشتاء .

المظهر الثانى – تنبعث الدول العالمية عن الأقليات المسيطرة . وهى أقليات فقدت طاقتها الابداعية السابقة . وهذه السلبية ؛ هى دمغة سلطانها الأساسية ؛ وهى الوضع الرئيسى لقيامها ، والمحافظة على كيانها .

المظهر الثالث – يعتبر انبعاث الدول العالمية . تعبيراً (وهو هنا تعبير واضح) عن « لمّ الشعث » ، إبان عملية التحلل التى تمارس فعلها فى صورة خفقات من « كسرة ونهضة ثم كسرة[2] . وتسترعى هذه الظاهرة الأخيرة بالذات . مُخيلة المرء وتستثير امتنان الجيل الذى يعيش ليرى تشييداً موفّقاً لدولة عالمية ؛ تضع حدا لعصر اضطرابات .

فإن أخذت هذه المظاهر معاً ؛ تعرض صورة للدول العالمية تبدو للوهلة الأولى مبهمة . فبينما هى ظواهر تحلل اجتماعى ؛ إذا بها فى نفس الوقت

---

(١) الصيف الهندى : صيف يأتى فى غير وقته ، فهو صيف كاذب ، إذ ينشئ الهند فى الخريف ثم يعقبه الشتاء . (المترجم)

(٢) راجع تفصيل ذلك الفصل الحادى والعشرين « إيقاع التحلل » الوارد بالجزء الثانى من هذه الدراسة . (المترجم)

محاولات لكبح جماح هذا التحلل ومناوأته . وما تشبث الدول العالمية بأسباب الحياة بعد تشييدها ، إلا واحدا من أهم سماتها الظاهرة . لكن يدفعنا هذا إلى الظن بأنه من أسباب حيويتها ، بل إنه ظاهرة لامتداد الأجل العنيد ، لعجوز يأبى أن يموت :

وحقا ، تُبدى الدول العالمية ميلا إلى اعتبار نفسها غايات فى حد ذاتها ، فى حين أنها تمثل فى حقيقة الأمر ، مرحلة من مراحل عملية التحلل ؛ فإن كان لها مزية خلاف ذلك ، فلقد تصبح ذريعة لهدف معين ، بعيداً عنها وأعلى منها ه

الفصل الرابع والعشرون

سراب الخلود

إذا ما تطلعنا إلى هذه الدول العالميــة من خلال أنظار مواطنيها ، لا باعتبارنا مراقبين أجانب ؛ سنجد أن هؤلاء المواطنين لا يتمنون الحياة الدائمة لدولهم الجامعة فحسب ، بل أنهم ليؤمنون بكفالة خلود هذه النظم التي صاغها البشر . بيد أن المراقب ، إذ يتطلع إليها من خلال الأحداث المعاصرة الرهيبة التي تتبدّى في صور مختلفة ، سواء في الزمان أو في المكان ؛ يستشف بكل تأكيد ، أن هذه الدول العالمية موضع بحثه ، تلفظ آخر أنفاسها ، في تلك اللحظة بالذات .

ولعل المراقب على حق في تساؤله عن السبب الذي يدفع مواطني دولة عالمية ، إلى اعتبارها « أرض الميعاد »[1] ، وأنها هدف الجهود البشرية ، ولا يعتبرونها مجرد ملاذ في فلاة الإنسانية . وهم يتحدّون بذلك حقائق الحياة ، وهي حقائق ظاهرة الوضوح . بيد أن ثمة تحفظاً في هذا القول مبناه أن عاطفة مواطني الدول العالمية ، تجاهها تقتصر على الدولة العالمية التي يُقيمها بناة إمبراطورية وطنيون ، وما كان أحد الهنود ــ مثلا ــ ليرجو أو يتنبأ بخلود سلطان الإنجليز في الهند .

ومصداقاً لهذا الرأي ؛ يؤكد في إيمان صادق الجيل الذي عاصر السلام الأوغسطي في تاريخ الإمبراطورية الرومانية وهي دولة الحضارة الهلينية العالمية ؛ أن الخلود قد كتب للإمبراطورية ولمدينة روما التي شيدتها : من

---

(١) أي الغاية المرتجاة . (المترجم)

ذلك أن تيبوليس Tibullus[1] يتغنى بـ « أسوار المدينة الخالدة » . ويتكلم فيرجيل[2] على لسان بطله إيوبيتر Iuppiter عن الورثة الرومانيين لعصر الآينياس Aeneas فيقول « إنى أمنحهم إمبراطورية لا نهاية لها » . ويكتب ليفى بنفس روح التأكيد عن « المدينة التى أنشئت لتخلد » .

ولقد تشكك هوراس Horace[3] فى خلود أشعاره الغنائية . إذ جعل من تكرار الدورة السنوية لطقوس الدولة الرومانية الدينية ، مقياسه التقديرى للخلود : إلا أن أشعاره الغنائية ما تزال باقية على شفاه الناس ، أما عن بقائها خالدة ، فهذا ما يمكن التأكد من قوله : إذ يقل فى الأزمنة الحديثة بشكل محزن ، عدد أولئك الذين يقتبسونها ؛ قلة تعزى إلى ما طرأ على أساليب التعليم من تغيرات : وأيا ما تكون الحال ؛ فقد عاشت أشعار هوراس الغنائية فترة تعدل أربعة أوخمسة أمثال حياة الطقوس الدينية الوثنية الرومانية ، التى تمنى أن تخلد أشعاره خلودها :

وبعد انقضاء أكثر من أربعمائة سنة من عصرى هوراس وفرجيل (أى بعد نهب الزعيم القوطى الآريك Alaric روما مما أنذر بنهايتها) ؛ نجد روتيليوس ناماتيانوس Rutiluis Namatianus شاعر بلاد الغال ، يؤكد متحدياً ، خلود روما : ونجد بالمثل ، القديس جيروم إبان اعتزاله بمدينة

---

(١) تيبوليس (حوالى ٥٤ – ق . م) : شاعر رومانى يمتاز شعره بالرقة والوضوح (المترجم)

(٢) فيرجيل : شاعر رومانى (٧٠ - ١٩ ق . م) ويقال إنه تلقى تعليمه عن سيرون الأبيقورى . وأهم أعماله Georics وتمتاز بأصالتها . ويتلوها الآيناد Aeinad ، وفيها تغنى بأمجاد روما وبطلها أيوبيتر . (المترجم)

(٣) هوراس (٦٥ – ٨ ق . م) . شاعر رومانى . ولقد انضم فى شبابه إلى قوات بروتوس خصم أوكتافيوس وأنطونيوس . واشترك فى موقعة فيلبى التى خسرها بروتوس . على أن فيرجيل استطاع تقديم هوراس إلى أصحاب النفوذ فأمكن تعيينه شاعر البلاط . وقد خلف هوراس مجموعة ضخمة من الأشعار أهمها أشعاره الغنائية . (المترجم)

القدس ، يتوقف عن أبحاثه الكهنوتية ليعبر عن حزنه لمصير روما ، فى لغة تكاد أن تماثل لغة روتيليوس .

فهاهنا الموظف الرسمى الرومانى يشترك مع القديس المسيحى فى رد فعل عاطفى تجاه حدث لم يكن ، وفقاً لتفكيرنا الحاضر ، ثمة بد من وقوعه .

وإن الصدمة التى أحدثها سقوط روما عام ٤١٠ ميلادية فى نفوس رعايا دولتها العالمية ، الذين توهموا أبدية وجودها ؛ لتماثل الصدمة التى حلت برعايا الخلافة العباسية ، وقتما سقطت بغداد عام ١٢٥٨ فى أيدى المغول . وإذا كانت الصدمة الأولى قد أحس بها العالم الرومانى من فلسطين إلى بلاد الغال ، فقد شعر بهول الصدمة الثانية ، العالم العربى من فرغانة إلى الأندلس . بل إن عنف تأثير الصدمة السيكلوجى ، كان أقوى فى حالة العرب منه فى حالة الرومان . ذلك لأن سيادة الخلافة العباسية ، كانت عديمة التأثير ، قبل أن يوجه هولاكو ضربته القاضية بثلاثة أو أربعة قرون ، إلى القسم الأعظم من أملاكها التى كانت تبسط عليها سلطانها رسمياً .

وغالباً ما يُغرى هذه الهالة من الخلود الخادع الذى يكسو الدول العالمية ، زعماء من البرابرة أشد فطنة ، وقت شروعهم فى توزيع أسلابهم فيما بينهم ، على الانقياد لوهم الدولة العالمية الخالدة ، انقياداً أعمى . ويطالعنا فى هذا الصدد ، سعى زعماء أسرة آمالنج Amalung من آريى القوط الشرقيين ، وزعماء أسرة بنى بويه من الديلم وكانوا من الشيعة ، إلى إحراز صك ملكية فتوحاتهم بالادعاء بأنهم إنما يحكمونها نيابة عن إمبراطور القسطنطينية وخليفة بغداد ، على التوالى ، بيد أن هذا الإجراء الحصيف ، لم يعصم العصابات الحربية ، من التردى فى نفس مصير الدولتين العالميتين اللتين ناءتا تحت أثقال الشيخوخة : ويعزى هذا ، إلى استمساك تلك العصابات ، بعقائد دينية منحرفة ، فى نظر الكثرة .

إلا أن ثمة عصابات أخرى ؛ وفقت فى استخدام نفس المناورة السياسية توفيقاً باهراً ، يرجع إلى فطنتها (أو حسن طالعها) التى جنبتها انحراف عقائدها الدينية . مثال ذلك ، أن كلوفيس ملك الفرنجة (ويعتبر أعظم مؤسس الدول البربرية التى خلفت الإمبراطورية الرومانية توفيقاً) قد أتبع اعتناقه الكاثوليكية ، بإحرازه لقب نائب القنصل مع شعارات المنصب من أناستاسيوس Anastasius إمبراطور القسطنطينية النائية عنه . ويشهد على نجاحه : إطلاق اسم لويس وليو وهما صورة مرققة من اسمه (كلوفيس) على ثمانية عشر ملكاً حملوا فى الأجيال التالية اسم لويس ، وحكموا الأرض التى غزاها ؛

وتبدى الامبراطورية العثمانية نفس مظاهر الخلود الخداع ؛ فى الوقت الذى انحدرت منزلتها إلى « رجل أوروبا المريض » . والامبراطورية العثمانية ـ كما قدمنا فى موضع مبكر من هذه الدراسة ـ هى الدولة العالمية للحضارة البيزنطية . وهنا نجد قادة الحرب الطموحين من أمثال محمد على فى مصر وسوريا ، وعلى باشا فى يانينا (فى ألبانيا) ، وباش فانوجلو فى فيدين وحاكم الركن الشمالى الغربى للروملى ؛ يقتطعون بجدهم دولا خلفت الامبراطورية العثمانية . لكن ؛ دأب هؤلاء المغامرون على أن ينفذوا باسم الباديشاه ، تحقيقاً لأطماعهم الخاصة ، جميع الأعمال الضارة بمصالح الباديشاه نفسه . وسارت الدول الغربية على منوالهم مع الباب العالى . من ذلك أن بريطانيا ظلت تدير باسم السلطان فى الأستانة : قبرص ابتداء من من عام ١٨٧٨ ومصر منذ عام ١٨٨٢ ؛ إلى أن ألفت نفسها عام ١٩١٤ تحارب تركيا .

ويسفر تاريخ الدولة المغولية للحضارة الهندية عن نفس المظاهر . فان الدولة التى كانت تمارس سلطانها الفعلى على الجانب الأكبر من شبه القارة الهندية ؛ قد ضؤلت بعد انقضاء خمسين سنة من وفاة الامبراطور أورنجزيب عام

١٩٠٧ ، إلى كيان يمتد ٢٥٠ ميلا طولا ومائدة ميل عرضاً . ثم تناقص بعد انقضاء خمسين سنة أخرى ، إلى دائرة أسوار القلعة الحمراء فى دلهى. بيد أنه بعـــد انقضاء ١٥٠ سنة من عام ١٧٠٧ ، كان ثمة سليل لأكبر وأورنجزيب ، ما يزال يعتقد عرشهما . ولربما قيّض له البقاء مدة أطول من ذلك ، لولا أن ثوار ١٨٥٧ قد أرغموا هذا الألعوبة المسكين — ضد رغبته — على منح بركته لثورتهم ، ضد سلطان آخر[١] قدم من وراء البحار بعد فترة من الفوضى عانتها البلاد ؛ ونصب نفسه مكان سلطان المغول الذى انهار منذ زمن طويل ، والذى كان هذا الامبراطور رمزاً له .

وثمة بيّنة عن التشبث بالإيمان بخلود الدول العالمية ، أجدر من ذلك بالاعتبار . وتتجلى فى تجربة ابتعاث أشباح تلك الدول ،بعد ما يتبين انقضاء أجلها . ويطالعنا فى هذا المقال أمثلة عدة نسوق منها ما يلى :

إقامة خلافة بغداد العباسية فى القاهرة ؛ استعادة الامبراطورية الرومانية الشرقية للمسيحية الأرثوذكسية ؛ استعادة إمبراطورية أسرتى تسين وهان فى حضارة الشرق الأقصى ، فى صورة امبراطورية سيوى وتانج .

ولقد خلع مؤسس الامبراطورية الرومانية على نفسه لقب « قيصر » . أما لقب « الخليفة » ، فإنه انتقل إلى القاهرة ومنها إلى الأستانة ؛ حيث ظل هناك ردحا من الوقت ؛ حتى ألغاه فى القرن العشرين ، الثوار الأتراك المتغرّبون[٢] .

وتلك هى مجرد أمثلة من فيض الأحداث التاريخية التى تصوّر ثبات الاعتقاد فى خلود الدول العالمية . رغماً عن منافاته لحقائق الحياة القلسية .

فما هى أسباب هذه الظاهرة الغريبة ؟

---

(١) أى الإنجليز . (المترجم) .

(٢) أى من اصطبغوا بالصبغة الغربية . (المترجم)

مناط السبب الظاهر ؛ قوة التأثير الذى يحدثه منشئو الدول العالمية وحكامها العظام. تأثير يسرى منهم إلى أعقاب واعية ، ويحمل بين ثناياه تضخيم الحقيقة المجردة ، وتحويرها إلى أسطورة شاملة .

وثمة سبب آخر يكمُن فى تأثير النظام نفسه ، بصرف النظر عن حكامه العظام . فإن الدولة العالمية تأسر القلوب والعقول ، بفضل تجسيمها فكرة « لمّ شعث الشعب » بعد انقضاء فترة طويلة من « الكسرة » ، إبان عصر اضطرابات . ومن خلال هذه النظرة ، فازت الإمبراطورية الرومانية فى نهاية المطاف ، بإعجاب أدباء اليونانيين ، خصومها بالاصالة . أولئك الذين كتبوا فى عصر الأنطونيين ؛ الذى حكم عليه جيبون بعد انقضائه بزمن طويل ، بأنه الفترة التى أدرك فيها الجنس البشرى أعلى مراتب الهناءة .

وفى هذا يقول المؤرخ آريستيديسن : « لا أمل فى استقلال غير مصحوب بقوّة . إن وضع الإنسان نفسه تحت حكم من هو أقوى منه ؛ يعتبر بديلا أقل من الاستقلال . لكنه يفضل غيره إطلاقا ، مصداقا لبحثنا — الحاضر عن الامبراطورية الرومانية . إن هذه التجربة ، قد دفعت العالم للالتحاق بروما بالباع والذراع . وما عاد أحد يفكّر فى الانفصال عن روما ، إلا بمقدار ما يفكر بحارة سفينة فى التخلى عن صُحبة ربانها . لا بدوأنك قد شاهدت خفافيش يلتصق أحدها بالآخر وتحكم جميعها تماسكها بالصخور . ذلك هو مدى اعتماد العالم بأسره على روما ؛ ويستجمع القلق اليوم فى كل قلب ، خشية انتزاعه من العنقود . وتثير فكرة تخلّى روما عن العالم ، الهلع ، حتى أنها تصدّ أية فكرة طائشة عن التخلىّ عنها . ان ثمة نهاية لتلك المنازعات حول السيادة والاعتبار ، وهى أسباب اندلاع جميع الحروب الماضية . وعلى حين أن بعض الأمم — مثله مثل الماء المتدفق هادئا — أصبح يهنأ بالهدوء أو ينعم بتحرره من الكدّ والقلق ، قد أدرك أخيراً بطلان مجاهداته القديمة ؛ فإن ثمة أمما أخرى بلغت الحال بها أنها عدت لا تدرك أو تتذكر هل سبق لها تسنم كرسى الحكم مستقلة . وفى

الواقع ، فإننا نشهد زاوية جديدة من أسطورة بامفيليا Pamphylia »[١] .

« وفى اللحظة التى كانت فيها أحداث دول العالم تُعرض بالفعل لتحرق على أكوام الحطب – بفعل صراعها مع بعضها بعضاً – وأتاها جميعها سلطان روما ، فكان أن بثّ فيها الحياة توا . فكيف وصل بها الحال إلى هذا المآل . إنها لا تدرى بسبب جهلها المطبق ، إلا أن فى قدرتها أن تعجب من هناءتها التى أصبحت تنعم بها . إنها كالنيام المستيقظين الذى أفاقوا لأنفسهم فأخذوا يطردون عن أفكارهم ، الأحلام التى كانت تلازمهم منذ لحظة واحدة فقط . لم تعد تلك الدول تصدّق بوجود شىء أسمه الحروب . . . أصبح العالم المسكون بأسره يتمتع براحة أبدية . . . وهكذا فإن الشعب الوحيد الذى ما يزال يستحق الشفقة لحرمانه من الأشياء الطيبة ، هو الشعب الذى يُقيم خارج حدود إمبراطوريتك إن كان هناك شىء خارجا عنها »[٢] .

ويستوقف نظرنا ؛ تساؤل الكاتب عن حقيقة وجود أى شىء يستحق الذكر خارج نطاق الإمبراطورية الرومانية ، وهذا ما يبرر إطلاقنا أسم « الدول العالمية » على تلك النظم الشبيهة بالإمبراطورية الرومانية . وأنها لعالمية ، لا بسبب اتساعها الجغرافى فحسب ، ولكن بفعل تأثيرها السيكلوجى فى نفوس الناس . إذ ينصحنا هوراس فى أشعاره الغنائية – مثلا – بأن لا نقيم وزنا لتهديدات تيريداتس Tiridates ملك بارثيا Parthia[٣] ،

---

(١) بامفيليا : قطر قديم كان يقع فى الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى . وكان فى بداية أمره جزءاً من الإمبراطورية الفارسية . ثم امتلكته مقدونيا ثم سوريا ثم روما ثم العرب وأخيراً تركيا . وهو الآن إقليم أطنة . ويعنى الأستاذ المؤلف بهذا التعبير ،أسطورة غير قابلة للتصديق، ولعلها أسطورة من ابتداع أفلاطون نفسه . (المترجم) .

(٢) Aristeides, P. Aelius (A. D. 117-84 : In Roman)

(٣) بارثيا Parthia : قطر فى آسيا الغربية كان يقع جنوب شرق بحر قزوين . ومكانه الآن فى القسم الشمالى من مقاطعة خراسان الإيرانية . وقد كونت بارثيا لنفسها منذ عام ٢٥٠ ق . م امبراطورية شمل سلطانها الفراتين وبحر قزوين ونهر السند ، ووصل نفوذها إلى المحيط الهندى . وأخيراً انتهى بها المطاف إلى وقوعها منذ عام ٢٢٦ م تحت سلطان مملكة فارس . (المترجم) .

وهو لا يهتم لها وإن كانت قائمة بالفعل . وعلى غرار هذه الفكرة ، افترض الأباطرة المانشوكيون لدولة الشرق الأقصى العالميـــة فى معاملاتهم الدبلوماسية ، أن جميع الحكومات ــ بما فى ذلك حكومات العالم الغربى ــ قد حصلت من السلطات الصينية فى فترة ماضية غير معروفة ، على التصريح بالبقاء فى العالم .

على أن واقع هذه الدول العالمية ؛ يختلف كل الاختلاف عن التصوير البديع الذى رسمه آليوس أرستديديس Aelius Aristeides وغيره من مادحيها فى مختلف العصور وفى شتى الأجواء . ويطالعنا فى هذا المقام قصة ابتكرتها عبقرية الأساطير الهلينية عن ملك أثيوبى (ولا يخفى أن الحدود النوبية هى حدود الإمبراطورية العالمية المصرية الجنوبية) ، أحبته لسوء حظه الربة إوس Eôs ربة الفجر الخالدة . فكان أن تضرعت الربة إلى رفاقها من أرباب الأوليمب[١] ، أن يمنحوا حبيبها البشرى الخلود الذى تحظى به هى ونظراؤها من الأرباب . ورغماً عن غيرتهم على امتيازاتهم الإلهية ، فإنهم رضخوا لرجائها أخيراً تحت إلحاحها الأنثوى . على أنه شوّه هذه المنحة التى انبعثت عن نفس حقوده ؛ شوهها صدع مميت : إذ نسيت الربة فى غمار حماسها ، اقتران خلود أرباب الأوليمب بشباب مُقيم ؛ ولم يغن الأرباب الحقودون إلا بإجابتها إلى رجائها المجرد . وأسفر الأمر عن نتيجة ساخرة ومفجعة . إذ انقضت أيام الزواج الرغيدة فى طرفة عين من حياة أرباب الأوليمب . فوجدت إوس Eôs ورفيقها الخالد الذى بلغ من الكبر عتياً ، محكوماً عليهما بالخلود لينوحا معاً على ورطة الملك الأثيوبى المنحوس[٢] . فإن شيخوخة تصدف يد الموت الرحيمة عن وضع حد لها ،

---

(١) الأوليمب : جبل فى تساليا ، وتذكر الأساطير اليونانية أنه مقر الآلهة . (المترجم)

(٢) اسمه فى الأسطورة Tithonus . (المترجم)

لتعتبر محنة أخرى أن لا يترك الإنسان الفانى يكابدها ، وإن الحزن الأبدى لهو الهمّ الملازم الذى لا يدع مجالا لفكرة أخرى أو شعور .

وبالأحرى ؛ يرقى الخلود على هذه الدنيا ، لأى نفس بشرية أو نظام بشرى ، إلى مرتبة الاستشهاد ؛ حتى وإن لم يقترن بضعف الشيخوخة أو خرفها الذهنى .

وفى هذا المعنى ، كتب الإمبراطور الفيلسوف ماركوس أوريليوس (١٦١ — ٨٠ م) :

« يصدق القول بأن إنساناً بلغ الأربعين ويتمتع بذكاء معتدل ؛ فى وسعه أن يشاهد فى ضوء تجانس الطبيعة ، الماضى والحاضر بأسرهما » .

وإذا كان هذا التقدير لقدرة النفوس البشرية على ملاقاة المحنة ، يصدم القارئ ، لتصويره تلك القدرة مفرطة فى وضاعتها ؛ فلعل القارئ يعثر على السبب ، فى عصر ماركوس ، إذ لا يخفى أن « الصيف المندى » هو عصر الملل الثقيل .

وحقاً ؛ اقتضى « السلام الرومانى » ثمناً ، مصادرة الحرية الهلينية : وإنه وإن استأثرت الأقلية دائماً بتلك الحرية ، ورغماً عن نزوعها إلى الطغيان والاستهتار ؛ إلا أنه ظاهر بالقياس على الماضى ، أن ضراوة عصر الاضطرابات الأثينى فى ذروة ذيوع أسلوب شيشرون ، قد أمدت الخطباء الرومانيين بثروة من البحوث المثيرة الملهمة ؛ لو أطلع عليها نظراؤهم فى عصر الإمبراطور تراجان الذى اتسم بالدقة والزهو ، لصبوا عليه جام غضبهم واعتبروه عصر أهوال (لا كما ننظر نحن إلى عصرنا الحاضر على ما فيه) . ورغماً عن مظهر عصرهم هذا ، فإنهم يجهدون دواما فى بذل جهود شاقة لاستبدال حياتهم الطبيعية التلقائية بحياة مصطنعة متكلفة .

ولقد تصوّر أفلاطون إبان اهتمامه بالسعى غداة انهيار المجتمع الهلينى ، إلى

[تجنيبه سقوطاً آخر ؛ بتثبيته فى وضع شديد الصلابة[1] ، مثالية ثبات الثقافة المصرية . ولما شاهد آخر روّاد الأفلاطونية الجديدة ، الثقافة المصرية ما تزال حية ترزق ، بعد ألف سنة من هذا الرأى ، فى حين كانت الحضارة الهلينية تلفظ أنفاسها الأخيرة ؛ أشادوا بفكرة معلمهم المشهورة ، فى إعجاب مغيظ لا يشوبه تحفظ :

وحقاً ؛ عاشت الحضارة المصرية ، لترى مصرع الحضارات المعاصرة لها : المينووية والسومرية والسندية ، واخلاء مكانها لحضارات خلفتها تمت إلى جيل أحدث سناً . وانقضى أجل هذه بدورها تاركة مكانها لخلائف من جيل أصغر عمراً : وانتهى أجل بعض هذه الحضارات ، بينما ظلت الحضارة المصرية على قيد الحياة . ويعزى هذا إلى تشبث الدولة العالمية المصرية بالحياة ، واستعادتها إياها المرة بعد الأخرى ، بعد ما يوضع جسدها فى تابوت الموتى فى كل مرة . وأن فى مُكنة طلاب التاريخ المصرى ، ملاحظة ميلاد ووفاة الحضارات : السورية الأولى والحبشية والبابلية (فروع الحضارة السومرية) : وشاهدت الحضارة المصرية قيام وانهيار الحضارة السورية والحضارة الهلينية المتفـــرعة من الحضارة المينووية ؛ وما استطالة نهاية المجتمع المصرى أمدا لا يصدق ، إلا نتيجة عمل دورات متعاقبة كئيبة ، بذلتها طاقة ماردة أمدت هذا المجتمع الناعس بقوة أخّرت نهايته المقدّرة : وتوافرت له هذه النتيجة بفضل الضغط الذى تعرض له المجتمع المصرى من عدوان جماعات إجتماعية دخيلة .

ويطالعنا فى خاتمة تاريخ حضارة الشرق الأقصى فى الصين ، نفس ظاهرة الغيبوبة الاجتماعية التى دهمت المجتمع المصرى . إذ كان المغول قد

---

(١) تمثل سعى أفلاطون فى كتابه « الجمهورية » حيث رسم خطوط مجتمع فاضل ـ براجع كتاب المترجم (المدينة الفاضلة) . (المترجم)

اصطبغوا بثقافة مسيحية (مسيحية الشرق الأقصى)[1] . فلما فرضوا على الصين دولتهم العالمية ، استثارت صبغتهم الثقافية الدخيلة فى الصينيين ، رد فعل قاد إلى خلع سلطان المغول وإحلال دولة عالمية مكانه هى أسرة مينج ، وأمكن برابرة المانشو[2] ، سد الفراغ السياسى الذى ترتب عن انهيار أسرة مينج ، وكان تقبّلهم ثقافة مسيحية الشرق الأقصى ، أقل كثيراً من التزامهم أسلوب الحياة الصينية . إلا أن هذه الصبغة الثقافية الدخيلة – على ضعفها – كانت كفيلة بإثارة معارضة عامة فى صفوف الصينيين ، احتفظت بكيانها مستترة فى جنوب الصين على الأقل ، إلى أن اندلعت علنا مرة أخرى فى ثورة تايبينج Taiping عام ١٨٥٢ – ٦٤ . وكان من جراء تسلل المسيحية الحديثة فى أوائل عهدها – فى صورتها الكاثوليكية إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر – استفزاز الصينيين لطور الكاثوليكية من الصين خلال الربع الأول من القرن الثامن عشر . كما أن نسف أبواب الصين البحرية بين عامى ١٨٣٩ و ١٨٦١ لتدخل منها التجارة الغربية ، قد استثار ثورة البوكسر المعادية للغرب . وكان أن اقتلعت فى نهاية المطاف أسرة المانشو عن سلطانها[3] ، لسببين :

الأول استملكها بمنشأها الدخيل .

والثانى عجزها عن مجابهة سطوة التغلغل الغربى الهائل[4] .

وهكذا يتبين لنا : أن الحياة أكثر حدبا على البشرية من الأسطورة : فان حكم الخلود الذى ابتلت به الأساطير الملك الأثيوبى ، قد خففته

---

(١) ثقافة أوصلها الآباء النساطرة إلى منغوليا كما مر بنا القول فى موضع سابق من هذه الدراسة . (المترجم)

(٢) المانشو : سكان مانشوريا فى شمال شرق الصين . (المترجم)

(٣) وأعلنت الجمهورية الصينية بعد ذلك برئاسة الزعيم صن يات صن . (المترجم)

(٤) وتواصلت مقاومة الصين لهذا التدخل الغربى ، وتوجهت باستيلاء شيوعى الصين على أزمة الحكم . (المترجم)

الحياة ، على الدول العالمية : (ولذا كان لا مناص من موت رجل[١] ماركوس بعدما انقشعت عنه الأوهام — سواء فى الأربعين أو الخمسين أو الستين — فان دولة عالمية ترفس أشواك الموت المرة بعد الأخرى ، لا بد وأن تذوى وتذبل خلال تعاقب العصور : وهى فى هذا مثل عمود الملح الذى تذكر بعض الأساطير أنه جوهر إمرأة عاشت وقتا ما ثم تحجرت) .

---

(١) قال الإمبراطور ماركوس أوربليوس « يصدق القول بأن إنساناً بلغ الأربعين بذكاء معتدل ، فى وسعه أن يشاهد فى ضوء وحدة طبيعية ، الماضى والحاضر بأسرهما » .
(المترجم)

الفصل الخامس والعشرون

وهكذا تكدّ لغيرك

وهكذا تكد لغيرك ، انك أيها النحل لا تصنع العسل لنفسك فقط ! ![1]

يعبّر هذا الاستشهاد المتواضع (باستخدام تشبيه ساذج) عن موقف الدول العالمية المتناقض فى إطار التاريخ . وهذه النظم المهيبة ؛ هى آخر ما تقوم به الأقليات المسيطرة من أفعال ، فى الكيان الاجتماعى المتحلل ، للحضارات التى تكابد مرحلة الاحتضار :

وترنو الأقليات المسيطرة من وراء إقامة هذه النظم ؛ الابقاء على سلطانها فى المجتمع الذى ترتبط به أقدارها ، بفضل احتفاظها بطاقة نشاطها المبددة . وتعتبر إقامة الدول العالمية ، أثراً من الآثار العرضية للتحلل الاجتماعى . غير أنها تؤدى دوراً مرموقاً فى أفعال الإبداع الطريفة : وهى وإن أفادت الغير ، إلا أنها تفشل فى انتشال نفسها من النهاية المقدّرة :

وبالأحرى ؛ فإن الدولة العالمية ، وسيلة لانجاز رسالة ينتفع بها الغير ، فمن هم أولئك المنتفعون ؟

إن المرشحين للإنتفاع من وجود الدولة العالمية ، لا بد وأن يكونوا واحداً أو أكثر من : البروليتاريا الداخلية ؛ والبروليتاريا الخارجية للمجتمع المحتضر نفسه ؛ أو أية حضارة دخيلة تعاصر الدولة العالمية .

فإن قدّر للدولة العالمية خدمة البروليتاريا الداخلية ؛ فانها تبذل معاونتها لدين من الأديان العالمية ، يأخذ سبيله فى جوف البروليتاريا الداخلية - وفى

---

(١) Sic vos non vobis melificats apes

هذا يقول بوسويه Bossuet [1] « لقد ساهمت جميع الإمبراطوريات الكبرى التي قامت على الأرض – بوسائل شتى – فى شد أزر الدين وفى تمجيد الرب ، مصداقاً لما صرح به الرب نفسه لأنبيائه » .

١ – قدرة الدول العالمية على التوصيل

مناط واجبنا التالى : إجراء عرض تجريبى للخدمات التى أسدتها الدول العالمية قسراً ، والمنافع التى اجتنتها البروليتاريات الداخلية والبروليتاريات الخارجية والحضارات الدخيلة ، بفضل هذه التيسيرات . لكن علينا أن نعثر أولا على إجابة عن سؤال استهلالى هو :

كيف يستطيع نظام سلبى الطابع ، محافظ ، سلفى النزعة ، وهو بالفعل إيثارى الاتجاه فى جميع اتجاهاته ، أن يسدى لأى فرد خدمة من الخدمات ؟

وباستخدام الاصطلاحين الصينيين اللذين يعبّران عن إيقـاع الكون الموسيقى ؛ كيف انبثقت حركة اليانج الدافعة عن حالة الين ؟[2]

يتيسر إدراك ذلك بالطبع . فإن حدث أن ومضت طاقة إبداعية فى حمّى دولة عالمية ؛ فلن تتوافر فرصة الاضطرام لتصبح لهباً متأججاً ؛ إلا إن تعرّضت الطاقة الإبداعية ؛ إلى صدمة عصر الاضطرابات القاصفة . بيد أن هذه المنّة – على قيمتها – شىء سلبى .

فما هو مظهر الحالة الاجتماعية التى تبرز فى ظل سلطان الدولة العالمية ، والتى تعتبر الثمرة العليا التى تمنحها الدولة العالمية ، المنتفعين بها ؟

يطالعنا من قبيل المثال : عدم جدوى إحتواء النسيج المتخلّف عن

---

(١) بوسويه (١٦٢٧ – ١٧٠٤) : مطران فرنسى ، امتاز بمؤهلاته الدينية والتاريخية . ومن أشهرها : تاريخ فرنسا ، والسياسة المقدسة ، وتاريخ العالم ، واستعراض العقيدة الكاثوليكية . (المترجم)

(٢) الين حالة السكون ، واليانج ، حالة الحركة الدافعة . (المترجم)

مجتمع تهشم (ويقوم المجتمع فى نطاق الإطار السياسى لدولة عالمية) فى استعادة ما تلاشى من المجتمع بالفعل ؛ أو صد الانهيار (التدريجى) لما تبقى منه . انهيار يتم تدريجياً وينشأ عنه فراغ اجتماعى مكين هائل ، يُلزم الحكومة باتباع سياسة تجافى رغباتها ؛ بلجوئها إلى إستحداثات نظم شاذة ، راجية من ورائها سد هذا الفراغ الاجتماعى .

ويعرض التاريخ الإدارى للإمبراطورية الرومانية خلال القرنين اللذين تليا قيامها ؛ مثالا مألوفاً عن تواصل تدرج الفراغ ، إلى أن يصبح ثُلمة دائمة . فان مبدأ السلطة غير المباشرة ، هو جمَّاع الحكم الرومانى .

ذلك لأن الدولة العالمية الهلينية وفقاً لتفكير مؤسسيها الرومانيين ؛ مشاركة بين مدن تتمتع بالحكم الذاتى ، وتلحق بها فى المناطق التى لم تتمكن بها الثقافة السياسية الهلينية بعد ، مقاطعات مستقلة استقلالا ذاتياً . فأصبح عبء الإدارة يقع على عاتق هذه السلطات المحلية .

ولم تتجه الحكومة فى بداية الأمر إلى تعديل كيان الدولة الإدارى ، إلا أنه قد تعدل بالفعل فى ختام قرنين من « السلام الرومانى » . إذ استحالت المقاطعات التابعة إلى أقاليم ؛ وأصبحت الأقاليم نفسها ، أعضاء فى إدارة مركزية تهيمن عليها الحكومة مباشرة . ولما نضجت بمرور الوقت ؛ الموارد البشرية القائمة على إدارة الحكومة المحلية ، واجهت الحكومة المركزية قحطا فى الكفاية الإدارية طفق يشتد يوما عن آخر . فكان أن ألفت الحكومة نفسها مكرهة على إيداع مصائر المدن ذات الأستقلال الذاتى ، أيدى مديرين تعينهم هى . فضلا عن تعيين الامبراطور حكاما من قبله ، مكان الأمراء من أهالى البلاد المحكومة ، رغما عن ولائهم له .

وهكذا انتهى الأمر بانتقال إدارة الإمبراطورية بأسرها إلى أيدى طائفة بيروقراطية منظمة تنظيما طبقيا .

ولم تكن السلطات المركزية فى فرضها هذه التغيرات ، بأشد رغبة من

السلطات المحلية فى إجازتها ، فإن كليهما ضحية القوة القاهرة . ومع ذلك اتسمت النتائج بطابعها الثورى ، وقتما أضحت النظم الجديدة أدوات « توصيل » .

ولقد طالعنا فى موضع سابق من هذه الدراسة ، مظهران بارزان لعصر التحلل الاجتماعى يتمثلان فى : التبذل والشعور بالوحدة . وأنه وإن تباينت النزعتان السيكولوجيتان من وجهة النظر الذاتية ، لكنهما تُجمعان على إبراز نتيجة موضوعية متماثلة ، مدارها ما تهيؤه روح العصر الغالبة لهذه النظم الجديدة التى أبرزتها الدول العالمية تحت ضغط ظروف خاصة[١] ، من قدرة على « التوصيل » تستمدها من محيطها السيكولوجى البشرى . وتقارن من ناحية قدرتها ، بمقدرة « التوصيل » التى يستمدها المحيط التابع أو السهب الأرضى ، من الطبيعة العادية .

ولقد سبق للكاتب اليونانى الآنف الذكر آليوس آريستيدس أن كتب « إن روما تضم إلى أحضانها جميع شعوب الأرض . فهى كالأرض تحمل على ظهرها البشر جميعاً ، ومثل الأنهار تلتقى بالبحر » . كما سبق لمؤلف هذه الدراسة ، استخدام هذه الاستعارة قبل أن يطلع على كتاب آريستيديس :

« فى وسع الكاتب أن يعبر خير تعبير عن إحساسه الشخصى تجاه الإمبراطورية[٢] ، باستخدام تشبيه : ان الإمبراطورية كالبحر المستدير ، ينتظم حول شواطئه عقد من المدن . ولقد يبدو الأبيض المتوسط لأول وهلة بديلا هزيلا للأنهار التى تكونت المدن حول شطآنها . إذ تحفل بالحيوية مياه الأنهار سواء أكانت صافية أم طينية ، فى حين تظهر مياه البحار مالحة ساكنة ميتة . لكن ، ما إن ندرس البحر ، حتى نجد فيه كذلك الحركة والحياة . فإن ثمة تيارات هادئة تدور على الدوام من جانب من البحر إلى آخر ، كما لا يفقد سطح البحر مياهه المتبخرة ، لأنها تسقط فى الواقع بعد

---

(١) فى الأصل : وجدت لتسد خانة . (المترجم)

(٢) يقصد الدكتور توينبى الامبراطورية الرومانية . (المترجم)

زوال ملوحتها فى أماكن قصية وفى فصول أخرى ، مطراً عذباً زلالا ؛ وكلما سحبت السحاب مياه السطح هذه ، تحل مكانها طبقات المياه الأوطأ ، ترد الى السطح من الأعماق . وإن البحر نفسه فى حركة دائمة خلاقة غير أن تأثير هذا الجرم العظيم من المياه ، يمتد أبعد من شواطئه كثيراً . ان المرء يجده فى جوف القارات القصى ، وبين شعوب لم تسمع باسمه قط ؛ يلطف من حدة الحرارة المتطرفة ، ويعجل بالإنبات ، وييسر حياة الانسان والحيوان[١] ؛

أما بالنسبة للحركات الاجتماعية التى تتخذ سبيلها عن طريق أداة موصلة انبعثت عن دولة عالمية ؛ فانها تتجلى فى الواقع فى وضعين ؛ أحدهما أفقى والآخر رأسى :

فمن أمثلة الحركة الأفقية ؛ دورة الأعشاب الطبية فى الإمبراطورية الرومانية ، وفقا لشهادة « بلينى الكبير » فى كتابه « التاريخ الطبيعى » . وانتشار استخدام الورق من طرف الخلافة العربية الشرقى إلى طرفها الغربى . ففى عام ٧٥١ م انتقل استعمال الورق من الصين إلى سمرقند ، وانتشر إلى بغداد عام ٧٩٣ م والى القاهرة عام ٩٠٠ والى فاس قرب المحيط الأطلسى حوالى عام ١١٠٠ م ، ومنها عام ١١٥٠ الى جاتيفا[٢] فى شبه جزيرة أيبريا ؛

وتتسم التحركات الرأسية فى بعض الأحيان بكونها أكثر مراوغة ، لكنها أكثر من التحركات الأفقية أهمية من ناحية تأثيراتها الاجتماعية : وهذا ما نلاحظه من تاريخ اليابان إبان سيطرة أسرة توكوجاوا على البلاد . فان نظام أسرة توكوجاوا[٣] قد رنا الى عزل اليابان عن بقية العالم . ونجح فعلا

---

(١) صفحة ٣٢٠ Toynbee, A.J., In the Legacy of Greece (Oxford 1922 Clarendon Press)

(٢) جاتيفا (أى شاطبة) عاصمة مقاطعة بلنسيه بإسبانيا . (المترجم)

(٣) أسرة توكوجاوا : استأثرت بحكم اليابان دون أباطرتها ، وكان الحاكم منها يلقب بـ « الشوجن » ثم انتهى أمرها بعد ثورة نبلاء البلاد عليها فأزاحوها عن الحكم ومكنوا الامبراطور ميجى عام ١٨٥٦ من ممارسة سلطانه . (المترجم)

طوال قرنين فى الاحتفاظ بهذا الوضع الفريد . إلا أنه ألفى نفسه عاجزاً عن صد تيار التغير الاجتماعى داخل إمبراطورية يابانية منعزلة ، رغماً عن الجهود التى بُذلت فى سبيل إحالة النظام الإقطاعى المتحجر الذى ورثته اليابان عن « عصر الاضطرابات » السابق ، إلى ناموس دائم .

« فإن تطرّق الاقتصاد النقدى إلى حياة اليابان . . قد أحدث ثورة بطيئة ، لكن لا تقاوم ، بلغت ذروتها فى انهيـــار الحكومة الإقطاعية واستئناف التعاون مع البلاد الأجنبية ، بعد انقضاء أكثر من مائتى سنة من العزلة . إن أبواب اليابان لم تفتح تحت ضغط الخارج ، لكنها فتحت تحت تأثير الانفجار الداخلى . . وكان فى طليعة القوى الاقتصادية ، زيادة ثروة سكان المدن ، زيادة تمت على حساب طبقتى الساموراى[1] والفلاحين . ؛ إذ دأب الحكام[2] وأتباعهم على إنفاق أموالهم على اقتناء السلع الترفية التى ينتجها الصناع ويبيعها التجار . حتى أنه ليقال أنه لم يأت عام ١٧٠٠ م حتى انتقلت ملكية الذهب والفضة جميعها تقريبا إلى أيدى سكان المدن . وعندئذ أخذ الحكام يشترون السلع نسيئة ، ولم يمض وقت طويل حتى غرقوا فى ديون أقرضتهم إياها طبقة التجار . فكان أن اضطروا إلى رهن أملاكهم أو بيعها جبراً . . . فحلت بهم النكبات والفضائح الجسيمة . وسعى التجار من ناحيتهم الى الاشتغال بالسمسرة فى تجارة الأرز ثم الى المضاربة على أسعاره . . ولم يستفد فى ظل هذه الظروف سوى أعضاء طبقة واحدة ، بل لم يستفيدوا منها جميعاً . هؤلاء هم التجار — سيما السماسرة والمقرضون — المكروهون الذين عرفوا وقتذاك باسم الـ « الشونين Chonin » أى سكان المدن ، الذين كان فى وسع آى سياف (ساموراى) — نظرياً — أن يقتل أى فرد منهم إن وجه اليه كلمة نابية . ولقد لبث مركزهم الاجتماعى

(١) الساموراى . أى حملة السيوف . (المترجم)

(٢) فى الأصل Daimyo وهى كلمة يابانية تعنى الحكام الإراديين . (المترجم)

منحطاً ، لكن عمرت جيوبهم بالأموال ، فأصبحت لهم — من ثم — السيادة ؛ ولم يأت عام ١٧٠٠ حتى أصبحوا بالفعل من أقوى عناصر الدولة المقدامة بينما طفقت الطائفة العسكرية تفقد نفوذها[1] .

فإذا نظرنا إلى عام ١٥٩٠ م (وفيه تغلب هيديوشي[2] على آخر مقاومة لديكتاتوريته) باعتباره تاريخ إقامة الدولة العالمية اليابانية ؛ لاحظنا فى المجتمع اليابانى ، انبعاث ثورة اجتماعية بيضاء[3] ، بعد انقضاء فترة تزيد قليلا عن القرن من ارتقاء طبقات المجتمع الدنيا من الحضيض إلى أعلى مكان . وكان خلفاء هيديوشي قد رنوا إلى تثبيت أوضاع المجتمع اليابانى مثلما ثبت أفلاطون نظم مدينته الفاضلة . ولقد أسفرت جهودهم عن نتيجة تثير الاعجاب ، تتجلى فى غلبة التجانس الثقافى إلى حد كبير غير عادى ، على الدولة العالمية اليابانية إبان عصر أسرة توكوجاوا .

* * *

ويتيسر تبيان قدرة الدول العالمية على « التوصيل » ؛ ببحث الأمثلة الأخرى التى تتوافر لنا عنها دراية تاريخية وافية .

٢ — سيكلوجية السلام

الدول العالمية يفرضها بُناتها ، ويتقبلها رعاياها دواء شافياً لجميع أوجاع عصر الاضطرابات . وهى — وفقا للتعبير السيكلوجى — نظام يرنو إلى تحقيق الوفاق الاجتماعى ، والمحافظة عليه .

وهى دواء ناجع لداء شخّص تشخيصاً صادقاً ؛ يتمثل فى بيت انقسم

---

(١) صفحة ٤٦٠ — Samsom : P.B. : Japan. a short History

(٢) يعتبر اليابانيون « هيديوشى » بطلا من أعظم أبطال اليابان ، ويقدسه القوم هناك تقديساً جعلوا منه الآها يعبدون روحه ، ويقيمون له الهياكل فى شتى أنحاء البلاد . (المترجم)

(٣) أى أنها ثورة نجحت دون سفك دماء . (المترجم)

على نفسه انقساماً يحصد الجانبين على السواء . والانقسام نوعان :

نوع أفقي – يحدث بين الطبقات التي تصارع بعضها بعضاً[١]

ونوع رأسي – يتخذ سبيله بين الدول المتحاربة .

وفي أثناء تكوين دولة عالمية من بين الدول التي تظل على قيد الحياة بعد الحروب التي تكون قد نشبت قبلئذ بين الدول الاقليمية[٢] وبعضها بعضاً ؛ يعمد بناة الامبراطوريات إلى التوفيق بينهم وبين رفاقهم أعضاء الأقليات المسيطرة في الدول الاقليمية التي غزوها . ولما كانت المسالمة حالة عقلية وقاعدة للسلوك ، لا يقتصر وجودها على قسم من الحياة الاجتماعية دون آخر ؛ لا مناص من أن يمتد الوفاق الذي تسعى الأقلية المسيطرة إلى تحقيقه في علاقاتها الداخلية ، إلى علاقات الأقلية المسيطرة مع البروليتاريتين الداخلية والخارجية ، ومع أية حضارات أجنبية تتصل بها الحضارة المتحللة .

ويفيد هذا الوفاق العالمي الطابع ؛ مختلف المنتفعين به ، بدرجات شتى :

فإن الوفاق العالمي يُنمى قوة البروليتاريا ؛ إذ يعين الأقلية المسيطرة على استرداد قواها بعض الشيء . ذلك لأن الحياة تكون قد ولت عن الأقلية المسيطرة ، فلا يملك الوفاق مهما تنوعت أشكاله ، إلا « إطالة أمد الانحلال » (ان استعرنا تعقيب بيرون اللاذع على جثة الملك جورج الثالث) . بينما تكون أنواع الوفاق هذه للبروليتاريا ، بمثابة مخصبات تُنميها وتُورقها : وينبغي بالضرورة على هذا الرأي ؛ استفحال قوة البروليتاريا خلال الهدنة التي تفرضها دولة عالمية ؛ بينما تتناقص قوة الأقلية المسيطرة .

ومن الناحية الأخرى ؛ فان منشيء الدولة العالمية إذ يعتنقون مبدأ التسامح (وهو هدف سلبي) رجاء تلافي الصراع بين بعضهم بعضاً ؛ إنما

---

(١) وهذا هو الصراع الطبقي ، أساس نظريات كارل ماركس ومريديه . (المترجم)

(٢) الدول الإقليمية : هي الدول المحدودة السيادة والسلطان بمساحة معينة من الأرض وسكان محدودين . (المترجم)

يهيئون للبروليتاريا الداخلية بذلك فرصة تشييد صرح عقيدة عالمية . ومن شأن انصراف البروليتاريا الداخلية للأمور الروحانية ، ضمور النزعة المادية بين رعايا الدولة العالمية : وهنا يغتنم برابرة البروليتاريا الخارجية الفرصة (أو تغتنمها حضارة أجنبية مجاورة) ، لاقتحام الدولة العالمية والسيطرة على تلك البروليتاريا الداخلية التي آثرت الوقوف موقفاً سلبياً تجاه التطورات السياسية التي تأخـذ مجراها في بلادها ؛ في حين يتعاظم نشاطها في الميدان الديني .

ويتضح عجز الأقلية المسيطرة نسبياً عن الإفادة من الظروف التي أبرزتها إلى الوجود هي نفسها ؛ من اخفاقها الملموس في الدعوة إلى مذهب فلسفي أو إلى عقيدة دينية طريفة تبتكرها وتذيعها من أعلى إلى أدنى[1] .

ويجدر بالذكر ، من الجهة الأخرى ، ملاحظة مدى تأثير ثمرة البروليتاريا الداخلية على الانتفاع بانتشار السلام الذي يتيحه قيام الدولة العالمية ، في التبشير بدين أسمى ، من أدنى المجتمع إلى أعلاه ؛ فتضع بذلك قواعد عقيدة دينية عالمية .

وتطالعنا الأمثلة التالية :

١ ـ استخدمت عقيدة أوزيريس الإمبراطورية المصرية الوسطى[2] ، وهي الدولة العالمية المصرية الأصيلة ، لاذاعة مبادئها .

٢ ـ انتفعت العقيدة اليهودية وشقيقتها (من ناحية المبادىء الدينية) العقيدة الزرادشتية ، بقيام الامبراطورية البابلية . كما انتفعتا من تأسيس الامبراطورية الأخمينية والمملكة السلوقية .

---

(١) وهذا عكس الحاصل ـ وفقاً لآراء الأستاذ المؤلف ـ من انبعاث العقائد الدينية عن البروليتاريا الداخلية . فتنتشر بالتالي من أدنى إلى أعلى ، أي من البروليتاريا الداخلية إلى الأقلية المسيطرة . (المترجم)

(٢) أي الدولة الوسطى في التاريخ المصري القديم . وتبدأ بالأسرة الثانية عشر وأول ملوكها أمنمحت الأول . (المترجم)

٣ ـ استفادت ، فى ظل السلام الرومانى ، طائفة من العقائد الدينية التى انبعثت عن البروليتاريات الداخلية ونافست بعضها بعضاً لاجتذاب الأتباع والمريدين . ويطالعنا منها عقائد سيبيل وايزيس وميترا والمسيحية .

٤ ـ ترتب على استتباب السلام فى الشرق الأقصى[1] . تنافس عقيدتين دينيتين فى العالم الصينى : المهايانا وهى عقيدة البروليتاريا السندية ؛ والعقيدة التاوية ، وهى عقيدة البروليتاريا الصينية الأصلية .

٥ ـ أتاحت الخلافة العربية للإسلام ، فرصة مماثلة للانتشار .

٦ ـ هيأ حكم الجوجا ذيوع الهندوكية فى العالم السندى .

٧ ـ استغلت المسيحية النسطورية والكنيسة الكاثوليكية الغربية والإسلام وطائفة اللامية[2] والبوذية المايانية ؛ الفترة القصيرة التى عاشتها الإمبراطورية المغولية ، وفرضت سلاما بدوياً Pax Nomadica من شاطىء المحيط الهادى الغربى حتى شاطىء البلطيق الشرقى ومن حدود التندرا السيبرية الجنوبية حتى حدود الصحراء الغربية الشمالية وأدغال بورما . ولقد أثار مخيلة بعثات التبشير المسيحية فى الإمبراطورية المغولية ، وجود حشد من العقائد الدينية المتنافسة مع توافر فرص الانتشار لها .

ومن ثمت ؛ فان الأديان العليا وقــد أفادتها الأوضاع الاجتماعية

---

(١) Pax Hamica

(٢) اللامية : نسبة إلى اللاما ، وتعنى الكلمة « المعلم الروحانى » . واللامية فرع منحرف من البوذية ينتشر فى التيبت ومنغوليا ، ويتزعم هــذا المذهب « الدلاى لاما » وتعنى دلاى « بحر الحكمة » . وكان يقيم فى لهاسا عاصمة التيبت قبل استيلاء الصين الشعبية على المقاطعة ، فاضطر إلى الفرار إلى الهند حيث يقيم الآن .

وأساس العقيدة اللامية ، إمكان كل مخلص للبوذية وتعاليمها أن يتسامى فيغدو « بوذا فرعى » أو ما يدعى بودساتيفا Bodhisativa ، وتتقمص روحه الشخصيات السامية التى يقدر لها البوذا الأعظم تعليم البشر . أما اللاما ، فإنه الشخصية الكبرى فى العقيدة وفيه تتقمص روح البوذا ، فإن مات انتقلت الروح إلى طفل ولد فى نفس يوم وفاته ويغدو هو اللاما الجديد . ويتعبد مريدو هذه العقيدة للبوذا الأكبر وللقديسين ولأرواح الأسلاف . وتصحب طقوس العبادة تأدية رقصات معينة وعزف صاخب على الطبول . (المترجم)

والسيكلوجية لدولة عالمية ؛ أصبحت تقدر النعمة التى جاد بها عليها رضاء الرب الحق الواحد الذى تبشر باسمه .

ومصداقا لذلك ، اعتبر مؤلفو أسفار يوشع الثانى وعزرا ونحميا ، الدولة الأخيمينية ، الأداة التى اختارها ياهوى[1] للتبشير بالعقيدة اليهودية . وبالمثل اعتبر البابا الكبير (٤٤٠ — ٦١ ميلادية) الإمبراطورية الرومانية أداة ساقتها العناية الربانية لتسهيل انتشار المسيحية . وهذا ما دعاه أن يكتب بمناسبة إلقاء موعظته الثانية والثمانين « إن العناية الالهية قد أبرزت الإمبراطورية الرومانية إلى الوجود كى يعرف العالم بأسره ، « فضل » هذه النعمة التى لا توصف ؛ أى التجسّد الإلهى فى شخص المسيح » .

وألِفت العقلية المسيحية هذه الفكرة . فرأيناها تظهر من جديد فى شعر ميلتون الغنائى « صُبح ميلاد المسيح » .

لا حرب أو صوت معركة
سُمعت حول العالم
وعلّق عالياً ، الرمح والقوس الكسولان
وانتصبت العربة المعقوفة كاملة
وتحدث البوق ، ولكن لا إلى الحشد المسلّح
وجلس الملوك ساكنين بأعينهم المروعة
كما لو أنهم يجزمون معرفة سيدهم الملك بالقرب منهم .

ولقد تبدو إقامة الدولة العالمية فرصة نادرة أتاحتها السماء للدين الذى يعيش فى كنفها ؛ تمكّنه من الانطلاق صوب تحقيق أهدافه : بيد أن ذلك لا يعنى فى جميع الأحوال ، توافر تسامح الدولة العالمية تجاه العقيدة الدينية حتى يتم لها الفوز النهائى : إذ قد ينقلب الحال إلى النقيض : ولا شبهة فى وجود حالات لم تكابد فيها العقيدة الدينية مثل هذه النتيجة المشئومة . إذ لم

---

(١) اسم الإله عند اليهود ، ويعتبرون أنفسهم شعبة المختار . (المترجم)

تكابد العقيدة الأوزيريسية[١] الاضطهاد قط ، وامتزجت فى نهاية الأمر مع ديانة الأقلية المصرية المسيطرة[٢] وظاهر أن السلام قد ظل بالمثل مستتباً فى العالم الصينى بين البوذية والمهايانية والعقيدة التاوية[٣] . فى جانب ، وامبراطورية هان فى الجانب الآخر ؛ إلى أن سارت الدولة العالمية فى طريق التحلل فى ختام القرن الثانى الميلادى .

فإن تقدمنا إلى العقيدتين اليهودية والزرادشتيه[٤] ؛ ألفينا أنفسنا

---

(١) العقيدة الأوزيريسية : عقيدة أوزيريس فى العالم المصرى القديم . وأساسها عبادة الإنبات فى ازدهاره وموته ثم بعثه . وقد جعل المصريون القدماء من ذلك موضوع أساطيرهم وأشهرها أسطورة الصراع بين أوزيريس وإيزيس وحوريس من جهة وست من الجهة الأخرى. (المترجم)

(٢) كانت عقيدة أوزيريس شائعة بصفة خاصة بين عامة المصريين القدماء ، فى حين كانت الطبقة المسيطرة (أى الملك وبيته وكبار القوم) يؤمنون خاصة بعقيدة الشمس (رع) . ثم اندمجت العقيدتان مع توالى الأيام . (المترجم)

(٣) التاويه عقيدة دعا إليها الفيلسوف الصينى لاو تزى L'âo Tsze (وتعنى الكلمتان الصينيتان – الفيلسوف الوقور) المولود عام ٦٠٤ قبل الميلاد . ولقد عين لاوتزى أميناً للمكتبة الملكية فى مقاطعة هونان بالصين . ولما عاين بداية انهيار الدولة ، هاجر فترة من الزمن إلى مكان قصى فى الصين . ثم خرج إلى الناس بدعوته التى تقوم على إظهار جمال الفعل البشرى متحرراً من الأنانية . وعنده أن العالم يجب أن يمضى فى طريقه دون كفاح أو نحيب . وآمن الفيلسوف الصينى بفضائل الشفقة والتصاغر ومقابلة الإساءة بالإحسان (المترجم)

(٤) الزرادشتيه Zoroastrianism : ديانة الفرس القديمة . أسسها زرداشت الذى الذى عاش حوالى ٨٠٠ قبل الميلاد . وقد أخذ يعلم الناس وهو فى الثلاثين . ثم اعتزلهم عدة سنوات قضاها فى التأمل ، وفى سن السابعة والسبعين ، أسس الزرادشتية التى أصبحت عقيدة الفرس الدينية الوطنية منـذ عام ٥٥٠ قبل الميلاد ، إلى أن قضى الإسلام عليها فى القرن السابع الميلادى . فهاجرت بقية أتباعها إلى الهند وغيرها من البلاد حيث يعرفون الآن باسم « البارسى » . وأساس العقيدة ، فلسفة الثنائية ، أى روحا الخير والشر . والزرادشتية ، عقيدة توحيد فى جوهرها الأصلى ، مما جعل عمر رضى الله عنه ، يساوى فى معاملة المسلمين بين أتباعها والذميين من اليهود والنصارى . ويطلق زرادشت على رب الكون الأعظم اسم « أهورمازدا » الذى خلق روحى الخير والشر ، وما هما إلا أداتان يسيرهما الخالق وفق إرادته . ومناط طقوس الزرادشتية ، عبادة النار . ولكل كائن وفقاً لتعاليم زرادشت ؛ إرادة حرة وضمير ونفس وروح تحميه وتقطن السماء . وإذا كان الإنسان مخيراً بين الخير والشر ، فإن عليه بداهة أن يكابد محنة الخطيئة .

على أن تعاليم زرادشت قد تداعت بتوالى الأيام ، فاقتحمتها الخرافات ، مما جعل الفرس يعتنقون الإسلام عن طواعية ورغبة عارمة لسد احتياجاتهم الروحية . (المترجم)

عاجزين عن تقرير فيما إذا كانت علاقاتهما النهائية ترتبط مع الامبراطورية البابلية الجديدة ، أو مع الإمبراطورية الأخيمينية ؛ ذلك لأن الأجل لم يمتد بحياتهما التاريخية سوى القليل . ومبلغ علمنا ؛ أن الدولة السلوقية[١] ، عندما احتلت مكانة الدولة الأخيمينية . وحلول الإمبراطورية الرومانية في نهاية المطاف مكانها ، في المنطقة الواقعة غرب الفراتين ؛ جابهت العقيدتان اليهودية والزرادشتية ، ضغط الثقافة الهلينية . فكان أن انحرفت الديانتان عن رسالة التبشير الأصيلة بمبدأ الخلاص للبشر كافة[٢] ، واستحالتا إلى سلاحين من أسلحة الحرب الثقافية ، استخدمها المجتمع السورى رد فعل على عدوان المجتمع الهلينى .

ولو كان قد قيض للإمبراطورية الاخيمينية أن تستكمل دورة حياتها الطبيعية ، مثلما استكملتها نظيرتها الخلافة العباسية التى تلت العهد الهلينى ؛ لأمكن تصور الزرادشتية (أو اليهودية) تنجز ما أنجزه الإسلام من مآثر[٣] ؛ إذ استفاد الإسلام من عدم اكتراث الأمويين بالدين ومن يقظة ضمير العباسيين فى تسامحهم تجاه غير المسلمين من أهل الكتاب . فانتشر الإسلام — تبعاً لذلك — تدريجيا ، دون أن يبذل جيش الدولة أية مساعدة ، لعلها لو وجدت ، لعرقلت تقدمه . فلما أن انهارت الدولة العباسية ، أقبل الناس أفواجاً على اعتناق الإسلام ليجدوا الملاذ فى رحاب المسجد من عاصفة الفراغ السياسى الوشيكة الهبوب .

---

(١) الأسرة السلوقية : أسرة ملكية حكمت سوريا ، ابتداء من الملك سلوق الأول (٣١٢ — ٢٨٠ ق . م) ، وقد شمل ملكه سوريا بأكلها وجانباً كبيراً من آسيا الصغرى . وانتهت الأسرة بعد مقتل سلوق السادس (٩٥ — ٣ ق . م) . (المترجم)

(٢) إذ اعتنقت اليهودية والزرادشتيه مبدأ أن الله قدا صطفى معتنقي اليهودية (أو الزرادشتيه) دون بقية خلقه ، وأنه تعالى قد كتب لهم الغفران وحدهم ، وقيض لهم الجنة . (المترجم)

(٣) لا نتفق فى الرأى مع الأستاذ المؤلف . لأن الإسلام استطاع أن يشق طريقه خالصاً دون حماية أية دولة عالمية . فانتشر فى أندونيسيا والفلبيين وأفريقيا والصين . بل طفقت الدول الاستعمارية هناك تقاوم انتشاره بجميع قواها لما تعلمه من مناهضة مبادئه لأغراضها . (المترجم)

وبالمثل ؛ نجد الأسرة المالكة فى امبراطورية جوبتا (وتعتبر استعادة للدولة العالمية الأصيلة إبان حكم أسرة موريا) لا يقتصر الأمر بها على عدم معارضتها فى إحلال الدين البوذى الذى أعقب الديانة الهندوكية ، محل الفلسفة البوذية ، بل إنها امتنعت عن ارتكاب أى فعل من أفعال الاضطهاد التى تعرقل انتشار البوذية . والواقع ؛ إن من سمات مزاج الحضارة السندية الدينى ، اعتناق نزعة التسامح ، والميل إلى التوفيق بين الاضداد .

وعلى عكس هذه الحالات التى تستفيد فيها عقيدة دينية من السلام الذى تفرضه دولة عالمية وتتسلح معها حكومتها من البداية حتى النهاية ؛ ثمة حالات أخرى ، اعترضت تقدمها الاضطهادات الحكومية التى تقضى على العقيدة فى مهدها أو تمسخ طبيعتها ، بإحدى وسيلتين : فهى ؛ إما تقحمها فى المنازعات السياسية ، وإما تستفزها لحمل السلاح .

ويطالعنا من قبيل المثال ؛ استئصال المسيحية الكاثولية الغربية من اليابان فى القرن السابع عشر الميلادى ، استئصالاً كاملا تقريباً ، وحصر انتشار الإسلام فى الصين إبان العهد المغولى بمقاطعتين ، وصيرورة معتنقيه أقلية غريبة عن طبائع البلاد ؛ يستفزها مركزها الشاذ ، إلى معاودة الثوران الحربى ، المرة بعد الأخرى .

ولم تتأثر المسيحية تأثراً ذا بال من الصراع الذى خاضته ضد النظام الإمبراطورى الرومانى ، بل كان فاتحة انتصاراتها . على أن الكنيسة لم تكن طوال القرون الثلاثة التى انتهت باعتناق قسطنطين المسيحية ، بمنجاة من خطر التلوث بالسياسة الرومانية . فبالإضافة إلى سيطرة الشك على الدولة الرومانية إبان عهدها الإمبراطورى ، تجاه جميع أنواع الجمعيات الخاصة ؛ كان ثمة تقليد رومانى أقدم من الشك وأعمق جذوراً ، يتصل بمعاداة السلطات الرومانية بصفة خاصة للجمعيات الخاصة لنشر الأديان الدخيلة . فإذا كانت الحكومة الرومانية قد تساهلت فى تطبيق هذه السياسة الصارمة غاية الصرامة

مكافأة لها على صمودها للإضطهاد والتزامها التسامح :

ولم تخرج الكنيسة المسيحية من هذه المحنة سليمة : لأنه عوضاً عن استخلاصها العبرة من انتصار نزعة الوداعة المسيحية على القوة الرومانية العارمة ، قدّمت باختيارها إلى مضطهديها المدحورين ، البيّنة عليها ؛ فكان أن تشفّى منها خصومها ، بعد ما دحرتهم . فإنها قد احتضنت خطيئة العنف ذاتها ، التي سبق أن أردت خصومها إلى العجز والقصور . فانضمت الكنيسة المسيحية بذلك إلى جانب الظلم ؛ وظلت على حالتها تلك ، أمدا طويلا .

نخلص مما تقدم إلى القول ؛ بأن البروليتاريا – وهي مُبدع الأديان العليا – هي المستفيد الأساسي من الجانب الروحاني من مأثرة الأقلية المسيطرة في تكوين الدول العالمية والمحافظة عليها . لكن تعود فائدة الجانب السياسي من هذه المأثرة على آخرين .

لكن ينبني على سيطرة سيكلوجية السلام بفضل تشييد دعائم الدولة العالمية ؛ فقدان حكام تلك الدولة طاقتهم على الاحتفاظ بمنحاهم الثقافي ؛ ويستتبع هذا الرأي ؛ إخراج الحكام والمحكومين على السواء (أي الطبقة المسيطرة والبروليتاريا الداخلية) من زمرة المنتفعين من استتباب السلام ؛ والسلام هو العملية السيكلوجية لنزع السلاح . وبالأحرى ؛ ينتفع بالسلام ، أولئك الدخلاء الوافدون من وراء حدود الدولة العالمية ؛ ولعلهم إما أعضاء في البروليتاريا الخارجية للمجتمع المتحلل ، أو ممثلين لحضارة أجنبية .

ولقد لاحظنا في موضع سابق من هذه الدراسة ؛ أنه غالباً ما تتجلى الواقعة التي تسجل انقراض حضارة من الحضارات (ويختلف الانقراض عما سبق ذكره خاصاً بالانهيار والتحلل) ؛ تتجلى في قيام زعماء البرابرة العسكريين خارج الحدود ، باحتلال موطن الدولة العالمية الميتة . أو يؤدى نفس الفعل ؛ غزاة يمتّون إلى مجتمع آخر ، ويعتنقون ثقافة مغايرة . أو قد يشترك الفريقان في عملية الاحتلال ، بأن يأتي أحدهما في أعقاب الآخر :

ولا شبهة فى حرص المعتدين من البرابرة أو الأجانب ، على كفالة الفوائد لأنفسهم ، عن طريق الاستفادة ـ تحقيقاً لغاياتهم الجشعة ـ من الجو السيكلوجى ، متمثلا فى إشاعة السلام الذى تهيئه الدولة العالمية : ويقطعون فى هذا السبيل ، شوطا بعيداً ، يثير النفس لأول وهلة :

وفعلا ، فإن غزاة البرابرة الذين انحدروا من بقعة منبوذة فى دولة عالمية تحطمت ، أبطال لا مستقبل لهم . فلا جرم أن الأجيال التالية قد تحققت من كونهم مغامرين شائنين ، لولا الروعة التى أضفتها على سيرهم ، موهبتهم فى تدوين شواهد قبورهم بلغة الشعر الحماسى ، فكان أن استحال فرارهم الخسيس إلى بطولة . بل إن رجلا من طراز آخيل[١]، ما كان ليصبح بطلا لو لم تذكره الإلياذة . وبالمثل فإن مآثر الإرساليات العسكرية التى توفدها حضارة أجنبية ، ما هى إلا أوهام تخيب الظنون ، وتمكن مقارنتها بما دونه التاريخ عن مآثر العقائد الدينية .

وفى موضعين أدركنا فيهما سياق القصة بأكملها ، تبين لنا أن الحضارة التى اختزل حياتها قبل الأوان غزاة غرباء ، تظل على الأرض قرونا عدة ، ترقد فى سُبات إلى أن يحين دورها ، فتجد فى النهاية فرصتها للتخلص من الحضارة الدخيلة ، واستئناف مرحلة الدولة العالمية . ومن قبيل المثال : أن الحضارة السندية ، قد أنجزت فعلها الفاره بعد ستمائة سنة من انغمارها تحت الطوفان الهلينى ؛ وأنجزته الحضارة السورية بعد ما يقرب من ألف سنة[٢] . وتجلت مأثرتهما فى إقامة إمبراطورية الجوبتا والخلافة العربية ؛ واستُعيدت فيهما الدولتان العالميتان الأصيلتان اللتان تجمعتا فى الإمبراطوريتين المورية والأخيمينية (الفارسية) على التوالى . أما المجتمعان البابلى والمصرى ؛ فقداندمجا أخيراً فى كيان المجتمع السورى الاجتماعى ، رغما عن احتفاظ

---

(١) آخيل : بطل إلياذة هوميروس . (المترجم)

(٢) تم ذلك بفضل اعتناق العرب الإسلام . (المترجم)

المجتمع البابلى بذاتيته الثقافية طوال أكثر من ستمائة سنة بعد تخريب قورش إمبراطورية نبوخذ نصر البابلية الجديدة ؛ واحتفاظ المجتمع المصرى بكيانه فترة لا تقل عن الألفى سنة بعد انقضاء أجل حياته الطبيعية ، بانهيار « الدولة الوسطى » .

نخلص من هذا إلى القول بأن استقراء التاريخ ، يتيح لنا ختامين بديلين لمحاولات حضارة من الحضارات ابتلاع حضارة أخرى ، عنوة وهضمها : ويبدى الاستقراء ــ مع ذلك ــ أنه قد تنقضى مئات السنين بل آلافها ، قبل أن تتحقق نتيجة عملية الابتلاع فى خاتمة المطاف .

ولعل هذا يُصدف مؤرخى القرن العشرين عن المغالاة فى تقدير نتائج محاولات الحضارة الغربية فى الوقت الحاضر ، لابتلاع الحضارات المعاصرة لها . إذ يجدر بهم أن يأخذوا فى الحسبان ، قصر الوقت الذى انقضى منذ بداية أقدم هذه المحاولات ، وضآلة ما تبدى من القصة للعيان .

ففى حالة الغزو الأسبانى لعالم أمريكا الوسطى ــ مثلا ــ قد يفترض بحق ، أن حلول الجمهورية المكسيكية التى رنت إلى الإنخراط فى عضوية جماعة الأمم الغربية وفازت بها ، محل الدخيل الماثل فى شخص الحاكم الأسبانى الملكى على « أسبانيا الجديدة »[1] ؛ من شأنه تحقيق اندماج مجتمع أمريكا الوسطى ، فى كيان المجتمع الغربى الاجتماعى . وهذا ما يجافى الواقع . إذ قد تلت ثورة ١٨٢١ المكسيكية ، ثورة ١٩١٠[2] ؛ التى انتصب إثرها مفاجأة ، المجتمع الوطنى الهاجع ، الذى ظُن أنه قد ورى التراب . فكان أن روى يرفع هامته ويمزق الغشاء الثقافى الذى رسّبته الأيدى الكاستيلية[3] على القبر الذى أودع فيه الغزاة الأسبان ، الجسم الذى ظنوا أنهم ذبحوه .

---

(١) المستعمرات الإسبانية فى أمريكا الوسطى . (المترجم)

(٢) وهى الثورة التى أعلنت فيها المكسيك استقلالها عن أسبانيا . (المترجم)

(٣) نسبة إلى كاستيلون . وهى مقاطعة أسبانيــة بإقليم بلنسية تطل على البحر الأبيض المتوسط . (المترجم)

ويثير هذا النذير ؛ سؤالا عما إذا كانت فتوحات المسيحية الغربية فى العالم الاندياني وغيره ، قــد تبرهن بالمثل – عاجلا أم آجلا – على سطحيتها ووقتيتها :

هنا تطالعنا حضارة الشرق الأقصى فى الصين وكوريا واليابان ؛ وهى حضارة تهاوت ، تحت ضربات النفوذ الغربى قبل كتابة هذه الدراسة ؛ وبالتالى ، ما يزال تأثيرها يسرى بين شعوبها ، بقوة تفوق إلى أبعد حد ، سريان حضارة أمريكا الوسطى . فإذا كانت الثقافة القومية المكسيكية قد أعادت توكيد نفسها بعد انقضاء أربعمائة سنة من خسوفها ؛ فإن حتمية ابتلاع الغرب أو روسيا ثقافة الشرق الأقصى ، قول يتسم بالتسرع .

أما بالنسبة للعالم الهندى ؛ فلعله يتيسر تفسير إقامة الدولتين اللتين خلفتا الإمبراطورية البريطانية عام ١٩٤٧[١] ، بكونه صورة سلمية مهذبة لثورة عام ١٨٢١ المكسيكية . ومن ثم لا يستند على أساس ؛ الزعم بأن إلحاق الدولتين بجامعة الأمم الغربية بعد تحررها السياسى ، بمثابة تصديق – وهو تصديق ظاهرى – على عملية تحولهما الثقافى الغربى . إذ لعل التحرر السياسى يصبح الخطوة الأولى صوب التحرر الثقافى ، لمجتمع طغى عليه المد الغربى موقتاً .

والمثل يقال عن البلاد العربية التى حصلت على استقلالها حديثاً ، أعضاء فى جماعة الأمم الغربية[٢] . فلقد أمكنها نيل مطمحها السياسى بفضل توفيقها فى إلقاء السيادة العثمانية السياسية عن كاهلها ، وتخليص نفسها من الطلاء الثقافى الإيرانى الذى غشيها طوال أربعة قرون ، فهل ثمة سبب للشك

---

(١) أى جمهوريتا الهند وباكستان . (المترجم)

(٢) يعنى الأستاذ المؤلف بعضوية جماعة الأمم الغربية ، أى اعتناق الأساليب الثقافية الغربية وأنماط الحضارة العربية ، وليس للعبارة أى مفهوم سياسى . (المترجم)

عن تأكيد البقية الدفينة من الطاقة الثقافية العربية ذاتيتها ، عاجلا أم آجلا ، تجاه تأثير ثقافة الغرب الأشد بُعداً عنها من الثقافة الإيرانية ؟

* * *

وصفوة القول ؛ يعزز استعراضنا تأثيرات التغيرات الثقافية فى آخر مراحلها ؛ النتيجة التى توصلنا إليها من أن البروليتاريا الداخلية هى المستفيد الأوحد المؤكد من الخدمات التى تسديها الدولة العالمية .

أما المنافع التى تجتنيها البروليتاريا الخارجية ، فإنها دائماً وهمية .

وبالنسبة للفوائد التى تحصل عليها الحضارة الأجنبية ، فإنها موقوتة .

٣ - صلاحية النظم الإمبراطورية للتطبيق العملى

الآن وقد فحصنا مظهرين من المظاهر العامة للدولة العالمية هما ، قدرتها على التوصيل ، وإقرارها السلام ؛ فعسانا أن نمضى قُدُماً لاستعراض ما تسديه للمنتفعين بوجودها من خدمات ، تضطلع بتأديتها نظم ثابتة خاصة ، تُحدثها الدولة العالمية وتزعاها . ومناط رسالة هذه النظم التاريخية ، قيامها بأدوار لم يقصد منشئوها فى الأصل تأديتها . وإذ نستخدم اصطلاح « النظم » فى معنى شامل نوعاً ما ، نقصد من وراء استخدامه ، أن يتضمن الموضوعات التالية :

وسائط الاتصال — الحاميات العسكرية والمستعمرات — المقاطعات — كراسى الملك من الأمصار — اللغات وحروف كتابتها — النظم القضائية — التقاويم والأوزان والمقاييس والنقود — الجيوش — الإدارات الحكومية — أوضاع المواطنين .

وسنعرض لكل منها على التوالى :

(ا) وسائط الاتصال :

تأتى وسائط الاتصال على رأس القائمة السالفة الذكر ، بحسبانها الأساس الذى تستند عليه الدولة العالمية للمحافظة على كيانها الذاتى .

ولا يقتصر نفع وسائط الاتصال على تمكين الدولة العالمية من السيطرة العسكرية على أملاكها ، فإنها تتيح لها كذلك الهيمنة السياسية على أرجائها . وتفوق خطوط الاتصال الإمبراطورية الرئيسية التى يشيّدها الإنسان ، وسائل الاتصال الطبيعية التى يستخدمها . ذلك لأن الطرق الطبيعية العامة التى تتيحها للإنسان الأنهار والبحار والسهب ؛ ليست وسائط اتصال عملية ، إلا إن عززتها أسباب الحراسة الرادعة .

ويتطلب الحال كذلك ؛ توافر وسائل المواصلات . ولقد اتخذت هذه الوسائل فى معظم الدول العالمية التى ذكرها التاريخ ، شكل خدمة إمبراطورية للبريد ، يتولاها ساعى بريد (إن طبقنا الاصطلاح المتداول عند الرسميين عن هذه الخدمة سواء عامة أو محلية) : وكان ساعى البريد وقتئذ ، يقوم كذلك بعمل رجل البوليس .

وكانت خدمة البريد على ما يبدو ، قسما من الأداة الحكومية العامة فى إمبراطورية سومر وأكاد إبان الألف الثالثة قبل الميلاد . ونجد النظام نفسه بعد مرور ألفى سنة فى عصر الإمبراطورية الأخيمينية (التى شملت فيما شملته ، نفس بقاع إمبراطورية سومر وأكاد) يرتفع مستواها من ناحيتى الكفاية والتنظيم . ونجد سياسة الإمبراطورية الأخيمينية ، فى الانتفاع بنظام الاتصالات الإمبراطورية ، لتمكين سيطرة الحكومة المركزية على أقاليمها ، تعاود الظهور فى عهدى الإمبراطورية الرومانية والخلافة العباسية .

ويثير العجب حقاً ؛ العثور فى الدول العالمية — من الصين حتى بيرو (فى أمريكا الجنوبية) — على نظم مشابهة لما تقدم . فإن تسين هوانج — تى (المؤسس الثورى للدولة الصينية العالمية) هو بانى الطرق التى تشعبت عن عاصمته . كما استخدم الإمبراطور الصينى ، هيئة للتفتيش منظمة تنظيما متقناً . وعزز « الإنكا » Incas سلطانهم بالمثل ، باستخدام الطرق ؛

فأصبح يتيسر توجيه رسالة تسير من كوزكو Cuzco[1] إلى كويتو Quito[2] ، وهى مسافة تزيد عن الألف ميل يطيرها الغراب[3] ، فضلا عن أكثر من نصف هذه المسافة تقطع براً فى وقت قصير ، هو عشرة أيام :

وظاهر أنه كان بالإمكان استخدام الطرق التى تُنشئها حكومات الدول العالمية وتحافظ عليها ، فى الأغراض الأخرى ، التى لم تنشأ فى الأصل لخدمتها : فإن العصابات الحربية للبروليتاريا الخارجية الغازية ؛ ما كان ليتأتى لها أن توسع نطاق إغارتها آخر أيام الإمبراطورية الرومانية ، لو لم تتح لها تلك الإمبراطورية – عن غير قصد – تلك الوسائط البديعة للوصول إلى الميدان : بيد أن ثمة أشخاصا آخرين أصدق معرفة بأهمية الطرق من ألاريك Alaric[4] ، منهم القديس بولص . فإن أغسطس بفرضه السلام الرومانى على بيسيديا Pisidia[5] ، قد مهّد – لاشعوريا – لرحلة بولص التبشرية التى حطّت فى بامفيليا[6] وسارت به آمنا إلى إنطاكية

---

(١) كوزكو : عاصمة إقليم فى جنوب بيرو (بأميركا الجنوبية) . وتقع فى واد صغير يرتفع نحو ١١٤٤٠ قدماً عن سطح البحر . وقد كانت المدينة عاصمة إمبراطورية الانكا ، واستولى عليها الاسبانيون بقيادة بيزارو عام ١٥٣٣ . وقد أحل الاسبان مدينة ليما عاصمة لبيرو . (المترجم)

(٢) كويتو : عاصمة جمهورية الاكوادور بأميركا الجنوبية ، وكانت مدينة هامة من مدن إمبراطورية الانكا . (المترجم)

(٣) كان الغراب يستخدم فى نقل الرسائل . (المترجم)

(٤) الآريك : زعيم قوطى عظيم . وقد أصبح ملكا على القوط الغربيين ، وغزا اليونان عام ٣٩٦ م ، وإيطاليا عام ٤٠٠ . وفى عام ٤١٠ غزا روما ونهبها ، ومات فى تلك السنة . (المترجم)

(٥) بيسيديا : مقاطعة قديمة فى آسيا الصغرى ، وكان يقطنها شعب جبلى محارب حافظ على استقلاله حتى دهمته الجيوش اليونانية الرومانية . (المترجم) .

(٦) بامفيليا : قطر قديم كان يقع على الساحل الجنوبى من آسيا الصغرى . وقد لبث جزءاً من الإمبراطورية الفارسية حتى استولت عليه مقدونيا ثم سوريا . (المترجم)

وإلى أيكونيا Iconium[1] وليسترا ودربي . وإذا كان بومبي[2] قد نظّف البحار من القراصنة ، فلقد أتاح لبولص القيام برحلته البحرية الخطيرة من قيصرية فلسطين إلى بيوتولى Puteoli الإيطالية دون التعرض لأخطار البشر ، بالإضافة إلى محن العاصفة وتدمير السفن .

وحقاً ؛ دلل السلام الرومانى ، على كونه بيئة اجتماعية موافقة لأخلاف بولص . من ذلك أن القديس إيريناوس Irenaeus من ليون بفرنسا ، قد أظهر تقديره الضمنى لوسائط الاتصال التى أقامتها الإمبراطورية الرومانية ؛ وقتما أشاد بوحدة الكنيسة الكاثوليكية فى جميع أرجاء العالم الهلينى : إذ كتب يقول « إن الكنيسة وقد تلقت هذا الإنجيل وهذه العقيدة ، أمكنها المحافظة على هذين الركازين رغما عن تفرّق أتباعها فى أنحاء العالم ، فاصبحوا كما لو أنهم يعيشون تحت سقف واحد » . وبعد انقضاء مائتى عام من هذا القول ؛ تذمّر مؤرخ وثنى هو Ammianus Marcellinus من أن جماهير الأساقفة تستخدم خيول البريد الحكومية للتوجه هنا وهناك لحضور المجامع الدينية .

والآن ؛ وقد ألقى استعراضنا ، ضوءاً على الحالات التى استفاد فيها عن غير قصد من وسائط الاتصال ؛ منتفعون ، بلغ عددهم قدرا ضخما ، يدفعنا إلى اعتبار هذه الظاهرة « قانوناً » تاريخيا . ولقد ارتقت وسائط

---

(١) إيكونيا : مدينة قديمة بآسيا الصغرى ، وقد زارها القديس بولص فى رحلته الأولى آتيا من أنطاكية وقد أصبحت فى العهد الإسلامى عاصمة دولة السلاجقة ، وتعرف الآن بمدينة قونية . (المترجم) .

(٢) بومبى : قائد رومانى عظيم ، عين عام ٦٧ ق . م للقضاء على القرصان فى البحر الأبيض المتوسط ، فنجح فى مهمته نجاحاً كبيراً . وفتح بعد ذلك سوريا للرومانيين ، وأصبح عام ٥٢ ق . م حاكم روما المطلق . ثم نشب النزاع بينه وبين قيصر الذى انتصر عليه عام ٤٢ ق . م ، فهرب إلى مصر ، حيث قبض عليه . (المترجم)

الاتصال على مر القرون ، ارتقاء يجعلنا نتساءل فى عام ١٩٥٢ ؛ عن مستقبل العالم المصطبغ بالثقافة الغربية ، الذى يعيش كاتب هذه الدراسة بين ظهرانيه ، هو ومعاصروه .

وبالفعل ؛ ما إن حلّ عام ١٩٥٢ ، حتى كان قد انقضى حوالى الأربعة قرون ونصف قرن على انكباب الإنسان الغربى — مستخدما إبداعه وحذقه — على ربط ذلك الجزء بأسره المسكون والمطروق من كوكبنا الأرضى ، بعضه بالبعض الآخر ؛ بفضل توافر وسائط اتصال تستند على أسلوب تكنولوجى يطّرد تقدمه على الدوام .

ومصداقاً لذلك ؛ نجد السفن ذات الحجم النسبى الماثل والتى تتحرك آليا ، تحل محل السفن الشراعية الخشبية الكبيرة وما فى حكمها . وهى السفن التى جهّزت لتقاوم الرياح ، والتى عاونت رواد أوربا الغربية البحريين على تنصيب أنفسهم سادة على المحيطات بأسرها . كما استعيض عن الطرق الترابية التى تعبرها عربات تجرها ستة خيول ؛ بطرق معبّدة بالأسفلت أو أخرى شيّدت بالأسمنت المسلح ، تعبرها السيارات على أنواعها . وأصبحت السكك الحديدية تتنافس مع الطرق البرية ، وغدا النقل الجوى ينافس جميع وسائط النقل البرى والمائى .

ولقد تلاقى الإرتقاء فى وسائط النقل المائى ، مع الارتقاء فى وسائط نقل لا تقتضى نقل الأجسام البشرية نقلا ماديا . فكان أن أبرز الخيال إلى الوجود ؛ أشكال التلجراف والتليفون واللاسلكى بالراديو (سواء عن طريق السمع أو بالرؤيا)[1] .

ولم يحدث فى أى وقت مضى ؛ أن شمل الاتصال الوثيق فى كل

---

(١) وارتقى الاتصال اللاسلكى فأصبح يجمع — فى التليفزيون — بين السمع والرؤيا .
(المترجم)

جانب من جوانب العلاقات البشرية بين الناس وبعضهم بعضا ، فى مناطق تمتد هذا الامتداد الهائل .

لكن ، لم يكن لهذا الارتقاء ثمرته المرجوة فى تحقيق التوحيد السياسى فى نهاية المطاف ، للمجتمع الذى انبعثت بين ظهرانيه هذه الإشعاعات التكنولوجية . فما برحت الناحية السياسية فى مستقبل العالم الغربى ، تتسم بالغموض . إذ رغما عما قد يحس به المراقب من شعور جازم بتحقيق الوحدة السياسية بصورة أو بأخرى عاجلا أم آجلا ، لا يتيسر التنبؤ بميعاد هذه الوحدة أو بطريقتها .

وظاهر أن عالماً ما يزال ينقسم سياسياً إلى ستين أو سبعين دولة[1] تغار على سيادتها الإقليمية (حتى بعد ابتكارها القنبلة الذرية) ، هذا العالم قد يندفع إلى اعتناق الطريقة التقليدية باستخدام القوة العارمة لفرض التوحيد السياسى . فإن قيّض للسلام أن يتحقق هنا كما تحقق فى حالات كثيرة أخرى بفضل دولة عظمى قائمة بالفعل ، تفرض إرادتها المطلقة على بقية دول العالم ، فلقد ينبنى على فرض الوحدة بالقوة ، خسائر فى النواحى الخلقية والسيكلوجية والاجتماعية والسياسية (بفرض إغفال الناحية المادية) ، تجاوز الخسائر التى تترتب عن انقسام العالم إلى دول إقليمية .

وبالأحرى ، لا مناص من تحقيق الوحدة السياسية المرتجاة بفضل الطريقة البديلة القائمة على التعاون الاختيارى .

بيد أنه مهما يكن من أمر حل هذه المشكلة ، فإن الرسالة التاريخية لشبكة الاتصال العالمية الحديثة ، تكمُن يقينا فى تأديتها ذلك الدور الساحر

---

(١) أصبح عدد الدول الإقليمية المنضمة إلى الأمم المتحدة يجاوز المائة ، يضاف إليها ، الأمم التى تحول العوامل السياسية دون انخراطها فى عضوية تلك الهيئة . (المترجم)

الذى عرضنا له فيما سبق ، ويقوم على تحولها لخدمة مستفيدين لم تكرّس فى الأصل لخدمتهم :

فمن الذى يجتنى فى هذه الحالة ، أعظم قسط من المنافع ؟

يصعب القول بأن المستفيدين هم برابرة البروليتاريا الخارجية . فإننا وإن نشّأنا برابرتنا بالفعل (ويحتمل أن يبرز فى أوساطنا برابرة آخرون من رجال من طراز آتيللا فى شكل هتلر ومن فى حكمه ، تبتعثهم حضارتنا الملحدة) ؛ إلا أنه لا مجال لخشية نظامنا الفسيح الأرجاء من البقايا المنبوذة للبرابرة الأصيليين[1] خارج حدود المجتمع الغربى .

ومن الجهة الأخرى ؛ ما فتئت الأديان العليا الحالية (التى ترتبط مجالات نفوذها مع بعضها بعضا ومع مناطق وثنية يقطنها الرجل البدائى ، وتتقلّص يوماً عن آخر) ؛ تستفيد من الفرص التى تعرض لها : فإن القديس بولص الذى جازف وقتا ما بالارتحال من نهر العاصى[2] إلى نهر التيبر ، كان يتلهف إلى مخاطر رحلات فى بحار أوسع نطاقا من البحر الأبيض المتوسط . وقد تحققت فكرته ، وقتما ارتحلت تعاليمه رحلتها الثانية فى مركب برتغالى حول رأس الرجاء الصالح[3] . ثم قطعت شوطاً أبعد من ذلك فى رحلتها الثالثة إلى الصين عبر بوغازى ملقا[4] .

---

(١) يعنى الأستاذ المؤلف باصطلاح البرابرة الأصيليين ، الأقوام الذين لم يتأثروا بالحضارة الغربية وما يزالون على فطرتهم الأصلية . ويقابلهم البرابرة المحدثون ويعنى بالاصطلاح أولئك القادة الذين يستخدمون العنف تحقيقاً لأهدافهم التوسعية . (المترجم)

(٢) نهر الأورنت قديماً . (المترجم) .

(٣) باعتبار أن استيطان النسطورية ترافنكور (بالهند) يمثل المحاولة الأولى لتحويل الهند إلى المسيحية ، وباعتبار بعثة الجزويت إلى بلاط أكبر ، هى المحاولة الثانية . (المؤلف)

(٤) باعتبار أن استيطان النسطورية سينجان خلال القرن السابع عشر ، هو محاولة المسيحية الأولى لتحويل الصين إلى المسيحية ، والبعثات المسيحية الغربية التى أوفدت إلى الصين بطريق البر إبان القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، هى المحاولة الثانية ، والبعثات التى أوفدت بحراً إبان القرن السادس عشر ، هى الثالثة . (المؤلف)

ثم كان أن عبر التبشير المسيحي المحيط الأطلسي من قادس إلى فيراكوز Vera Cuz[1]. وعبر المحيط الهادي من آكابولكو Acapulcs[2] إلى الفلبين .

ولم تقتصر استفادة العقيدة الدينية من وسائط الاتصال الغربية ، على المسيحية الغربية وحدها . إذ أمكنت المسيحية الشرقية الأرثوذكسية فى أعقاب رواد القوزاق ، أن تقطع الرحلة الطويلة من نهر كاما إلى بحر آخوتسك[3] ، بفضل استخدام الأسلحة النارية الغربية . كذلك استتر القديس بولص وراء دافيد لفنجستون المبشر الأسكتلندى ، الذى كان يبشر بالإنجيل ويداوى المرضى ويستكشف البحيرات ومساقط المياه .

وتمضى رسالة التبشير الإسلامية هى الأخرى قدُماً ، بفضل طرائق الاتصال الحديثة . كما لن يستغرب إذ تعاود بوذية المهايانا رحلتها العجيبة مستخدمة طرائق الدولة هذه المرة ، من ماجاد Magadha[4] إلى لوانج[5] . ولعلها بفضل صحوتها من سباتها ، تستفيد بمخترعات حيوية كالطائرات والراديو ، فى تبشيرها بالخلاص ؛ مثلما استفادت من قبلئذ ، اختراع المطبعة الصينية .

ولا تقتصر نتائج التبشير الدينى (على نطاق عالمى) على المناحى المتصلة بالتقسيمات السياسية الجغرافية . فإن ولوج الأديان العليا الثابتة الأركان ، ميادين تبشيرية جديدة ، يبرز إلى العيان مسألة النأى بجوهر الدين الخالد

---

(١) فيراكروز : مقاطعة بالمكسيك . (المترجم) .

(٢) آكابولكو : أهم ميناء للمكسيك على شاطىء المحيط الهادى . وتبعد عن العاصمة بنحو ١٨٠ ميلا . (المترجم)

(٣) آخوتسك : بحر داخل يقع شرق سيبريا شمال المحيط الهادى ويتجمد ستة شهور فى السنة . (المترجم)

(٤) ماجادا : هى فى الهند القديمة ، اسم مملكة براسيل وكانت تقع على نهر الجانج . (المترجم)

(٥) لوانج : عاصمة لاوس . (المترجم)

عن تأثيرات الأحداث الزائلة . ولقد ترتب عن مصادمات الأديان بعضها مع البعض الآخر ، انبعاث سؤال يتصل بتقبّل الأديان على طول المدى ، العيش جنباً إلى جنب ؛ أو أن طغيان إحداها على بقيتها أمر مقدر :

هنا تطالعنا الإجراءات التي اتخذها كل من ألكسندر سفيروس الروماني[١] والإمبراطور أكبر الهندي[٢] تحقيقاً لفكرة مثالية وجدت في نفسيهما هوى . إذ سيرهما مزيج من الحذلقة الذهنية ورقة القلب ، إلى السعي لإيجاد عقيدة دينية تجمع بين طائفة من مبادئ الأديان المختلفة . بيد أن تجربتيهما باءت بالفشل المطبق .

واستلهم الرواد من المبشرين الجزيت ؛ مبدأ مثالياً آخر يقوم على اجتذاب للعالم الهندي وعالم الشرق الأقصى ، إلى حظيرة المسيحية . فإن إكسافير[٣] وماتيو ريكس ، الجوالين الروحانيين ؛ هما أول مبشرين دينيين ، اغتنما الفرص التي هيأتها فتوحات التكنولوجية الغربية لأهالي البحار . على أنهما وقد وُهبا إدراكاً عقلياً إلى جانب بطولة العقيدة، لم يغب عنهما استحالة نجاح مشروعيهما ، إلا مع توافر شرط جوهري ، لم يترددا في تقبّل نتائجه .

---

(١) ألكسندر سفيروس : إمبراطور روماني (٢٢٢ — ٢٣٥ م) . اشتهر بتقواه وعدالته . ورغما عن تمسكه بوثنيته، إلا أنه أبدى احتراماً كبيراً لقواعد المسيحية . (المترجم)

(٢) حاول أكبر حل مشكلة تعدد الأديان والمذاهب في الهند ، عن طريق توليف دين يجمع — في اعتقاده — بين محاسن الأديان المعروفة في عهده . لكنه فشل فشلا ذريعا . (المترجم)

(٣) اكسافير Xavier : (١٥٠٦ — ٥٢) مبشر أسباني اشترك في تأسيس جمعية المسيح للتبشير . وفي سنة ١٥٤٠ ارتحل إلى جزائر الهند الغربية للتبشير بالمسيحية . ثم قام بعد ذلك بعدة رحلات إلى الهند وسيلان . وأقام في اليابان عامين (١٥٤٩ — ١٥٥١) استطاع خلالها إنشاء حركة قوية التبشير ، حتى بلغ عدد المسيحيين بعد وفاته بأربعين سنة ، حوالى الأربعمائة ألف . لكن حاكم اليابان اعتقد بأن المسيحية تمهيد للاستعمار الاسبانى ، فكان أن استأصل شأفتها . وأقفلت اليابان أبوابها في وجه الأجانب حوالى الأربعمائة سنة ، وفتحتها في منتصف القرن التاسع عشر تحت ضغط الأمريكيين . (المترجم)

فلقد أدركا أن على المبشر إبلاغ رسالته فى عبارات يرتضيها سامعها : من ناحية الطلاوة والمنحى الثقافى والتأثير العاطفى . وكلما تزايدت الروح الثورية الكامنة فى الرسالة ، كلما تعاظمت أهمية تقديمها فى ثوب مألوف جذاب . لكن يتطلب تنفيذ هذا ؛ تجريد الرسالة من ردائها القديم الذى ورثه المبشرون أنفسهم عن تقليدهم الثقافى ، والذى أصبح يجافى منحى الرسالة الجديد . كما يقتضى ذلك ، أن يتكفل المبشرون ، خلال عرضهم عقيدتهم الدينية فى ثوبها التقليدى ، بتقرير ما هو جوهرى وما هو عرضى .

بيد أن مناط العقبة السائد فى طريق هداية الجماعات الغير المسيحية ؛ أن المبشر الذى ينصب نفسه لهداية هذه الجماعات ، إنما يضع تحت أقدام رفاقه أنفسهم ، عقبة إضافية تترتب عن تنافس البعثات التبشيرية وحسدها بعضها بعضاً . نعم ؛ تحطمت على هذه الصخرة ، جهود بعثات التبشير المسيحية الحديثة . لكن قد لا يكون هذا خاتمة قصة التبشير المسيحى الحديث .

وإلى تزمّت الفاتيكان[1] ؛ يرد جانب من فشل بعثات التبشير المسيحية . فى حين أنه لو لم ينزع بولص الطرسوس ببراعة عن المسيحيـــة أرديتها الفلسطينية التى كانت تكسوها وقتما وفدت إلى العالم[2] ؛ لما قيّض أبدا لفنانى الأقبية الرومانية من المسيحيين ، ولا لفلاسفة المدرسة اللاهوتية المسيحية بالإسكندرية ؛ الفرصة لعرض المسيحية فى ثوب الفكر والخيال اليونانيين . فكان أن مهدوا الطريق لاعتناق العالم الهلينى لها .

وبالمثل ؛ ماكان ليتيسر للمسيحية ، اغتنام الفرصة العالمية الطابع — وقت كتابة هذه السطور — لكل دين عظيم ؛ لولم تجرد مسيحية أغسطين وأوريجين

---

(١) الفاتيكان : المقر البابوى فى روما . (المترجم)

(٢) يقصد الأستاذ المؤلف ، تلك التأثيرات الفلسفية اليونانية التى أدخلها بولص على قواعد المسيحية ، لتصبح أقرب إلى العقلية الأوربية ؛ ما يغريها باعتناقها . (المترجم)

نفسها من الزخارف التي تسلطت عليها إبان وقوفها خلال رحلتها التاريخية ، على محطات الوقوف المتعاقبة : السورية والهلينية والغربية .

والواقع ؛ يقضي الدين السامي على نفسه بالجمود والعقم الروحي ، إن تهاون في حق نفسه ، فتطور إلى مجموعة من الزخارف ؛ التي وإن ضمّت بين طياتها قبساً موقوتاً من شعلة الثقافة ، إلا أنها تنأى بالدين عن مجال الروح .

فإن سلكت المسيحية طريق الروح ؛ فلعلها في نهاية المطاف ؛ تنجح في إنجاز عمل مجيد ، سبق أن أنجزته في إبان عصر الإمبراطورية الرومانية . وقتما أمكنها بفضل طرق المواصلات الرومانية ، استخلاص عناصر روحية من الأديان العالمية والمدارس الفلسفية التي واجهتها ، ووراثة أفضل لباسها . ولا جرم في عالم يتصل بعضه بالبعض الآخر اتصالا مادياً بفضل المخترعات التكنولوجية الغربية الحديثة ؛ يُتوقع مساهمة الهندوكية والبوذية المهايانية ؛ بقسط لا يقل في نفعه للفراسة والخبرة المسيحيتين ، عن عبادة إيزيس والفلسفة الأفلاطونية الحديثة .

كذلك ؛ لو كان على كل إمبراطورية في العالم الغربي ، أن تقوم وتسقط على غرار تداعي أو اضمحلال إمبراطورية قيصر ، بعد انقضاء بضع مئين من السنين ؛ لأصبح في وسع كل مؤرخ يتطلع في عام ١٩٥٢ إلى المستقبل ، أن يتصور المسيحية وقد ورثت المدارس الفلسفية بأسرها ؛ من فلسفة أخناتون حتى فلسفة هيجل . ووراثة جميع الأديان ، منذ العبادة الخفية الموغلة في القدم للأم وابنها ؛ تلك العبادة التي سلكت في رحلتها تحت اسمي إيشتار وتموز ، الطرق التي أنشأتها الحكومات على اختلافها .

(ب) الحاميات والمستعمرات :

تعتبر ضياع المؤيدين المخلصين للنظام الإمبراطوري (وقد يكونون جنوداً

فى الخدمة العسكرية العاملة أو من الجنود المسرّحين أو من المدنيين) ؛ جزءاً لا يتجزأ من أى نظام اتصال إمبراطورى . فإن وجود كلاب الحراسة الآدميين هؤلاء وجرأتهم ويقظتهم ؛ يكفل للسلطات الإمبراطورية ، الأمن الذى لا نفع بدونه من إنشاء الطرق وإقامة الكبارى وما إليها .

وتعتبر مواقع الحدود بالمثل ؛ جزءاً من نفس النظام ، لأنها دائماً طرق جانبية عامة .

وقد تعمد الدولة بالإضافة إلى إقامة الحاميات لأغراض الحراسة أو الدفاع ، إلى إقامة المستعمرات . آملة من وراء ذلك ؛ تحقيق غاية أعظم نفعاً ، تستهدف استصلاح معالم التخريب الناجمة عن صراع السيطرة المدمر ، خلال الفترة المبكرة من عصر الاضطرابات .

ولقد سيطرت على ذهن قيصر فكرة رأب ما صدعته الحروب ؛ وقتما عمّر المواقع الموحشة لكابوا وقرطاجنة وكورنث ، بمستعمرات المواطنين الرومانيين المستقلة استقلالا ذاتياً . وكانت الحكومة الرومانية قد تعمدت خلال صراعها فى سبيل البقاء مع الدول الإقليمية الهلينية ، أن تمثل بكابوا ، لانحيازها الغادر إلى صف هانيبال ، وأن تمثّل بقرطاجنة لإقدامها على دجر روما نفسها . وتفردت كورنث دون غيرها من عصبة المدن الآخية ، بمعاملة تعسفية . ولقـــد أصر الحزب المحافظ أيام النظام الجمهورى (قبل عصر قيصر) على معارضة ترميم هذه المدن المشهورة الثلاث ، لاخشية ابتعاث قوتها ، ولكن لمحض الانتقام منها . فكان أن أصبح على مر الأيام الخلاف الشديد على طريقة معاملتها ، رمزاً لنزاع واسع المدى.

فهل ينحصر المبرر لبقاء الحكم الرومانى ، فى تحقيق المصلحة الأنانية للدولة التى أقامت هذا الحكم ؟ .

أو هل قامت الإمبراطورية لكفالة الخير العام للعالم الهلينى الذى أصبحت الإمبراطورية تجسّده السياسى ؟ .

هذان هما الرأيان المتعارضان ، الممثلان لفكرتى مجلس الشيوخ الرومانى وقيصر . فكان انتصار قيصر على مجلس الشيوخ ، انتصاراً لوجهة نظر أوسع أفقاً وأعظم إنسانية ، وأنبل مقصداً .

وليس هذا الاختلاف المعنوى الحاد بين النظام الذى اتخذه قيصر والنظام الذى أبطله ، بالشيء الفريد فى التاريخ الهلينى . إذ قد صاحب الانتقال من مرحلة الاضطرابات إلى مرحلة الدولة العالمية فى تاريخ الحضارات الأخرى ، صاحبه تغيّر مماثل فى الاتجاه صوب استعمال القوة والتعسّف فى استخدامها . بيد أنه رغماً عن التسليم بهذا « القانون التاريخى » ، إلا أنه يتعرض لكثير من الاستثناءات .

إذ لا يقتصر فعل « مرحلة الاضطرابات » على توليد البروليتاريات المنكودة الطالع التى تُقتلع عن مواطنها ، بل ينتج عنها توطين مغامريها على نطاق واسع ، فى مناطق بعيدة عن مواطنها الأصلية . ومن قبيل المثال ، ذلك الحشد من المدن الهلينية التى شيّدها الإسكندر الأكبر ، على أملاك الإمبراطورية الأخيمينية (الفارسية) .

وعلى النقيض من ذلك ، قلما يتوافر الثبات اللازم فى نزوع الأقلية المسيطرة إلى الخير ، وهو اتجاه أحرى بأن يكون سبيل دولة عالمية . وقلما ينتكس هذا الاتجاه فيتردى إلى الأوضاع التى كانت شائعة فى إبان مرحلة الاضطرابات ، وهى المرحلة التى تسبق مرحلة الدولة العالمية . ويطالعنا فى هذا الصـــدد ، مثال الإمبراطورية البابلية الجديدة التى وقفت بوجه عام إلى جانب ثورة أخلاقية اندلعت ضد وحشية رجال حدود الإمبراطورية من الأشوريين . إلا أن هذه الإمبراطورية قد اندفعت إلى استئصال مملكة جوديا ، مثلما استأصل الأشوريون مملكة إسرائيل (١) . ولا يتفق فى هذا المجال ، مع واقع الحال ، نسبة فضل

---

(١) انقسم اليهود إلى مملكتين : مملكة جوديا Judea فى الشمال ، ومملكة إسرائيل وعاصمتها القدس فى الجنوب . (المترجم)

أخلاق لبابل على نينوى[1] ، بالقول بأن بابل قد سمحت بالعيش للمنفيين من « مملكة جوديا » ، إلى أن أتاحت لهم الدولة الإخيمينية خليفة بابل ، العودة إلى موطنهم . فى حين استصفت آشور « القبائل العشر المفقودة » ، فانتهى أمرها إلى الأبد ، إلا فى مخيلة اليهود البريطانيين[2] .

ومهما يكن من الأمر ، فبالرغم من الاستثناءات ، ثمة حقيقة لا تمارى تقوم على أن سياسة الاستيطان البنّاءة الإنسانية الطابع ، مظهر من مظاهر الدولة العالمية .

وقد سبق أن عينّا فاصلا بين الحاميات التى تهدف إلى تحقيق غرض حربى ، أو إلى كفالة الأمن ، وبين المستعمرات التى ترنو إلى غايات اجتماعية أو ثقافية . بيد أنه يتبين على طول المدى ، أن العبرة فى تعيين الفاصل ، يظهر فى الغرض ، لا فى النتيجة . وقلما يخيب مسعى الحاميات العسكرية التى ينصبها بناة الإمبراطورية على حدود الدولة العالمية وفى داخليتها ، فى استجلاب المدنين للاستيطان عن كثب منها .

ومن قبيل المثال ، أنه على الرغم من حظر الزواج رسميا على جنود الكتائب الرومانية أثناء فترة خدمتهم بالجيش ، كان يسمح لهم عمليا بإقامة علاقات دائمة مع المحظيات ، وتنشئة العائلات . وكان فى مكنتهم ، بعد تسريحهم من الخدمة ، تحويل التسرّى إلى زواج شرعى ، والاعتراف بشرعية أولادهم منهن . وكان يؤذن للجند العرب ، باصطحاب زوجاتهم وأطفالهم .

وهكذا ، غدت الحاميات العسكرية الرومانية والعربية ، نواة

---

(١) نينوى : عاصمة دولة آشور . (المترجم)

(٢) كان اليهود يكونون فى الأصل اثنى عشرة قبيلة ، ينتسب كل منها إلى ولد من أولاد يعقوب الاثنى عشر . ويسمى يعقوب أيضاً بإسرائيل . (المترجم)

الاستيطان المدنى . ويصدق هذا القول على مواقع الحاميات العسكرية فى كافة الإمبراطوريات وفى جميع الأزمنة .

بيد أن المستعمرات المدنية إذ تنبعث كمنتجات فرعية للمؤسسات العسكرية ؛ تعمّر كذلك باعتبارها أهدافاً فى حد ذاتها . مثال ذلك ؛ أن مقاطعات الأناضول الشمالية الشرقية التى أقطعها أباطرة الدولة الأخيمينية لنبلاء فارس ، قد عمّرها العثمانيون بألبانيين اهتدوا إلى الإسلام . ولقد أسكن العثمانيون بالمراكز التجارية فى قلب ممتلكاتهم ، جماعات من مهاجرى اليهود (من السفاردية) الذين نزحوا إلى الإمبراطورية العثمانية من أسبانيا والبرتغال .

وفى وسعنا إيراد قائمة طويلة بالمستعمرات التى أنشأها الأباطرة الرومانيون، مراكز للحضارة (اللاتينية أو الهلينية وفقا للأحوال) فى مناطق الإمبراطورية الأشد تأخرا . ويطالعنا فى مدينة أدريانوبل[1] ، مثال من أمثلة كثيرة ؛ إذ يُذكر اسمها حتى هذه الأيام ، بجهود إمبراطور عظيم من القرن الثانى ، لتخليص أهالى تراقيا من بربريتهم التقليدية . واتبع بناة الإمبراطورية الأسبانية نفس السياسة فى أمريكا الوسطى والجنوبية : فكان أن أدّت المدن التى أنشأها المستعمرون الأسبان ، وظيفة الخلايا لنظام إدارى وقضائى أجنبى دخيل ، مثلها مثل المدن الهلينية .

« برزت المدن فى المستعمرات الأنجلوأمريكية لسد احتياجات سكان الريف . أما فى المستعمرات الإسبانية ، فقد تزايد سكان الريف لمواجهة احتياجات المدن . وبينما تجلّت بصفة عامة الغاية الأساسية للمستوطن الإنجليزى ، فى العيش على الأرض واكتساب أوده من زراعتها ؛ كان مناط الغاية الأساسية للإسبانى ، الحياة فى المدن واجتناء معاشه من الهنود

---

(١) هى مدينة أدرنة فى تراقيا التركية . (المترجم)

أو الزنوج العاملين فى الضياع أو فى المناجم . ونظرا لاستغلال جهود السكان الأصلاء فى العمل فى الحقول والمناجم ؛ فقد ظل الهنود ، جمهرة سكان الريف العظمى[١] .

وثمة نوع من الاستيطان الداخلى يبرز فى المرحلة الأخيرة لتاريخ دولة عالمية . ذلك هو السماح للبرابرة بتعمير الأراضى التى أقفرت من سكانها ، سواء نتيجة لإغارات البرابرة أنفسهم ، أو بفعل إصابة الإمبراطورية المتداعية بداء اجتماعى ؛ ويحضرنا مثال تقليدى فى سماح الإمبراطورية الرومانية بعد عصر دقلديانوس بإقامة مستعمرات ألمانية وسرماتية [٢] على الممتلكات الرومانية فى بلاد الغال[٣] وإيطاليا والأقاليم الدانوبية . ولقد أطلق على المستوطنين البرابرة كلمة Zaeti الشائعة فى غرب ألمانيا ؛ وتعنى الأجانب أشباه الأرقاء المستوطنين البلاد . ولعل البحث يقودنا إلى أنهم ذرارى أعداء من البرابرة المنهزمين ، ينزل أهل البلاد القصاص بهم على أعمالهم العدوانية التى ارتكبوها فيما سلف من أيامهم ؛ بإلزامهم بالتحول إلى زراع مسالمين فى الأرض التى اجتاحوها فى إغاراتهم السابقة ، وكانوا يعتبرونها بمثابة أرض الميعاد[٤] ، أو لعل أهالى البلاد يتوددون إليهم بهذا الإجراء .

وعلى أية حال ؛ فلقد استقر البرابرة المغيرون فى داخلية البلاد ، لا فى مناطق الحدود .

ويوحى استعراض الحاميات والمستعمرات التى شيدها حكام الدولة

---

(١) صفحتا ١٥٩ و ١٦٠ Haring, C. H. The Spanish Empire in America.

(٢) تقع سرماتيا شرق ألمانيا . ويقطنها الروس والبولنديون فى الوقت الحاضر . (المترجم)

(٣) بلاد الغال : فرنسا الحالية . (المترجم)

(٤) أرض الميعاد فى الأصل هى فلسطين بالنسبة لليهود . (المترجم)

العالمية ، ويبث التأمل فى عملية نقل السكان تعسفيا ؛ فكرة مدارها أنه مهما يكن من أمر فضائل هذه النظم فى مواطن أخرى ، فلا بد وأنها قد عززت عملية التحوّل البروليتارى واختلاط العناصر ؛ التى رأينا أنها سمة « عصر الاضطرابات » ومظهر مرحلة « الدولة العالمية » على السواء . إذ تصبح الحاميات العسكرية الدائمة التى تنشأ على الحدود ، بوتقة انصهار ؛ تمزج فيها الطبقة المسيطرة نفسها بالبروليتاريتين الخارجية والداخلية كلتيهما . وينحو بمرور الزمن حراس الحدود هم وعصابات الحرب البربرية المعسكرين فى الجانب الآخر منها ، إلى الامتزاج بعضهم بالبعض الآخر . ويتم ذلك فى محيط التكنولوجية الحربية فى البداية ، ثم ينتهى الحال إلى التمازج الثقافى .

على أنه قبل اصطباغ الطبقة المسيطرة بالصبغة البربرية بزمن طويل (بفضل اتصالها بالبروليتاريا الخارجية على حدود البلاد) ؛ نجدها تهبط (بفضل تآخيها مع البروليتاريا الداخلية) إلى المستوى الثقافى لفئات المجتمع الدنيا ؛ ذلك لأن بناة الإمبراطوريات ؛ قلما يحتفظون بقوة عسكرية ضاربة تكفى للوفاء بأغراضهم ، أو يوفرون للجيوش المحترفة ، الحماس القمين يدفعها إلى الاستمساك بإمبراطوريتها والدفاع عنها دون التماس مساعدة خارجية ؛ ومن ثم ؛ يلجأ بناة الإمبراطورية تعزيزاً لجيوشهم ، إلى التزوّد بأية مساعدة خارجية متاحة . وتتجلى هذه المساعدة فى بداية الأمر فى تكوين الجيوش من شعوبهم الخاضعة لسلطانهم ؛ وهى شعوب لم تفقد فضائلها الحربية بعد ؛ ويشرع بناة الإمبراطوريات فى مرحلة تالية فى التزوّد كذلك ، بالجنود من بين صفوف برابرة الحدود .

فمن هو المستفيد الأساسى من عملية امتزاج العناصر والتحول البروليتارى؟

واضح أن البروليتاريا الخارجية هى أبرز المنتفعين . إذ يمكّن التعليم الذى يتلقاه البرابرة بفضل احتكاكهم بالمواقع الحربية التى تنشئها الحضارة

عند حدودها الخارجية (احتكاك يتم بفضل مناوشتهم لها فى بداية الأمر ، ثم بانخراطهم جنوداً مرتزقة فى جيوشها) ؛ يمكّنهم هذا من الانقضاض فيما بعد عبر الحدود المنهارة ، على الدولة العالمية المتداعية لتلك الحضارة . ويتمكنون بالتالى من اقتطاع دول تخلف تلك الدولة العالمية . وتعرف هذه المرحلة باسم « عصر البطولة » . وهو عصر سبق أن بيّنا أن مآثره سريعة الزوال .

والمسيحية والإسلام هما المستفيدان النهائيان من عملية إعادة تنظيم السكان وإدماجهم داخل الإمبراطوريتين الرومانية والعربية على التوالى . وهذا ما نتبينه فيما يلى :

فإن الإسلام قد انتفع – كما هو ظاهر – بالمعسكرات وحاميات الحدود التى أقامتها الخلافة الأموية . إذ جعل منها نقاط ارتكاز تنتشر منها طاقاته الروحية الكامنة ، انتشاراً غير عادى . وأمكن لرسالة الإسلام بفضل هذا الانتشار ، أن تتألّق وأن تتكيف على مر العصور . فإذا كان الإسلام قد اندفع من شبه الجزيرة العربية فى إبان القرن السابع الميلادى ، عقيدة اقتصرت فى بداية الأمر على العرب وحدهم (وكانوا قبل إسلامهم عصابات حربية تقتطع لنفسها مقاطعات من ممتلكات الإمبراطورية الرومانية) ؛ إلا أنه لم يأت القرن الثالث عشر الميلادى ، حتى غدا الإسلام ديناً عالمياً ، تفىء إلى ظله الأقوام التى هجرتها دعاتها بعد انهيار الخلافة العباسية وقتما تحللت الحضارة السورية[1] .

فما هو سر قوة الإسلام على البقاء ، بقاؤه بعد وفاة رسوله ، ثم زوال بناة امبراطوريته من العرب ، وانهيار من حلوا محلهم من الإيرانيين ،

---

(١) باعتبار أن الخلافة العباسية هى الدولة العالمية للحضارة السورية بعد استعادتها بفضل العرب المسلمين . (المترجم)

وانهزام الخلافة العباسية ، وتداعى الدول التى قامت فترة ما على أنقاض الخلافة العباسية ؟

يكمن التفسير فى التجربة الروحية التى مر بها المهتدون إلى الإسلام ، من رعايا الخلافة الأموية من غير العرب

فلقد تأصلت جذور الإسلام فى قلوبهم ، فأولوه أهمية تفوق نظرة العرب إليه . وإن كان منهم من أقبل على اعتناقه فى بداية الأمر ، تحقيقاً لمنافع عاجلة .

ولا جرم أن عقيدة دينية توفق التوفيق كله تحت تأثير فضائلها الذاتية فى الفوز بولاء الناس لها ، عقيدة لا يستند بناؤها (أو زوالها) على أهواء تلك النظم السياسية التى تنشد استغلال العقيدة لتحقيق غايات تجافى مبادئها ؛ ليعتبر انتصارها الروحانى ، أعجب مثال يبين أنه وإن حلت الكوارث بالأديان العالمية الأخرى التى سمت إلى تحقيق غايات سياسية ؛ إلا أن الإسلام — عكسها — لم يؤثر فيه هذا الاتجاه . وهذا ما يبديه استقراء اتجاهه السياسى منذ عهد الرسول نفسه ثم فى عهد خلفائه من بعده . فإن هجرة النبى العربى من مكة إلى المدينة ؛ قد جعلت منه سياسياً ناجحاً لامعا ، عوضا عن بقائه بمكة نبياً قليل الحظ من الأتباع والأنصار .

وإذا كان استخدام العقيدة الدينية الإسلامية قد عرّض الإسلام للمخاطر التى تعرضت لها العقائد الدينية الأخرى التى استخدمت أداة لإدراك أهداف سياسية ؛ إلا أن الإسلام وحده هو الذى سلم من هذه المخاطر .

وهكذا ؛ تبينت بمرور الأجيال والأحقاب ، عظم قدر الرسالة الروحية التى أبلغها محمد إلى البشرية .

وترتبت على السياسة التى اتبعها بناة الإمبراطورية الإسلامية فى إبان عهد الخلافة ، لإقامة الحاميات العسكرية وإنشاء المستعمرات وتنظيم عملية نقل

السكان وامتزاج عناصرهم ؛ ترتبت نتيجة لم تتوقع ولم تقصد أصلا ، مدارها التعجيل بإنجاز رسالة الإسلام الروحية .

ولقد انبنت فى تاريخ الإمبراطورية الرومانية نتيجة مماثلة :

إذ تبلورت فى الحاميات العسكرية على طول الحدود فى إبان القرون الثلاثة الأولى من تاريخ الإمبراطورية الرومانية ؛ أشد تأثيرات الموصّلات الدينية نشاطاً وذيوعاً . وتجلت هنا بصفة خاصة ؛ سرعة التبشير الدينى فى عبادة جوبيتر[1] ذات الأصل الحيثى ، وعبادة ميترا الإيرانية الأصل[2] ؛ وذلك بعد اصطباغهما بصبغة هلينية . وفى وسعنا أن نتتبع انتقال هاتين العقيدتين الدينيتين من بين ظهرانى الحاميات العسكرية الرومانية على الفرات ، إلى الحاميات المعسكرة على نهر الدانوب ، وعلى الحدود الألمانية ، وعلى نهر الراين ، وفى قلاع بريطانيا .

ويذكّرنا شـيوع هاتين العقيدتين الدينيتين بين الحاميات العسكرية الرومانية ؛ برحلة عقيدة دينية عاصرتهما ، هى البوذية المهايانية ؛ فى إبان المرحلة الأخيرة من رحلتها من الهند حول الجانب الغربى من هضبة التبت . فلقد تابعت رحلتها من شواطئ حوض نهر تارين إلى شواطئ المحيط الهادى على طول سلسلة من الحاميات العسكرية ، تحرس حدود دولة عالمية صينية

---

(١) جوبيتر (ويدعى إيوبيتر باللاتينية) : كبير آلهة الرومان القدماء . وتعادل مكانته ، مكانة زيوس عند اليونانيين . (المترجم)

(٢) ميترا : أحد أرباب فارس القديمة . جعلت منه الزرادشتية ملاكا للضياء يقف إلى جانب إله النور آهورامازدا فى صراعه ضد إله الشر والظلام آهريمان . وقد انتقلت عبادته بانتقال الجيوش الفارسية . وأخيراً استوطن آسيا الصغرى ، مندمجاً مع عبادة الشمس وغيرها من العبادات التى كانت شائعة فى غرب آسيا . ومنها انتشرت عبادته فى صورتها الجديدة فى الإمبراطورية الرومانية ، وتمكنت بين الحاميات العسكرية الرومانية ، وشجع انتشارها الأباطرة الرومانيون . وقد بدأت عبادة ميترا تتداعى منذ عام ٢٧٥ م بفعل ضغط المسيحية ، وقضى عليها الإسلام فى فارس وغيرها من بلاد غرب آسيا . (المترجم)

ضد بدو السهب الأوراسى(١) . ونجحت عقيدة المهايانا خلال الفصل الثانى من قصة انتشارها ، فى النفوذ إلى داخلية الدول العالمية الصينية ، قادمة من حدودها الشمالية الغربية . فأصبحت والحالة هذه ، الديانة العالمية للبروليتاريا الداخلية الصينية . وغدت فى نهاية الأمر ، إحدى العقائد الدينية ، فى عالم ينزع إلى الثقافة الغربية .

أما عن عقيدة ميترا وعبادة جوبيتر ، فإن مصيرهما أكثر تواضعاً إذ نظراً لارتباطهما (كما تبين ذلك فيما بعد) بمصير الجيش الرومانى الإمبراطورى ، لم تفق قط هاتان العقيدتان ذاتا النزعة الحربية ، من تأثير الضربة التى أصابتهما بفعل الانهيار الموقوت الذى ألمّ بالجيش الرومانى فى منتصف القرن الثالث المسيحى . على أن للعقيدتين أهمية تاريخية ما تزال باقية فى كيان المسيحية . إذ يعتبران رافدين من روافد تيار التقاليد الدينية المتفجر ، الذى غذّاه تلاقى الكثير من الأمواه فى مجرى النهر الذى حفرته المسيحية لنفسها ، وقتما تدفقت على الإمبراطورية الرومانية ، على طول مجرى يختلف عن مجرى العقائد الدينية الأخرى .

وإذا كان جوبيتر وميترا ، قد استخدما حاميات الحدود ، معبراً لسيرهما من الفرات إلى الشمال الغربى صوب نهر التاين Tyne(٢) ، فقد استفاد القديس بولص بالمثل من المعسكرات التى شيدها قيصر وأغسطس فى داخلية الإمبراطورية الرومانية . فى رحلته التبشيرية الأولى ، بذر القديس بولص بذور المسيحية فى أنطاكية بيسيديا(٣) ، وفى ليسترا(٤) . وبذرها فى رحلته

---

(١) الأوراسى : الأوربى الأسيوى . (المترجم)

(٢) نهر التاين : نهر فى شمال إنجلترا يبلغ طوله حوالى ٤٢ ميلا . (المترجم)

(٣) بيسيديا : اسم أطلق على قطر جبلى فى جنوب آسيا الصغرى . وكان يقطنه سكان أشداء دأبوا على الإغارة على جيرانهم . وقد أخضعهم الإسكندر الأكبر بعد مقاومة عنيفة . وأصبحت بيسيديا مقاطعة رومانية وهى الآن جزء من الجمهورية التركية . (المترجم)

(٤) ليسترا : كانت مستعمرة رومانية فى آسيا الصغرى وقد زارها القديس بولص ومكانها الآن قرية خاتين سراى . (المترجم)

الثانية فى المستعمرات الرومانية فى ترواس Troas[١] وفيليبي Philippi[٢] وكورنث. على أن القديس بولص ، كان أبعد من أن يحصر نشاطه فى مثل هذه المستعمرات . من ذلك أنه استقر طيلة عامين بمدينة إفسوس Ephesus[٣] الهلينية القديمة . على أن كورنث وإن أقام بها ثمانية عشر شهراً ، لم تؤد دوراً هاماً فى حياة الكنيسة المسيحية ، فى إبان الفترة التى تلت عصر الرسل . وفى وسعنا أن نحدس بأن تبريز الجماعة المسيحية هنا ، يرد بعضه إلى طابع السكان المختلط فى المستعمرات التى أقامها قيصر لتوطين عتقاء روما .

فإن مدينة ليون بفرنسا وليست كورنث باليونان ، هى أعظم أمثلة المستعمرات الرومانية لفتاً للأنظار من ناحية تحولها للقضية المسيحية . إذ لم يبطل تقدم المسيحية من مستعمرة إلى أخرى وقتما بلغت روما ، كما لم يتوقف انتشارها بوفاة القديس بولص . ومدينة ليون هذه ، هى مدينة لوجودونم Lugudonum التى كانت مدينة لاتينية اسماً ومبنى ، والتى اختير عام ٤٣ ق . م مكان إنشائها بعناية ، فى زاوية كونها التقاء نهرى الرون والساؤن Saône . وكانت الغاية من توطين المواطنين الرومانيين ذوى الأصل الروماني الخالص فى هذه المستعمرة الواقعة على عتبة الأصقاع الرحيبة لبلاد

---

(١) ترواس : هى مدينة طروادة فى آسيا الصغرى ، وهى أساس ملحمة الإلياذة لهوميرس . (المترجم)

(٢) فيلبى : مدينة قديمة فى مقدونيا . حصنها فيليب الثانى ملك مقدونيا لحماية مناجم الذهب بجوارها . وأصبحت مستعمرة رومانية بعد هزيمة بروتوس وكاسيوس على أيدى أوكتافيوس وأنطونيوس . (المترجم)

(٣) إفسوس : مدينة قديمة بآسيا الصغرى . وما تزال بقاياها قائمة على بعد ٣٥ ميلا من مدينة أزمير ، وكانت تشتهر بمعبدها الذى كانت تعبد فيه آرتميس (ديانا) ربة الطبيعة فى آسيا الصغرى . وقد اعتبر هذا المعبد فى عصره إحدى عجائب الدنيا السبعة ، وقد دمره القوط عام ٢٦٣ ميلادية . (المترجم)

الكلت التى ألحقتها فتوحات قيصر بالإمبراطورية ؛ كانت الغاية منه استخدام هذا المركز الكلتى لإشاعة الثقافة الرومانية فى تلك الأنحاء ، مثلما أشعتها بالفعل مدينة ناربون Narbonne المستعمرة الرومانية القديمة ، فى أرجاء بلاد الكلت الذين استقروا فى الإمبراطورية الرومانية واعتنقوا أساليب الحياة الرومانية . فكان أن منحتهم روما رعويتها .

ولقد أصبحت ليون ، مقر الحامية الرومانية الوحيدة فى المناطق الواقعة بين روما نفسها ونهر الراين . ولم يقتصر الأمر على كونها المركز الإدارى الوحيد لإحدى المقاطعات الثلاث ، التى انقسمت إليها بلاد الكلت ؛ بل غدت كذلك مكان الاجتماع الرسمى لمجلس المقاطعات الثلاث ، وقوامه ممثلو ستين مقاطعة أو أكثر ، كان ينعقد حول ما يدعى بمحراب أغسطس الذى أنشأه دروسوس Drusus[1] عام ١٢ قبل الميلاد . وإذا كان قد قُصد من إنشاء مدينة ليون أن تُنجز أهدافاً هامة للدولة الرومانية ، إلا أنه لم يأت عام ٦٧٧ ميلادية ، حتى كان يفىء إلى ظل المستعمرة الرومانية ، جماعة مسيحية بلغت من الحيوية قدراً دفع السلطات الحكومية إلى إقامة المجازر لصد نشاطها . وكانت دماء الشهداء هنا كما هى فى أمكنة أخرى ، بذرة المسيحية المزدهرة .

ومصداقا لذلك ؛ يعزى فضل تكوين أولى أشكال التنظيم اللاهوتى الكاثوليكى المسيحى ، إلى إيريناوس Irenaeus[2] (وكان أديبا يونانيا لعله من أصل سورى ثم أصبح أسقفا لمدينة ليون خلال الخمسة والعشرين سنة التى تلت عام ١٧٧ ميلادية) .

---

(١) أحد الساسة الرومانيين . (المترجم)

(٢) أيريناوس : أحد آباء الكنيسة اليونانية . وقد أصبح منذ عام ١١٧ م مطران ليون . وقد اغتاله الإمبراطور سفيروس . (المترجم)

وصفوة القول :

انتفعت المسيحية فى عهد الإمبراطورية الرومانية ، والإسلام فى ظل الخلافة ، والبوذية فى عهد الدولة العالمية الصينية ؛ انتفع كل منها من الحاميات والمستعمرات التى أقامها بناة الإمبراطوريات تحقيقاً لأهدافهم الدنيوية الخاصة . على أن ما أسفرت عنه إقامة الحاميات والمستعمرات من نتائج دينية غير مقصودة ، من إعادة توزيع السكان توزيعاً منتظما ؛ يرقى فى نتائجه إلى ما بلغته إجراءات نبوخذ نصر الذى ارتدّ إلى الأساليب الأشورى البربرية وقتما حمل اليهود أسرى إلى بابل . ولم تقتصر عُقبى هذا الإجراء على كفالة التقدم لدين هام ما يزال قائما فى العالم ، بل لقد ابتعث إلى الوجود – إلى حد كبير – دينا جديدا[1] .

(ج) الأقاليم :

يجزئ بناة الدولة العالمية أملاكهم إلى أقاليم تؤدى وظيفتين واضحتى المعالم . مثلها مثال الحاميات والمستعمرات التى ينثرونها على صفحات أملاكهم :

الأولى – المحافظة على كيان الدولة العالمية ذاتها .

الثانية – وقاية المجتمع الذى تزوّد الدول العالمية كيانه الاجتماعى ، بالإطار السياسى .

ويبين استقراء تاريخى الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية البريطانية فى الهند ، أن مناط الوظيفتين الرئيسيتين البديلتين للتنظيم السياسى لدولة عالمية ؛ هو المحافظة على سيادة الدولة التى أقامها بناة الإمبراطورية وملء الفراغ السياسى الذى يترتب فى الكيان الاجتماعى للمجتمع المتحلل ، بفعل تدمير دوله الإقليمية ، قبل تكوين الدولة العالمية أو انهيارها ؛

(١) أى المسيحية باعتبار أنها تولدت عن اليهودية أصلا . (المترجم)

وينساق بناة الدولة العالمية نحو إلحاق الأقاليم بدولتهم عنوة واقتدارا، أو إدارتها إدارة مباشرة . وتلك تدابير تكفل فى ظنهم حماية دولتهم العالمية من خطر انبعاث منافسيهم المنهزمين : ويتوقف مدى سيرهم فى هذا السبيل ، على درجة ولاء سادة الدول الإقليمية الطغاة ورعاياها ، لكيانها ؛ والأسف على انقضاء أيامها . وتتوقف درجة الولاء والأسف بدورها على سير الغزو وعلى التاريخ السابق للمجتمع الذى شيدت الدولة العالمية سلطانها فى نطاق ملكه . وإن لبناة الإمبراطورية الظافرين ، الحق كله فى خشيتهم إنبعاث قوة تقوض دعائم الحكم الذى فرضوه بضربة واحدة ؛ سددوها إلى عالم من الدول الإقليمية التى ألفت الاستمتاع بوضع الدول المستقلة ، ودأبت على إساءة استخدام استقلالها .

ويطالعنا من قبيل المثال :

إن أسرة تسين Tsin مشيدة الإمبراطورية الصينية ؛ قد فرضت على العالم الصينى وحدة سياسية ، أنجزتها خلال فترة لا تجاوز عشر سنوات (٢٣٠ — ٢٢١ ق . م) . إذ استطاع الملك تشنج Chêng من أسرة تسين خلال هذه الحقبة القصيرة من الزمن ؛ تدمير ست ممالك ، كانت ما تزال إلى عصره قائمة . فغدا بذلك مؤسس دولة عالمية صينية ، أهلته لحمل لقب تسين شى هوانج تى Tsin She Hwang Ti . بيد أنه عجز أن يستصفى بنفس السرعة ؛ الوجدان السياسى للعناصر الحاكمة السابقة . الأمر الذى دعا المؤرخ الصينى « سى — ما تسين Sse-Ma Ts'ien » إلى تصوير المشكلة التى جابهت هذا الإمبراطور تصويرا دراميا ، اتخذ صورة مناظرة خطابية رتيبة ، جرت فى المجلس الإمبراطورى .

ومهما يكن من أمر الإجراءات التى فصلت أخيراً فى نتيجة الصراع الذى أفضى إلى اتخاذ الإمبراطور قراره ، فالمؤكد أن السياسة التقدمية الطابع هى التى أملت عليه قراره . وانتهى الحال بالإمبراطور تسين شى

هوانج – تى Tsin she hwang - ti إلى الإيمان بإعادة تقسيم جميع أراضى دولته العالمية إلى ست وثلاثين قيادة حربية .

وإن الإمبراطور الصينى باتخاذه هذه الخطوة التقدمية ، إنما سيّرته أوضاع الدول الإقليمية الست التى قضى على تشكيلها الحربى وعلى نظامها الاجتماعى الغير الإقطاعى . وهذا النظام ، قد ساد بالفعل دولته طوال مائة عام . لكن ماكان يتوقع أن تتقبل الدول الأخرى التى غزاها ، النظام الذى فرضته عليه إرادته ؛ إذ كان « تسين شى هوانج – تى » أنموذجا لتلك الشخصية المألوفة فى تواريخ تشييد الدول العالمية . لقد كان غازياً من رجال الحدود ، نظرت إليه الطبقة الحاكمة للدول التى غزاها ، نظرة مواطنى المدن اليونانية فى إبان القرن الرابع إلى مقدونيا ؛ نظرة تعلو قليلا عن نظرتها إلى البربرية .

وطبيعى أن تنزع شعوب المركز الثقافى للعالم الصينى إلى الكَلَف بثقافة كانوا هم أنفسهم أئمتها الأصليين . وشجعهم مؤخراً على التمادى فى هذه الخطيئة الفكرية ، فلاسفة المدرسة الكنفوشيوسية . إذ شخّص مؤسسها داء المجتمع الصينى الاجتماعى فى تجاهل الفرائض ونبذ الأوضاع القديمة . ووجد العلاج الشافى ، فى استعادة النظام الاجتماعى والخلقى – الافتراضى – للعصر الإقطاعى الصينى المبكّر .

ولم يكن لتمجيد هذا الماضى النصف التصورى ، سوى تأثير ضئيل فى حكام دولة تسين Ts'in وشعبها . وترتب على فرض نظم جماعة واقعة وراء الحدود على شعب « تسين » ، عنوة ، إثارة الازدراء العنيف الذى كانت إجابة « تسين هوانج – تى » الوحيدة عليه ، تطبيق مزيد من إجراءات القمع التعسفية .

وأحدثت مثل هذه السياسة الانفجار الشعبى . إذ تلا وفاة الإمبراطور عام ٢١٠ ق . م . نشوب ثورة عارمة ترتب عليها استيلاء أحد زعماء الثورة

« ليو بانج Liu-Pang » على عاصمة إمبراطورية تسين . بيد أنه لم يعقب فوز رد الفعل العنيف على الانقلاب الذى أحدثه منشئ الدولة العالمية الصينية فى نظام الدولة ؛ لم تعقبه استعادة النظام القديم . إذ لم يكن « لبوبانج » عضواً فى طبقة النبلاء الإقطاعيين التى جرّدت من سلطانها ، بل كان بأصله فلاحاً ، وفّق إلى إنشاء نظام ثابت الدعائم . ومناط توفيقه ، صدوفه عن السعى لاستعادة النظام الإقطاعى التناقضى[1] ، أو النظام الثورى البديل الذى فرضه تسين شى هوانج — تى » . وانصبت سياسة « ليو بانج » على تلمّس طريقه فى هوادة ، صوب نظام سلفه الشبيه بنظام قيصر ، مع اعتناق قسط من نزعة التوفيق بين الآراء ، شبيه بنزعة أغسطس .

وفى خلال الفاصلة القصيرة بين انهيار دولة « تسين » عام ٢٠٧ ق. م ، والاعتراف الشامل عام ٢٠٢ ق . م . بـ « ليوبانج » سيداً أوحد على العالم الصينى ، حاول ثائر آخر « هسيانج يو Heisng yu » استعادة النظام القديم فباءت تجربته بالفشل . ولما نصب « ليو بانج » نفسه سيداً فرداً للعالم الصينى ، بدأ بالإنعام بالإقطاعيات على أكثر معاونيه بلاءاً فى خدمته . بل إنه سمح لمن أعلنوا ولاءهم له من مناصرى خصمة « هسيانج يو » ، بالاحتفاظ بأملاكهم . لكنه ما لبث أن أنزل المهانة بهؤلاء القادة أصحاب الإقطاعيات ، وحكم عليهم بالموت الواحد بعد الآخر ، كما دأب على نقل أصحاب الإقطاعيات الآخرين من إقطاعية إلى أخرى ، توطئة لانتزاع أملاكهم منهم ، دون أن تترك لهم فرصة إقامة أى نوع من الاتصالات الخطيرة مع رعاياهم .

واتخذ « ليوبانج » فى نفس الوقت ، إجراءات مشددة للمحافظة على رجحان السيادة الإمبراطورية والإعلاء من شأنها . وتجلى هذا ، فى إبراز فكرة « تسين شى هوانج — تى » المثالية عن الدولة العالمية التى تدار إدارة

(١) التناقضى هنا يدل على شىء يستحيل تحقيقه . (المترجم)

مركزية ، إلى حيّز التنفيـذ العملى فى غضون مائة عام من وفاة « تسين شى هوانج – تى » . وكان الإنجاز هذه المرة ، قاطعاً مانعاً . ذلك لأن ما اتسمت به سياسة « ليوبانج » وخلفائه من حيطة وتبصر[1] ، قد أتاح الوقت للحكومة الإمبراطورية لتكوين الأداة البشرية التى قاد الافتقار إليها أيام أول إمبراطور من أسرة « تسين » ، إلى انهيار صرح آماله فى تحقيق مشروعاته المجيدة .

فما كانت إدارة الحكومة المركزية ، تتيسر دون طبقة الموظفين الإداريين . وهذا ما وفّقت إليه أسرة هان الملكية التى أسسها « ليوبانج » . إذ نجحت فى تشييد دعائم إدارة مدنية قادرة ، رضى عنها الناس جميعاً . لا يعزى نجاحها إلى تحالف الأسرة الملكية مع مدرسة كنفوشيوس الفلسفية ، وما تلا ذلك من انفصام تحالف الفلاسفة الكنفوشيوسيين القديم مع الارستقراطية الوراثية العسكرية ذات الأفق التفكيرى الضيق . وأمكنها إدراك غايتها المرتجاة ، بفتح باب الالتحاق بوظائف الدولة لطبقة جديدة رحيبة التفكير . تستند أرستقراطيتها على جدارتها الثقافيـة القائمة على تمكنها من مأثورات كنفوشيوس ، وبصرها بأحكامه . وكان أن أنجزت عملية الانتقال تدريجيا وأديرت فى براعة ، قادت فى نهاية المطاف ، إلى وراثة الأرستقراطية الجديدة لقب « تشون تزى Chun tze » (وكان كنية الارستقراطية القديمة) . وتم ذلك ، فى هوادة لم يشعر أحد معها بالثورة الاجتماعية السياسية الخطيرة التى تعتمل فى حياة البلاد

ولقد يمكن اعتبار مؤسس أسرة هان (قياساً على ثبات عمله الفذ ودوامه) أعظم جميع هؤلاء الساسة الذين تتضمن سيرهم تأسيس دولة عالمية .

---

(١) استخدم الدكتور توينبى هنا تعبير « Fabian » نسبة إلى القائد الرومانى فابيوس الذى أنهك قوى القائد القرطاجنى هانيبال خلال الحرب البونية الثانية . فأصبح اسمه علماً على خطة الحذر واجتناب الصدام السافر . (المترجم)

وجدير بالذكر ، جهل العالم الغربى (عدا المؤرخين المتخصصين فى التاريخ الصينى للوجود التاريخى للإمبراطور « ليو بانج » ؛ بينما يدرك العالم الغربى مآثر قيصر المشابهة لمآثر الإمبراطور الصينى .

وإذا كنا قد أوضحنا مفهوم التنظيم الإقليمى فى الدولة العالمية الصينية ؛ لكن يقتضينا ضيق المجال ، الاكتفاء بهذا المثل ، والانتقال دفعة واحدة لبحث الخدمات التى تسديها – لا شعورياً – المنظمات الإقليمية ، إلى طوائف لم تنصرف النية لخدمتها ، عند إنشائها فى بداية الأمر . وهنا نقصر بحثنا مرة أخرى على مثال فرد ؛ بأن نستعد ، نجاح الكنيسة المسيحية فى تحويل التنظيم الإقليمى للإمبراطورية الرومانية لصالحها .

فلقد انتفعت الكنيسة أثناء تشييدها كيانها الدينى من وجود المدن الرومانية ؛ وكانت خلايا الكيان الاجتماعى الهلينى ، وخلايا الكيان السياسى الرومانى . ولما ذوت تقاليد الحضارة الهلينية تدريجياً ؛ تحولت الدول الهلينية إلى مجرد مدن كبرى ، باتت مقر الأسقف المسيحى[1] – عوضاً عن أن تعنى مدناً تتوافر بها نظام الحكم الذاتى ، ويرخص بوجودها فى الكمنولث الرومانى ، كبلديات .

وفى عهد دقلديانوس ، سلم الأساقفة المحليون فى كل إقليم من الأقاليم الرومانية ، بأسبقية الأسقف المحلى الذى مقر كرسيه عاصمة هذا الإقليم . وسلم رؤساء أساقفة (أو مطارنة) مجموعة من الأقاليم التى كانت تدعى بالأبروشيات[2] وفقاً للنظام الرومانى وقتذاك ، برئاسة مطران عاصمة مجموعة الأقاليم هذه . وكلمة أبروشية ، كلمة رومانية الأصل ، تلقفتها الكنيسة وجعلت منها مدلولا على اختصاص المطران الواحد . وبذل المطارنة

---

(١) كان ذلك هو العرف المألوف فى انجلترا حتى العصور الحديثة . فكانت المدن ، مدن كاتدرائية ؛ وغير مدن الكاتدرائيات ، بلديات . (المترجم)

(٢) Dioceses ، أى المقاطعات . (المترجم)

والأساقفة ورؤساء المطارنة جميعاً ؛ الولاء لبطاركة الولايات التى يعادل توزيعها فى سلم الوظائف الدينية ، ترتيب التنظيم لإدارى فى الإمبراطورية الرومانية : فكان طبيعياً أن تنقسم الولايات الرومانية فى نهاية المطاف ، من ناحية الوظائف الدينية ، إلى أربعة كراس بطريركية رئيسية :

الإسكندرية – القدس – أنطاكية – القسطنطينية .

أما الولايات الإدارية الرومانية الثلاث الأخرى ، فقد اندمجت اختصاصاتها الدينية ، فى بطريركية واحدة واسعة الأرجاء ، إلا أنها قليلة السكان نسبياً : تلك هى بطريركية روما :

ولم يوح أى حاكم دنيوى بهذا التنظيم الإقليمى للكنيسة المسيحية ، إذ شيدته هى نفسها خلال عصر لم تكن الدولة تعترف رسمياً بكيان الكنيسة . بل لقد تم التنظيم ، فى وقت كانت الدولة تعاود اضطهادها لها الفينة بعد الأخرى :

وأيا ما تكون الحال ؛ فقد استطاع صرح الكنيسة هذا ، تلافى الانهيار الذى لاقته النظم الحديثة ، بفضل استغلالها – تحقيقا لأهدافها – نظام الاستقلال الذاتى الذى اعتنقته النظم الدنيوية فى بداية عهدها :

ففى بلاد الغال مثلا ؛ رنا النظام الإمبراطورى المتقلقل ، إلى رد اعتباره الذاتى ، باستجلاب تأييد شعبى تبذله له مؤتمرات محلية دورية يعقدها الأعيان : فأمكن الكنيسة بعد زوال ريح الإمبراطورية ، أن تسيطر على فكرة هـذه السلطة الدنيوية الزائلة ، فتعقد مؤتمرات إقليمية يحضرها الأساقفة :

فى وسع مؤرخ يتطلع فى خريطة فرنسا الكهنوتية إبان العصور الوسطى ، أن يميز فى فسيفساء الأسقفيات ، حدود دول مدن الغال التى اصطبغت

بالصبغة الرومانية ومقاطعات الغال الأخرى . فى حين احتفظت الأبروشيات[1] بأسس التقسيمات الإدارية للأقاليم التى أنشأها أغسطس ، كما كانت معروفة فى عصر دقلديانوس وهى : ناربون Narbonensis واكويتانيا **Aquitania** وليون Lugdunensis وبلجيكا Belgica . بل إن البطريركيات الخمس ما تزال قائمة حتى وقت كتابة هذه السطور : أربع فى أيدى الأرثوذكسية الشرقية[2] ، وواحدة فى أيدى الكاثوليكية الغربية[3] .

ورغماً عن تغير مناطق نفوذ هذه البطريركيات وتشتت أتباعها ، وتباين جنسياتهم إلى أقصى حـــد منذ انعقاد المجمع المقدس الرابع فى خاليدونيا (عام ٤٥١ م) ؛ عوض خسائرها الفادحة ، مكاسبها التى لم تكن تتوقعها ، وقتما اتخذت البطريركيات قالبها المعهود .

٥ – كراسى الملك من الأمصار :

تبدى دراسة عواصم الحكومات المركزية للدول العالمية ، نزعة بيّنة نحو تغيير مواقعها على مر الأيام .

ويباشر بناة الإمبراطوريات سلطانهم عادة من مقر الحكم الموافق لهم ، ويتم ذلك :

إما باتخاذ عاصمة وطنهم ، عاصمة لإمبراطوريتهم – مثل روما ، بالنسبة للرومان ؛

---

(١) الأبروشيات : رؤساؤها من المطارنة (أى رؤساء الأساقفة) فى حين أن الأسقف (وهو أقل من المطران درجة فى مراتب الكهنوت المسيحى) يترأس الأسقفية . (المترجم)

(٢) يوجد بكرسى الإسكندرية البطريركى بطريركان : بطريرك الكنيسة القبطية المرقسية وبطريرك كنيسة الروم الأرثوذكس . (المترجم)

(٣) لم تحتفظ بوحدتها سوى البطريركية الكاثوليكية فى روما (وتدعى الآن : بابوية) . إذا تفرعت بطريركية القسطنطينية إلى بطريركيات : القسطنطينية وأثينا وموسكو . وتوشك بطريركية الإسكندرية القبطية أن تتفرع إلى بطريركيّى الحبشة ومصر . (المترجم)

أو بإقامتها فى موقع جديد على أطراف الأصقاع الخاضعة لسلطانهم ، مثل كلكتا فى الهند بالنسبة للبريطانيين .

بيد أن الخبرة التى تكتسبها الإدارة الحكومية ، كفيلة ـ بتوالى الأيام ـ بإرشاد بناة الإمبراطوريات أو خلفائهم (الذين يتسلمون زمام حكمها بعد انهيار موقوت) إلى تعيين موقع عاصمة ملكهم ، مسيرين بصلاحية الموقع للإمبراطورية فى مجموعه ، وليس وفاء بأغراض بناتها فحسب . وقد تضطرهم الأحداث إلى اتخاذ هذا القرار .

وطبيعى أن يترتب على تطبيق وجهة النظر العالمية الطابع هذه ؛ اختلاف مواقع العاصمة العتيدة ، وفقاً للظروف والملابسات :

فإن كانت الصلاحية الإدارية هى الاعتبار الأساسى ؛ يصبح الموقع الوسط ذو المواصلات السهلة ، أصلح المواقع .

وإن أتى فى المحل الأول ، الدفاع ضد عدو مرتقب ؛ يغدو الموقع المختار ، أنسب المواقع لتوزيع القوات على الحدود المهددة .

ولقد رأينا بناة الدول العالمية ، يختلفون فى المنبت :

فهم يمتون أحياناً إلى حضارة أجنبية عن المجتمع الذى يزودونه باحتياجاته السياسية .

وهم فى أحيان أخرى ، برابرة أصبحوا ينأون عن الحضارة التى ينجذبون إليها . فهم بعبارة أخرى ما دعوناه بـ « البروليتاريا الخارجية » .

وغالباً ما يكونون رجال حدود ؛ يبررون مطالبتهم بالانتساب إلى حضارة ، بالدفاع عن حدودها ضد البرابرة الأبعدين . وذلك قبل أن يوجهوا هم أنفسهم ، أسلحتهم صوب داخلية مجتمعهم ، فيمهرونه ـ من ثم ـ بدولة عالمية .

وأخيراً ؛ لا يكون بناة الدولة العالمية ـ وهذه حالة نادرة ـ دخلاء

أو برابرة أو رجال حدود ، بل « مواطنين » من داخلية المجتمع — موضع البحث .

وتنحو عاصمة الدولة العالمية التي يؤسسها دخلاء أو برابرة أو رجال حدود ، إلى الانتقال من حدود البلاد إلى وسطها . وإن كان يحدث في حالة الدولة العالمية التي ينشئها رجال حدود ، أن يجعلوا عاصمتهم قريبة منها ، ليتولوا وظائفهم الأصلية في الذود عن حدود البلاد . أما في الدول العالمية التي يؤسسها رجال من أهل البلاد ذاتها ، تبدأ العاصمة طبيعياً وسط البلاد — وإن كان يحتمل انتقالها قرب الحدود — إن ارتكز اهتمام الحكومة بصفة خاصة على الدفاع عن جهة معينة من البلاد .

وأجدر بنا الآن ، أن نسوق أمثلة للأحكام التي يبدو أنها تنظم مواقع العواصم وانتقالاتها :

يعتبر الحكم البريطاني في الهند ، مثالا للإمبراطوريات التي يشيدها دخلاء . إذ وصل الإنجليز الهند بطريق البحر ، للاتجار مع السكان ولم يحلموا قط بحكمهم يوماً من الأيام . فأنشأوا القواعد التجارية في بومباى ومدراس وكلكتا . وأصبحت كلكتا ، أول عاصمة سياسية . إذ حدث أن أقامت شركة الهند الشرقية سلطاتها مصادفة على إقليمين يقعان وراء كلكتا ، ومضى على ذلك جيل بأسره ، قبل أن تستحوذ الشركة على ممتلكات مماثلة ، وظلت كلكتا عاصمة الهند البريطانية أكثر من مائة عام ، بعد رسم ولسلى (الحاكم العام ١٧٩٨ — ١٨٠٥ م) خطة إخضاع الهند بأسرها للحكم البريطاني ، وبعد انقضاء أكثر من خمسين سنة من تنفيذ الخطة بالفعل .

بيد أن توحيد شبه القارة الهندية ، كان من القوة بحيث اجتذب حكومة الهند المركزية البريطانية ، إلى نقل مركز الحكم من كلكتا إلى دهلى ، التي تعتبر الموقع الطبيعي لعاصمة إمبراطورية تشمل حوضى نهرى السند والجانج على السواء . ولم تكن دهلى بالطبع موقعاً طبيعياً فحسب ، بل كانت كذلك

موقعاً تاريخياً ، بحسبانها منذ عام ١٦٢٨ وما بعده ، عاصمة أباطرة المغول . وقد زوّد المغول الهند – مثلما زودها البريطانيون – بدولة عالمية دخيلة . مع فارق أن المغول وفدوا إليها من الحدود الشمالية الغربية ، وجاءها البريطانيون عن طريق البحار . ولو كان المغول قد ساروا على نهج بريطانيا من اتخاذ العاصمة فى بداية الأمر أقرب ما تكون إلى الجهة التى وفدوا منها أساساً ، لجعلوا كابول عاصمة إمبراطوريتهم . لكنهم لم يفعلوا ؛ بل اتخذوا آجرا عاصمتهم وقتاً ما (وتقع فى نقطة متوسطة من البلاد) ، ثم استقروا فى دهلى .

وإذا ما ألقينا لمحة عابرة على أمريكا الإسـبانية ؛ ألفينا بناة الإمبراطورية بأمريكا الوسطى ، ينشئون عاصمتهم أولا وأخيرا بمدينة Tenochtiitlan (أى مدينة المكسيك عاصمة جمهورية المكسيك الحالية) ، وهى هنا بمثابة دهلى للهند . فى حين أهملوا ميناء فيراكوز Vera Cruza ، وهو لإمبراطوريتهم بمثابة كلكتا . أما فى بيرو ؛ فقد اتبعوا طريقا عكسيا ، باتخاذهم ميناء ليما عاصمة ، عوضا عن كوزكو Cuzco عاصمة دولة الأنكاس القديمة Incas ، على الهضبة الداخلية . ونجد تفسير ذلك – بلا ريب – فى حقيقة مبناها غنى شواطئ بيرو على المحيط الهادى وأهميتها ، عكس فقر شواطئ المكسيك على المحيط الأطلسى .

ونقل العثمانيون (وهم الدخلاء الذين زوّدوا المجتمع المسيحى الأرثوذكسى بدولته العالمية) كرسى ملكهم من عاصمة إلى أخرى . فجعلوه فى آسيا فى بداية الأمر ، ثم نقلوه إلى أوربا . وأخيراً استقر بهم المطاف فى الموقع الفذ ، لعاصمة أسلافهم البيزنطيين .

ولما أنجز الإمبراطور المغولى قوبلاى خان (حكم ١٢٥٩ – ٩٤ م) غزو جميع أراضى مجتمع الشرق الأقصى داخل القارة ؛ نقل عاصمته من قره قوروم المنغولية إلى بكين الصينية . لكن قوبلاى خان ، وإن

اتخذ هذا القرار شخصيا ، ظل قلبه يحن إلى مراعى أجداده . فكان أن أرضى السياسى المنغولى نصف المثقف بالثقافة الصينية ، مشاعره البدوية الكامنة ، بتشييد مثوى ثانوى فى تشونج تو Chun tu ؛ وهى نقطة تقع على حافة الهضبة المنغولية حيث يقترب السهب فى أدنى نقاطه من العاصمة الجديدة . وإذا كانت بكين قد لبثت عاصمة الإمبراطورية ، إلا أن بعض أعمال الدولة كانت بلا ريب تنتقل فى بعض الأحيان إلى « تشونج تو » . وفى هذا يقول الشاعر :

زندو أمر قوبلاى خان

بإقامة منظرة فخيمة

ولعلنا نقارن « تشونج تو » بمدينة سيملا[1] . فإذا كان قوبلاى خان قد تحسّر على مراعيه ، فقد كان نواب الملك فى الهند يتحسرون بالتأكيد على مناخ بلادهم المعتدل . بل لعلنا نقارن تشونج — تو بمدينة بالمورال[2] ، بما كان لها فى قلب الملكة فيكتوريا ما كان لمراعى السهب من حظوة فى قلب قوبلاى خان : ولقد نمضى خطوة أبعد من ذلك فنتخيّل مسافراً صينيا خلال القرن التاسع عشر ، يصف مفاتن بالمورال بحماس قمين بالإيحاء إلى شاعر صينى فى القرن الخامس والعشرين بتقديس الملكة فيكتوريا و « منظرتها الفخيمة » فى شذرة من الشعر الصينى السحرى ! !

ويهىء سلوقوس نيكاتور Seleucus Nicator مؤسس إحدى الدول التى تخلّفت عن تقسيم إمبراطورية الإسكندر الواسعة الأرجاء والتى انقضت

---

(١) تقع فى جبال هيملايا بشمال الهند . وكان حكام الهند البريطانيون يمضون أشهر الصيف فى ربوعها . (المترجم)

(٢) مصيف ملوك إنجلترا ، وتقع فى إسكتلندا . (المترجم)

بموته ؛ يهيئ حالة بانى إمبراطورية تردد إتجاه تعين موقع عاصمته . فلقد توزع فكره بالنسبة لا تجاه أطماعه التوسعية . وانصب سعيه فى بداية الأمر على الفوز (وقد فاز بالفعل) بالمقاطعة البابلية من الإمبراطورية الأخيمينية (الفارسية) المنقضية . فكان أن ابتنى عاصمته سلوقيا Seleucia على الضفة اليمنى من نهر دجلة فى أقرب نقطة من نهر الفرات ؛ واختير الموقع اختيارا يثير العجب . وظلت سلوقيا مدينة عظيمة ومركزا هاما للثقافة الهيلينية طوال أكثر من خمسمائة عام من إنشائها . على أن مغامراته الناجحة على حساب منافسيه من القواد العسكريين المقدونيين ، أضلته ؛ فجعلته يحوّل مركز اهتمامه إلى عالم البحر الأبيض المتوسط ، حيث أنشأ عاصمته الرئيسية فى أنطاكية على بعد عشرين ميلا من مصب نهر (العاصى)[1] الأورنت . وترتب عن عمل سلوقوس ، تبديد خلفائه قواهم الحروب مع مصر البطليموسية ، ومع غيرها من دول البحر الأبيض فكان أن استولى البارثيون على أملاكهم البابلية .

وإذ استنبطنا جميع الأمثلة السالفة الذكر من تواريخ إمبراطوريات أسسها رجال ينتمون إلى حضارات دخيلة ؛ نمضى الآن قدما فى بحث موضوع عواصم الإمبراطوريات التى أسسها البرابرة :

كان الموطن الأصلى للبرابرة البارثيين الذين زوّدت فتوحاتهم المجتمع السورى بدولته العالمية فى شكل إمبراطورية أخيمينية (فارسية) ، صخرياً مجدباً ، منقطعاً عن مسالك الاتصالات البشرية . وفى قصة اختتم بها هيرودوس تاريخه ، ذكر أن قورش الأكبر (مؤسس الإمبراطورية الأخيمينية) قد

---

(١) من المدن الكثيرة التى أنشأها سلوقوس ودعيت باسمه ، مدينة تجاور أنطاكية ، لتكون ميناءها . ومن ميناء سولوقيا هذه ، أبحر القديس بولص (وفقاً لما ورد فى أعمال الرسل بالعهد الجديد) إلى قبرص فى رحلته التبشيرية الأولى . (المترجم)

استهجن اقتراح ارتحال الفرس (وقد أصبحوا سادة العالم) عن مواطنهم الصخرية والاستقرار فى بلد أكثر ملاءمة من البلاد التى استحوذوا عليها . وهى قصة مفيدة استخدمناها فى موضع سابق من هذه الدراسة للتدليل على فضل الظروف الشاقة فى استثارة العزيمة البشرية[1] .

ومهما يكن من أمر نصيب هذه القصة من الصحة ؛ تبدى الحقيقة التاريخية أنه بعد انقضاء أكثر من مائة عام من خلع قورش الأكبر سلطان آخر أسياده الميديين ؛ نقل أحد خلفائه الأخيمينيين ، مقر حكومته من موطن أجداده الجبلى ، إلى قطعة من ممتلكاته فى السهول . وسمى المكان « آنسان Ansan » وتقع فى مكان قريب من مدينة « سوسا Susa » ، لكن ما يزال موقعها الصحيح مجهولا . وأصبح مقر الحكومة بعد إنشاء الإمبراطورية الأخيمينية ، ينتقل سنوياً وفقاً للموسم ، ومن عواصم إلى أخرى تفرد كل منها بمناخ خاص . لكن برسبوليس Persepolis وإكباتانا Ecbatana ، بل وحتى سوسا (وتعرف بـ « شوشان » فى العهد القديم) ، تعتبر - فى الغالب - عواصم الطقوس والأحاسيس . بيد أن موقع مدينة بابل ، كان أكثر المواقع ملائمة من الوجهة الجغرافية ، وأنسبها للأعمال التجارية ، وفيها تركزت بالفعل شئون الإمبراطورية . وكانت بابل هذه ، عاصمة الإمبراطورية التى شيدت فى السهول وسبقت الإمبراطورية الأخيمينية فى الزمن .

ولما استعاد فى نهاية المطاف عرب الحجاز ، للعالم السورى (بعد انقضاء قرابة ألف سنة من المداخلة الهلينية) ؛ تلك الدولة العالمية التى زودها أصلا بناة الإمبراطورية الفارسيون من الهضبة الإيرانية ؛ ردد التاريخ نفسه بالتأكيد . إذ أصبحت يثرب بعد انقضاء ثلاثين سنة على الهجرة ، عاصمة

---

(١) صفحة ١٤٢ من الجزء الأول من هذه الترجمة . (المترجم)

إمبراطورية شملت لا مجرد الممتلكات الرومانية فى سوريا ومصر ؛ بل ضمت كذلك أملاك الإمبراطورية الساسانيـــة بأسرها . ويرد توفيق يثرب فى صيرورتها عاصمة العالم الإسلامى ، إلى فراهة زعماء هذه الواحة وصدق فطرتهم . فلقد دفعتهم رغبتهم فى إنهاء خلافاتهم ، إلى استدعاء النبى (ص) ليتخذ من بلدهم موطناً ، عوضاً عن مكة البلد المنافس ليثرب والذى أعرض أهله عن تعاليمه . ونصب زعماء يثرب محمداً زعيما عليهم عساه يحقق الوفاق الذى عجزوا هم عن توفيره لأنفسهم . وتستمد يثرب حقها فى بقائها مقر الحكومة ، إلى كونها النواة التى انبثقت منها إمبراطورية العالم العربى فى اندفاع جارف يوحى حقاً بأنه من الأفعال الربانية . وقدّس المسلمون يثرب لأنها مدينة النبى . وظلت على أية حال — من الوجهة الشرعية على الأقل — عاصمة الخلافة ، إلى أن أسس المنصور العباسى عام ٧٩٢ م مدينة بغداد . وإن كانت الخلافة الأموية قد نقلت كرسى الخلافة من الناحية العملية إلى دمشق ، حيث لبثت هناك أكثر من مائة عام .

وننتقل الآن إلى الحالات التى أسس فيها رجال الحدود ، دولا عالمية :

فى تاريخ الحضارة المصرية الطويل الأجل ، أضفى رجال الحدود من المشارف العليا للنيل الأدنى ؛ الوحدة السياسية — أو فرضوها — على المجتمع المصرى ، بما لا يقل عن ثلاث مرات . وتلا امتداد حدود الدولة لتصبح دولة عالمية ؛ نقل العاصمة من موقع فى أعلى النهر — طيبة (الأقصر) أو ما يعادلها ، إلى موقع أيسر منالا للجانب الأعظم من السكان ، هو منف (القاهرة) أو ما يعادلها فى المناسبتين الأوليين . ونقلت فى المناسبة الثالثة إلى قلعة حدود قرب الركن الشمالى لدلتا النيل ، وكان من الناحية الحربية موقعاً مكشوفاً .

وتذكّرنا مصائر طيبة فى التاريخ المصرى ، بمقادير روما فى التاريخ الهلينى . إذ تمثل عامل استثارة عزيمة روما فى استيلائها من الأتروريين على

وظيفة حراسة العالم الهليني من إغارات قبائل « الكلت » مثلما استثار عزيمة طيبة ، استيلاؤها من مدينة الكاب على وظيفة حراسة شلال النيل الأول ضد هجمات النوبيين . ثم كان أن حولت روما حرابها إلى داخلية بلادها ؛ مثلما حولتها طيبة من قبل ، ففرضت وحدة سياسية على المجتمع الهليني الذي كانت هي عضواً من أعضائه . واحتفظت طوال قرون عديدة بمركزها عاصمة الإمبراطورية التي أوجدتها . وأن من المفهوم ، أن مارك أنطوني لو نجح في مشروعه ، واتخذت موقعة أكتيوم[1] مصيراً مختلفاً ؛ لكانت روما قد تنازلت للإسكندرية عن مركزها كعاصمة ، في نفس الجيل الذي أتمت فيه مجال فتوحاتها .

على أنه بعد انقضاء ثلاثة قرون من موقعة أكتيوم ؛ طرأت طائفـــة من الظروف لا يتأتى سردها هنا ، قادت إلى تحويل عاصمة الإمبراطورية التي دب فيها الفساد ، إلى موقع القسطنطينية ؛ وهو أفضل من موقع روما بكثير . وحظيت القسطنطينية بفترة مجد حافلة ، تعاقبت عليها دول عالمية ، كانت هي خلالها عاصمتها . وكان على مدينة التيبر[2] أن تتخلى عن دورها فتصبح مدينة المسيحية المقدسة ، مثلما أصبحت يثرب مدينة الإسلام المقدسة .

وإذا كانت القسطنطينية هي روما الثانية ، فإن موسكو كثيراً ما نادت قبل عصور الماركسية ، بأنها روما الثالثة . وعسانا نبحث الآن المنافسة بين غواصم الدولة العالمية لحضارة المسيحية الأرثوذكسية الروسية :

بدأت روما سجل حياتها كما بدأتها روما ؛ عاصمة دولة حدية[3] ،

---

(١) موقعة آكتيوم البحرية : موقعة هزم فيها أسطول أوكتافيوس أسطولي أنطونيوس وكليوباترة . (المترجم)

(٢) أي روما . لوقوعها على نهر التيبر بجنوب إيطاليا . (المترجم)

(٣) أي على حدود مجتمع . (المترجم)

تقف حائلا دون تغلغل البرابرة . فلما انحسر تهديد البدو المغول ، ألفت نفسها تواجه هجمات جيرانها الأقربين فى المسيحية الغربية وتصدّهم : البولونيون والليتوانيون . وجاء وقت بدا فيه كما لو أن مستقبلها أصبح مكفولا . لكن خلعها عن مكانتها ، قيصر طموح اصطبغ بالصبغة الغربية ، فأحل مكانها مدينة من ابتداعه هى سانت بترسبرج[1] ، أقامها عام ١٧٠٣ على أرض استولى عليها من السويد .

وأن بطرس الأكبر بنقله كرسى حكومته من أرض قصيّة إلى أرض آمن بانتمائها إلى عالم أعظم استنارة ؛ إنما يكرر ما فعله سلوقوس نيكتور فى نقله مقر حكومته من مدينة سلوقيا « الشرقية » النائية ، إلى مدينة أنطاكية على نهر العاصى .

بيد أنه تُلاحظ جملة اختلافات بين العاهلين :

كان سلوقوس فى إيثاره أنطاكية على سلوقيا ، أحد بناة الإمبراطوريات الدخلاء فى جنوب غرب آسيا ؛ قد تنازل والحالة هذه عن شىء من صنع يديه ، لا تربطه إليه عاطفة قومية مكينة . وهو قد انحاز إلى موقع لا يبعد أكثر من مسيرة يوم من الأبيض المتوسط ، موقع أقرب إلى قلب العالم الهلينى . وبالأحرى ؛ ولّى سلوقوس بإجرائه ، وجهه شطر وطنه الأصيل[2] .

أما فى الحالة الروسية ، فلقد كانت جميع الاعتبارات العاطفية إلى جانب موسكو . وماكان الطريق المائى البارد صوب الغرب حيث تطل منافذ عاصمة بطرس الجديدة التى يجرى فيها تجاربه لصبغ روسيا بالصبغة الغربية ،

---

(١) يلاحظ أن الإمبراطور بطرس الروسى قد سمى عاصمته « مدينة القديس بطرس » ، والقديس بطرس مدفون بروما وتنسب الكنيسة الكاثوليكية إليه . وإن كان الروس من الناحية الرسمية (قبل العهد الشيوعى) ينتسبون إلى العقيدة الأرثوذكسية . (المترجم)

(٢) باعتبار أن سلوقوس قائداً يونانياً ينتمى من ثم إلى الحضارة الهلينية . (المترجم)

ليعدل عالم الأبيض المتوسط الهليني . ولقد احتفظت سنت بطرسبرج بمكانتها فترة مائتي عام ، فلما اندلعت الثورة الشيوعية ، استردت موسكو مكانتها مرة أخرى ، وأصبح على مدينة سنت بطرسبرج أن تعزى نفسها بالاسم الجديد « لينتجراد »(١) .

ويثير العجب ، إمعان الفكر فى مصير « روما الرابعة »(٢) ، فإن مصير الرابعة نقيض الأولى . فإنه لما توقفت روما عن تأدية دورها عاصمة دولة علمية ، تطورت بمضى الأيام ورغماً عن إرادة كافور وموسولينى(٣) ، فأصبحت « مدينة القديس بطرس المقدسة »(٤) .

وبعد ، تلك هى الدوافع التى كيّفت موقف حكام بعض الدول العالمية التى أشار التاريخ إليهم ، عند ذكر عواصمهم . فإذا ما انتقلنا إلى المنافع العارضة التى اجتناها أناس آخرون من وراء هذه العواصم ، وما استفادته منها الأقليات المسيطرة التى تكتنف هؤلاء الحكام ؛ فى وسعنا أن نبدأ بذكر أبشعها وأشدها غلظاً ، ألا وهى : الأسر والسلب والنهب . ذلك كان المقياس الذى قدّر به الفيلد مارشال بلوخر (وهو جنـــدى ينتسب إلى دولة لا يتوافر(٥) فيها سوى الإقدام الحربى) المنافع التى عادت على لندن ، وقتما كان ضيفاً بعد معركة واترلو ، على الوصى على العرش ، ومر بأحد

---

(١) لينتجراد : نسبة إلى زعيم الثورة البولشفية لينين . (المترجم)

(٢) روما الأولى هى روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية والثانية بيزنطة (القسطنطينية) والثالثة بطرسبرج ، والرابعة روما الحالية عاصمة إيطاليا . (المترجم)

(٣) كافور هو السياسى الإيطالى الذى ساهم بنصيب موفور فى تكوين الدولة الإيطالية الحديثة ، وجعل مدينة روما عاصمتها رغماً من احتجاجات البابا . وموسولينى هو زعيم الفاشية الإيطالية . (المترجم)

(٤) يقصد الأستاذ المؤلف مدينة الفاتيكان حيث مثوى القديس بطرس . (المترجم)

(٥) هى بروسيا . (المترجم)

شوارعها الحافلة بأسباب الثراء . إذ أبدى تعجبه بقوله « أية أسلاب » ! !

وفى وسع المرء إيراد قائمة طويلة تتضمن سلب العواصم ونهبها . فإذا ما قدرنا النتائج للمغيرين الظافرين لا بد وأن نجد أن هذه الولائم الفخمة ، لا يعقبها سوى دورة من عسر الهضم :

إذ لم يقتصر الأمر على إلحاق عار سلب البلاد المنهزمة بمجتمع القرن الرابع قبل الميلاد الهلينى ، ومجتمع القرن السادس عشر المسيحى ؛ بل لقد اجتاحت هذه البربرية المجتمعين نفسيهما . فإذا كان البرابرة يفلتون إلى حد ما من قصاص الجريمة التى يرتكبونها فى عالم بدائى ، إلا أن العقاب واقع عليهم فى مجتمع أصبحت النقود قوام اقتصاده القومى[1] . ومصداقاً لهذا الرأى ؛ ترتب على نهب اليونانيين خزائن بلاد غرب آسيا ، وسلب الأوربيين كنوز الأمريكيتين ؛ انهيار جلاميد الذهب والفضة انهيار مفاجئاً على التداول ، أعقبته موجة مدمرة من التضخم النقدى ، وكان أن كفّر أرباب الحرف الأيونيون[2] فى سيكليديس والفلاحون الألمان فى سوابيا ، عن خطايا النهابين المقدونيين فى برپوليس والسلابين الاسبان فى كوزكو .

ولننتقل إلى مباحث أقل خسة :

واضح أن عواصم الدول العالمية ، مواطن صالحة لإشعاع كافة أنواع التأثيرات الثقافية . من ذلك :

١ — أنها تفى بأغراض الأديان العليا . ففى غضون الأسر البابلى (وقتما

---

(١) أى اقتصاد تتم المبادلات فيه وفقاً للنقود ، عكس الاقتصاد البدائى حيث تجرى المبادلات بالمقايضة . (المترجم)

(٢) نسبة إلى أيونيا وكانت مقاطعة يونانية فى آسيا الصغرى — وسيكليديس عاصمتها . (المترجم)

ساق نبوخذ نصر اليهود من مملكة جودايا إلى بابل) ، عاون وجود اليهود بالعاصمة ، على استيلاد دين أعلى . فإنه بفضل حضانة بابل لليهودية ، تغيرت فكرتها الدينية من الإقليمية إلى العالمية :

٢ – يعتبر مقر الحكومة العالمية،أرضاً طيبة تستقر فيها البذور الروحية : ومثل هذه المدينة ، عالم واسع الأرجاء فى مجال صغير . إذ تضم جدرانها بين ظهرانيها ، نماذج من جميع الطبقات ومن كثير من الأمم ، إلى جانب اشتمالها على عديد من اللغات . وتقود أبوابها إلى مسالك تتجه إلى جميع الأرجاء . ومن ثم ، يغدو فى وسع مبشر واحد ، التبشير بفكرته فى الدساكر[1] وفى القصور . فإن ألقى إليه الملك بسمعه ؛ فقد يأمل رؤية جهاز الإدارة الإمبراطورية الضخم يوضع تحت تصرفه ٥

وتطالعنا الأمثلة التالية :

(أولا) أتاح موضع « نحميا »[2] فى حاشية الإمبراطور الفارسى فى سوسا ، فرصة الظفر بمناصرة أردشـــير Artaxexes فكرة إعادة هيكل أورشليم .

(ثانيا) داعبت الأمانى الآباء الجزويت بتحول الهند والصين إلى الكاثوليكية باستخدام أسلوب « نحميا » ، بعد توفيقهم فى كفالة منزلة فى بلاط آجرا[3] الهندى إبان القرن السادس عشر وفى بلاط بكين الصينى إبان القرن السابع عشر :

وحقاً ؛ غالباً ما نجد الرسالة التاريخية للعواصم على طول المدى ؛ صداها فى الميدان الدينى :

---

(١) جمع دسكرة : الحى القذر Shums . (المترجم)

(٢) من أنبياء بنى إسرائيل . (المترجم)

(٣) عاصمة الهند قبل انتقال السلطان المغولى إلى دهلى . (المترجم)

فإن التأثير الفعال الذى ما يرحت مدينة لويانج (المدينـة الصينية الإمبراطورية) تحظى به حتى كتابة هذه السطور على مصائر الإنسانية ؛ لم ينجم عن دورها السياسى السابق كمقرحكم أسرة « تشو Chou » الملكية التى حكمت مجتمع الشرق الأقصى ، وأسرة هان التالية التى أعقبتها . فإن لويانج قد جمعت من الناحية السياسية بين « نينوى وصور » ؛ لكنها ظلت تمارس نفوذها العظيم لكونها المشتل الذى تأقلمت به بذور البوذية المهايانية . فصيرها ذلك بيئة صالحة لترعرع الثقافة الصينية .

وبالمثل ؛ ظل موقع مدينة قره قوروم (عاصمة منغوليا) البَلْقَع ؛ يحيا حياة متوارية . إذ قد ترتبت عن دورها السياسى القصير الأجل فى إبان القرن الثالث عشر المسيحى ؛ نتيجة عرضية مبناها جمعها وجهاً لوجه ، البعثات التبشيرية للكاثوليكية الرومانية الغربية مع أئمة النسطورية فى آسيا الوسطى ، وأ ئمة العقيدة اللامية من التبيت .

فإذ قدمنا إلى موقع أقرب إلى موطننا ، واضح فى عام ١٩٥٢ ، أن بطرس وبولس ورومولس وريموس أو أغسطس ؛ هم مؤلفو معنى الخلود الذى تتصف به روما . وأن القسطنطينية (روما الثانية) وقد تجاوزت جميع المقدر لها كعاصمة دولة عالمية ، تدين لهذا النفوذ الذى ما برحت تحظى به فى العالم ، إلى كونهـا مقر كرسى البطريرك الذى يعترف به الرؤساء الدينيون فى جميع الكنائس الأرثوذكسية الشرقية[1] ، بما فى ذلك كنيسة روسيا التى تعتبر « الأولى بين الأنداد »[2] .

---

(١) لعل الأستاذ المؤلف يقصد كنائس الروم الأرثوذكس . إذ لا تعترف الكنيسة الأرثوذكسية المصرية (القبطية) بأى سلطان لكنيسة القسطنطينية . (المترجم)

(٢) Primus inter pares .

(هـ) اللغات الرسمية وحروف الكتابة :

من تحصيل الحاصل ، القول بأن الدولة العالمية تسعى حثيثاً لتزويد نفسها بوسائط لإجراء الاتصالات الذهنية تعترف هى بها . ولا تقتصر هذه الوسائط على نقل اللغات عن طريق التحدث بها ؛ وإذ يُستخدم كذلك فى نقلها نوع من المدونات البصرية .

ولقد اتخذت هذه الطريقة فى جميع الأحوال ،شكل اختزال اللغة الرسمية :

ويطالعنا فى هذا الشأن نجاح « الانكاس Incas » فى أمريكا الجنوبية فى الاحتفاظ بنظام لغوى اعتنقته الجماعة بصفة عامة . وقوام النظام ، استخدام ما يعرف بطريقة « كيبو Cuipu[1] » وهى طريقة لا تتصل فى قليل أو كثير بالمعانى الصامتة . ولا شك أن هذه الطريقة ، عمل فذ لا نظير له .

وثمة حالات أزاحت فيها لغة واحدة أو طريقة للكتابة بذاتها ؛ عن ميدان التداول اللغوى ؛ جميع مزاحميها الاحتماليين . وتم ذلك قبل تشييد الدولة العالمية :

ومن قبيل المثال :

ارتبطت اللغة المصرية وحروف كتابتها ، باللغة الكلاسيكية وبالحروف الهيروغليفية ؛ فى إبان عهد « الدولة الوسطى » :

وارتبطت اللغة والكتابة الخطيّة فى اليابان فى عصر الشوجن[2] ؛ باللغة اليابانية من ناحية ، وباستخدام حروف صينية منتقاة من الناحية الأخرى . فكان أن أقبل الناس على استعمالها :

---

(١) الكيبو Quipu : أداة من الخيوط والعقد الملونة ، كان يستخدمها أهالى بيرو بأمريكا الجنوبية البدائيون عوضاً عن الكتابة . (المترجم)

(٢) الحكام العسكريون فى اليابان الذين استأثروا بالسلطة دون أباطرتها . وقد استعاد الإمبراطور سلطانه المسلوب عام ١٨٥٦ . (المترجم)

وارتبطت اللغة والكتابة فى الإمبراطورية الروسية باللغة الروسية من جهة ، ومن جهة أخرى بالتغيير الذى أدخله السلاف على الحروف اليونانية قبل استخدامهم لها .

ولا يعتبر ما سردناه آنفا عن اللغة الرسمية والحروف الأبجدية ؛ من الأمثلة الشائعة . إذ لايجابه بناة الإمبراطوريات فى غالب الأحيان حقيقة مستكملة يجيزون وجودها ، بل يواجهون مشكلة الاختيار بين عدد من اللغات وحروف الكتابة ، ينافس بعضها البعض الآخر .

ويقبل بناة الإمبراطورية فى مثل هذه الحالات ، على اتخاذ لغتهم الخاصة ، لغة رسمية . فإن افتقرت إلى حروف للكتابة ، يستعيرون لها حروفا من لغة أخرى أو يبتكرون حروفا للوفاء بهذا الغرض .

على أن ثمة حالات حدث فيها بالفعل ؛ أن استعاض بناة الإمبراطورية عن لغتهم الأصلية ، بلغة أخرى تتداول فى ممتلكاتهم بالفعل ، كلغة مختلطة[1] . بل إنهم يبتعثون إلى الوجود ؛ لغة قديمة يحلونها محل لغتهم الوطنية .

والشائع على أية حال ؛ إقبال بناة الإمبراطورية على اتخاذ لغتهم وكتابتهم الوطنيتين رسميا . على أنهم لا يمكنون لها من احتكار هذا المجال .

وعسانا نفسر هذه الافتراضات العامة ، بإجراء استعراض على هدى التجارب العملية :

حل الإمبراطور تسين شى هوانج — تى فى العالم الصينى ، المشكلة بأسلوب يتسم بعنفه . إذ فرض مؤسس الدولة العالمية الصينية ، تداول ذلك الشكل من الأبجدية الصينية الذى كان يستخدم رسمياً فى إبان عصر

(١) أى لغة تتألف من خليط من اللغات المختلفة (مثل الأوردية فى شمال الهند) وفقاً لما مر بنا فى هذه الدراسة . (المترجم)

أجداده فى دولة « تسين » . فأمكنه من ثم ، ضد نزعة الدول المتنابذة إبان « الاضطرابات » لإيجاد حروف أبجدية لكل دولة ، يقتصر فهمها فهما مبتسراً على المشتغلين بالأدب فقط من أبناء الدول الصينية الأخرى . وهى نزعة سارت شوطا بعيداً فى طريقها الانفصالى ، قبل أن يتخذ الإمبراطور قراره هذا . والأبجدية الصينية عبارة عن « مكتوبات رمزية »[١] ، تحمل بين طياتها معان خاصة ؛ وليست حروفا تمثل أصواتاً : ومن ثم ، هيأ إجراء الإمبراطور « تسين شى هوانج – تى » للمجتمع الصينى ، لغة موحدة الشكل ، تخدم باستمرار الاتصالات العامة للأقلية التى تقرأها وتكتبها ؛ حتى وإن تدهورت اللغات اللفظية إلى لهجات يعجز سكان المقاطعات المختلفة عن التفاهم بها[٢] . لكن ما كان توحيد « تسين شى هوانج – تى » للحروف الأبجدية الصينية ، ليجدى فى تنكب بلبلة الألسنة ، لولا أن ثمة قوى أخرى تفاعلت لإنجاز التوحيد فى الكلام والكتابة على السواء .

ولعل المؤسس المجهول للدولة العالمية المينووية ، قد تنبأ بتوحيد حروف الكتابة الصينية . فإنه وإن لم يوفق العلماء حتى كتابة هذه السطور ، فى حل رموز أبجدية العالم المينووى[٣] ، إلا أنه يستدل مما خلفته ، على حدوث ثورة فى تنظيم فن الكتابة . إذ ظهر فى إبان مرحلة

---

(١) ideograms .

(٢) وشبيه بهذا فى العالم الغربى ، ما حملته الأرقام العربية من معان على الورق تتسم بالتجانس . وهى الأرقام التى يطلق عليها كل شعب انتشرت بين ظهرانيه اسما مختلفاً . (المؤلف)

(٣) أمكن العالمان ا . فينتريس A. Ventris وا . تشادويك I-Chadwick قبل نشر الجزء الأخير من هذا المختصر ؛ حل رموز الكتابة المينووية المعروفة بـ « المخطط ب » واعتبارها واسطة التعبير عن اللغة اليونانية . ولقد اعترف العلماء الآخرون فوراً وبالإجماع بالنتائج التى توصل إليها هذان العالمان (المختصر) انظر صفحات ١٠٣ – ٨٤ من : The Journal of the Hellenic Studie vol. lxxiii

الانتقال من العصر المينووى الوسيط الثانى إلى العصر المينووى الوسيط الثالث ؛ نوعان مختلفان من الكتابات الرمزية ، اتخذا سبيلهما على التوالى فى الحياة المينووية فى مستهل العصر المينووى الوسيط الثانى ؛ لكن استطاع القضاء عليهما فجأة ؛ نوع مفرد جديد من الكتابة ، يطلق عليه العلماء « المخطط ا »[1] .

ونجد فى المجتمع السورى نظيرا للإمبراطور الصينى « تسين شى هوانج ـ تى » يمثله الخليفة الأموى « عبد الملك بن مران » (حكم ٦٨٥م–٧٠٥م) ؛ فقد استعاض ، عن اليونانية فى المدونات الحكومية باللغة والأبجدية العربية ؛ فى الأقاليم التى اقتطعتها الخلافة من الإمبراطورية الرومانية ؛ وعن اللغة الفارسية والخط البهلوى ، فى الأقاليم الساسانية السابقة .

وعسانا ننتقل الآن إلى بضعة أمثلة شائعة استُخدمت فيها بصفة رسمية عدة لغات وأبجديات ، ومنها لغة مؤسس الدولة العالمية وأبجديتها . ومن ذلك :

إحلال اللغة الإنجليزية (لغة مؤسسى الإمبراطورية البريطانية فى الهند) محل الفارسية ، اللغة الرسمية التى ورثها المغول عن فاتحى الهند السابقين : ومصداقا لذلك : فرضت عام ١٨٢٩ حكومة الهند البريطانية ، اللغة الإنجليزية واسطة لمكاتباتها الدبلوماسية ، وجعلتها عام ١٨٣٥ واسطة التعليم العالى ؛ بيد أنه لما اتُخذت عام ١٨٣٧ الخطوة النهائية لخلع اللغة الفارسية

---

(١) لم يكن « المخطط ا » قد حلت رموزه حتى كتابة هذه السطور عام ١٩٥٤ . وقد انتشر هذا النوع من الكتابة فى طول جزيرة كريت وعرضها . ولعله كان يعبر عن لغة مينوية سبقت العصر اليونانى . وأياً ما تكون العائلة اللغوية التى تنتسب إليها ، فلقد أصبح من المتفق عليه أن نوع الكتابة المعروف بـ « المخطط ب » كان يعبر عن اللغة اليونانية وكان استعماله فى كريت قاصراً على كنوسوس عاصمة الدولة المينووية . وقد شاع استعماله بعد ذلك فى مراكز الحضارة المينووية بالقارة الأوربية . (المختصر)

عن مكانتها الرسمية فى الهند البريطانية ؛ لم تستخدم الإنجليزية للوفاء بجميع الأغراض الأخرى التى كانت الفارسية تخدمها فيما مضى . فبالنسبة للإجراءات القضائية والمالية ؛ حلّت اللغات المحلية الدارجة محل الفارسية ، الموضوعات التى تهم الهنود على اختلاف مشاربهم . واصطنعت البعثات التبشيرية البروتستانتية البريطانية ؛ لغة هندية مكتوبة بالسنسكريتية ؛ عُرفت باسم « الهندوستانية » لتقوم لدى السكان الهنادكة فى شمال الهند ، مقام اللغة الهندية المتأثرة بالفارسية المعروفة بـ « الأوردية » التى سبق أن اصطنعها مسلمو الهند لأنفسهم .

ولعل هذا القرار الخيّر والسياسى ، بأن تفرض فرضا مطلقا ، لغة أجنبية تمتّ إلى مؤسس إمبراطورية دخيل : لعله أحد العوامل التى أدّت عقب تسليم الرعايا الهنود زمام أمورهم ، بعد انقضاء مائة وعشر سنوات من تأسيس الامبراطورية البريطانية الهندية ؛ أدّت إلى تقبل الدولتين الألسُنيتين[1] استمرار استخدام اللغة الإنجليزية — ولو فترة مؤقتة على الأقل[2] للوفاء بالأغراض التى خدمتها فى ظل الحكم البريطانى .

ونقيض السياسة اللغوية البريطانية فى الهند ؛ محاولة الإمبراطور جوزيف الثانى (بحكم ١٧٨٠ — ٩٠ ؛ ويعتبر واحدا ممن يطلق عليهم لقب المستبد المستنير فى العالم الغربى إبان الجيل السابق للثورة الفرنسية) فرض استخدام اللغة الألمانية على شعوب مملكية هابسبرج الدانوبية التى لا تتحدث الألمانية : فإنه على الرغم مما كان يُرجَى تحقيقه من وراء إجراء الملك السياسى من نفع اقتصادى وتقارب ثقافى ؛ فقد دللت الأحداث على فشل سياسة جوزيف اللغوية فشلا مدمّرا . وقاد فشله إلى استثارة البوادر الأولى لجيشان الحركات

---

(١) الألسنى Polyglot : المتعدد اللغات ، أى من يتكلم لغات كثيرة . (المترجم)

(٢) صرح رئيسا دولتى الهند وباكستان بأن اللغة الإنجليزية سيبطل استخدامها عام ١٩٦٥ . (المترجم)

الوطنية التي مزقت إمبراطورية هابسبرج . إربا بعـــد انقضاء مائة عام .

ولم يعتنق قط ، الأتراك سادة الإمبراطورية العثمانية ؛ السياسة التي طبقتها الخلافة العربية بنجاح والتي أخفقت فى تطبيقها الملكية الدانوبية الهابسبرجية[1] . فلقد كانت اللغة الرسمية للإدارة الحكومية هى التركية ، لغة مؤسس الإمبراطورية . بيد أنه شاعت بين أرقاء السلطان إبان ازدهار الدولة العثمانية خلال القرن السادس عشر المسيحى ، لغة مختلطة أساسها الصربية الكرواتية ؛ وأخرى إيطالية فى البحرية العثمانية . وفضلا عن ذلك؛ اتبعت الحكومة العثمانية فى الأمور المدنية (مثلما فعلته حكومة الهنـــد البريطانية) سياسة السماح لرعاياها باستخدام اللغات التي يرتضونها فى المسائل الطائفية التي تتصل بمعاملات الأفراد اتصالا وثيقاً .

ولقد طبق الرومانيون سياسة لغوية تتسم بالجمود وقتما فرضوا اللاتينية لغة رسمية فى تلك المقاطعات من إمبراطوريتهم التي تتكلم اليونانية ، باعتبارها لغة وطنية ؛ أو حيث يُتحدث بها مختلطة مع غيرها من اللغات المحلية . ثم أرضوا غرورهم الوطنى بجعل اللاتينية ؛ اللغة الوحيدة للقيادة العسكرية لوحدات الجيش الإمبراطورى ، مهما اختلفت مواطنها الأصلية ، أو مهما يكن من أمر قواعدها . كما جعلوا اللاتينية لغة الإدارة فى المستعمرات التي سكانها من أصل لاتينى سواء المقامة على أرض يونانية ، أو على أرض شرقية : أما بالنسبة للوفاء بالأغراض الأخرى ؛ فقد واصلوا استخدام لغة آتيكا المختلطة[2] ؛حيث تُستخدم رسميا . كذلك أسبغوا عليها ذاتية رسمية ظاهرة بمساواتها باللاتينية فى الإدارة المركزية لروما نفسها .

---

(١) فى رأينا أن نجاح الخلافة العربية فى نشر اللغة العربية مرده قوة الإســلام الروحية . بدليل شيوع عدد ضخم من الكلمات العربية فى جميع لغات الشعوب الإسلامية كإندونيسيا والملايو . . . الخ . (المترجم)

(٢) أتيكا : مقاطعة يونانية . كانت أثينا عاصمتها . (المترجم)

وإن توقير الرومان للغة اليونانية ؛ شيء أعظم كثيراً من الاعتراف بتفوق اليونانية على اللاتينية ، واسطة للثقافة . إذ يعني انتصار الحنكة السياسية على عنصر الخلافة في نفوس الرومان . فلقد كان انتصار اللاتينية ، شيئاً ، مثيرا في أراضي الإمبراطورية الغربية النائية ؛ حيث لم تكن تنافس اليونانية . ووُفّق الرومان إلى تعزيز شأن لغتهم ، بجعلهم استخدامها رسمياً ، امتيازا تتعلق به أفئدة الناس .

ولم تستطع اللاتينية أن تنتصر بالوسائل السلمية وحدها ، على اللغات التي لم تهبط إلى مستوى قصر استخدامها في الكتابة وحدها إذ كان عليها في إيطاليا أن تناجز شقيقاتها من اللهجات الإيطالية مثل : الأوسكانية والأمبرية ، وأن تنابز اللهجات الايليرية[1] مثل لهجتي ميسابيا وفينيسيا اللتين كانتا في سالف أيامهما على قدم المساواة مع اللاتينية ثقافيا . فما بالنا باللغة الأترورية المفعمة بالتراث الثقافي الذي جلبته معها من موطنها الأصيل في الأناضول ؛ وكان على اللاتينية كذلك أن تنازع في أفريقيا ، اللغة البونية[2] ؛

على أن اللغة اللاتينية ، قد خرجت من هذا المعمعان منتصرة انتصارا لا شبهة فيه .

ولقد أظهر بُناة الإمبراطورية السومرية التي كانت تعرف في عصرها بـ « مملكة أركان العالم الأربعة » ، تحفظا تجاه لغتهم أشد غرابة ؛ وقتما ساووا بين لغتهم السورية واللغة الأكادية ، التي برزت فجأة من غمار النسيان . وقدّر للغة الأكادية البقاء ؛ في حين أصبحت السومرية لغة ميتة من الناحية العملية ، قبل انتهاء أجل الدولة العالمية السومرية ؛

---

(١) نسبة إلى ايليريا Illyria : مقاطعة على الشاطئ الشرقي من بحر الأدرياتيك . وكانت تشمل الجزء الشمالي من ألبانيا الحالية ، ومعظم أجزاء يوجوسلافيا . (المترجم)

(٢) أي لغة قرطاجنة في تونس . وهي لغة سامية الأصل ، حملها المهاجرون السوريون معهم وقتما أسسوا قرطاجنة . (المترجم)

وهيأت الإمبراطورية الأخيمينية (الفارسية) فى دواوين الحكومة، مكانا للغتها الفارسية الأصيلة، متواضعا يماثل المكانة التى أتاحتها لفارس وطنها الأصيل بين أقطار الإمبراطورية: ويطالعنا فى هذا الشأن، تسجيل الإمبراطور دارا الكبير Darius أعماله، على صخور جبل بهيستان[1] (التى تطل على الطريق العظيم الشمالى الشرقى للإمبراطورية) بثلاثة أساليب مختلفة للخط المسمارى، تعبّر عن لغات مختلفة، هى لغات عواصم إمبراطوريته الثلاث: فالعلامية لغة سوسا، والفارسية الوسطى لغة اكباتانا Ecbatana[2] والأكادية لغة بابل: لكن لم تحظ أى من اللغات الثلاث بشرف صيرورتها اللغة الرسمية لهذه الدولة العالمية؛ بل فازت به اللغة الأرامية، ذات الحروف الأبجدية السهلة المنال.

وهكذا: تبين أن التجارة والثقافة، أعظم أهمية من الشئون السياسية: فى تقرير مصير اللغة. إذ لم يكن للمتكلمين بالأرامية وزن ما فى الإمبراطورية الأخيمينية (الفارسية): إزاء هذا، تقبّلت الحكومة الأخيمينية تفوق اللغة الأرامية، أمرا واقعا؛ فكان أن أضفت الصفة الرسمية على اللغة الأرامية. على أن أعظم مظاهر انتصار اللغة الأرامية، نجاح أبجديتها فى

---

(١) بهيستان Behistan أو Bisitum: جبل صخرى يجاور مقاطعة آردلان بفارس على بعد ٣٢ ميلا شرق مدينة كرمنشاه. ويرتفع إلى حوالى ١٧٠٠ قدم. وعلى ارتفاع ثلاثمائة قدم كتب دارا (مات عام ٤٨٥ ق. م) سجل أعماله بثلاث لغات. وإلى جوار هذا السجل، توجد كتابات عربية وأخرى يونانية، قيضت لى مشاهدتها عند مرورى بمدينة كرمنشاه فى طريقى من طهران إلى بغداد فى ٢٨ يونيه سنة ١٩٤٦.
(المترجم)

(٢) الباتانا Echbatana أو Agbatana: كانت عاصمة مملكة ميديا القديمة. وقد استولى عليها قورش إمبراطور فارس عام ٥٤٩ ق. م واتخذها عاصمة ملكة. ثم أصبحت بعد ذلك المقر الصيفى الأثير لملوك فارس. ثم نهبتها جيوش الإسكندر الأكبر وجيوش سلوقس. وتقع مكانها الآن مدينة همدان. (المترجم)

الحلول مكان الخط المسمارى ، واسطة للتعبير عن اللغة الفارسية ، إبان مرحلتها التى تلت الإمبراطورية الأخيمينية (الفارسية) .

ونجح آشوكا إمبراطور الدولة العالمية المورية الفيلسوف (حكم ٢٧٣ — ٢٣٢ ق . م) ؛ فى التوفيق بين مقتضيات العدالة المنصفة والاعتبارات العملية ، باتخاذه طائفة من اللغات المحليـــة تكتب بنوعين مختلفين من الخطوط : البراهمى Brahmi والخاروشتى Kharashti . ولقد عجّل بتنفيذ هذا الإجراء (الذى يماثل إجراءات الكاثوليك) اتفاقه مع هدف الإمبراطور الخالص الطوية ؛ هدف يقوم على تعريف شعوبه بطريق « خلاص النفس » وفقاً للأسلوب الذى بشر به الجوتاما بوذا ، أستاذ آشوكا .

ولقد أخرت بواعث مشابهة ، غُزاة إمبراطورية الإنكا Incas الأسبان ، بالسماح فى البلاد التى فتحوها ، باستخدام لغة مختلطة[1] . راجين بهذا ، نشر العقيدة الكاثوليكية بين رعاياهم الأمريكيين .

* * *

فإذا ما انتهينا من بحثنا بالتساؤل عن المستفيدين ؛ نجد أن اللغات الرسمية قد انتفعت من وراء مستعيدى الإمبراطوريات ، التى حظيت فيها هذه اللغات بالصفة الرسمية . وتم ذلك بتقرير التعامل بها فى إدارات الحكومة ، واستخدامها فى التبشير بالأديان العليا .

وإن موضوع اللغات وحروف كتابتها ، واضح ؛ لن يحتاج منا إلى مزيد من الشرح والتفسير :

إذ لانجد من بين اللغات التى ورد ذكرها فى سياق هذه الدراسة ؛ لغة فى التاريخ أعظم من الأرامية جدارة بالاعتبار . كما أنها لا تدين إلا بالقليل لحكّام الدولة العالمية التى ذاعت فى ربوعها وانتشرت .

---

(١) أى لغة تتألف من عديد من الكلمات المتباينة التى استخلصت من لغات ولهجات شتى . (المترجم)

ولقد دفعت عظمة الأرامية الإسكندر الأكبر إلى أن يتجه بشكل فظ عقب تقويضه دعائم الإمبراطورية الأخيمينية (الفارسية) ، إلى تجريد اللغة الأرامية من منزلتها الرسمية التى أضفتها عليها تلك الإمبراطورية فى مقاطعتها . وأحل الإسكندر لهجة آتيكا[1] اليونانية مكانها . إلا أن اللغة الأرامية ، قد أمكنها على الرغم من حرمانها تأييد الدولة ، من استكمال عملية الغزو الثقافى التى كانت قد شرعت فيها قبل تلقيها رعاية الدولة ؛ ومناطه حلولها محل اللغة الأكادية فى الشرق ومكان الكنعانية فى الغرب . فأضحت اللغة المتداولة بين كافة سكان الهلال الخصيب[2] ، ذوى الأصل السامى . ومن قبيل المثال : أن الأرامية لا بد وأن تكون اللغة التى استخدمها السيد المسيح فى التحدث إلى حواريه .

أما بالنسبة للأبجدية الأرامية ؛ فلقد أنجزت مآثر أوسع مدى مما أنجزته اللغة الأرامية ؛ يطالعنا منها ما يلى :

١ — اتخذت عام ١٥٥٩ عقب الفتح المانشورى للصين . أداة للتعبير عن اللغة المانشورية :

١ — عجّلت الأديان العليا من سرعة انتشار الأبجدية الأرامية . إذا أصبحت فى صورتها العبرية القديمة ، واسطة تسجيل كتب اليهودية وطقوسها المقدسة : وحوّرت تحويراً يطابق اللغة العربية ، فأصبحت حروف الإسلام الأبجدية ؛

٣ — أفادت فى سمتها السورية ، فى التعبير تعبيراً منصفا عن آراء الهرطقة التى بشّر بها المذهبان النقيضان : النسطورى والمينوفيستى[3] ؛

---

(١) أتيكا : هى المقاطعة اليونانية التى كانت أثينا عاصمتها . (المترجم)

(٢) يعرّف الأستاذ المؤلف الهلال الخصيب بأنه المنطقة الخصبة الممتدة حول شمال الصحراء العربية من مصر عبر سوريا والعراق وبابل ، إلى الخليج العربى .

(٣) يتجلى تناقض المذهبين بالنسبة لأحدهما الآخر وبالنسبة لجمهرة المذاهب المسيحية =

٤ — وفى صيغتها البهلوية التى كتبت بها كتب الأفيستا(١) ، حافظت على كتب الزرادشتية المقدسة :

٥ — ابتكرت العقيدة المانوية(٢) ، صورة للأبجدية الأرامية انتفعت بها فى أغراضها . والمانوية ، عقيدة ضالة اجتمع أتباع المسيحية والزرادشتية على كراهيتها ولعنها .

٦ — زوّدت الأبجدية الأرامية فى شكل خاص يعرف بـ « الخاروشتى Kharoshti » بأداة التعبير عن تعاليم البوذا إلى رعايا الإمبراطور آشوكا فى البنجاب الذى كان فيما مضى ، من أقاليم الإمبراطورية الأخيمينية (الفارسية) .

= الأخرى ، فى عدم إيمان النسطورية بألوهية السيد المسيح عليه السلام . إذ تؤمن بأنه كلمة الله .

أما المذهب المينوفيستى فيعتقد بأن للسيد المسيح طبيعة واحدة هى الطبيعة الإلهية . فإنه إله يوم ولد ويوم مات ويوم بعث وارتفع إلى السماء .

أما المذاهب المسيحية الأخرى ، فإنها تؤمن بأن للسيد المسيح طبيعتين : طبيعة بشرية ولد بها ومات ، وإلهية بعد ارتفاعه إلى السماء . (المترجم)

(١) الفيستا Avesta : اسم يطلق على مجموعة الكتب المقدسة الفارسية القديمة . وتعزى إلى زرادشت نبى الفرس القديم . (المترجم)

(٢) المانوية : عقيدة دينية تنتسب إلى مؤسسها الفارسى « مانى » (٢١٦ م) . وكان ثمة فى العصر الذى ولد فيه صراع حاد بين عقيدتين :

الأولى — عقيدة ميترا — وهى عقيدة فارسية قديمة شرحنا أسسها فى موضع سابق .

الثانية — العقيدة المسيحية .

وقد درس « مانى » العقيدتين ، كما درس العقيدة الفارسية القديمة ، واستخلص من دراسته عقيدة تضم نقاطا من كل عقيدة . وتحكم العالم وفقا لعقيدة « مانى » قوتان متساويتان هما قوة الخير وقوة الشر . أما قوة الخير فقد خلقها الله ، فى حين خلق الشيطان قوة الشر . وليس للعقيدة المانوية أتباع فى الوقت الحاضر . (المترجم)

(و) القانون :

ينقسم ميدان الفعل الاجتماعي للقانون ، إلى ثلاث دوائر اختصاص كبرى ؛ يختلف إحداها عن الآخر .

الأول ــ القانون الإدارى ــ ويحدد واجبات المواطنين تجاه الحكومة ؛

الثانى ــ القانون الجنائى ــ ويُعنى بالأفعال التى يؤديها طرفان قوامهما أشخاص محددون ؛

الثالث ــ القانون المدنى ــ ويهتم بالأفعال الخاصة لأناس معينين .

ولا يتأتى لأية حكومة ، تجاهل القانون الإدارى . إذ تتمثّل أولى واجباتها ؛ فى فرض سلطان الدولة ، وكبت أفعال العصيان التى تصدر عن المواطن ضد إرادتها . سواء أكانت تلك الأفعال الخيانة العظمى ، أم إهمال الفرد تسديد الضرائب المستحقة عليه .

وتدفع هذه الاعتبارات الحكومات إلى الاهتمام بالقانون الجنائى ، إذ قد لا يهاجم المجرم الحكومة سواء مباشرة أو عن قصد ؛ إلا أنه يتعرض فعلا لاقتحامها مجرى حياته ؛ إن فرض ومسّ مهام الدولة المتصلة بالمحافظة على الأمن .

أما من ناحية اهتمام الحكومات بالقانون المدنى ؛ فلأنها تؤثر فى هذا المجال منفعة رعاياها على منفعتها . وثمة اختلافات واسعة المدى تتصل بالعناية التى تبذلها حكومات الدول العالمية فى مجال كمجال القانون المدنى .

وتجابه الدول العالمية ــ فى مجال القانون ــ مشكلة خاصة لا تواجهها الدول الإقليمية . إذ تستوعب أراضيها رعايا عدد من الدول الإقليمية المغزوة التى لا تتلاشى قبل أن تخلّف فى ميدان القانون ــ كما تخلّف فى غيره من الميادين ــ رواسب لا مناص لمن يستصفى الدول الإقليمية ، من أن يعمل لها حسابا .

وثمة على الأقل حالة واحدة هي حالة « المغول » ، عجزوا بعد تكوين إمبراطوريتهم ، عن فرض أي جانب من جوانب قوانين أسلافهم على رعاياهم المقهورين . إذ كان المغول أدنى من رعاياهم ثقافة ؛

أما العثمانيون — ويتشابهون مع المغول فى الأصل البدوى — فقد آثروا اجتناب التدخل فى القانون المدنى لرعاياهم الغير الأتراك ، إلا أنهم سلكوا بالنسبة للقانونين الإدارى والجنائى مسلكا حازماً . إذ فرضوهما على رعاياهم فرضا .

وعلى النقيض من سياسة العثمانيين ، تميّز الإمبراطور تسين شى هوانج — تى Tsin Shi Hwang ti فى العالم الصينى ، بفرضه بضربة واحدة ، قانونا عاما ينص على تطبيق القانون السارى فى مملكة أجداده « تسين Ts'in فى جميع أنحاء أراضى الدول الست المنافسة لها والتى ألحقها بمملكته .

وللإمبراطور الصينى نظيران فى العالم الغربى :

الأول — نابليون الذى طبّق مواد قانونه الفرنسى فى أراضى إمبراطوريته الإيطالية والألمانية والبولندية ؛

الثانى — الحكومة البريطانية ، بتطبيقها قانون إنجلترا العام (قسم منه فى شكله الأصلى والقسم الآخر داخلا فى التشريع المحلى) فى جميع أنحاء الإمبراطورية الهندية التى أقامت عليها سلطانها المباشر ؛

وكان الرومان أبطأ من البريطانيين أو نابليون أو الإمبراطور تسين شى هوانج — تى فى استكمال وحدة القانون فى إمبراطوريتهم ؛ لكن العيش تحت ظلال القانون الرومانى ، اعتبر مزية معدودة للمواطن الرومانى ؛ ولم تكن نعمة حقوق المواطن ، قد أُسبغت بالكامل على رعايا الإمبراطورية ، حتى صدور مرسوم الإمبراطور كاراكالا (عام ٢١٢ م) ؛

ويتماثل تاريخ الخلافة الإسلامية مع التاريخ الرومانى فى هذا الشأن إذ اتسع تدريجيا نطاق سيطرة القانون الإسلامى على رعايا الخلافة الغير المسلمين ، بفضل هدايتهم إلى عقيدة مؤسسى الإمبراطورية الإسلامية .

وحيث يرتقى الوعى القانونى ويرتفع إلى أقصى صور التناسق ؛ تتولى سلطات الدول العالميـة تقنين تشريع الدولة الموحد . وتبرز حيالنا الأمثلة التالية :

١ – حدثت الخطوة الأولى فى تاريخ القانون الرومانى لتجميع نصوص القوانين ، فى مدونة دائمة لا تتغير نصوصها ؟ حدثت فى مطلع تولية القاضى أوربانوس وظيفته[1] عام ١٣١ ميلادية . ثم اتخذ جوستنيان عام ٥٢٠ م ثم عام ٥٣٣ م الخطوات النهائية فى عملية التوحيد ، وقتما أصدر القوانين المدنية والإدارية فى مدونة شاملة :

٢ – تم تجميع القوانين فى الإمبراطورية السومرية (وهى ما كانت تعرف بمملكة الأركان الأربعة) فى وقت مبكر ، تحت إشراف الأباطرة السومريين فى عاصمتهم أور Ur . وقد تبين أن هذا التجميع هو أساس عملية التجميع التى تولاها فيما بعد حورابى البابلى الذى استعاد الإمبراطورية السومرية . ولقد كشف عالم الآثار الغربى الحديث ج . دى مورجان هذه المجموعة فى عام ١٩٠١ .

والقاعدة أن يبالغ الإقبال على تجميع القوانين أوجه قبيل انهيار الدولة ، على صورة من الصورتين التاليتين :

أولا – ابتلاء الدولة بكارثة اجتماعية ، وبعد انقضاء ذروة النضوج التشريعى بزمن طويل .

ثانيا – وقتما يضطر مشرعو الجيل الحالى إلى سلوك طريق التقنين فى غمار معركتهم الخاسرة مع قوى التدمير الشديدة الشكيمة التى تنتاب دولتهم فى عصر انهيارها .

---

(١) كانت وظيفة القاضى تتم بالانتخاب لفترة سنة . وكان صاحبها يدعى Praetor (المترجم)

ومصداقا لذلك ، نجد الإمبراطور جوستنيان يختمى وراء مدونته التشريعية(١) ظانا أنها تحميه من عاديات القضاء والقدر التى انقضت على الإمبراطورية الرومانية الشرقية . بيد أنها ألحت فى مطاردته ، فاضطر أن ينثر فى طريق فراره أوراق قانونه الجديد الذى تدخل فى أحوال الناس الشخصية تدخلا مُغرضا :

بيد أن القدر قمين بأن يترفق على طول المدى ، بطائفة جامعى القوانين . فإذا كان أسلافهم الذين انتهكوا حرمتهم بقوانينهم ، يصدقون بالتأكيد عن تقديم آيات الاعجاب والتقدير إليهم ؛ إلا أن هذا الإعجاب لا بد وأن تبذله إلى أرواحهم ذرية يبعد عصرها عن عصرهم ، تغالى فى إعجابها بحيث تعجز عن تقدير العمل التشريعى تقديرا سليما .

وعلى الرغم من الإعجاب بتشريعات السلف الذى تبديه الأجيال التالية ، دون تحفظ ، فإنها ترى استحالة تطبيق تلك الشرائع التى تنزل لديها منزلة التقديس ، على علاتها ؛ إلا بعد تحريرها تحويرا أساسيا ، كذلك التحوير الذى ألم « ببوطوم Bottom . وبوطوم هذا ، هو الذى تحول رأسه فى إحدى روايات شكسبير إلى رأس حمار ؛ فكان أن هتف صديقه بيتر كوينس Peter Quince لدى رؤيته قائلا « مبارك أنت يابوطوم ! ها قد تبدلت(٢) ؛

ويعرض لنا تطور الأحداث التاريخية ، ما آلت إليه عملية تجميع القوانين :

فلقد تلا عصر جوستنيان مباشرة ، طوفان غزوات اللومبارد والسلاف والعرب ، فانتهت الإمبراطورية بالرغم من تشريعات الإمبراطور . وبالمثل ؛

---

(١) Corpus Iuris .

(٢) فى مسرحية « حلم ليلة من ليالى الصيف » . ويعنى الأستاذ توينبى هنا ، المغالاة فى تحوير نصوص التشريعات حتى تبدو صورتها الأصلية الكريهة . (المترجم)

انحدر الكاسيون من الهضاب على إمبراطورية سومر وأكّاد فى إبان مرحلتها الأخيرة ، فكان أن قُضى عليها بالرغم مما بذله حورابى فى سهول شينعار[١] من جهود مضنية فى الإصلاح السياسى والاجتماعى ، جهود تبلورت فى تشريعاته :

ولما كرّس الامبراطور ليو وخلفاؤه جهودهم لإعادة تشييد الإمبراطورية البيزنطية (فى صورة رومانية وبعد مضى مائة وخمسين عاما من التقلقل وعدم الاستقرار) ، عثروا فى التشريع الموسوى[٢] على مادة قانونية أغزر مما تضمنته مدونة جوستنيان التشريعية . أما فى إيطاليا ، فلقد صَدَف بُناة الأمة الإيطالية عن هذه المدونة ، وتعلقت آمالهم بالقواعد القانونية التى وضعها القديس بنديكت :

وهكذا ، ووريت مجموعة تشريعات جوستنيان التراب وظلت فى لحدها أربعمائة عام . فلما أن أشرق عصر نهضة القرن الحادى عشر التشريعية ، دبت فيها الحياة مرة أخرى بجامعة بولونا الإيطالية . إذ تألّقت من هذا المركز فى إبان هذا العصر ، تأثيرات تلك الجامعة . فأشعّت على جميع أركان العالم الغربى القاصى منها والدانى ، فى مجال أبعد مدى مما طمح إليه جوستنيان . فإلى قدرة جامعة بولونا على المحافظة على التراث الثقافى خلال القرون الوسطى ، يعزى إذن حصول هولندا واسكتلندا وجنوب أفريقيا على نسخة من القانون الرومانى .

فإذا انتقلنا إلى مصير تشريعات جوستنيان فى المسيحية الأرثوذكسية ، نجدها قد ظلت هاجعة مدة أقصر نسبيا مما قضتها ساكنة فى المسيحيةالغربية : إذ أقامت بالقسطنطينية فترة ثلاثة قرون ، ثم انبعثت خلال القرن العاشر

---

(١) شينعار : أراضى ما بين النهرين أى جنوب العراق الحالى . (المترجم)

(٢) نسبة إلى موسى عليه السلام . (المترجم)

المسيحى كمجموعة قوانين استعاضت بها الأسرة الملكية المقدونية عن التشريع الموسوى الذى طبقته أسرة ليو السورية خلال القرن الثامن .

ولن نتوقف هاهنا لنصف تسرّب القانون الرومانى إلى قواعد العرف التى كانت مرعية لدى الدول التيوتونية الهمجية ، إذ لم يقيّض لتلك الدول البقاء[1] . فإن ثمة زاوية من البحث أعظم من ذلك أهمية وأشد إثارة للدهشة والعجب ، تلك هى تسلل القانون الرومانى خفية ــ تسللا لا تخطئه عين الباحث ــ إلى قانون العرب الإسلامى ، غزاة الأقاليم الرومانية على اختلافها . إذ امتزج هنا عاملان يباين أحدهما الآخر[2] ؛ تباين يزرى باختلاف العرف التيوتونى عن القانون الرومانى .

ولم تقتصر نتيجة امتزاج القانونين الإسلامى والرومانى على إيجاد قانون محلى الطابع تستخدمه دولة بدائية للوفاء باحتياجاتها التشريعية ، لكنها أسفرت عن قانون عالمى المنحى ، التزم بخدمة دولة عالمية سورية ابتعثها العرب المسلمون بعد زوالها من الوجود[3] . ولما تهاوى هذا الإطار السياسى ، أخذ هذا القانون على عاتقه بأن يسوس مجتمع إسلامى ويشكّله ، مجتمع اتصلت حياته رغما عن سقوط الخلافة . وامتد مجاله حتى غدا يشمل وقت كتابة هذه السطور ، مناطق تمتد من أندونيسيا حتى ليتوانيا ، ومن جنوب إفريقيا حتى الصين .

وعلى عكس رصفائهم التيوتون ، لم يتزعزع العرب المسلمون تقريبا عن

---

(١) نظرا لتحول التيوتون إلى المسيحية الغربية وتكوينهم الدول الحديثة الحالية . (المترجم)

(٢) أى الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى . (المترجم)

(٣) ذلك لأن النهضة العربية الإسلامية قد ابتعثت إلى الوجود الدولة العالمية السورية التى زالت بفعل تحطيم الإسكندر الأكبر الدولة الأخيمينية (الفارسية) وكانت هى الدولة العالمية للمجتمع السورى . (المترجم)

أسلوب حياة أسلافهم التقليدى ، أى قبل أن تلمّ بهم تلك الرجّة التى انبثقت عن تغيّر بيئتهم الاجتماعية تغيّرا مفاجئا[١] ، دفعهم من الصحراء العربية وواحاتها إلى حقول الإمبراطوريتين الرومانية والساسانية ومدنهما .

وبالأحرى ؛ ترتب فى الجزيرة العربية عن إشعاعات الثقافتين السورية والهيلينية المتصلة الحلقات ؛ نتائج اجتماعية طفقت تتراكم ، ثم تبدّت أخيراً فى البعثة المحمدية . ولقد أخذت سيرة الرسول العربى بألباب أتباعه ، وسمت شخصيته لديهم إلى أعلى عليين ، فآمنوا برسالته إيمانا جعلهم يتقبّلون ما أُوحى به إليه وأفعاله كما سجلتها السنّة ، مصدراً للقانون ؛ لا يقتصر على تنظيم حياة الجماعة الإسلامية وحدها ، بل يرتب كذلك علاقات المسلمين الفاتحين برعاياهم الغير المسلمين الذين كانوا فى بداية الأمر يفوقونهم عدداً .

وإزاء سرعة الفتوحات الإسلامية ، وعنف اكتساحها ؛ برزت أمام العرب مشكلة هائلة مدارها التوفيق بين أسس تشريع الغزاة المسلمين والأوضاع القائمة فى الشعوب المغزوة . فكان أن بدت استحالة تطبيق قواعد القرآن والسنة على علاقتها فى مجتمع مصطنع ؛ مثلما استحال على موسى تحقيق مطالبة اليهود إياه بتفجير ينابيع المياه أثناء فترة التيه فى سيناء[٢] .

وفى غمرة هذه الصعاب ، لاذ بناة الخلافة العربية بباب الاجتهاد ، تاركين النظريات والمبادئ تأخذ طريقها المألوف . وتلمّسوا طريقهم

---

(١) العامل الأوحد فى تغير البيئة الاجتماعية العربية ، هو الرسالة المحمدية . (المترجم)

(٢) ويعرض الدكتور توينبى بعد ذلك للفارق بين السور المكية والسور المدنية فيذكر بأن الأولى روحانية الطابع وتنحو إلى توكيد وحدانية الإله . بينما تعرض السور المدنية خاصة لمسائل الدولة العامة التى أصبح النبى رئيسها . (المترجم)

بمساعدة ملكة الفهم والإدراك ، ومعاونة القياس والإجماع والعرف . وجدّوا فى إدراك بغيتهم حيثما يجدونها . فإن اقتنع أهل التقى والورع بنسبة ما أسفر عنه البحث إلى الرسول مباشرة ، اعتبروه أحسن مظان التشريع .

ولقد كان القانون الرومانى ضمن المصادر التشريعية التى غنمها المسلمون . فأحلّوه بينهم مكانا عليّا ، وطبّقوه على علاته وفقا للأسلوب الذى كان معروفا فى الأقاليم السورية . ولعل أقرب إلى الحقيقة ، أن اليهود هم الذين عرّفوا المسلمين بالقانون الرومانى .

فإذا انتقلنا لبحث التشريع اليهودى نجده قد مر بتاريخ طويل قبل عصر هجرة النبى محمد :

فلقد تألف التشريع اليهودى فى بداية الأمر من عادات بدائية اكتسبها اليهود فى إبان بداوتهم . فلما اندفعوا من سهب شمال الجزيرة العربية إلى حقول سوريا ومدنها ، اضطروا إلى تقبّل القانون القائم فى مجتمعهم الجديد الذى تجافى أوضاعه ما ألفته حياتهم الأولى ؛ قانون وجدوه يطبق قبل دخولهم أرض الميعاد[1] . ومثلهم فى ذلك ، مثل العرب المسلمين الذين ألفوا أنفسهم فجأة تجاه وسط اجتماعى يباين مجتمعهم الأصيل إلى أقصى حد .

وإذا كانت الوصايا العشر تبدو للباحث نتاجا عبريا أصيلا ، إلا أن القسم التالى من التشريع الإسرائيلى (وهو ما يعرف لدى العلماء بـ « شريعة العهـــد ») يفشى سر ما فى ذمة التشريع الإسرائيلى من دَيْن لتشريع حورابى ، رغماً عن انقضاء أكثر من تسعة قرون على سن هذا القانون

---

(١) أى فلسطين . انظر الأصحاح الرابع والثلاثين من سفر الخروج (الآيات ١٧ — ٢٦) . ونجد تفصيلات أوفى ابتداء من الآية الثالثة والعشرين من الأصحاح العشرين حتى الآية الثالثة والثلاثين من الأصحاح الثالث والعشرين .

السومرى . ولا ريب أن انصباب التشريع السومرى فى تشريع اليهود (وهم إحدى الجماعات المحلية التى ظهرت فى أيام المجتمع السورى الأخيرة) ، يشهد بعمق ومتانة الجذور التى تأصلت فى الأرض السورية فى إبان الألف سنة التى انقضت فى جيل حورابى .

وحقا ؛ اتسم القانون السومرى بالقوة التى مكّنته من البقاءساريا بين ذرارى رعايا حورابى السومريين أو أبناء البلاد التى أُلحقت وقتا ما بإمبراطوريته ، رغما عن اندلاع نيران الثورات الاجتماعية والثقافية . وحسبك دليلا على قوته ، استطاعته أن يطبع بطابعه الخاص ، التشريع الفج لهمج اليهود الكنعانيين الذين غزوا فلسطين .

وبالأحرى ؛ تسلل القانون السومرى ـ مثل القانون الرومانى بعد ذلك ـ إلى تشريع البرابرة الذين قادت المصادفة إلى توليهم دور « المحْضن »[1] لدين عالمى ؛ وهو هنا قد خلّف للتاريخ تراثا يفوق فى عِظَم تأثيره ، ما لو كان قد لاقى برابرة يقتصر دورهم التاريخى على الغزو والنهب ثم الارتحال الشائن ، على نحو ما يفعله أمثالهم . وما يزال للقانون السومرى حتى كتابة هذه السطور ، تأثير ملموس ينحصر كلية فى صورته الواردة بالقانون الموسوى .

وأيا ما تكون الحال ، لم تتأثر الشريعة الإسلامية وحدها بالقانون الرومانى . فإن كنيستى المسيحيتين ، الأرثوذكسية الشرقية والكاثوليكية الغربية ؛ ما برحتا الوريثتين المباشرتين للقانون الرومانى .

* * *

وصفوة القول ؛ البروليتاريا الداخلية ، هى المستفيد الأساسى من تشييد الدولة العالمية ، سواء فى ميدان القانون أم فى غيره من الميادين .

(ز) التقاويم والأوزان والمقاييس والنقود :

من تحصيل الحاصل ، تبيان ضرورة المعايير القياسية ، للزمن والمسافة

---

(١) جهاز التفريخ . (المترجم)

والطول والجِرْم والوزن والقيمة ، للحياة الاجتماعية على أى مستوى فوق المستوى البدائى . بل إن هذه المقومات الاجتماعية الشائعة الاستعمال ، لأقدم من الحكومات وجودا . فلما أن برزت إلى الحياة ، أصبح تنظيم أوضاعها شغل الحكومات الشاغل .

وفى الواقع ، ثمة علتان لوجود الحكومات :

الأولى — إيجابية الطابع ،وتتبلور فى توليها زمام تنظيم أعمال المجتمع وقيامها بدور القائد السياسى العام .

الثانى — سلبية الطابع — ومبناها ، ضمانها لرعاياها قسطا من العدالة الاجتماعية ولو يسيرا . ويتطلب هذا الرأى ، فى معظم المسائل المتصلة بأمور الحياة ، تطبيق معايير قياسية تقيمها الدولة أيا ما يكون نوعها .

وإذا كانت الحكومات تعنى على اختلافها بالمعايير القياسية ، فإن عناية الدول العالمية بها أشد وأقوى . إذ تجابهها بحكم طبيعة تكوينها ، مشكلة تحقيق الانسجام بين جمهرة رعاياها الذين يختلفون عن بعضهم بعضاً فى الكثير من مناحى الحياة ، عكس رعايا الدول الإقليميـــة الذين يتسمون بالتجانس عموما . ولرعايا الدولة العالمية اهتمام خاص بالتناسق الاجتماعى الذى تتيحه المعايير القياسية ، سيما إن تولت الدولة رقابة ما يتصل بها عن كثب :

أولا — التقاويم :

قياس الوقت ؛ أهم ما مسّت إليه حاجة البشرية منذ أقدم العصور. وتجلى ذلك فى بداية الأمر ، فى قياس فصول الدورة السنوية . واستدعى ذلك ، تنسيق دورات السنة الطبيعية المختلفة ، أى : السنة والشهر واليوم . وكشف رواد قياس الزمن أن النسب بين هذه الدورات ليست كسوراً بسيطة ، لكنها جذور صماء . ولقد اهتدى كل من المجتمع المصرى والبابلى والمايانى إلى معلومات عملية ، طبقتها تطبيقا مذهلا . وتم ذلك بفضل السعى فى البحث عن « السنة

العظمى » . وفيها تنطلق الدورات المتناقضة الثلاث جميعها فى وقت واحد ثم تؤوب جميعها مرة أخرى فى نهاية الأمر إلى نقطة البداية التى انطلقت منها فى وقت واحد .

وما أن استقلّ رواد الفلك قطار العد والتقدير هذا ؛ حتى أوصلهم إلى مراعاة دورية التحركات ، لا بالنسبة للشمس والقمر فحسب ، بل ومراعاتها كذلك بالنسبة للكواكب وما كانوا يدعونه بـ « النجوم الثابتة » . فكان أن ارتد أفق تفكيرهم الزمنى مسافة لا يتأتى التعبير عنها بسهولة ؛ بل إن تصورها تصوراً أقرب إلى الواقع ، أصعب من ذلك كثيرا . وإن كان هذا التصوّر لن يرقى إلى تفكير عالم معاصر من علماء الكونيات[1] ؛ الذى يرى أن نظامنا الشمسى هذا ، مجرّد غبار نجمى فى المجرّة . ولا تعدو المجرة نفسها أكثر من سديم من آلاف السُّدُم التى تسير فى طريق التحوّل إلى الرماد الميت ، بمنأى عن الميلاد المتقّدم .

وإنه وإن افتقر رواد الفلك الأقدمون إلى كشف كُنه الأجرام وفقاً لترتيبها الزمنى ، لكن تولدت دورة النجم الكلبى[2] المصرية ذات الـ ١٤٦٠ سنة بفضل رصد المصريين القدماء تحركات الشمس المنظورة ومقارنتها بتحركات أحد تلك النجوم التى كان الأقدمون يظنونها ثابتة . كذلك انبثق عن الدورة المشتّركة المتعاقبة للشمس والقمر والكواكب الخمسة ما يدعى بالسنة القُدسية وتبلغ فترتها ٤٣٢٫٠٠٠ سنة . بينما نجد فى الدورة المايانية العظمى الجسيمة ذات الـ ٣٧٤٫٤٤٠ سنة ما لا يقل عن عشر دورات جوهرية مميزة يتداخل بعضها فى البعض الآخر . ولقد أورثت « الإمبراطورية القديمة » المايانية هذا التقويم المتقن العجيب — رغم تعقده الهائل — إلى المجتمعين الياكوتى والمكسيكى اللذين تفرعا عن المجتمع المايانى .

---

(١) أى المشتغلين ببحث طبيعة الكون وكنهه . (المترجم)

(٢) دورة عينها الفلكيون المصريون بـ ١٤٦٠ أو ١٤٦١ سنة شمسية ، بفضل مراقبتهم تحرك النجم الكلبى . (المترجم)

وتعنى الحكومات مثل الفلكيين ، بتقرير الزمن على أساس السنوات ، كما تهتم بترابط الدورة السنوية المتعاقبة . إذ تهتم الحكومات قبل أى شىء آخر ، بالمحافظة على كيانها والإبقاء على وجودها . فلا مناص لها مهما يكن من أمر بساطة نظمها الإدارية وسذاجتها ، من الاحتفاظ بنوع من التسجيل المتصل الحلقات لأعمالها ؛ تعجز بدونه عن البقاء فى الحكم . ومن الطرائق التى تتبعها الحكومات لهذا الغرض ؛ تأريخ أعمالها بأسماء المتقلدين بعض الوظائف ذات الطابع القضائى التى يتم شغلها سنوياً بالاختيار . ويحدثنا هوراس فى إحدى قصائده الشعرية عن ولادته فى عهد مانليوس القاضى (وهذا يماثل تأريخ أحد سكان لندن ميلاده باسم عمدة المدينة وقت ولادته) . وواضح صعوبة مثل هـــذا النظام ؛ إذ لا يتأتى لكل امرئ تذكر أسماء القضاة ولا ترتيب تقلدهم وظائفهم[١] .

وبالأحرى ؛ يكمُن أنسب النظم وأوفاها بالغرض ، فى اختيار سنة بذاتها وجعلها تاريخاً رئيسياً ، وترقيم السنوات التى تتلوها . ومن الأمثلة التقليدية ؛ العصور التى تبـــدأ من : الاحتلال الفاشى لروما ، إقامة الجمهورية الفرنسية الأولى ، هجرة النبى محمد من مكة إلى المدينة ، وتأسيس الدولة الهاسمونية خليفة للإمبراطورية السلوقية فى جودايا Judaea ، عودة سلوقوس ظافراً إلى بابل .

وثمة حالات أخرى ؛ جُعل من الأحداث التى كان تاريخها موضع

---

(١) وبالمثل فقرة « كابد فى عهد بونطيوس » التى مجدها كل ما يتصل بمجمع نيقية وفى سفر الرسل والتى تستخدمها الكنائس المسيحية . وهى عبارة تشير إلى تأريخ أكثر من إيرادها اتهام فردما بممارسة التعذيب . فلو كان مؤلفو العقيدتين قد آثروا الانغماس فى المباحثات الجدلية ، لكان عليهم اتهام اليهود بقتل المسيح (وما يزال المسيحيون يكرهونهم) عوضاً عن اتهام سلطات روما التى تصالحوا معها . ومناط عبارة « كابد فى عهد بونطيوس » ؛ توكيد أن الشخصية الثالثة (الأقنوم) من الثالوث ، شخصية تاريخية لها تاريخ معين ؛ وهذا عكس الشخصية الأسطورية مثل ميترا أو إيزيس أو سيبيل فى الديانات الأخرى . (المؤلف)

نزاع ، أساساً لتأريخ العصور ، ومن قبيل المثال ولادة السيد المسيح . فلا يوجد دليل على ولادته بالفعل فى السنة الأولى من العصر المسيحى . بل إن عبارة « العصر المسيحى » لم تُتداوَل وتألفها الأسماع إلا منذ القرن السادس الميلادى . وبذلك لا يوجد برهان على تأسيس مدينة روما عام ٧٥٣ ق . م ، كما هو معروف ، أو عن إقامة أول احتفال أوليمبى عام ٧٧٦ ق . م . وهو التاريخ المتواتر . وأضعف من ذلك دليلا ، ما يزعمه اليهود عن خلق الدنيا يوم ٧ أكتوبر سـنة ٣٧٦١ ق . م ، أو ادعاء المسيحية الأرثوذكسية أنه تعالى قد خلقها يوم أول سبتمبر سنة ٥٥٠٩ ق . م . أو زعم المؤرخ الأسقف الإنجليزى الإيرلندى بأنها قد خلقت الساعة السادسة من ليلة ٢٣ أكتوبر سنة ٤٠٠٤ ق . م .

ويلاحظ إيرادنا هذه العصور فى الفقرتين السالفتى الذكر وفقاً لترتيب انحدارى من ناحية قوة الدليل على واقعية أزمنة الأحداث المختارة للتأريخ . فإن استعرضنا القائمة من وجهة نظر نجاح هذه العصور النسبى فى شيوعه بين الناس وتقبّلهم لها دواما ؛ نلحظ أن تصديق الدين على استخدامها هو طلسم نجاحها ، كما أن صدوفه عن اعتمادها ، سر إخفاقها . وإننا لنجد للتقويم المسيحى وقت كتابة هذه السطور ، السيادة على جميع العالم ؛ ولا ينازعه مكانته سوى منافس خطير هو التقويم الهجرى الإسلامى . وما يزال اليهود بعنادهم المعروف ، يحسبون تقويمهم رسميا على أساس تقديرهم بداية الخليقة .

وفعلا ؛ ثمة ترابط معترف به ، بين قياس مثقفى البشر وسلطان الدين على النفوس البشرية . ويشهد على صحة تأصّل هذه الفكرة (وتفتقر إلى السند العلمى) فى الأعماق اللاشعورية المنيعة للنفس البشرية ؛ ندرة الحالات التى وفّق فيها إصلاح للتقويم أساسه العقل والمنطق ، فى إغراء الناس بالإقبال على استخدامه فى حياتهم الجارية .

تلك حقيقة نجدها فى جميع المجتمعات حتى ما بلغ منها منزلة رفيعة من الاستعلاء عن الموضوعات الغيبية . فإذا كانت مجموعة قوانين الثورة الفرنسية (وتمتاز باستنادها على العقل والمنطق وحدهما) قد شقّت طريقها إلى أقصى جهات الأرض ، وحظيت أوزانها وأطوالها العصرية الرشيقة (الجرامات والمليجرامات والأمتار والكيلومترات والمليمترات) بنجاح ساحق ؛ إلا أن الثورة قد أخفقت تماما فى محاولتها إبطال تقويم رومانى وثنى احتضنته الكنيسة المسيحية فأرّخت به ميلاد المسيح .

« على أن التقويم الذى ابتكرته الثورة الفررة الفرنسية يتّسم بجاذبيته ؛ إذ كانت أسماء الأشهر تشير إلى نوع الطقس السائد خلال الشهر أو المتوقع شيوعه فيه . ويتم ذلك بتقسيم نهايات الأشهر إلى أربع شرائح موسمية يضم كل شهر ثلاثا منها . وكان قوام الشهر ثلاثين يوماً تجمعها ثلاثة أسابيع يحتوى الأسبوع على عشرة أيام . وكان ثمة شريحة تضم خمسة أيام تزيد عن المقرر لمجموع أيام السنة البسيطة ؛ وإذا كان هذا يشوه تشويها بسيطا تقويم الثورة ، إلا أنه يعتبر أكثر تقويم اخترعته البشرية من ناحية إفراطه الحساسية فى بلد يدعو شهور السنة العاشر والحادى عشر والثانى عشر بأكتوبر ونوفمبر وديسمبر »[١] .

ويطالعنا التاريخ الرومانى بتفسير لزيف التسميات التى عرضت لها الفقرة السالفة الذكر . فلقد كان يعبر عن شهور السنة بالأرقام ، ثم أطلقت عليها أسماء الآلهة ، وليس فى ذلك خطأ البتة . وكان مارس[٢] هو بداية السنة الرومانية ، وفيه تبدأ الدولة فى شن عملياتها الحربية ، تحت قيادة حاكمها الذى يتولى مهام منصبه بعد انتخابه فى ١٥ مارس من كل سنة .

---

(١) صفحة ٩ Thompson, J.M. The French Revolution

(٢) يلاحظ أن مارس هو إله الحرب عند الرومانيين . (المترجم)

ولما كانت عمليات الحكومة الحربية لاتجاوز وقتئذ نطاق مسيرة بضعة أيام من العاصمة ، تيسّر للحاكم المنتخب حديثاً تسلم زمام قيادة الجيش فى الوقت المناسب ، لتوجيه دفة العمليات الحربية فى إبان فصل الربيع . لكن تغيرت الحال بعد اتساع نطاق العمليات الحربية الرومانية إلى أراض أبعد من إيطاليا . إذ بات القائد المعين فى القيادات البعيدة ، يجد نفسه عاجزاً عن بلوغ مركز العمليات إلا بعد انقضاء موسمها بوقت طويل .

وعجيب أن لا يُعير الرومان التفاتا لهذا الخطأ فى التقويم طوال القرن الذى تلا الحرب الهانيبالية ؛ خطأ يتبين (وفقا للتقويم) من حلول شهر مارس من السنة الجديدة ، فى خريف السنة السابقة ، ففى عام ١٩٠ ق . م (وهى السنة التى دحر فيها الجيش الرومانى جيشاً سلوقيا بميدان معركة ماجنيسيا Magnesia ؛ حدث أن وصلت الكتائب الرومانية ميدان المعركة قبل الموعد الحقيق بوقت طويل ؛ فلم تصله عمليا يوم ١٥ مارس لكنها وصلت فعلا يوم ١٦ نوفمبر من السنة السابقة . وفى سنة ١٦٨ ق . م ، ألحق بالمثل جيش رومانى آخر هزيمة ساحقة بجيش مقدونى فى موقعة « بيدنا » ؛ وكان التاريخ الرسمى ١٥ مارس ، هو فى الواقع ٣١ ديسمبر من السنة السابقة .

وانتهى المطاف بالرومانيين إلى السعى لتلافى حيرتهم بين هذين التاريخين ، بتصحيح التقويم . وقد تبين لسوء الحظ ، أنه كلما كان التاريخ أدنى إلى الصحة من الناحية الفلكية ، كلما اشتد العزوف عن استخدامه فى التوقيت أثناء الحروب . إزاء ذلك تقرر فى عام ١٥٣ ق . م ، تحديد أول يناير ، تاريخا لتنصيب الحكام المنتخبين سنويا ، عوضا عن يوم ١٥ مارس . وهكذا أصبح شهر يناير – تبعا لذلك – أول السنة ، بدلا من شهر مارس .

واستمر التنافر الفلكى قائما ، حتى تجمّعت ليوليوس قيصر القدرة ليفرض قواعد الفلكيين فرضا . فكان أن طبّق التقويم « اليوليوسى »

الذى بلغ درجة من الإتقان والصحة . أهلته للبقاء ألفاً وخمسمائة سنة .
وعمد قيصر كذلك إلى تعديل أول شهر من الشهور التى كان يُرمز إليها بالأرقام ، فأطلق عليه اسمه « يوليو » ، وأطلق بعد وفاته اسم « أغسطس » على الشهر التالى . ولم يكن إطلاق اسم « يوليوس قيصر » على شهر من شهور السنة إلى جانب أسماء الآلهة الرومانية بدعا فى التقويم الرومانى ، إذ كان الاسمان مؤلّهين رسميا .

ويوضّح تطور التقويم اليوليوسى ، الارتباط العجيب بين الأديان والتقاويم . فما إن حلّ القرن السادس عشر الميلادى حتى ، تبين للعيان ، تأخر التقويم اليوليوسى عن الزمن الحقيقى بعشرة أيام . ووجد أن حذف هذه الأيام (بإجراء تعديل فى قاعدة السنوات الكبيسة[1] القرنية) يتلافى خطأ التقويم ويحيل اختلافه الزمنى إلى العدم تقريبا . وما كان ليتأتى تنفيذ فكرة إصلاح التقويم إلا بسلطان البابا ، رغما عن أن القرن السادس عشر يتميز فى مجتمع المسيحية الغربية الأوربية بظهور جاليو جاليلى[2] ، واتّباعه طريق سان توماس الأكوينى[3] فلا بدع والحالة هذه ، أن يصدر عام ١٥٨٢ التقويم المعدّل باسم البابا جريجورى الثالث عشر .

أما فى إنجلترا البروتستانتية ؛ فلقد اتخذ تعديل التقويم سبيلا مختلفاً ؛ إذ لم يكن البابا موضع تكريم وتوقير ، بل هبطت مكانته فيها إلى مجرد

---

(١) السنة الكبيسة : ٣٦٦ يوماً .

(٢) جاليو جاليلى (١٥٦٤ – ١٦٤٢) : فيلسوف إيطالى تجريبى وفلكى . ويعتبر أحد رواد الفكر الحديث . ويؤثر عنه اختراعه الترمومتر والتليسكوب . وهو الذى قال بكروية الأرض وأن الشمس متحركة ، فحوكم بسبب ذلك وحكم عليه بالسجن (المترجم)

(٣) سان توماس الأكوينى : من كبار علماء الكنيسة المسيحية الغربية وامتازت آراؤه فى عصره بالنزعة التقدمية . ويلاحظ تأثره الشديد بآراء الفلاسفة اليونانيين – انظر كتاب المترجم عن المدينة الفاضلة . (المترجم)

« أسقف روما الشائن » ؛ حتى أن الجزء الثانى من كتاب الصلوات فى عهد الملك إدوارد السادس نص على الابتهال إلى الله لتخليص الإنجليز من آثام البابا البغيضة . وإذا كان هذا الدعاء الكريه قد حُذف من أوراق كتاب الصلوات فى عهد الملكة اليزابث الأولى ؛ إلا أن شعور الإنجليز تجاه البابا قد لبث على حاله . وبدا هذا فى تشبث الحكومتين الإنجليزية والاسكتلندية طوال مائة وسبعين سنة أخرى ، بطريقتهما فى احتساب الزمن . فأصبح المؤرخون يكابدون عند بحثهم هذه الحقبة من الزمن ، سفاسف التفرقة بين « الأسلوب الجديد » و « الأسلوب القديم » فى حساب التقويم . ولما آن لبريطانيا عام ١٧٥٢ أن تقتدى بجيرانها فى القارة الأوربية ؛ ضج الرأى العام البريطانى (وذلك فى سياق القرن السابع عشر ، عصر العقل والمنطق باتفاق الناس جميعاً) بثورة أقوى مما حدثت فى العالم الكاثوليكى وقت تطبيق التقويم الجريجورى فى القرن السادس عشر ، وهو دون القرن السابع عشر فى استنارته .

فهل تُردّ شدة اعتراض الإنجليز على تعديل أساس تقويمهم الزمنى إلى القول بأن قانوناً يصدره البرلمان عن التقويم ، هو بديل هزيل لصوت الرب[١] فى زى نشرة بابوية ؟

ثانياً ـ الأوزان والمقاييس :

بانتقالنا من التقاويم والعصور إلى الأوزان والمقاييس والنقود ؛ نلجُ دائرة اختصاص ميدان المعاملات الاجتماعية حيث يسيطر الإدراك المنطقى ، ولا تحدّ الوساوس الدينية من نشاطه .

وحقيقة ؛ إن كان رجال الثورة الفرنسية قد أخفقوا إخفاقاً مُزريا

---

(١) Vox Dei

فى تمكين تقويمهم الدنيوى ، إلا أن أوزانهم ومقاييسهم قد أحرزت نجاحاً عالمياً .

فإن عقدنا مقارنة بين نصيب كل من نظام المقاييس السومرى والقاعدة المترية الفرنسية الجديدة من الشيوع والانتشار ؛ لأوحت لنا برد نجاح المصلحين الفرنسيين الساحق ، إلى طابع الاعتدال الحكيم الذى اتسم به عملهم . فإنهم بخفضهم عديد من جداول النظام القديم المعقدة إلى طراز للتقدير نسيج وحده ؛ قد أبانوا عن إدراكهم العملى العميق لقصور الطريقة العشرية وبعدها عن المنطق . وهى الطريقة التى أجمع الجنس البشرى بأسره على استخدامها ؛ لا بسبب مزاياها ، ولكن لمجرد أن للفرد البشرى العادى عشرة أصابع فى كل من يديه ورجليه .

وإذا كان الإنسان قد أقبل لهذا السبب على استخدام الحساب العشرى وصدف عن الحساب الاثنى عشرى المنطقى ، فإن من مداعبات الطبيعة القاسية ؛ تزويدها طائفة من خليقتها الفقارية[1] بست أصابع فى كل قائمة من قوائمها الأربع . لكنها لم تنعم على حائزى أداة الحساب الاثنى عشرية الطبيعية هذه ، بالعقل الذى يقودها إلى الإفادة منها . بينما منحت الطبيعة جنس الإنسان نعمة التفكير ، لكنها قترت عليه فى نفس الوقت ،فلم تمنحه سوى عدداً من الزوائد لا يزيد مجموعه عن العشرين .

وليس هذا من التوفيق فى شىء . فإن عدد « ١٠ » وهو المقياس الأساسى للحساب العشرى ؛ لا يقبل التقسيم إلا على عددين فقط هما « ٢ » و « ٥ » . فى حين يعتبر العدد « ١٢ » فى الواقع ، أقل عدد تتأتى قسمته جملة على « ٢ » و « ٣ » و « ٤ » . ورغماً عن تفوق العدد « ١٢ » ؛ لم يكن ثمة مفر من تطبيق الترقيم العشرى . إذ وقتما أصبح فى وسع حصفاء

---

(١) أى من ذوات الفقرات . (المترجم)

مجتمع من المجتمعات تقدير قيمة التفوق الأصيل للعدد « ١٢ » ؛ كان الترقيم العشرى قد استشرى فى الحياة العملية ، فبات استئصاله بعيد المنال .

ويعتبر كشف المصلحين السومريين مزايا العدد « ١٢ » ، ضربة عبقرية ؛ اتبعوها بخطوة ثورية بإعادتهم صبّ نظام موازينهم ومقاييسهم على أساس اثنى عشرى . والظاهر أنهم لم يدركوا أن تطبيق الأوزان والمقاييس الاثنى عشرية فى الحياة الجارية ، يتطلب خطوة إضافية تقوم على إرشاد مواطنيهم إلى اعتناق النظام الاثنى عشرى فى أوجه الحياة . ويعنى القصد فى هذا السبيل ، تطبيق نظامين متنافرين (الاثنى عشرى والعشرى) جنباً إلى جنب ؛ الأمر الذى يطيح بميزة النظام الاثنى عشرى .

وهذا ما وفّق إليه المصلحون الفرنسيون بفضل ابتكارهم النظام المترى .

ومهما يكن من أمر النظام السومرى الاثنى عشرى ؛ فلقد شاع فى أرجاء المعمورة . إلا أنه ما برح فى المائة والخمسين سنة الأخيرة ينازل منافسه الفرنسى الفتىّ فى معركة خاسرة . وما تزال أوكسفورد[١] (مثلما كانت مدينة أور Ur)[٢] موئل القضايا الخاسرة . وحقاً ؛ لم تخسر « أور Ur » قضيتها تماماً ، ما دام الإنجليز (ومن تأثر بهم) يتشبثون بتقسيم « القدم » إلى اثنتى عشرة بوصة ، والشلن إلى اثنى عشر بنسا[٣] .

---

(١) يعنى الأستاذ المؤلف بأكسفورد ، البلاد الإنجليزية والتى تأثرت بالثقافة الإنجليزية (سيما المستعمرات الإنجليزية السابقة والحالية . بحسبان أركسفورد المصدر الأصيل للثقافة الإنجليزية . (المترجم)

(٢) مركز الثقافة السومرية . (المترجم)

(٣) إن تقسيم اليوم إلى ٢٤ ساعة والساعة إلى ستين دقيقة ، هو كذلك سومرى الأصل . ولهذا التقسيم حظ فى البقاء أبد الآبدين ، أفضل من حظ المقاييس والموازين . بل إن الثوريين الفرنسيين صدفوا عن تحويل الوقت إلى النظام المترى . (المؤلف)

ثالثاً ـ النقود :

بات اختراع النقود أمراً مقضياً وقتما استبان للحكومات اتصال المعاملة الشريفة بالصالح العام . فأصبح من أوجب واجبات أية حكومة جديرة بهذا اللقب ؛ أن توقع القصاص على من يغش فى الوزن والمكيال . بيد أنه ماكان ليتأتى اختراع النقود إلا باتخاذ طائفة محددة من الخطوات ولم يتحقق امتزاج الخطوات فى الواقع إلا فى إبان القرن السابع قبل الميلاد ؛ رغماً عن وجود المجتمعات المتحضرة بالفعل ، قبـــل ذلك بفترة لعلها ثلاثة آلاف سنة .

وتمثلت الخطوة فى تخويل بعض السلع وظيفة الوسيط فى التبادل . فأضفى عليها منفعة إضافية ، إلى جانب فائدتها الأصلية .

وإنه وإن تعددت السلع المختارة لتأدية دور الوسيط فى المعاملات ، غير أن ذلك لم يؤد إلى ابتكار النقود.

وتطالعنا الأمثلة التالية :

ففى العالمين المكسيكى والأنديانى ، توافر معدنا الذهب والفضة (وكان لاعتبارهما مادتين نفيستين ، موضع طمع فى الدنيا القديمة) توافرا أذهل الغزاة الأسبانيين . إلا أن أهالى البلاد الأصليين لم يفكروا إطلاقا فى الاستفادة منهما وسيطا للتبادل ، رغما عن إلمامهما منذ أمد طويل بفن استخراجهما وتنقيتهما واستخدامهما فى الأشغال الفنية . لكنهم اهتدوا بمحض الصدفة إلى استخدام سلع أخرى وسائط للتبادل ، منها الفول والسمك المجفف والملح والقواقع .

ويختلف الحال فى الحضارات المصرية والبابلية والسورية والهيلينية عنه فى الحضارتين الأمريكيتين السالفتى الذكر ، إذ كانت التجارة فيها أشد تعقدا . فكان أن أهتدى إلى استخدام المعادن النفيسة مقياسا للقيمة ، على هيئة قضبان جرى العرف على تعين أوزانها .

وإذا كانت المعادن النفيسة قد جرت فى التداول فى الحضارات السالفة الذكر مئات السنين ، بل آلافها قبلما تدركه المدن الهيلينية على الشاطئ الآسيوى من البحر الأبيض ، إلا أن حكومات تلك المدن قد خطت خطوة أبعد من مساواتها المعادن بالسلع ، وسائط فى التبادل . إذ استنّت قاعدة عامة بتقريرها عقوبة قانونية على من يُقدم على غش الوزن والعيـــار . واقتضى ذلك أن تخطو تلك المدن الرائدة خطوتين ثوريتين بجعلها صناعة وحدات القيمة المعدنية هذه ، احتكارا حكوميا . وتطلّب ضمان الدولة قيمة العملة ووزنها ونوعها ، النص على وجهها بأنها من إنتاج دار السك الحكومية ، وتسجيل قيمتها .

والقاعدة ، أنه يتيسر سك العملة كلما صغرت مساحة الدولة وقل عدد سكانها . فلم يكن من قبيل المصادفة إذن ، أن تكون دول المدن معامل إجراء تجارب سك النقود .

وثمة قاعدة أخرى لا تقل عن الأولى وضوحا مدارها تزايد منفعة النقود المسكوكة مع اتساع المساحة التى تُتداول فيها قانونا . وتلك خطوة تقدمية اتخذتها الملكية فى ليديا بعد غزوها إبان العقود[1] المبكرة من القرن السادس قبل الميلاد ، وجميع دول المدن اليونانية الواقعة على شاطئ الأناضول (باستثناء مدينة ميليتوس Miietus)[2] ، ثم تغلغلها بعد ذلك فى داخلية الأناضول إلى أن بلغت نهر هاليس Hylys . وحقا ، ما إن توطد حكم مملكة

---

(١) العقد — عشر سنوات . (المترجم)

(٢) ميلتوس Miletus كانت فى العصر اليونانى من أكبر مدن آسيا الوسطى . وكانت عضواً فى اتحاد المدن الأيونية الاثنى عشرية . اشهرت بصناعة الصدف وازدهرت فأصبحت دولة بحرية خطرة تسيطر على عدة مستعمرات . أصبحت المدينة مركز الثورة ضد الاحتلال الفارسى لآسيا الصغرى فدمرها الفرس عام ٤٩٤ ق . م . لكنها استعادت شيئاً من مجدها إلى أن دمرها الإسكندر الأكبر بسبب ثورتها عليه . مكانها الآن مدينة بالاتيا . (المترجم)

ليديا حتى سكّت عُملة فرضت استخدامها على سكان أنحاء المملكة بأسرها ، ووقع اختيار الدولة على عملة مدينة فوكائيا Phocaea[1] ؛ ويطالعنا اسم قارون Craesus أشهر ملوك ليديا وآخرهم ، الذى كان وما يزال علما على الغنى والثراء ؛ وما انفك اسمه يتردد على الألسنة حتى الآن ، فيقال « فلان غنى كقارون » أكثر مما يقال غنى كروتشيلد أو روكفلر أو فورد أو موريس أو غيرهم من أصحاب الملايين فى بلاد الغرب .

وبلغ تنظيم التعامل النقدى ذروته وقتما اندمجت مملكة ليديا بدورها فى الإمبراطورية الأخيمينية (الفارسية) الواسعة الأرجاء ، فتأكّد مستقبل العملة المسكوكة ؛ فإن العملات الذهبية (وقد طبع عليها رسم قواس)[2] التى سكتها الدولة الأخيمينية العالمية ، قد دفعت النظام النقدى المسكوك إلى العيان دفعا وعجّلت باستخدامه فى كل مكان تقريبا . ومصداقا لذلك ، نجد العملات المسكوكة تشق طريقها إلى الهند بعد استيلاء الدولة الأخيمينية على البنجاب : وأصبحت الظروف مهيأة لتطبيق هذا النظام بعد حركة تسين شى هوانج – تى الثورية ، وهى حركة وفّق الإمبراطور هانج ليوبانج من التلطيف من حدتها ؛ فأنقذ الإمبراطورية ؛ ففى عام ١١٩ ق ؛ م « مكّنت بديهة الحكومة الإمبراطورية الصينية الوقادة من إدراك حقيقة تتصل بالتكامل النقدى – لم تؤت لأحد قبلها – تلك هى أن المعدن ليس وحده قوام النظام النقدى . وقد تكشفت تلك الحقيقة كما يلى :

« كان للإمبراطور فى المنتزه الإمبراطورى فى تشانج نجان – Ch'ang Ngan ذكر غزال أبيض[3] ، وهو حيوان نادر لا نظير له فى

---

(١) فوكائيا Phocaea كانت قديماً عضواً باتحاد المدن الأيونية وتقع على الساحل الغربى من آسيا الصغرى . مكانها الآن مدينة فوكيا . (المترجم)

(٢) القواس : رامى السهام .

(٣) Cervus elaphus .

الإمبراطورية . فأشار الوزير على الإمبراطور بذبحه وتقسيم جلده قطعاً صغيرة تصبح صكوكاً على خزانة الدولة العامة ، وهي آمنة من التقليد لندرة ذلك الحيوان . وفعلا قُطّع الجلد وأصبحت مساحة القطعة حوالى القدم مربع ، وجُعل لها حد ذو أهداب ومزخرف بصورة . وحدّد لكل قطعة ثمن فرضته الدولة فرضاً هو أربعمائة ألف قطعة نقدية نحاسية . وكان الإمبراطور ، إن وفد إليه الأمراء لتقديم فروض الطاعة والاحترام ، يرغمهم جميعاً على شراء قطع من هذا الجلد نقداً على أن يقدموها هدية للإمبراطور بعد ذلك . بيد أن قطع جلد ذكر الغزال الأبيض ما كانت لتكفى – لقلتها – بتزويد الخزانة العامة باحتياجاتها من الأموال »[١] .

ولم يصبح اختراع النقود الورقية حقيقة واقعة إلا بعد أن صاحبه اختراعان : الورق والطباعة . ففى عامى ٨٠٧ و ٨٠٩ ميلادية أصدرت حكومة تانج T'ang ورقاً قابلا للتداول على هيئة شيكات تحتفظ الخزانة الإمبراطورية بكعوبها . ولا يوجد دليل على طباعة نقوش هذه الشيكات ، فإن حكومة سونج Sung هى التى طبعت الورق النقدى عام ٩٧٠ ميلادية .

وبرهن اختراع النقود بما لا يدع مجالا للشك عن نفعه لرعايا الحكومات التى تصدرها . وتبين ذلك رغماً عن التقلبات الاجتماعية المخربة للتضخم والانكماش ، ومن مغريات الأقراض والاقتراض بفوائد ربوية ؛ وجميعها قد أبرزه اختراع النقود إلى العيان . لكن الحكومات التى تصدر الأوراق النقدية هى التى تحقق بالتأكيد فائدة أضخم ، باعتبار عملية الإصدار فعلا من أفعال السيادة يربط الحكومة فى أقل درجاته – ربطاً مباشراً لا يتغير – بأقلية من رعاياها نشطة ذكية وذات نفوذ . ولا يقتصر تأثير هذه الظاهرة

---

(١) صفحة ١٦٤ – ٥ . Fitzgerald; C.P., China, a Short Cultural History.

النقدية على كفالة الإعتبار للحكومة ، إذ تهيئ لها كذلك فرصة بديعة للإعلان عن نفسها .

ولقد صوّر العهد الجديد في عبارة مأثورة ، تأثير النقود على عقول سكان يرزحون تحت نير حاكم أجنبي يضيقون بسيطرته السياسية ذرعاً :

« ثم أرسلوا إليه قوماً من القديسين والهيرودسيين لكى يصطادوه بكلمة . فلما جاءوا قالوا أيجوز أن تعطى جزية لقيصر أم لا ، نعطى أم لا نعطى . فعلم برياءهم وقال لهم لماذا تجربوننى ، إيتونى بدينار لأنظره . فأتوا به فقال لهم ، لمن هذه الصورة والكتابة ؟ فقالوا له لقيصر . فأجاب يسوع وقال لهم أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله . فتعجبوا منه »[1] .

وأثمر احتكار الدولة إصدار النقود كسباً معنوياً ذاتياً كانت له أهمية لا نظير لها (حتى فى أبشع الظروف السياسية والدينية وأشدها قتاماً) للحكومة الإمبراطورية الرومانية ، كسباً أعظم من أية مكاسب مادية بحتة ، قد يبرزها — مصادفة — استئثار الدولة بدار سك النقود . ولقد جعل رسم صورة الإمبراطور على النقد ، للحكومة الإمبراطورية ، منزلة خاصة فى عقول السكان اليهود الذين اعتبروا سيطرة روما عليهم باطلة ، بالإضافة إلى اعتبارها شركاً بالرب وفقاً لما ورد بالوصية الثانية من الوصايا العشر التى يؤمن اليهود بأن ياهوى Yahweh[2] قد كتبه على الألواح الحجرية بيده نفسه وسلمها إلى موسى . وها هى تلك الوصية واضحة :

« لا تكن لك آلهة أخرى أمامى . لا تصنع لك تمثالا منحوتاً ولا صورة مما فى السماء من فوق ، وما فى الأرض من تحت وما فى الماء من تحت

---

(١) وارد بإنجيل مرقس ، أصحاح ١٢ آيات ١٣ — ١٧ ، وبإنجيل متى أصحاح ١٢ آيات ١٥ — ٢١ وبإنجيل لوقا أصحاح ٢٠ آيات ٢٠ — ٢٥ .

(٢) اسم الإله عند اليهود ، ويعتقدون بأنه إلاههم الخاص . (المترجم)

الأرض . لا تسجد لهن ولا تعبدهن . لأنى أنا الرب إلهك ، إله غيور »[1].

وحدث عام ١٦٧ ق . م . أن أقام الملك السلوقى ابيفانيس أنطيوخس الرابع فى قدس أقداس معبد ياهوى بأورشليم ، أقام تمثالا لزيوس زعيم أرباب الأوليمب ، فبلغ ذعر اليهود وسخطه لدى رؤيتهم « الرجس المخرب »[2] « قائماً حيث لا ينبغى »[3] مبلغاً من العنف جعلهم لا يهدأون حتى خلعوا عن كاهلهم كل أثر للحكم السلوقى . والمثل يقال وقتما هرّب بونطيوس بيلاطيس عامل الحكومة إلى أورشليم أعلاماً رومانية عسكرية تحمل صورة الإمبراطور بارزة ، وقد أدخلها المدينة ملفوفة تحت جنح الظلام ، فكان رد الفعل الذى أظهره اليهود تجاه هذا الفعل من العنف ، بحيث أجبر بيلاطيس على انتزاع الشعارات من أماكنها .

على أن هؤلاء اليهود أنفسهم قد أذعنوا ، لا للتطلع فحسب إلى صورة الإمبراطورية الكريهة مرسومة على النقد ، بل قبلوا راغبين التعامل بها واستخدامها واكتسابها واختزانها .

وما لبثت الحكومة الرومانية أن أدركت أهمية العملة المتداولة تداولا عاماً فى التوجيه السياسى :

« أحلت الحكومة الإمبراطورية محل الاعتبار منذ منتصف القرن الأول وما بعده ، وظيفة المسكوكات النقدية ، كمرآة للحياة المعاصرة من جميع جوانبها السياسية والاجتماعية والروحية ، واعتبرتها صدى طموح العصر الفنى ، وهذا ما لم يتح قبلها أو فى عهدها سوى لحكومات قليلة . بل إن الحكومة الرومانية قد وجدت فى المسكوكات النقدية ، إمكانيات فذة

---

(١) وارد بسفر الخروج ، الأصحاح العشرون – آيتا ٤ و ٥ . (المترجم)
(٢) الأصحاح الحادى عشر من سفر دانيال ، آية ٣١ والأصحاح الثانى عشر منه آية ١١
(٣) إنجيل مرقص الأصحاح الثالث عشر آية ١٤ .

هائلة ، تستخدم أداة للدعاية ، فعّالة إلى أبعد مدى . ويقابلها فى عصرنا الحاضر ، الوسائل الحديثة لنشر الأنباء وطرائق الدعاية المستحدثة ، من طوابع بريد إلى الإذاعة والصحافة . حيث تسجل الأنواع الطريفة والمتغيرة سنوياً وشهرياً (بل ويمكننا القول يومياً) - تسجل تفاعل الأحداث العامة . وتعكس آمال من يسيطرون على الدولة ، وتوضح منحاهم التفكيرى »[1] .

(ح) الجيوش العاملة :

تتباين الدول العالمية تبايناً هائلا بالنسبة لدرجة حاجتها للجيوش العاملة :

فإن فى وسع قلة منها ، الاستغناء عنها كلية (على وجه التقريب) .

بينما عرفت دول أخرى أنها شر لا بد منه ، سواء أكانت جيوشاً متحركة أو حشوداً تقيم بمعسكرات ثابتة :

وكان على حكومات الدول العالمية هـذه أن تصارع مشكلات نظم عسكرية عنيفة خطيرة ، مشكلات شاقة اضطلعت بمجابهتها وكانت عسيرة على الحل فى بعض الأحيان . وليس فى وسعنا التوقف لاستقصاء تلك المشكلات برمتها ، الأمر الذى يحدو بنا إلى قصر بحثنا فى هذا القسم من دراستنا على واحد من عديد الموضوعات التى تدخل فى نطاق موضوعه ، ألا وهو « تأثير الجيش الرومانى على ارتقاء الكنيسة المسيحية » . ويعتبر هذا الموضوع أكثر موضوعات القسم طرافة وأهمية ، بالإضافة إلى أنه أشد التصاقاً بالفكرة العامة التى يبحثها هذا الباب من دراستنا ؟

وليست الكنيسة المسيحية وحدها أدنى المنتفعين بالجيش الرومانى وأشدهم

---

(١) صفحة ١٥ — Toynbee, J. .C. : Roman Medalions

وضوحاً . فإن أشد المتفعين هم – بصفة عامة – البرابرة والدخلاء الذين ينخرطون فى سلك جيوش الإمبراطوريات المتحللة . وهذا ما تُنبئنا به الأمثلة التالية :

١ – تعبئة ملوك الإمبراطورية الأخيمينية (الفارسية) قوات متحركة محترفة ، قوامها جنود يونانيون مرتزقة : هذه القوات يسّرت للإسكندر الأكبر غزو الإمبراطورية الأخيمينية .

٢ – استعانة الخلفاء العباسيين بحرس من الأتراك المتبربرين والسماح لهم بالانخراط فى صفوف الجيوش العاملة ؛ قاد هذا إلى سيطرة البربرية التركية على الخلافة .

٣ – تكوين جيوش من البرابرة التيوتون والسرماتيين ، أدى إلى تسلطهم على المقاطعات الغربية للإمبراطورية الرومانية .

٤ – استعانة الدولة الوسطى فى مصر بعناصر بربرية فى جيوشها ، نجمت عنه سيطرة الهكسوس على البلاد .

وأكثر من هذا إثارة للعجب ، رؤية عقيدة دينية ترتدى دثارا عسكريا ، وأهم من ذلك أن تتقبل هذا الوضع عقيدة دينية ، تناهض تقاليدها الروح العسكرية .

إذا عارض المسيحيون الأوائل الروح اليهودية التقليدية المحاربة ، مسيرين بكراهية وجدانهم لإراقة الدماء . ويرد منحاهم هذا إلى إيمانهم بقرب عودة المسيح منتصرا ، وأوحى إليهم إيمانهم أن يترقبوها صابرين . وظاهر أن نزعة الوداعة المسيحية تجافى تماماً مزاج العنف اليهودى . فإذا كان اليهود قد أشعلوا فى بداية الأمر خلال الثلاثمائة سنة من عام ١٦٦ ق . م حتى عام ١٣٥ ميلادية ، سلسلة من الثورات ضد الحكم السلوقى ، ثم تمردوا بعدها على السيطرة الرومانية ؛ نجد المسيحيين يصدفون عن

الثورة المسلحة ضد مضطهديهم الرومان طوال فترة تناهز على وجه التقريب المدة بين بعثة يسوع وإبرام الصلح والتحالف عام ٣١٣ م بين الحكومة الرومانية والإمبراطورية والكنيسة المسيحية .

على أن الخدمة العسكرية فى الجيش الرومانى ، كانت عقبة فى بداية الأمر ، عقبة تحول دون تفاهم المسيحيين مع السلطات الرومانية . ذلك لما تحمله بين ثناياها من : إراقة الدماء فى إبان الخدمة العاملة — إصدار أحكام الإعدام وتنفيذها — تلقى القسَم العسكرى الغير المشروط للإمبراطور — عبادة عبقرية الإمبراطور وتقديم القرابين إليها — توقير الأعلام العسكرية واعتبارها أوثانا . وتضاف إلى ما تقدم عوامل أخرى .

ومصداقا للفكرة المسيحية ، حرّم الآباء المسيحيون الأوائل المتعاقبون الخدمة العسكرية فى مؤلف نشر عقب إبرام سلام الإمبراطور قسطنطين : حرمها أوريجين Origen وترتوليان Tirtulian ولاكتانتيوس Lactantius ؛

ومما له دلالته أن تحريم الكنيسة المسيحية الخدمة العسكرية فى الجيش الرومانى ، قد تداعى وقتما كان التطوع الاختيارى ما يزال أساس تكوين الجيش الرومانى . وتم هذا بالفعل قبل انقضاء مائة عام من إثارة الحكومة الرومانية الموضوع بإعادة دقلديانوس (حكم ٢٨٣ — ٣٠٥ م) مسألة تطبيق مبدأ الخدمة العسكرية الإجبارية تطبيقا عمليا ، وكان ما يزال حتى ذلك الوقت حقا نظريا ، وكان إلى عام ١٧٠ ميلادية يتحاشى على ما يبدو إثارة المنازعات المتصلة به .

فكان المسيحيون الأوائل يحجمون عن التطوع فى الجيش ، فإن حدث أن تنصر جندى وثنى تتغاضى الكنيسة عن استكماله فترة خدمته وتأديته جميع الواجبات التى يتطلبها الجيش منه . ولعل الكنيسة قد سوغت هذا اللين بنفس الأساس الذى أجازت به البدع الأخرى مثل دوام الرق (حتى فى الأحوال التى يكون فيها السيد والعبد من المسيحيين) ؛ ولإدراج رسالة

القديس بولص إلى فليمون فى القانون الكنسى ، له مغزاه فى هذا الشأن .

وفى إبان القرن الثالث المسيحى ، أخذ المسيحيون يندمجون باطراد فى أوساط الطبقات السياسية المسئولة فى المجتمع الرومانى ، بفضل ارتفاع مركزهم الاجتماعى من ناحية ، وبتوفيقهم من الناحية الأخرى فى تنصير الطبقة العليا من المجتمع . فأمكنهم الإجابة – عمليا – عن السؤال الذى أبرزه أمامهم ارتفاع مكانة الجيش الرومانى ، دون أن يتمكنوا قط من حل المشكلة على الصعيد النظرى وفقا لتعاليم المسيحية . ولم تنتظر إجابتهم العملية هذه ، تنصّر الدولة التى كان الجيش لسان حالها . ومصداقا لهذا الرأى ، أصبحت الكنيسة المسيحية فى جيش دقلديانوس من الضخامة وقوة النفوذ بحيث وُجّهت عملية اضطهاد المسيحية عام ٣٠٣ ميلادية إلى الجيش بصفة خاصة . وفى الواقع ، بدا أن نسبة المسيحين فى الجيش بالمقاطعات الغربية أعلى من نسبتهم فى السكان المدنيين .

وأعظم من ذلك أهمية : تأثير الجيش فى الكنيسة فى عهد كان الحظر على الخدمة ، ما يزال ساريا . إذ تُبرز الحرب فضائل من البطولة العسكرية تقارب تلك الفضائل التى يُطلب إظهارها من اتباع العقائد الدينية المكروهة . فلا بدع والحالة هذه أن يستخلص كثير من مبشرى مثل هذه العقائد الدينية ، ذخيرة لفظية زوّدتهم بها فنون الحرب ومعداتها ؛ وليس ثمة أوضح مما فعله القديس بولص .

وكانت الحرب وفقا للتقاليد اليهودية (وقد احتفظت بها الكنيسة المسيحية كجزء ثمين من تراثها الخاص) تنزل منزلة التقديس بالمعنى الحرفى والمجازى على السواء . وإذا كان للتقليد العسكرى اليهودى تأثير أدبى عظيم ، فلقد تبدّى التقليد العسكرى الرومانى حقيقة واقعة دامغة . وإذا كان الجيش الرومانى أيام الجمهورية مكروها مرذولا (وهى أيام اتسمت بقسوتها إبان عصر الفتوحات ، وبخاصة ، الحروب الأهلية

الرومانية) ، لكن جيش الإمبراطورية قد انتزع عنوة ، توقير الناس وإعجابهم ، بل إنه استحوز على محبة رعايا روما باعتباره تنظيما عالميا يوفر لهم المناعة ، فأصبح موضع فخارهم الحق : ومرد ذلك الشعور ، وقوف جيش الإمبراطورية بمعزل عن التدخل فى شئون الرعية وبمنأى عن السلب والنهب ، بفضل تجمعه على الحدود يذود عن الحضارة ضد البرابرة ، عوضا عن إلحاق الأذى بالجزء الداخلى المتحضر من العالم الهلينى وتدميره :

« كتب كلمنت من روما حوالى عام ٩٥ ميلادية فى رسالته الأولى إلى أهالى كورنتو عن مسلك الجنود الذين يخدمون حكامنا : تأملوا التنظيم والرشاقة والطاعة التى بها ينفذّون ما يُؤمَرون به : وليس جميعهم مندوبين أو حكاماً أو قوادا أو مختارين أو ضباطاً من رتب أقل من هؤلاء ، لكن يعمل كل منهم جنديا فى وحدته ، ينفذ أوامر الإمبراطور أو الحكومة » .

وإن كلمنت إذ يمتدح لمناظريه المسيحيين النظام الحربى ، إنما ينشد تنسيق التنظيم الكنسى المسيحى على غراره : فنجده يقول : « إن الطاعة دين واجب الأداء على المسيحيين ، طاعة لا تقتصر على تأديتها للحرب ؛ ولكن لرؤسائهم الدينيين كذلك » : على أن الكنيسة المسيحية إبان تطورها انحصر تصويرها الحسىّ للعسكرية فى شخصية المبشر واعتبرته « جندى الله » . وكان على المبشر أن يزيح عن كاهله عوائق الحياة الدنيوية ، وكان على جماعته وفقاً لرأى الكنيسة نفس الحق الذى يخول للجندى الحصول على مرتبه من الضرائب التى يدفعها الممول :

بيد أنه مهما يكن من أمر تأثير الجيش الرومانى على تطور النظم الكنسية ، فإنه فى هذا المجال أقل شدة من تأثير الخدمة المدنية الرومانية . على أن قدوة الجيش قد أثمرت نتيجتها الأساسية فى محيط المُثُل العليا :

إذ يجعل القديس ســـيبريان Cyprian من طقوس التعميد التى ابتكرتها المسيحية ، نظيراً للقَسَم العسكرى الذى يطلب من الجند تأديته عند التحاقه بالجيش الرومانى : فكان على المريد المسيحى عند انخراطه فى جحافل المسيحية أن يشن حربه وفقاً للتعليمات ، وتتضمن : اجتناب جريمة الفرار من خدمة المسيحية (وهى جريمة لا تغتفر) ، وتنكب جناية لا تقل عنها شناعة هى « التقصير فى تأدية الواجب » . وكان الموت عند القديس ترتوليان جزاء التقصير ، وهذا هو تكييفه العسكرى لعبارة القديس بولس التى وردت فى رسالته إلى الرومانيين . وساوى القديس ترتوليان كذلك بين طقوس الحياة المسيحية والتزاماتها المعنوية من جهة ، وبين أعباء العسكرية من الناحية الأخرى : فنجده يعرف الصوم بأنه الكف عن السهر هنا وهناك . ويصف إنجيل متى القيد السهل بأنه « كتيبة الرب الخفيفة » .

وبالإضافة إلى ما تقدم عن تأثير الجيش الرومانى فى نظم الكنيسة المسيحية ، يكافأ جندى العقيدة على إخلاصه بعد تسريحه من خدمتها بـ « رضاء الرب » : فإن افتقر إلى جزائه تعالى ، ففى وسعه أن يتطلع إلى حصص من هذا الجزاء ما دام موضع رضاه . واعتبرت المسيحية الصليب بمثابة « علم الجندية المسيحية » كما اعتبرت السيد المسيح « قائداً عاماً » لها . هنا يطالعنا حركة بارنج جوولد Baring Oould التى أسماها « إلى الأمام يا جنود المسيح » ، والجنرال بوث General Booth التى أطلق عليها جيش الخلاص . فإن كلتا الحركتين تتوازيان مع مُثُل الكنيسة فى إبان عهدها الأول ، مع فارق أن الجيش الذى ألهم هذه المقارنة ليس جيشاً مسيحياً ، لكنه جيش كونته الإمبراطورية الرومانية وحافظت عليه فى سبيل غايات تختلف عن التى قُصد من إنشائها جيشا بارنج جوولد والجنرال بوث .

(ظ) الوظائف العامة :

تتباين كل دولة عالمية عن الأخرى تبايناً واسع النطاق إلى أقصى حد ، من ناحية مدى إحكام تنظيم وظائفها العامة :

ففي الذروة من إجادة التنظيم ، نجد الحكومة العثمانية بما زودت به جهازها الإدارى بجميع ما تستطيع الفراهة البشرية ابتكاره ، وما تنجزه العزيمة الإنسانية لتكوين الخدمة العامة . وليست الخدمة العامة فى النظام العثمانى مجرد زمالة فى المهنة الواحدة ، لكنها باتت تسير وفقاً لتنظيم يماثل التنظيم الدينى . ولقد كان القائمون على الخدمة العامة العثمانية يشكلون جنساً قائماً بذاته يختلف عن الجنس البشرى المألوف ويسمو عليه ، مثلما تختلف السلالة الممتازة أو السلالة المنحطة من الحصان أو الكلب أو الصقر عن حياة تلك الحيوانات فى إبان وحشيتها ، أى قبل مرورها بمراحل التدريب والاستيلاد . ومبعث هذا الاختلاف ، عنف التنظيم العثمانى وشدة تزمته وانعزاليته وقسوة تأثير الاشتراطات المفروضة على الالتحاق بالخدمة العامة .

وغالباً ما يجابه منشئو وظائف الدول العالمية العامة ، عقبة تقرير مصير الطبقة الأرستقراطية التى كانت تسيطر على الوظائف العامة فى إبان عصر الاضطرابات السابق إقامة الدولة العالمية .

ويطالعنا من قبيل المثال : أرستقراطية موسكو — وكانت تتصف بالعجز — وقتما شرع بطرس الأكبر فى صبغ بلاده بالصبغة الغربية . كما تطالعنا أرستقراطية الإمبراطورية الرومانية — وكانت تمتاز بالكفاية — وقت العصر الجمهورى المتأخر . فكان أن عمد كل من بطرس وأوغسطس إلى الاستقاء من أرستقراطية إمبراطورية وجعلها مادة الجهاز الإدارى العلمانى . لكن الدافع إلى اتخاذ هذا الإجراء ، قد اختلف بالنسبة للعاهلين : إذ سعى بطرس الأكبر إلى حمل طبقة من النبلاء اتصفت بالتزمت ،

على التحول إلى إداريين أكفاء على النسق الغربى . أما أغسطس فقد سلم باشتراك مجلس الشيوخ معه فى الحكم ، لا بسبب حاجته إليه ؛ ولكن لاعتباره هذه المشاركة ، ضماناً يعصمه من التردى فى مصير سلفه يوليوس قيصر على أيدى جماعة غاضبة من صفوة أعضاء طبقة جردها قيصر من سلطانها .

وبالتالى جابه العاهلان مشكلة معاملة أرستقراطية تنتمى إلى عصر سبق ظهورها تكوين الإمبراطورية ، ولكن مع اختلاف المنحى التفكيرى فى كل حالة . وتعتبر المشكلة جماع ما جابه العاهلين من مشكلات ، وكانت كفيلة بالإطاحة بهما . فإن الأرستقراطية إن اتسمت بالكفاية ، تضيق ذرعاً بخدمة الإمبراطور لاعتقادها بأن خدمته تحط من اعتبارها : وإن افتقرت إلى الكفاية ، يجد الديكتاتور الذى يستخدمها قصورها عن خدمة أغراضه ، إذ يقابل انتفاء الضرر ، بلادة الإحساس :

وليست الجماعات الأرستقراطية التى سبقت قيام الإمبراطوريات ، المادة الوحيدة التى مست إليها حاجة بناة الإمبراطوريات لشغل وظائفها العامة . فلو أنهم اقتصروا على تعبئة البلاد ، لأصبحت حكوماتهم جيوشاً تتألف من القواد دون الكتائب : وبالتالى ؛ يقتضى تكوين المجتمع ، توافر طبقة وسطى تتألف من القانونيين وغيرهم من أصحاب المهن والحرف ؛ طبقة تقابل قادة الكتائب . كما يتطلب التنظيم الإدارى ؛ حشداً من الأفراد الثانويين ، يقابلون الجند فى الجيش .

وفى بعض الأحيان قاد الحظ السعيد بناة الدولة العالمية إلى الاستعانة بخدمات طبقة أبرزوها هم إلى الوجود لكفاية احتياجاتهم الخاصة . ويتبين هذا من بحث مآثر الخدمة البريطانية فى الهند ، ويصعب تفهم طابعها دون دراسة الأساس الذى سبق مباشرة تاريخ المملكة المتحدة الإدارى .

« يعتبر تقرير نظام التفتيش على المصانع وفقاً لقانون ١٨٣٣ ، مرحلة

نشوء نوع جديد من الخدمة العامة » ، ولقد أثمر حماس بنتام[1] Bentham إحلال المعلم مكان العُرف ، ثمرة طيبة بوجه عام . وبالمثل ، أنتجت آراؤه فى هذا المجال فكرة طريفة مدارها أن الإدارة عمل فنى . وأبرزت إنجلترا إلى الوجود بفضل إلهامه ، جهازاً إدارياً يستند على التدريب والاستقلال فى العمل . فكان أن امتاز الموظف الإنجليزى فى صورته الجديدة بالمعرفة عكس قاضى المصالحات الفرنسى : ولم يكن الموظف الإنجليزى ــ مثل رصيفه الفرنسى ــ مجرد كائن يمتّ إلى الحكومة . . فلقد تعلم الشعب الإنجليزى الانتفاع بالمتعلمين على نمط يصون استقلالهم ويحفظ احترامهم الذاتى . والمهنة الأساسية لهذه الطبقة فى الوقت الحاضر ، إظهار فوضى العالم الصناعى الجديد . ولن يستطيع إنسان دراسة تاريخ الجيل الذى تلا إقرار قانون الإصلاح ، من غير أن يصطدم بالدور الذى أداه الأطباء والقانونيون ورجال العلم والأدب فى عرض رزايا البرامج المستحدثة »[2] .

ذلك كان معنى التآخى الذى نبت فى نفوس الطبقة المتوسطة من الإداريين المحترفين التى ظهرت فى الهند . وسنعرض فى مناسبة أخرى فى فصل تال ، لتقدير مؤهلاتها وعملها الفذ .

ومن مآثر أغسطس ؛ إبرازه إلى الوجود ، نمط جديد من الخدمة العامة ، للوفاء باحتياجات الدولة العالمية التى بات مسئولا عن مقاديرها بعد أن أنهكت الحروب قواها وزعزعت أركانها . ويماثل هذا ما فعله فى العالم

---

(١) بنتام: entham : جيرمى بنتام (١٧٤٨ - ١٨٣٢) : مؤلف إنجليزى فى القانون والاقتصاد السياسى . كانت لكتاباته فى التشريعات الجنائية والمدنية أثرها العظيم فى الإصلاحات الاجتماعية التى أدخلتها إنجلترا على قوانينها ، وتبعها فى هذا المضمار دول كثيرة أخرى .
(المترجم)

(٢) Hammond Z. L. and Barbara : The Rise of Modern Industry.

الصينى بعد ذلك بمائة وخمسين سنة ، الإمبراطور هان ليو بانج Han Liu Pang . لكن إن حكمنا على كفاية النظامين بمقياس الاحتمال والبقاء ، لألفينا مأثرة هذا الفلاح الصينى تصمد لعاديات الدهر زمناً يجاوز إلى حد بعيد الزمن الذى عاشته أفعال أوكتافيوس البورجوازى . فلقد تمزق النظام الذى وضعه أغسطس إرباً بعد انقضاء سبعة قرون من إقامته ، فى حين استمر نظام ليو بانج سارياً — ولو فى أضيق الحدود — حتى عام ١٩١١ ميلادية .

وفى الخدمة العامة فى الحكومة الرومانية الإمبراطورية ، ينعكس الصراع بين الأرستقراطية القديمة التى كان يمثلها مجلس الشيوخ ، وبين الديكتاتورية الجديدة التى أوجدتها الإمبراطورية الجديدة ، وتتمثل فى هذا الانعكاس ، نقيصة تلك الخدمة العامة . وإذا كان أغسطس قد نجح فى التلطيف من حدة هذا الصراع ، لكنه لم يقض عليه تماماً : وبالأحرى ، أصبحت هناك سلطتان منفصلتان انفصالا قاطعاً مانعاً يتفرع عنهما نوعان للعمل على طرفى نقيض يسلك كل منهما (أى الموظفون الذين ينتسبون إلى الأرستقراطية القديمة والموظفون من أبناء الشعب) طريقه الخاص .

ولقد أمكن رأب هذا الصدع فى إبان القرن الثالث الميلادى ، بفضل إقصاء الأرستقراطية القديمة عن جميع الوظائف الإدارية ذات المسئولية . بيد أن اضمحلال الإدارة المحلية التى تتمتع بالحكم الذاتى ، قد ابتلع ذلك القدر من العمل الذى ألفى دقلديانوس نفسه مضطراً إلى تأديته رجاء تعزيز الخدمة الإمبراطورية العامة إلى أبعد مدى . واقتضى تحقيق هذا الغرض خفض المستوى الاجتماعى للمرشحين لتولى الوظائف العامة .

ويتباين تاريخ الخدمة العامة الرومانية مع تاريخ الخدمة العامة الصينية فى عصر أسرة هان Han تبايناً يجعل منه دراسة ممتعة . فلقد ساد منذ بداية الأمر مبدأ إتاحة فرص العمل لكل موهبة بصرف النظر عن مكانة

صاحبها الاجتماعية . وذلك وقتما أصدر الإمبراطور نفسه عام ١٩٦ ق . م (أى بعد انقضاء ست سنوات منذ استعادته الأمن والنظام) قانوناً يدعو السلطات العامة بالأقاليم إلى اختيار مرشحين للخدمة العامة على أساس اختبار الجدارة ، ثم يبتعثون بعد ذلك إلى العاصمة فيُعيّنون بوظائف الحكومة المركزية أو يُرفضون .

واتخذت الخدمة الصينية العامة قالبها النهائى وقتما قرر الإمبراطور هان ووتى Han Wuti (حكم ١٤٠ ق . م — ٨٧ ق . م) خليفة الإمبراطور هان ليو بانج Han Liu Pang ضرورة توافر صفتين أساسيتين فى المرشحين للوظائف العامة :

الأولى — البراعة فى استعارة الأسلوب المأثور عن المنطق الكنفوشيوسى .

الثانية — الفراهة فى تفسير الفلسفة الكنفوشيوسية ، تفسيراً ترضى عنه جمهرة أدباء عصره من مدرسة كنفوشيوس .

ولو قيض لكنفوشيوس أن يُبعث حياً فى القرن الثانى قبل الميلاد ، لأصابته الحيرة والدهشة من مشاركة مدرسته الفلسفية للنظام الإمبراطورى ، مشاركة تتسم باللباقة والمداهنة معاً .

وإنه وإن انتُزعت من فلسفة كنفوشيوس السياسية عناصرها الأصلية ، لكنها أصبحت مصدر إلهام قوى لنمط الحياة القائم على النقابات المهنية[1] . وجدير بالذكر أن الآداب اليونانية القديمة لم تؤثر نفس التأثير فى منحى الحياة فى الإمبراطورية الرومانية فى إبان عصر دقلديانوس . ولكن إن انتفت الروح العلمية الحقيقية من الآداب اليونانية ، فقد زوّدت الدولة الرومانية بالمثُل الخلقية التى كانت تفتقر إليها .

---

(١) مثل نظام الطوائف الذى كان يضم المشتغلين بالحرف المختلفة فى اتحادات مهنية . (المترجم)

وبينما أوجدت كل من إمبراطورية هان Han والإمبراطورية الرومانية الخدمة العامة من واقع التراث الاجتماعى والثقافى ، عجز بطرس الأكبر بسبب طبيعة مشكلته ذاتها ، عن إنجاز شىء من هذا القبيل . فلقد شيّد خلال ١٧١٧ - ١٨ عددا من الكليات الإدارية لتعريف الروس بالأساليب الإدارية الغربيــة المستحدثة ، وسيق أسرى الحرب السويديون ليعملوا مدرسين ومدربين ، وابتعث التلاميذ إلى كوينجزبرج Konigsberg البروسية لتلقى فنون التدريب على اختلافها .

وتتضح ضرورة اتخاذ تدابير خاصة لتدريب موظفى الدولة حيث تطبق نظم تستجلب من بقاع أخرى عن عمد وإصرار . ويقتضى الحال اتخاذ هذا الإجراء بصورة أو بأخرى فى جميع أنواع وظائف الدولة الأخرى .

فى إمبراطورية الانكا والإمبراطوريات الأخيمينية (الفارسية) والرومانية والعثمانية ، كانت الحاشية الملكية قطب الرحى فى أعمال الحكومة ، كما كانت بمثابة معهد لتدريب القائمين على شئونها .

وكانت عملية تثقيف الحاشية الملكية ، تتم فى طائفة من الحالات ، بإيجاد فصيلة من الوصفاء الغلمان[1] ، وهم بمثابة تلامذة الصنعة ، (باستخدام الاصطلاحات المألوفة لدينا) :

فكان فى بلاط إمبراطورية الانكا أسلوب محكم للتعليم يستند على إجراء اختبارات على مراحل متعاقبة .

وكان النبلاء فى الإمبراطورية الأخيمينية - وفقا لهيرودوتس - يدرّبون فى البلاط الملكى منذ سن الخامسة حتى العشرين ، على ثلاثة أشياء هى : ركوب الخيل والصيد وقول الصدق ، ولا شىء غيرها .

---

(١) الوصفاء : جمع وصيف .

أما البلاط العثمانى ؛ فكان يفرض فى أيامه الأولى فى بروسه ؛ شروطا لتثقيف الوصفاء الغلمان . وظل يتبع سبيلا باليا فى تدريب موظفى الدولة ، إلى أن أنشأ السلطان مراد الثانى (حكم ١٤٢١ – ١٤٥١ م) فى ادريانوبل (التى أصبحت عاصمة الدولة فى إبان عصره) مدرسة لتثقيف الأمراء . على أن خليفته السلطان محمد الثانى (حكم ١٤٥١ – ٨١) استن أسلوبا جديدا فى الإدارة العامة ؛ بتزويده جهاز حكومته ، لا بأبناء النبلاء العثمانيين المسلمين ، ولكن بالأرقاء المسيحيين وكانوا يشملون « الكفرة » أسرى الحرب من المسيحيين الغربيين وأطفال الجزية الذين كانوا يُجبون من رعايا الباديشاه (أى من المسيحيين الشرقيين) . ولقد سبق وصف هذا النظام العجيب فى موضع سابق من هذه الدراسة .

وعلى عكس السلاطين العثمانيين ، الذين تعمدوا توسيع نطاق نفوذ حاشيتهم الشخصية – وقوامها الأرقاء – بتحويلها إلى جهاز حكومى لإمبراطورية تنمو نموا مطردا على حساب مصالح رعاياهم من أحرار العثمانيين ؛ اتخذ الأباطرة الرومان إجراءات للحد من دور الرجال المحررين[1] فى الإدارة الإمبراطورية . لكن الظروف قد ألزمت الأباطرة بالاستفادة من حاشية قيصر على غرار المتبع فى النظام العثمانى . ومن ثم أمكن عُتقاء قيصر فى أيام الإمبراطورية الأولى ، السيطرة التامة على الشئون الإدارية للحكومة المركزية . وكان ثمة خمس إدارات غير حاشـية قيصر ، استطالت على مر الأيام فأضحت وزارات إمبراطورية . ورغما من سيطرة الرجال المحررين على هذه المراكز الإدارية التى باتت حكرا عليهم بحكم التقاليد ، أصبح وجودهم السياسى مستحيلا وقتما استبان أمرهم . ومصداقا لهذا ترتب على الفضائح التى ارتكبها الوزراء المحررون ممن تمتعوا بسلطان مطلق فى عهدى كلوديوس ونيرون ؛ ترتب

---

(١) أى الذين أُعتقوا من الرق . (المترجم)

عليها في عهد الأباطرة الفلافيين ، انتقال مراكز الدولة الرئيسية الواحدة بعد الأخرى إلى طبقة عرفت باسم « نظام الفرسان » التي تطورت إلى طبقة تجارية .

وهكذا رسخت مكانة الطبقة التجارية في تاريخ الخدمة الرومانية العامة على حساب دنيا الرقيق والأرستقراطية التي تنتسب إلى مجلس الشيوخ ؛ ولانتصار هذه الطبقة على منافسيها ، ما يبرره من كفايتها وتماسكها ؛ وهما صفتان مكنتا أفراد هذه الطبقة من حسن تأدية واجباتهم . وإن بروز هذه الطبقة إلى الطليعة ، وبلوغها ونيلها الثراء ، وإدراكها مرتبة عالية من القوة ؛ (أيا ما تكون وسيلتها لذلك) بالابتزاز والربا وفرض الضرائب على الفلاحين ؛ ليعتبر أهم انتصار حققه نظام أغسطس الإمبراطوري .

وبالمثل ؛ استمدت الحكومة الهندية البريطانية موظفيها من طبقة تجارية ؛ ولقد نشأ هؤلاء الموظفون في بداية الأمر ، مستخدمين بشركة تجارية[1] تهدف إلى اجتناء الأرباح النقدية . وكان من ضمن دوافع قبولهم العمل بعيدا عن موطنهم في طقس لا يلائمهم ، ما يرجونه من تكوين ثروات يتيحها الاتجار لمنفعتهم الخاصة في البلاد النائية . وبفضل نصر سهل غاية السهولة ؛ تحولت — فجأة — شركة الهند الشرقية إلى مُلك عريض له كل خصائص السلطان عدا اللقب ، ويبسط ظله على أغنى مقاطعات الامبراطورية المغولية المنهارة . وانصاع موظفو الشركة — فترة قصيرة — لإغراء انتهاب الأرباح المالية الهائلة لأشخاصهم ، وأبدوا في هذا الشأن صفاقة تماثل ما أظهره الفرسان الرومانيون قبل ذلك بوقت طويل . وكما حدث في وقت الرومان ، حدث مثله في الإمبراطورية البريطانية في الهند ؛ فلقد تحولت عصبة من الأفراد الجشعين النهابين إلى طائفة التحقت بوظائف

---

(١) شركة الهند التجارية الشرقية . (المترجم)

الدولة ، لم ينصرف اهتمام أفرادها إلى اجتناء المنافع الشخصية ، بل تساموا إلى اعتبار أن إدارة الجهاز السياسى الهائل (دون أن يسيئوا استعماله) موضع شرف وفخار .

ويعزى خلاص طابع الإدارة البريطانية فى الهند مما علق بها إلى عاملين :

الأول — قرار شركة الهند الشرقية تعليم موظفيها ، للاضطلاع بالمهام السياسية الجديدة التى أُلقيت على كواهلهم . ففى عام ١٨٠٦ ؛ افتتحت الشركة بقلعة هرتفور ، كلية يلتحق بها موظفوها المثبتون بخدمة شئون الشركة الإدارية . ونقلت الكلية بعد ذلك بثلاث سنوات إلى هايليبرى .

وأدت خلال الاثنتين والخمسين سنة التى عاشتها دورا يذكره التاريخ .

الثانى — قرار البرلمان عام ١٨٣٣ غداة انتقال حكم الهند من الشركة إلى التاج البريطانى ، شغل الوظائف العامة مستقبلا بامتحان مسابقة . فلقد ترتب عليه فتح باب التوظف لمرشحين يُستقون من ذلك الميدان الواسع : أى ميدان المنشآت الغير الرسمية ، كجامعات المملكة المتحدة ، وما يدعى بـ«المدارس العامة» التى كانت الجامعتان الإنجليزيتان العتيقتان تستمدان منها طلبتهما .

وأغلقت كلية هايليبرى Haileybury أبوابها عام ١٨٥٧ ؛ وكان الدكتور أرنولد أوف رجبى Arnold of Rugby خلال أعوام وجودها الاثنين والخمسين ، يروح ويجىء ؛ فى حين كانت مبادئه التى نافح عنها ، يذيعها معلمون بالمدارس العامة ، أوتوا نفس سعة الأفق الذهنى .

وهكذا ؛ حصل موظف الحكومة الهندية العادى فى غضون النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، على تدريب يقوم على معرفة دقيقة بما يدعوه الغربيون بـ « اللغات والآداب الكلاسيكية » . كما يستند هذا التدريب على روح مسيحية لم تكن لتقل فى عنفها ، عن تلك اللغات والآداب ، من ناحية ما يكتنفها فى غالب الأحيان من بلبلة وغموض . وقد يتأتى استخلاص

مشابهة « تصورية تماما » ، بين هذا التدريب المعنوى الأريب ، وبين تراث كنفوشيوس الصينى الكلاسيكى الذى كان يُطلب استيعابه من موظف الحكومة الصينية ؛ وهى حكومة تألفت قبل كنفوشيوس بألفى سنة .

* * *

إذا ما تحولنا الآن إلى بحث المستفيدين من الوظائف الحكومية التى تبرزها الدول العالمية إلى الوجود تحقيقاً لغاياتها الخاصة ؛ نجد لأول وهلة الدول التى تنقسم إليها الدول العالمية بعد انهيارها ، هى أكثر المستفيدين ظهورا . ولهذه الدول المستخلفة من حس الإدراك ما يمكّنها من الانتفاع بهذا التراث الثمين .

على أن الدول التى خلفت الإمبراطورية الرومانية فى الغرب ، ليست أظهر المستفيدين ؛ ولا يخفى أن تلك الدول هى التى مزّقت كيان الإمبراطورية الرومانية . فإن الكنيسة المسيحية هى أظهر المستفيدين من الخدمة العامة الرومانية ؛ وقد اقتبسته جزئيا ، ودفعة واحدة .

هنا تطالعنا حالة دولتى باكستان واتحاد الهند . إذ يتبين للمرء ، دون ضرورة لدراسة قائمة الدول المستخلفة المستفيدة من الجهاز الإدارى لدولة عالمية تفككت ؛ أن هاتين الدولتين هما اللتان استفادتا من الخدمة البريطانية الهندية العامة .

وتصدق القاعدة على الدول العالمية الأخرى :

إذ يتبين بالبحث والاستقراء أن العقائد الدينية هى أعظم المستفيدين بالجهاز الإدارى الذى يتخلف عن انهيار دولة عالمية . وهذا ما استبان لنا وقتما تأسست السلطة الكهنوتية المسيحية على غرار التنظيم الإمبراطورى الرومانى . كذلك أتاحت الإمبراطورية الحديثة بمصر قاعدة مماثلة للعقيدة الدينية المصرية الجامعة تحت رئاسة كبير كهنة آمون رع فى طيبة .

كما زوّدت الإمبراطورية الساسانية بنفس القاعدة للديانة الزرادشتية .

وكان مدار القاعدة فى كل حالة : إنبعاث كبير كهنة آمون رع فى صورة فرعون طيبة ، ورئيس كهنة زرادشت (ويعرف بـ « الموباذ Mobadh) فى هيئة شاهنشاه ساسانى ، وبروز البابا فى مشابهة للإمبراطوار فى عصر دقلديانوس .

على أن الجماعات الإدارية العلمانية قد أدّت للعقائد الدينية ، خدمات أشد ألفة وودا . خدمات أعظم من كونها مجرد مصدر لإعداد التنظيم النهائى . ذلك لأنها قد أثرت كذلك فى منحاها واتجاهاتها العامة .

وحدث فى بعض الأحيان أن تم نقل هذه التأثيرات الثقافية والأدبية ، لا عن طريق القدوة والمثال ؛ ولكن بوساطة انتقال الشخص الذى تتجسد فيه تلك التأثيرات ، من المحيط الدنيوى إلى المجال الدينى .

وتطالعنا مصداقا لهذا الرأى ؛ ثلاث شخصيات تاريخية وجّه كل منها تطور الكنيسة الكاثوليكية فى الغرب توجيها حاسما ، وانحدرت جميعها من الخدمة الرومانية العامة .

١ ـ كان آمبروسيوس Ambrosius (عاش حوالى ٣٤٠ ـ ٣٩٧ م) ابن موظف بلغ ذروة سلكه الإدارى وقتما تقلد منصب حاكم مقاطعة الغال .

٢ ـ كان القديس آمبروز Ambroso فى بداية الأمر يسير على منوال والده حاكما لمقاطعة ليجوريا وآيميليا Liguria & Aemilia ، وقتما أُخرج عنوة ـ وهو مذعور ـ من عمله المقرر الرسمى المضمون ، ودُفع دفعا إلى تولى أسقفية ميلان ، بفضل إرادة شعبية ، اختارته للمنصب ولم تعن بالحصول على موافقته .

٣ ـ أمضى كاسيودوروس Cassiodorus (عاش حوالى ٤٩٠ ـ ٥٨٥ م) الجانب الأول من حياته الطويلة جداً ، يدير إيطاليا الرومانية

بأمر من الملك ثيودوريك القوطى الغربى . ولقد أحال فى أيامه الأخيرة عقارا كان يملكه فى الريف الإيطالى فى أصبع شبه الجزيرة ، إلى دير رهبانى أصبح مكملا لمؤسسة القديس بندكت فى مونت كاسينو . وما كان فى مكنة مدرسة القديس بندكت الرهبانية تأدية رسالتها للمجتمع المسيحى الغربى الناشئ ، إلا بعد ما تزاوجت فى بداية أمرها مع مدرسة تنتسب إلى كاسيودوروس . سيما وكانت مدرسة القديس بندكت قد انقلبت ، تحت تأثير هيامها بالرب ، من مثالية فكرية ؛ إلى عمل عضلى شاق فى الحقول . واستلهمت مدرســة كاسيودوروس نفس الحافز (لاستكمال مهمة الاعتراف) ، من المخلفات الأوربية الكلاسيكية الوثنية ومحاكاتها ، بالإضافة إلى تقليد أعمال آباء الكنيسة ، ولقد اتسم هذا العمل بالمشقة الذهنية .

أما عن جريجورى الكبير (عاش ٥٤٠ – ٦٠٤ م) فقد هجر الخدمة العامة الدنيوية بعد قضائه زمنا حاكما لإحدى مدن إيطاليا ، ويشابه فى ذلك كاسيودوروس . فكان أن حوّل قصر آبائه وأجداده فى روما إلى دير . وقاده ذلك خلافا لرغبته وعلى غير ما كان يتوقعه ، إلى صيرورته أحد صانعى البابوية .

وبالأحرى ؛ ألقى كل من هؤلاء الموظفين المدنيين وراء ظهره ، مهنته الأصلية ، فى سبيل خدمة العقيدة الدينية . وجلبوا إلى عقيدتهم كفايات وتقاليد اكتسبوها من خبرتهم فى إبان أعمالهم الحكومية .

(ى) حقوق المواطنين:

تنبعث الدولة العالمية – بصفة عامة – عن اتحاد يتم عنوة بين عدد من الدول الإقليمية المتنازعة . ومن ثم تتسم حياتها فى بداية أمرها بوجود فجوة عميقة بين الحاكمين والمحكومين :

فى جانب ؛ تقف الجماعة التى شيّدت الإمبراطورية . وتمثّل أقلية

مسيطرة تخلفت عن صراع طويل الأمد فى سبيل البقاء ، بين حكام الجماعات المحلية المتنابذة فى العصر السابق .

ويقف فى الجانب الآخر ، السكان المغلوبون على أمرهم .

ومن الأساليب المألوفة ؛ أن يتسع بمرور الوقت ، نطاق ذلك الجزء من السكان الذين تم تحررهم فعلا ؛ بفضل انضمام أعداد متزايدة من الأغلبية المحكومة ، إلى صفوف الطبقة الحاكمة . على أنه من غير المألوف مواصلة هذه العملية سيرها ، إلى أن تتمكن فى نهاية المطاف من إزالة الانقسام الذى نشأ منذ البداية بين الحاكمين والمحكومين .

وثمة فى العالم الصينى حالة استثنائية ظاهرة استكملت فيها عملية التحرر السياسى مقوماتها ، وتمت فى غضون ربع قرن من إقامة الدولة العالمية . فإن الدولة العالمية الصينية قد تألفت إبان أعوام ٢٣٠ — ٢٢١ ق . م عن طريق ظفر دولة تسين Tsin . ويتأتى من عام ١٩٦ ق . م . تأريخ التحرر السياسى لشعب الدولة العالمية الصينية بأسره ، وإن امن تحصيل الحاصل القول بأنه ما كان فى وسع هذه المأثرة السياسية أن تحول بضربة واحدة ، الكيان السياسى للمجتمع الصينى من جانبيـــه الاقتصادى والاجتماعى . وبالأحرى ، لبث ذلك المجتمع يتألف من جمهرة من الفلاحين دافعى الضرائب ، تعول طبقة صغيرة العدد من الحكام المميزين . على أنه بعد ما تحقق التحرر السياسى ، بات باب هذه الجنة الحكومية الصينية مفتوحا على مصراعيه أمام الموهبة ، بصرف النظر عن مركز صاحبها الاجتماعى .

ولن يتيسر توحيد شطرى المجتمع (وهو ما يُبرزه إلى الوجود تفاعل القوى التاريخية إبان عملها الطويل الأمد) بمجرد إصدار تشريعات المساواة القضائية . ويطالعنا فى هذا الشأن مثالان بارزان فى كل من الإمبراطوريتين البريطانية فى الهند ، والإسبانية فى جزر الهند الغربية . إذ لم يكن للمساواة القضائية التى قررتها تشريعات الدولة أثر ذا بال فى تضييق هوة الاختلافات

الاجتماعية بين رعايا التساج فى الحالتين : بين الأوربين والأسيويين الأوربيين[١] والأسيويين فى الهند البريطانية ، وبين الأوربيين والخلاسين[٢] والهنود فى جزر الهند الغربية .

على أن ثمة حالة ءأثورة تمت فيها بنجاح ، إزالة الهوة الاجتماعية القائمة بين الحاكمين والمحكومين ، بفضل إنغار الأقلية المميزة تدريجيا فى كتلة رعاياها السابقين . نجد تلك الحالة فى تاريخ الإمبراطورية الرومانية . وهاهنا كذلك لم تنتشر زبدة المساواة السياسية بمجرد التشريع القاضى بإضفاء صفة المواطنين الرومانى على رعايا الإمبراطورية . فإنه وإن ترتب عن إصدار مرسوم « كاركالا » عام ٢١٢ م ، صيرورة جميع سكان الإمبراطورية – خلا استثناءات لا يؤبه لها – مواطنين رومانيين ؛ إلا أن الحال تطلبت فى إبان القرن التالى ، نشوب ثورة سياسية واجتماعية لكفالة حقوق المواطنين عمليا ، مثلما هى مكفولة نظريا بمقتضى نصوص القانون .

وفى أيام دقلديانوس ، أصبحت الكنيسة الكاثوليكية بالطبع ، هى المستفيد الأخير من مذهب المساواة التشريعية ؛ وهو ما اتجهت إلى تطبيقه الإمبراطورية الرومانية فى إبان ما يعرف بعصر الزعامة[٣] . فلقد استعارت الكنيسة المسيحية الكاثوليكية عن الإمبراطورية الرومانية فكرتها العبقرية عن الرعوية المزدوجة . وهى ابتكار دستورى مكّن الكنيسة من حل مشكلة التمتع بمنافع الانتساب إلى جماعة علمانية[٤] ، دون أن تضطر إلى نبذ روابط الولاء المقررة التى تربطها بالهيئة الدينية ، أو تقتلع جذورها .

---

(١) أى ذلك الفريق من سكان الهند الذى نجم عن تزواج بين الأوربيين والهنود . (المترجم)

(٢) الخلاسى الهندى Creole : أجنبى مولود فى جزر الهند الغربية . (المترجم)

(٣) أى العصر السابق لإمبراطورية دقلديانوس . وقد استخدمه أغسطس الذى استخدم لقب زعيم Princeps . ومعناه زعيم المجلس (أى مجلس الشيوخ) .

(٤) أى أساسها غير دينى . (المترجم)

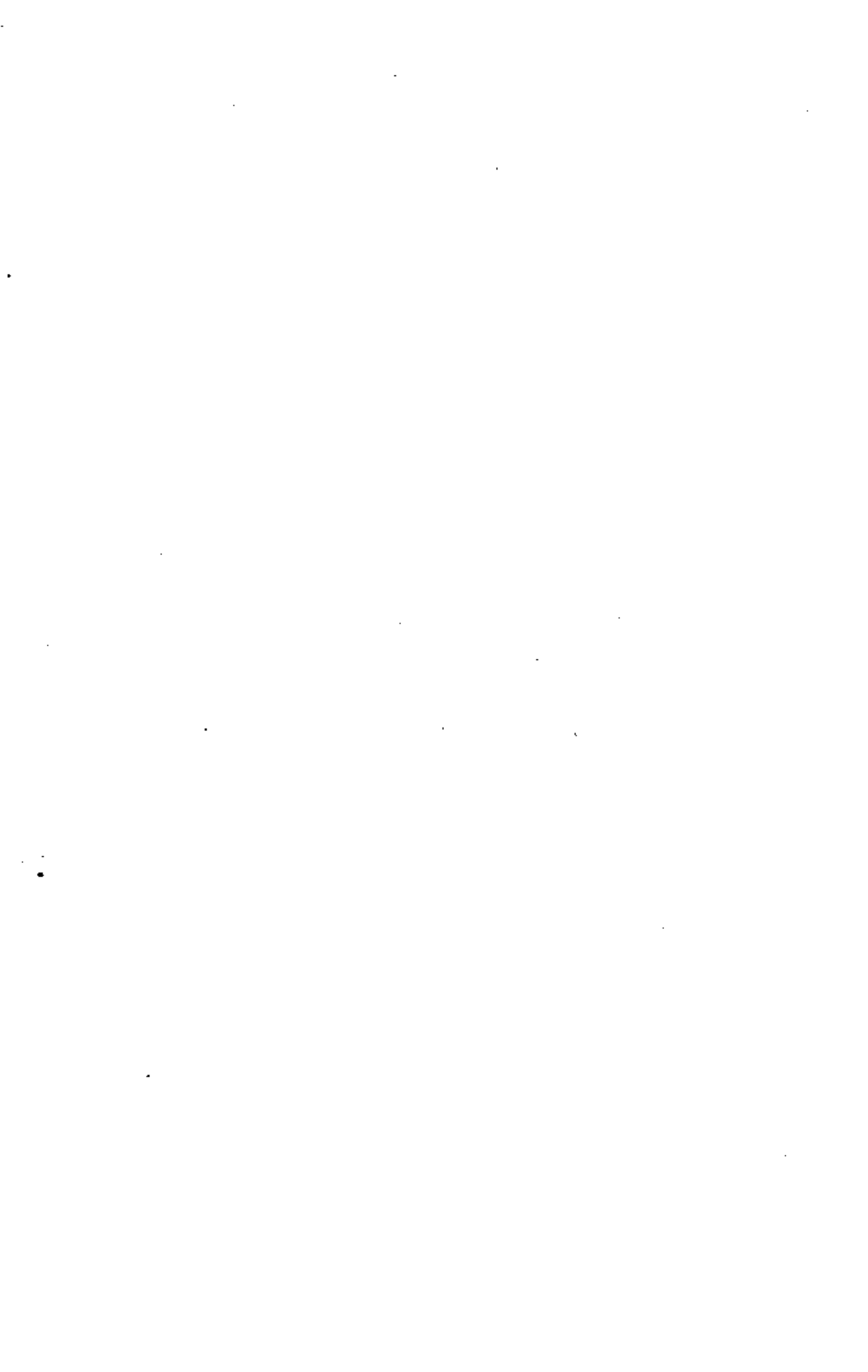
ومصداقا لهذا الرأى ؛ كان جميع مواطنى الإمبراطورية الرومانية (عدا عدد صغير من الناس يقيم بالعاصمة فعلا) فى إبان عصر الزعامة (وهو العصر الذى ازدهرت الكنيسة الكاثوليكية داخل إطاره) مواطنين كذلك لسلطة محلية ، من نوع ما . وهذه السلطة بمثابة « دولة مدينة » تتمتع بحكم ذاتى فى نطاق التنظيم السياسى للدولة الرومانية ؛ ومثلها فى ذلك مثل دولة المدينة المألوفة فى العصر الهلينى . وارتبطت هذه المدن المحلية بالحكومة العامة ، ارتباط الأم بأولادها .

وهكذا ؛ استطاعت الجماعة الدينية المسيحية أن تنتشر وتزدهر متخذة طابعا علمانيا أقامته الدولة الرومانية فى بداية أمرها ؛ وقوامه نظام يتجه بالولاء لكل من تنظيم الدولة العام والسلطة المحلية . فأصبح ولاء المسيحى الكاثوليكى — والحالة هذه — يتجه إلى الجماعة المسيحية الكاثوليكية فى بيئته الجغرافية المحدودة (أى المدينة) ؛ ويتجه من ناحية أخرى ، صوب الجماعة الكاثوليكية التى تضم بين جنبانها تلك الجماعات المسيحية المحلية التى يجمع أشتاتها التجانس فى الطقوس وتماثل المذهب الدينى .



الأديان العالميـــة

الباب الرابع



الفصل السادس والعشرون

آراء بديلة للعلاقة بين الأديان العالمية والحضارات

١ – الأديان سرطانات

تبين لنا نزوع الدين العالمي إلى الظهور في عالم الوجود ، إبان عصر اضطرابات تال لانهيار الحضارة . كما بدا ترعرع الدين العالمي ، ضمن نطاق الدولة العالمية التي تتولد عن إنهيار تلك الحضارة .

وفي الفصل السابق من هذه الدراسة ، استبان لنا كذلك ، أن الأديان العالمية كانت أول المتفعين بالنظم التي تقيمها الدولة العالمية . فلا يستغرب إذن ، أن يضيق ذرعاً حماة الدولة العالمية التي آذن يُمنها بالزوال ، بوجود ديانة عالمية داخل حشاها . فالراجح والحالة هذه ؛ أن يصبح الدين من وجهة نظر السلطان ومعاونيه ؛ سرطاناً اجتماعياً ، هو المسئول عن تحلل الدولة .

ويطالعنا في حالة تحلل امبرالإطورية الرومانية ، ذلك الاتهام الذي ظل يشتد ، منذ الهجوم الذي شنه سلسوس Celsus حوالى نهاية القرن الثاني الميلادي حتى بلغ ذروته في غرب أوروبا ، وقتما كانت الإمبراطورية تعاني سكرات الموت . ولقد فاض قلب رويتليوس ناماتيوس عام ٤١٦ م بشعور الكراهية ضد الكنيسة المسيحية ؛ في كلمات عبر بها عن شعور هذا الشاعر العنيد المخلص لروما الامبراطورية ، والذي انحدر من بلاد الغال ؛ وأطلقها وقتما شاهد المنظر المحزن للجزائر المهجورة التي استعمرها – أو على حد تعبيره – إبتُليت بالمسيحيين :

الآن إذ نتحرك ، تنتشل كابراريا نفسها

من البحر ، تتلطخ الجزيرة وتزخر
برجال يعرضون عن الضياء . إنهم يرسمون أنفسهم
رهبانا بأسماء يونانية ؛ لأنهم يبتغون
العيش منفردين ، لا يلحظهم إنسان : إنهم يرهبون
عطايا القدر بينما يخشون رزاياه :
أليس من يتنكب الألم يؤثر حياة الألم ؟
فأى عقل ملتاث يتعلق بهذا المبدأ
أكونه يخشى الشر ، يأبى الخير كله ؟
وقبل أن تنتهى رحلة روتيليوس ، كابد رؤية منظر أشد قتاما ؛ منظر جزيرة سبق أن أسرت لُب مواطن من مواطنى الشاعر ، فقال فيها :
تنهض « جورجون » وسط البحر ، وقد أحاط بها الموج من كل جانب
بينما انتصبت بيسا وسيرنوس على الجانبين
أعرضت عن الشواطئ الصخرية ، وكأنها نصب
لكارثة قريبة العهد : فإن واحدا من نفس جنسى
أفناه هنا ميت حى[1] . إذ قد حدث أخيرا
أن شابا كريم المحتد ينتمى إلى أمتنا ، شابا
لا يعوزه الحسب ولا النسب ،
انساق وراء الخبل ، والجنس البشرى وفكرة هجران الدنيا
وأنه كطريد خرافى مجدّ فى أثر
مكان خفى معيب . إن الصعلوك السيئ الطالع
قد ظن أن القبس الإلهى يتحقق له بفضل المخصبات النتنة
وبفضل تعذيبه حياته بالجلدات القاسية

(١) الميت الحى : يقصد به السيد المسيح عليه السلام . (المترجم)

وهذا أفدح مايتصور وقوعه للآلهة الغضبى .
أليست هذه الطائفة[1] أضعف فعالية من عقاقير سيرس ؟[2]
إنها ترمز إلى تحويل الأجسام لكنها أخذت الآن تحول العقول ؛

ومن خلال هذه السطور ، لاتزال تبدو روح أرستقراطية وثنية خامدة رأت فى إعراض الناس عن العبادة التقليدية للآلهة الهلينية ، علة دمار الإمبراطورية الرومانية .

وقد أثارت هذه الخصومة بين الإمبراطورية الرومانية المتداعية والكنيسة المسيحية الناهضة ، قضية لم تهز مشاعر معاصرى هذه الأحداث ممن أعناهم أمرها عناية مباشرة وحدهم ؛ بل لقد هزّت أيضا مشاعر أعقابهم الذين يتدبرون ذلك الحديث ، بعد أن فصلت بينهم وبينه هوة سحيقة من الزمن .

فإن جيبون بعبارته « لقد وصفت انتصار البربرية والدين » لم يقتصر بتلك الكلمات الخمسة على تلخيص الواحد والسبعين فصلا من كتابه فحسب ؛ لكنه نصب نفسه مؤيدا لسلسوس وروتيليوس : وعنده أن ذروة التاريخ الهلينى الثقافية – وهى عصر الأنطونيين – تبرز واضحة المعالم ، عبر فترة قدّرها بستة عشر قرنا ، يتداخل بعضها بالبعض الآخر . وتمثل هذه الفترة عند جيبون « حوضا ثقافيا » . وقد دأب جيل أسلاف « جيبون » فى العالم الغربى على الاغتراف من هذا « الحوض الثقافى » . وكان مُقام ذلك الجيل ، على منحدر جبل ؛ تلوح عند قمته ، ذروة الماضى الهلينى التى تماثل الجبل فى الارتفاع ، وتبدو للعيان مرة أخرى بجلالها وروعتها .

إن هذا الرأى الذى تبدّى فى مؤلف المؤرخ جيبون ، قد بسطه فى

---

(١) أى المسيحية . (المترجم)

(٢) يذكر هوميروس فى الأوديسية أن سيرس كانت تسكن إحدى جزر بحر إيجه وكانت تمطى الرجال الذين يقعون فى قبضتها عقاراً يحيلهم إلى خنازير . لكنها عجزت عن تحويل أوديسيوس (عوليس) إلى خنزير بفضل عقار زوده به الرب هرمس وتغلب به على مفعول عقار سيرس . (المترجم)

حذق وجلاء ، عالم من علماء القرن العشرين ، ضليع فى علم أصول الإنسان ؛ عالم لايقل فى قدرته العلمية عن جيبون :

« إن العقيدة الدينية للأم العظمى ، مع ما تتضمنه من مزيج من همجية فجّة ونزعات روحانية ، ليست إلا واحدة من المعتقدات الشرقية المتشابهة العديدة التى ذاعت فى أرجاء الإمبراطورية الرومانية خلال أيام الوثنية الأخيرة . واستطاعت عقيدة الأم العظمى هذه تمزيق أوصال الحضارة القديمة كلها بتلقيح الشعوب الأوربية بآراء غريبة عن الحياة » .

« فلقد قام المجتمع اليونانى – الرومانى ، على فكرة خنوع الفرد للجماعة ، وسيطرة الدولة على المواطن . وتجعل هذه الفكرة سلامة الجماعة مناط السلوك وهدفه الأسمى ، وتؤثرها على سلامة الفرد ؛ سواء فى الحياة الدنيا أو فى الآخرة . وإذ كان المواطنون قد نُشّئوا منذ نعومة أظفارهم على اعتناق هذا المثل الإيثارى الأعلى ، فقد كرّسوا حياتهم للخدمة العامة وكانوا على استعداد للتضحية بها فى سبيل الصالح العام . بل إنهم إذا قدّر لهم أن يحجموا عن بذل أسمى التضحيات ؛ فلا يخطر لهم على بال قط ، أن يتصرفوا تصرفا يوحى إلى الذهن بتفضيلهم منفعتهم الذاتية على مصالح وطنهم » .

« على أن انتشار الأديان الشرقية وذيوع تعاليمها ، قد غير هذا الطابع بأسره . ذلك بما تغرسه فى نفوس أتباعها عن اتحاد النفس بالله ، ومما تبثه فيهم من اعتبار الخلاص السرمدى ، المأرب الفرد الجدير بتكريس المرء حياته من أجله . ومقابل هذا ؛ أصبحت مسألة ازدهار الدولة ، بل وحتى وجودها ؛ فى أدنى درجات الأهمية والتقدير . وانبنت على هذا المذهب الأنانى اللاأخلاقى ، نتيجة حتمية مدارها عزوف مريدى العقيدة الدينية أكثر فأكثر عن الخدمة العامة ، وتركيز أفكارهم على الانفعالات الروحية . كما تملكتهم فكرة احتقار الحياة ، واعتبارهم إياها مجرد تدريب وإعداد لحياة أخرى ، خير وأبقى . إن القديس والناسك ، إذ يترفّعان عن الأرض ويسبحان فى ملكوت

التأمل الوجدانى ؛ يستحيلان فى أعين جمهرة الناس إلى أسمى أنموذج للبشرية . فيحلان بذلك محل المثل الأعلى القديم للوطنى وللبطل ، ويتناسى كل منهما نفسه ويعيش مستعداً للموت فى سبيل وطنه . ومن ثم بدت الحياة الدنيا فى أعين أولئك الرجال الذين تتعلق أبصارهم بالآخرة ، تفد إليهم من خلال سحب السماء » .

« فكان أن انتقل مركز الثقل – كما يقال – عن الحياة الحاضرة إلى الحياة المستقبلة . وأنه مهما حصلت عليه الدار الآخرة من أتباع ، فلا شبهة فى أن الحياة الدنيا قد خسرت بهذا التطور ، خسرانا مبيناً . فقد بدأ تفتت عام فى الكيان السياسى ، وانحلّت عرى الدولة والأسرة ، ومال بناة المجتمع إلى تحليله إلى عناصره الفردية . وقاده ذلك إلى الارتداد إلى البربرية . لأن الحضارة لا تقوم إلا بفضل تعاون المواطنين الفعّال وحرصهم على إخضاع مصلحتهم الخاصة للصالح العام . ومن ثم صدف الناس عن وطنهم ، بل لقد عزفوا عن الرغبة فى استمرار نوعهم على الأرض . وارتضوا – فى قلقهم على إنقاذ أرواحهم وأرواح غيرهم من الناس – ترك العالم الدنيوى يهلك من حولهم ، وقد قرنوه بالشر . واستمرت هذه الفكرة تسيطر على عقول الناس ألف سنة . ثم كان إحياء القانون الرومانى وفلسفة أرسطو والفنون والآداب القديمة فى خواتيم القرون الوسطى ؛ إيذانا بعودة أوروبا إلى مُثُل حياتها العليا وسلوكها القومى ، وإلى أفكار أصحّ وأقرب إلى دنيا البشر .

« وهكذا انقضى التوقّف الطويل الذى كابدته الحضارة ، وانحسر أخيراً مد الغزو الشرقى ، وما يزال فى انحسار متصل » [1] .

---

(١) انظر صفحات ٢٥١ – ٣ Frazer, Sir, J. G. : The Golden Bough,
Adonis, Attis, Osiris : Studies in the History of Oriental Religion.
ويسلم المؤلف فى إحدى حواشى كتابه بأن انتشار العقيدة الشرقية لم يكن السبب الوحيد فى سقوط الحضارة القديمة .

وكان ما يزال فى انحسار وقت كتابة هذه السطور عام ١٩٤٨ . وإن الكاتب الحالي[1] ليتساءل عما قد يقوله باحث دقيق قيّضت له وقتئذ مراجعة كتاب « الغصن الذهبي »[2] ليطبع طبعة رابعة ، بعد انقضاء واحد وأربعين سنة من نشره ، عن بعض الأساليب التى تبدّت بها عودة أوروبا إلى المُثُل العليا للحياة . ولقد دلل فريزر ومعاصروه ممن هم على شاكلته العقلية ، على أنهم جيل آخر من الوثنيين الغربيين المحدثين ؛ جيل ينتسب إلى مدرسة فكرية ظهرت فى بداية أمرها بإيطاليا إبان القرن الخامس عشر الميلادى واتسمت بالتعقل والتسامح . بيد أنه لم يحل عام ١٩٥٢ ، حتى اكتسحتها من هذا المجال مدرسة شيطانية من الأخلاف ؛ سيطرت عليهم عناصر الشيطنة والعنف والانفعال ؛ انبثقوا من غور مجتمع غربى علمانى . إن كلمات فريزر قد رددها بعده برنين آخر ، صوت ألفرد روزنبرج Alfred Rosenberg . على أن الحقيقة واحدة ؛ ومدارها أن روزنبرج وفريزر إنما كانا يعرضان موضوعا واحدا ، يتطابق بدوره مع ما عرضه جيبون قبلهما .

وفى موضع سابق من هذه الدراسة ، دللنا بالتفصيل على أن سقوط المجتمع الهلينى قد حدث فعلا قبل مكابدته ـ بفترة طويلة ـ تطفل المسيحية أو أية عقائد شرقية أخرى عليه ؛ وهى العقائد التى أخفقت فى منافسة المسيحية . وانتهى بالفعل المطاف بأبحاثنا إلى نتيجة مؤداها أن الأديان العليا ، ليست هى المسئولة عن هلاك أية حضارة من الحضارات . بيد أنه مهما يكن أمر هذه النتيجة ، ما يزال أمامنا احتمال صدق إتهام الأديان العليا بأنها سبب هلاك الحضارات .

ويقتضينا الوصول إلى غور المشكلة ، أن ننقل بحثنا من مجال « الكون الكبير » إلى مجال « الكون الصغير » ؛ أى من وقائع التاريخ الغابر إلى الخصائص الدائمة للطبيعة البشرية .

---

(١) أى الأستاذ توينبى .

(٢) الكتاب الذى اقتبس منه المؤلف عباراته السالفة الذكر . (المترجم)

وقوام فكرة فريزر ، أن الأديان العليا هى مصابة — بالضرورة — بداء عضال ، هو مناهضتها الحياة الاجتماعية .

فلو فرض تحول الاهتمام البشرى من المُثُل العليا التى تهدف لتحقيقها الحضارات ، إلى المُثُل العليا التى تسعى لبلوغها الأديان العليا ؛ فهل يعنى هذا بالضرورة أن تكابد القيم الاجتماعية التى تظاهرها الحضارات ؟

وإذا كان خلاص النفس البشرية هو هدف الحياة الأسمى ، فهل يتطلب ذلك تقويض البناء الحضارى ؟

يرد فريزر على السؤالين بالإيجاب . ولو افترضنا صحة إجابته ، لكان معنى هذا أن الحياة البشرية مأساة لا خلاص منها . ولكن كاتب هذه السطور يرى أن إجابة فريزر خاطئة ، وأنها تقوم على فهم مبتسر لطبيعة الأديان العليا وللنفوس البشرية على السواء .

فالإنسان ليس نملة خالية من الأنانية ، كما أنه ليس سيكاوبس[1] (عزوف عن المجتمع) . ولكنه « حيوان اجتماعى »[2] ؛ لا تجد شخصيته مجالها فى التعبير والارتقاء إلا بإقامتها علاقات مع شخوص أخرى . أما المجتمع نفسه ؛ فليس إلا المنطقة المشتركة بين شبكة العلاقات للفرد وشبكة العلاقات للفرد الآخر . ومن ثم لا وجود لمجتمع ، إلا فى مناحى نشاط الأفراد الذين لا يتأتى لهم بدورهم وجود إلا فى مجتمع .

وبالمثل ؛ ليس ثمة تنافر بين علاقات الفرد بزملائه ، وصلته بالله : وإننا لنجد فى الإلهام الروحى للإنسان البدائى ، تضامنا بين عضو القبيلة وآلهته ،

---

(١) السيكلوبس : جبار خرافى بعين واحدة . ويذكر الشاعر هوميروس فى الإلياذة أنه كان يعيش وحيداً منقطعاً عن العالم على أحد شواطئ ليبيا . (المترجم)

(٢) عبارة تعزى إلى أرسطو وتعنى أن الإنسان اجتماعى بطبعه لا يمكنه العيش إلا فى مجتمع . (المترجم)

وهو تضامن لا يؤدى بحال من الأحوال إلى ابتعاد رجال القبيلة بعضهم عن البعض الآخر ، بل إنه ليعتبر أقوى الروابط الاجتماعية التى تؤلف بينهم . ولقد استقصى فريزر نفسه – كما فسر – آثار هذا التوافق فى الحياة البشرية البدائية بين واجب الإنسان تجاه الله ، وواجبه نحو أخيه الإنسان . وتقدّم الحضارات المتحللة ، الدليل على صحة هذا القول ، حين تنشد رابطة مستحدثة للمجتمع عن طريق تأليه حكامه .

فهل تحوّل « الأديان العـــليا » التوافق إلى تنافر ، على حد ما يذهب إليه فريزر ؟

تُبدى الشواهد سواء من الجانب النظرى أم العملى ، أن الإجابة على هذا السؤال بالنفى .

ويستبين لنا من بحث الموضوع منذ بدايته الأولى ، أن الشخصيات لن تصبح قابلة للفهم إلا إن نُظر إليها باعتبارها أدوات للنشاط الروحانى ؛ ولا يمكن تصور النشاط الروحانى كامنا فى شىء ، إلا فى العلاقة بين الروح والروح . والإنسان إذ ينشد له إلها ، إنما يؤدى فعلا اجتماعيا . ولما كان حب الله قد تحوّل فى هذه الحياة الدنيا إلى « فعل » بفضل إفتداء المسيح للبشر ، فإن جهود الإنسان ليكون وضعه أقل ما يمكن اختلافا عن الله الذى خلق الإنسان على صورته ، يجب أن تتضمن جهودا للاقتداء بالمسيح فى تضحيته بنفسه لافتداء رفاقه الآخرين .

وينبنى على هذا التحليل فساد الرأى القائل بوجود تعارض بين محاولة المرء تخليص نفسه بالالتجاء إلى الله ، وسعيه للقيام بواجبه تجاه جاره . وفى هذا يقول السيد المسيح[١] :

« أحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل روحك ومن كل فكرك .

---

(١) انظر إنجيل متى أصحاح ٢٢ الآيات ٣٧ – ٣٩ .

هذه هى الوصية الأولى والعظمى . والثانية قبلها أحب جارك كما تحب نفسك » .

وواضح أنه فى ظل عقيدة المجاهدة على الأرض ، تتحقق الغايات الاجتماعية الطيبة للمجتمعات الدنيوية بتوفيق أعظم كثيراً مما تتحقق فى مجتمع دنيوى يرمى إلى تحقيق هذه الأهداف مباشرة ، ولا يتطلع إلى ما هو أسمى من ذلك .

وبتعبير آخر ؛ إن الارتقاء الروحانى للنفوس البشرية فى هذه الحياة ، يحمل معه — حقا — تقدما اجتماعيا أعظم بكثير مما يتهيأ تحقيقه باستخدام طريقة أخرى . وفى الاستعارة التى استخدمها « بونيان » ؛ يعجز « الحاج » عن العثور على مدخل البوابة الذى يؤدى إلى الحياة المتسمة بالسلوك الطيب ، حتى أبصر بعيداً عنها كثيراً « الضياء المتألق » يسطع من وراء الأفق[1] .

وإن ما أكدناه هنا بشأن « المسيحية ؛ يمكن تطبيقه على سائر الأديان العليا ، فإن جوهر المسيحية هو جوهر الأديان العليا بصفة عامة . على أن هذه المنافذ المختلفة التى منها ينفذ شعاع الله المضىء إلى نفس الإنسان ، قد تبدو للأعين المختلفة متباينة فى درجة الشفافية ، أو فى نوع الأشعة التى ترسلها .

فإن انتقلنا من مجال النظريات إلى التطبيق العملى — من طبيعة الشخصية البشرية إلى سجل التاريخ — كان جهدنا يسيرا جداً فى التدليل على أن

---

(١) لا شبهة فى أن حج كريستيان (فى قصة بونيان السالفة الذكر) ومرافقه الوارد بالقسم الأول من فصل « ارتقاء الحاج » ، يعتبر عملا يمكن أن ندعوه بالفردية المقدسة . لكن يتم تصحيح هذه الفكرة الناقصة بالقسم الثانى ، ويصبح لدينا مجتمع من الحجاج يتزايد عددهم باستمرار . ولا يقتصر رحيلهم إلى غايتهم الروحية ، لكنهم يقدمون خدمات اجتماعية دنيوية لمن يقابلهم فى طريقهم . ولقد أوحى هذا التعارض إلى المسيو نوكس Knox فى كتابه « لعبة الروح Jev d'esprit » بما جعله يرتق بنظريته فيقرر بأنه وإن سلم بأن القسم الأول هو من عمل بونيان المتطهر ، لكن القسم التالى من الكتاب قد نسب إلى بونيان خطأ . إذ ينم أسلوبه على أنه بقلم سيدة إنجليزية كاثوليكية تقية .

رجال الذين قد خدموا حقا احتياجات المجتمع العملية . فإذا كان علينا أن نذكر أسماء من قبيل : القديس فرانسيس من آسيسي ، القديس فنسنت دي بول ، جون ولسلي أودافيد ليفنجستون ؛ فإننا قد نُتهم بالتدليل على شيء لا يفتقر إلى دليل »

ومن ثم سنسرد طائفة من الناس ، مستثناة من تلك القاعدة . إنهم قوم تملكتهم نشوة الإله فعاشوا مدبرين ظهورهم للمجتمع . فهم يتمتعون بالقداسة ؛ لكنهم يبعثون على السخرية . وإن الفرد من تلك الطبقة هو كما يصفونه ؛ رجل طيب بأسوأ ما تعنيه تلك الكلمة . ومن أولئك النساك المسيحيين : القديس أنطونيوس فى صحرائه والقديس سمعان على عموده[1] .

وواضح أن هؤلاء القديسين إذ يعتزلون الناس ، يعقدون صلات أعظم نشاطا وأرحب ساحة كثيراً مما لو استمروا « فى الدنيا » وأنفقوا حياتهم عاملين فى حرفة من حرف الدنيا . لقد هيمنوا — من عزلتهم — على العالم بأشد مما يستطيعه إمبراطور من عاصمة ملكه . ذلك لأن سعيهم الشخصى وراء القداسة عن طريق نُشدانهم الاتحاد مع الله ؛ يعتبر شكلا من العمل الاجتماعى ، يحرك الأفراد بقوة أعظم من أية خدمة اجتماعية علمانية على الصعيد السياسى :

« لقد قيل فى بعض الأحيان أن النُّسك المثالى فى الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، هو الاعتزال التام عن دنيا الناس . وقد يستدل من سيرة « جون الملقب بمانح الصدقات » ، لِمَ كان البيزنطى فى ساعة الشدة ؛ يولى وجهه بالسليقة — التماسا للعون والسلوى — شطر الناسك ، وهو واثق تمام الثقة

(١) وإليه تنتسب طائفة العموديين الذين كانوا يقيمون على أعمدة ويبتعدون عن الدنيا ومباهجها وينصرفون إلى التعبد . (المترجم)

أنه واجد عنده العطف والعون . . . إن من أبرز مميزات التصوف البيزنطى المبكر ، هيامه بالعدالة الاجتماعية ودفاعه عن الفقير والمظلوم »(١) .

٢ ـ الأديان باعتبارها يفعات(٢)

عارضنا فى البحث السابق ، الرأى القائل بأن الأديان سرطانات تلتهم الأنسجة الحية للحضارات . لكن ما زلنا نتفق مع فريزر فى عبارته المأثورة التى اقتبسناها ومؤداها أن مدّ المسيحية الذى تدفق بقوة فائقة إبان المرحلة الأخيرة للمجتمع الهلينى ؛ قد طفق ينحسر فى تلك الأيام الأخيرة ، وأن المجتمع الغربى الذى انبثق بعد ذلك ، كان من نفس طراز المجتمع الهلينى السابق للمسيحية .

وتفتح هذه الملاحظة المجال لفكرة أخرى محتملة عن العلاقة بين الأديان والحضارات ، وهى فكرة عبر عنها باحث غربى حديث فى العبارة التالية :

« إن الحضارة القديمة قد أُدينت . . . وفى الناحية الأخرى وقفت الكنيسة ـ بالنسبة للمسيحى المؤمن ـ موقف هارون بين الحى والميت (وهو تعبير يعنى التوسط بين الدار الآخرة والحياة الدنيا) . لقد كانت الكنيسة بمثابة جسد المسيح ومن ثم فهى خالدة ، وهى شىء جدير بالمرء أن يحيا ويعمل من أجله . بيد أن الكنيسة وقفت فى هذا العالم قوة لا تقل عن الإمبراطورية نفسها . وعلى هذا النحو ، كوّنت فكرة الكنيسة بؤرة محدودة لا تقدر بثمن ، استطاعت أن تتبلور حولها شيئاً فشيئاً حضارة جديدة(٣) .

ومصداقاً لوجهة النظر هذه ، يصبح للأديان العالمية ما يبرر وجودها فى

---

(١) صفحة ١٩٨ و ١٩٧ Dawes, C, and Baynes : Three Byzentine Saints

(٢) Chrysalis .

(٣) صفحتا ٢٢٠ و ٢٢١ Birkitt, F. C. : Early Eastern Charistianity .

إبقاء أنواع من المجتمع نطلق عليها اسم « الحضارات » حية . وذلك بالاحتفاظ بجرثومة ثمينة من الحياة فى رحم « فترة الفراغ » الحرجة ؛ وهى فترة تقع بين انحلال ممثل فانٍ للنوع[١] وبداية نشوء ممثل آخر لنفس النوع . وعلى هذا النحو ؛ تصبح العقيدة الدينية جزءاً من نظام الاستيلاد الحضارى ، بقيامها – بين الفراشة والفراشة – بدور : البويضة والدويدة واليفعة :

ولا يسع كاتب هذه الدراسة ، إلا أن يعترف بقناعته – طوال عدة سنوات – بهذا الرأى ، الذى هو أميل إلى مناصرة فكرة دور العقائد الدينية فى مجريات التاريخ . وقد ظل يؤمن بأن الرأى الذى يذهب إلى أنها يفعات – بخلاف الرأى الذى يذهب إلى كونها سرطانات – رأى صادق إلى المدى الذى ذهب إليه . لكنه بات يؤمن بأن هذا الرأى ليس إلا جانباً من الحقيقة وأنه على أية حال – الجانب من الحقيقة الذى علينا الآن أن ندرسه[٢] .

فإذا ما ألقينا ببصرنا على الحضارات التى ما برحت قائمة فى عام ١٩٥٢ ، نجد أنه يكمُن وراء كل منها ، نوع من العقيدة الدينية العالمية ؛ وعن طريقها تولّدت الحضارة أصلا عن حضارة أقدم منها :

١ – فالحضارتان المسيحيتان الغربية والشرقية ، تولدتا عن الحضارة الهيلينية عن طريق العقيدة المسيحية .

---

(١) أى من يمثل الحضارة ، وهى نوع المجتمع . (المترجم)

(٢) قد يكون فى وسع ذات الرأى بالطبع – فى نفس تمتاز بالحساسية الروحانية – أن يستولد مزاجاً سوداوياً أكثر منه مزاجاً منشرحاً . وما أن إنهارت الحضارة التقليدية حتى زال تأثير الكنيسة المسيحية باعتبارها عقيدة نبيلة ليسوع المسيح ، فاستحالت إلى عقيدة دينية لها فائدتها كوشيجة فى عالم يعانى الانحلال . وهى بهذه الصفة قد أبدت معاونتها على إحياء الحضارة الأوروبية الغربية بعد انقضاء العصور المظلمة . وقد تواصل عملها كعقيدة اسمية لشعوب ذكية مضطربة تهدف عن تقدم – ولو بالقول – خدمة إلى مثلها العليا . أما بالنسبة لمستقبلها ، فمن ذا يمكنه التنبؤ به . (المؤلف)

انظر : Barnes, E. W. : The Rise of Christianity

٢ ــ وحضارة الشرق الأقصى ، تولّدت عن الحضارة الصينية ، عن طريق بوذية المهايانا :

٣ ــ والحضارة الهندية تولدت عن الحضارة السندية ، عن طريق العقيدة الهندوكية .

٤ ــ والحضارتان الإيرانية والعربية تولدتا عن الحضارة السريانية ، عن طريق الإسلام :

فكانت الأديان إذن بمثابة يفعات لجميع هذه الحضارات : كما أن البقايا المتحجرة التي لا تزال قائمة من تلك الحضارات البائدة ، مثال ذلك اليهود والبارسيون ــ وهى ما ناقشناه بموضع سابق من هذه الدولة ــ قد ظلت محفوظة فى لحاء دينى . وليست هذه البقايا المتحجرة ــ فى الواقع ــ عقائد دينية من نوع اليفعات التى عجزت عن أن تلد الفراشات :

وتتضح عملية انتساب حضارة إلى أخرى تسبقها فى الزمن ، باستعراض الأمثلة التى سترد فيما بعد ، وهى قابلة للتحليل إلى ثلاث مراحل يمكن إلا أن نطلق عليها (باستخدام فكرة اليفعة) :

الحمل ــ فترة الحمل ــ الولادة . وقد تتمشى هذه المراحل الثلاث على وجه التقريب زمنياً مع المراحل التالية :

تحلل الحضارة القديمة ــ فترة الفراغ ــ نشوء الحضارة الجديدة :

وتبدأ مرحلة الحمل فى عملية التولّد أو الانتماء ، فيما تغتنم العقيدة الدينية الفرصة التى تهيؤها لها البيئة الدنيوية . وإن من سمات تلك البيئة ، أن ترغم الدولة العالمية إرغاماً على تعطيل الكثير من النظم وطرائق الحياة التى أمدّت المجتمع بالحيوية ، فى إبان مرحلة نموه وفى خلال مرحلة الاضطراب : إن الأمن هو غاية الدولة العالمية . لكن لا يلبث أن يمتزج مغزى الشعور بالراحة ــ الذى يترتب على ذلك ــ بشعور الخيبة ؛ فإن الحياة لا يتأتى أن تحفظ نفسها

بمجرد توقفها عن المسير ؛ وهنا تهتبل العقيدة الدينية فرصتها ، فتؤدى لهذا المجتمع الدنيوى الراكد ، الخدمة التى يفتقر إليها إذ ذاك افتقاراً شديداً . فإن فى وسع تلك العقيدة أن تشق مسالك جديدة لطاقات البشرية الجامحة .

ففى الإمبراطورية الرومانية مثلا :

« زوّد انتصار المسيحية على الوثنية الخطباء بموضوعات جديدة لخطبهم الحماسية ، وهيأ لرجال المنطق نقاطا للجدل طريفة : وولد فوق هذا كله مبدأ جديدا أحس به باستمرار ، كل جزء من المجتمع . فلقد استثار الجمهرة الخامدة ، من الأعماق البعيدة الغور . إنه قد استفز كافة انفعالات الديمقراطية العاصفة ، فى قوم لا حول لهم ولا طول ؛ هم سكان إمبراطورية أفرطت فى النمو . لقد فعل الخوف من الضلال ، ما عجز الشعور بالظلم أن يفعله . إنه غيّر طبائع الناس الذين ألفوا — كالأغنام — الانتقال من طاغية إلى آخر ، وصيّرهم — وجعل منهم — مواطنين مخلصين وثواراً عنيدين : إن نفحات البلاغة التى صمتت طوال أجيال ، أصبحت اليوم تصدر عن محراب جريجورى Gregory . إن الروح التى أُخمدت على سهول فيليبى . عادت إلى الحياة فى أثناسيوس Athnasius وآمبروز Ambrose »(١) :

وهذا القول حق ، بقدر ما هو بليغ . ولكن النظرية التى تضمنها تتعلق بالمرحلة الثانية ، أو فترة الحمل . فإن المرحلة الأولى أو مرحلة الصراع الذى يسبق الظفر ، قد قدّمت للرجل العادى وللمرأة العادية فرصة رائعة لتقديم تضحية سامية ، كذلك المجد وتلك المأساة التى قام بها أسلافهم فى تلك الأيام الخوالى ، قبل أن تحطم الإمبراطورية الرومانية السلام الراكد لدولتها العالمية ، كوسيلة إطفاء النيران المشتعلة خلال عصر الاضطرابات :

---

(١) الجزء الأول ، صفحة ٢٦٧ Macaulay, Lord : History, In Miscellaneous Writings .

وهكذا ، تستوعب العقيدة الدينية خلال مرحلة « بداية الحمل » ، الطاقات التى باتت الدولة عاجزة عن تحريرها أو الانتفاع بها ؛ وتخلق مسالك جديدة تجد فيها تلك الطاقات منفذا : وتتسم مرحلة « فترة الحمل » التى تتلو ذلك ، باتساع نطاق عمل العقيدة الدينية إلى حد كبير : فإنها تجتذب إلى خدمتها رجالا من ذوى الحيثية ، اخفقوا فى العثور على متسع لمواهبهم فى الإدارة المدنية . وبالتالى ؛ ثمة تفجّر ينجذب صوب نظام آخذ فى الصعود ، وتنتظم سرعته ويتحدد مجاله ، وفقا لسرعة انهيار المجتمع المتعطل .

ومن قبيل المثال :

١ — فى إبان تحلل الحضارة الصينية ، كان توفيق العقيدة البوذية المهايانية أتم وأكمل فى حوض النهر الأصفر الذى اجتاحه البدو الأوراسيون[1] ؛ منه فى حوض نهر اليانجتسى ، حيث صُدّت موجات غزوهم ؛

٢ — وفى العالم الهلينى ، عاصر سقوط الأقاليم اللاتينية الطابع فى أحضان المسيحية أثناء القرن الرابع الميلادى ، تحوّل قاعدة الحكم إلى القسطنطينية ، وما صحبه من التخلى عن الأقاليم الغربية ؛

٣ — يمكن تفسير نفس الظاهرة فى انتشار الإسلام من بين ثنايا عالم سريانى (سورى) متحلل .

٤ — والمثل يقال بالنسبة لنمو العقيدة الهندوكية فى عالم هندى متحلل :

وتطالعنا فى القصص الإسلامى صورة عجيبة — وإن تكن أخاذة — للعقيدة الدينية ، فى مرحلة البطولة من تاريخها . وهى صورة تمثل محمدا عليه السلام وهو يجتاز — ثابت الخطى — الصراط المستقيم الضيق كحد الموسى ،

---

(١) الأوراسيون : نعنى بهذا الاصطلاح بدو أوروبا / آسيا . (المترجم)

وهو الطريق الوحيد الذى يُفضى إلى الجنة ، وعلى حافتيه تئز نار جهنم ؛ أما الكافرون الذين يغامرون بعبور الجسر على أقدامهم ، فإن التردّى فى نار جهنم مصيرهم المحتوم . أما النفوس البشرية الفاضلة المؤمنة فهى وحدها التى يقدر لها عبور الجسر آمنة مطمئنة متعلقة بأذيال الرسول .

هذه الفكرة الإسلامية يمكننا تطبيقها فى موضوعنا هذا :

فإن العقيدة الدينية التى استمدت — فى سابق عهدها — الحيوية من حضارة قديمة فى مرحلة « بداية الحمل » ، ثم شقّت طريقها وسط عواصف مرحلة « الفراغ » تُضفى حيوية على الحضارة الجديدة التى حملت بها داخل رحمها : وفى وسعنا أن نلاحظ هذه الحيوية الخلاّقة تنسكب — فى رعاية العقيدة الدينية — فى مسالك دنيوية[1] فى المجالين الاقتصادى والسياسى ، بالإضافة إلى المجال الثقافى من حياة المجتمع .

فبالنسبة للمجال الاقتصادى ، تعتبر الجرأة الاقتصادية التى يتسم بها العالم الغربى المعاصر — إلى أبعد حد — أعظم تراث خلفته عقيدة دينية ، لحضارة انبثقت عنها .

فى وقت كتابة هذه السطور ، كانت قد انقضت مائتان وخمسون سنة ، منذ أن استكمل المجتمع الدنيوى استخلاص نفسه من رقعة الكنيسة الكاثوليكية الغربية . على أن الأداة العجيبة الجبارة للتكنولوجية الغربية ، كانت مازال تبدو كنتاج جانبى للرهبنة المسيحية الغربية . ويتمثل الأساس السيكلوجى لهذا الصرح المادى الهائل ، فى الإيمان بالواجب وشرف العمل البدنى[2] . وما كان ليتأتى لهذا الانقلاب الفكرى المناهض للفكرة الهلينية التى تعتبر العمل شيئاً مبتذلا وخسيسا أن يوطد نفسه ، لولا أن رحّبت به

---

(١) أى مسالك لا صلة لها بالدين . (المترجم)

(٢) Laborare est orare .

تعاليم القديس بندكت . وعلى هذا الأساس ؛ مهدت الرهبنة البندكتية قاعدة الزراعة فى حياة غرب أوروبا الاقتصادية . كما وجهت – بحذق – جهود طائفة رهبانية أخرى[1] لإقامة أسس الصرح الصناعى الأوروبى . فإن هذا الصرح – الشبيه ببرج بابل – الذى شاده الرهبان قــد استثار همة جيرانهم من البنائين العلمانيين[2] فبلغ حماسهم ذروته حتى لم يعودوا يملكون أنفسهم عن المشاركة فيه . وبذلك أصبحت أعمال هؤلاء الرهبان أحد الأصول التى نشأ منها الاقتصاد الرأسمالى الغربى الحديث .

أما فى المجال السياسى ؛ فقد راقبنا البابوية فى موضع سابق من هذه الدراسة وهى تصوغ « جمهورية مسيحية »[3]، وتَعِدّ بنى البشر بالاستمتاع فى آن واحد بثمرات الدول الإقليمية ومزايا الدولة العالمية ، دون أن يتعرضوا لعيوب أى من النظامين . إن البابوية إذ تمنح بركتها للممالك المستقلة ، وتؤمّن كيانها حين تبارك الملوك وقت تتويجهم ؛ إنما تستعيد بفعلها هذا إلى الحياة السياسية ، تلك الوفرة وذلك التنوع اللذين أثمرا خير الثمرات فى مرحلة ترعرع المجتمع الهلينى . وإزاء التصدع والانشقاق السياسى اللذين جرا إلى انهيار المجتمع الهلينى ، أصبح لا مناص من وجود سلطة روحية عارمة تلطّف من شدة وقعهما وتكبح جماحهما . وهذا ما ادّعته البابوية لنفسها محتجة بأنها الوريثة الروحية للإمبراطورية الرومانية . وكان على الأمراء العلمانيين المحليين أن يعيشوا معا فى وئام بالتقارب والتضافر ، فى رعاية رادع دينى . بيد أنه بعد انقضاء بضعة قرون ، بدا الخلل فى تلك التجربة السياسية الكنسية ؛ وقد

---

(١) طائفة سيسترسيوم أو سيتو نسبة إلى مدينة تعرف بهذا الاسم . وقد أنشىء نظام الرهبنة هذا عام ١٠٩٨ متفرعاً عن مدرسة بندكت الرهبانية غير أنه يتسم بتطرفه . ويدعى هذا النظام كذلك بالبرناردينى نسبة إلى القديس برنارد . (المترجم)

(٢) أى غير الدينيين . (المترجم)

(٣) Reapublica Christiana.

ناقشنا أسباب ذلك الخلل فى مكان سابق من هذه الدراسة . وإننا نقتصر هنا على ذكرها كدليل على الدور الذى قامت به الكنيسة المسيحية خلال ما أسميناه مرحلة « الوضع » ويقابله الدور الذى قام به التآخى البرهمى الدينى[1] فى الترابط السياسى للحضارة الهندوكية الوليدة . إن البراهمة قد أضفوا الشرعية على الأسرة المالكة فى راجبوتانا[2] ؛ بنفس الطريقة التى أضفتها الكنيسة المسيحية على حكم ملوك الفرنجة من كلوفيس أو ببن .

فإذا ما انتقلنا إلى بحث الدور السياسى للكنيسة المسيحية فى العالم المسيحى الأرثوذكسى ، ودور عقيدة البوذية المهايانية فى بلاد الشرق الأقصى ؛ ألفينا ميدان نشاط السلطة الدينية فى كلا المجتمعين يقوم على استدعاء طيف دولة عالمية لحضارة سابقة :

ومن ذلك :

أولا ـ بعث إمبراطورية الهان Han فى شخص دولتى « سيوى Sui » و« تانج Tang » (حضارة الشرق الأقصى) .

ثانيا ـ بعث الإمبراطورية الرومانية فى شخص الإمبراطورية البيزنطية فى الكيان الرئيسى للعالم المسيحى الأرثوذكسى .

ففى مجتمع الشرق الأقصى ؛ وجدت المهايانا مكانا جديدا لها بين عدد من العقائد الدينية والمدارس الفلسفية التى عاشت فى سلام جنبا إلى جنب تزوّد الجماهير نفسها باحتياجاتها الروحية . وطفقت مؤثراتها تتغلغل دون عائق فى حياة مجتمع الشرق الأقصى ، وقد أسهمت فى تحوّل كوريا واليابان إلى طرائق حياة الشرق الأقصى . ويمكن مقارنة دورها هنا بنفس الدور الذى أدّته

---

(١) براهما هو الكائن الأعلى فى الديانة الهندوكية وله ثلاثة تجليات أو مظاهر : براهما ، فيشنو ، شيفا . وجميعها صور للإله براهما . (المترجم) .

(٢) إقليم فى شمال الهند الغربى . (المترجم)

الكنيسة الكاثوليكية الغربية فى اجتذاب بلاد المجر وبولندا واسكندناوا إلى نطاق العالم المسيحى الغربى ، وكذلك الدور الذى أدته الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية فى غرس فرع للحضارة المسيحية الأرثوذكسية على أرض روسيا .

فإذا ما انتقلنا من المجال السياسى إلى الميدان الثقافى ، لبحث ما أسهمت به العقائد الدينية للحضارات الناشئة خلال المرحلة التى أطلقنا عليها مرحلة « الوضع » ألفينا مثلا :

أولا ـ أن المهايانا ـ وقد أُقصيت عن حلبة السياسة ـ تعود فتؤكد شخصيتها بصورة فعّالة فى محيط الثقافة . ويعتبر تأثيرها الثقافى الباقى ، جزءاً من التراث الذى اكتسبته المهايانا من المدرسة الفلسفية البوذية الأولى .

ثانياً ـ أما المسيحية ـ من الناحية الأخرى ـ فقد بدأت حياتها دون نظام فلسفى خاص بها . فألفت نفسها مضطرة إلى تقديم عقيدتها فى ثوب ثقافى أجنبى حاكته المدارس الفلسفية الهلينية (وكان هذا من أبرع أعمال المسيحية) . وأصبح هذا المزيج الثقافى الهلينى مسيطراً على الحياة الثقافية فى العالم المسيحى الغربى سيطرة تامة ؛ وذلك بعد أن قوى بما تلقاه من فلسفة أرسطو فى إبان القرن الثانى عشر . وأخيراً أسهمت الكنيسة المسيحية إسهاما واضحاً فى تقدم الغرب الثقافى بفضل إنشائها الجامعات وكفالتها إياها ؛ على أن أعظم مآثر لكنيسة فى مجال الثقافة ، يتمثل فى الفنون الجميلة ؛ وهذا من الوضوح بحيث لا يتطلب منا تفسيراً .

* * *

استكملنا الآن استعراض دور العقائد الدينية باعتبارها يفعات ؛ لكن إذا قُيّض لنا الارتفاع إلى مكان سامق يتاح لنا منه التطلع بنظرة شاملة إلى الحضارات التى عرفها التاريخ ، من حيث علاقتها بعضها ببعض ؛ فلن يصعب علينا أن نلاحظ أن العقيدة الدينية اليفعة ، ليست وحدها الأداة

التى يتم بوساطتها تحدّر حضارة ما من حضارة سالفة . ولنأخذ لذلك مثلا واحداً ، تحدّر المجتمع الهلينى من المجتمع المينووى . لكن ليس ثمة دليل على وجود عقيدة دينية ترعرعت داخل نطاق المجتمع المينووى وقامت بدور اليفعة للمجتمع الهلينى .

حقا ؛ لقد ازدهرت بضعة أشكال بدائية من ديانة عليا ، فى ثنايا البروليتاريات الداخلية لطائفة من حضارات الجيل الأول (ولعلها ازدهرت فى حضارات أخرى لم يكشفها الباحثون بعد) . لكن من الواضح أنه لم يقيّض لأى من هذه الأشكال البدائية ، أن تستمر وقتاً طويلا يكفى قيامها بدور اليفعات للحضارات التى أعقبتها .

ويدل استقصاء جميع الأمثلة المتاحة لنا ، على عدم انتماء أى من حضارات الجيل الثانى – الهلينية أو السريانية (السورية) والهندية أو غيرها – بصفة النسب إلى حضارة سابقة ؛ عن طريق عقيدة دينية . كما يدل هذا الاستقصاء على أن جميع العقائد العالمية المعروفة ، قد ترعرعت فى أحضان مجتمعات متعطلة تنتسب إلى الجيل الحضارى الثانى . ويدل أيضاً على أن أية حضارة من حضارات الجيل الثالث – على الرغم من أن كثيراً منها (وربما كلها) قد انهار وتحلل ، لا يقوم دليلا مقنعاً على إنتاجها حصيلة أخرى من العقائد الدينية العالمية .

ومن ثم ؛ تصبح لدينا سلسلة تاريخية يمكن تبويبها على النسق التالى :

مجتمعات بدائية .

حضارات الجيل الأول

حضارات الجيل الثانى

عقائد عالمية

حضارات الجيل الثالث

وعلى أساس هذا التبويب ؛ نستطيع أن نتناول بالبحث ما إذا كانت

العقائد الدينية ــ أو لم تكن ــ أكثر من مجرد أدوات استيلادية لجيل معين من الحضارات .

٣ ــ العقائد باعتبارها نوعاً أرقى من المجتمع

(أ) تصنيف جديد :

ما برح أساس عملنا ؛ الافتراض القائل بأن الحضارات تمسك زمام القيادة فى التاريخ ، وأن العقائد الدينية إنما تشغل دور التابع ، سواء أكانت عوامل تعويق (ما دعوناه سرطانات) أو عوامل عون ومساعدة (ما أطلقنا عليه يفعات) .

فلنفتح الآن أذهاننا لاحتمال تأدية العقائد الدينية الدور القيادى فى التاريخ . وبالتالى تفسير تواريخ الحضارات وتصويرها ، لا على أساس مصائرها نفسها ، ولكن وفقاً لتأثيرها على تاريخ الدين . وقد تبدو الفكرة مستحدثة وظاهرة التناقض ؛ ولكنها ــ مع ذلك ــ طريقة استخدمتها لتفسير التاريخ ، مجموعة الكتب التى ندعوها بـ « الأناجيل » .

ويصبح علينا ــ طبقاً لوجهة النظر هذه ــ إعادة النظر فى افتراضاتنا السابقة بشأن تفسير مبررات وجود الحضارات . وينبغى علينا أن ننظر إلى حضارات الجيل الثانى بفكرة أنها بُعثت إلى الوجود ، لا لتبدع تراثاً من صنعها ، ولا لتخلد نوعها فى جيل ثالث ، ولكن ننظر إليها بفكرة أنها برزت إلى الوجود لتهيئ فرصة الميلاد لأديان عليا مكتملة النمو . ولما كان نشوء هذه الأديان العليا قد جاء نتيجة انهيار الحضارات الثانية وتحللها ؛ يتعين علينا اعتبار الفصول الختامية من تواريخها (وهى فصول طابعها الفشل) هى حجتها لبلوغ مرتبة الخطورة والأهمية .

وتمشياً مع هذه الفكرة ، ينبغى علينا أن ننظر فى الحضارات الأولى على

أنها قد برزت إلى الوجود تحقيقاً للغاية نفسها . غير أن هذه الحضارات الأولى – عكس خليفاتها – قد عجزت عن أن تبعث إلى الوجود عقائد علُيا مكتملة النمو . فالعقائد البدائية مثل عبادة تموز وعشتار ، وعبادة أوزيريس وإيزيس ؛ لم يقدر لها أن تزدهر . على أن هذه الحضارات قد أنجزت رسالتها عن طريق غير مباشر ؛ وذلك باستيلادها الحضارات الثانوية التى انبثقت عنها – فى نهاية المطاف – العقائد العلُيا الكاملة . وقد ساهمت العقائد البدائية التى ظهرت فى إبان الفجر الحضارى البشرى ؛ ساهمت على مدار الزمن فى إلهام العقائد العليا التى إنبعثت فى الجيل الحضارى الثانى .

ويغدو – وفقا لهذا الإيضاح – صعود الحضارات الرئيسية (وما تفرع عنها) وهبوطها على التوالى ، بمثابة إيقاع (لوحظ فى مواضع أخرى) تدفع فيه دورات العجلة المتتابعة ، العربة التى تحملها العجلة . فإن تساءلنا عن السبب الذى أصبحت من أجله الحركة الهابطة فى دورات عجلة الحضارة ، أداة لدفع مركبة العقيدة الدينية إلى الأمام ؛ تطالعنا الإجابة فى تلك الحقيقة الماثلة وهى أن الدين نشاط روحى وأن التقدم الروحى يخضع لقانون أعلنه أسكيلوس Aeschlus[1] « إننا نتعلم بالمكابدة » . فإن طبقنا هذه البديهة التى تتسم بها طبيعة الحياة الروحية على الجهد الروحى الذى تُوّج ببزوغ المسيحية وشقيقاتها من الأديان العلُيا : الإسلام ، المهايانا ، الهندوكية ؛ فقد نتمكن من تمييز ملامح من آلام المسيح وقت صلبه ، فى آلام كل من : تموز ، آتيس ، أدونيس ، أوزيريس .

لقد انبعثت المسيحية من بين ثنايا العناء الروحى الذى جاء نتيجة لانهيار الحضارة الهلينية . بيد أن هذا كان آخر فصل من قصة طويلة .

---

(١) أسكيلوس : (٥٢٥ – ٤٥٦ ق . م) أحد كبار أساتذة الدراما اليونانية . اشترك فى الحروب اليونانية ضد فارس . ويقال إنه ألف سبعين مسرحية ، لكن المشهور منها سبع فقط . (المترجم)

فإن للمسيحية جذورا من الديانتين اليهودية والزرادشتية . وقد انبعثت هذه الجذور عن انهيار سابق لحضارتين أخريين فرعيتين وهما[1] الحضارة البابلية والحضارة السريانية (السورية) . وما كانت مملكتا إسرائيل ويهودا اللتان تدفقت فيهما ينابيع اليهودية ، إلا دولتين من الدول الكثيرة الإقليمية المتحاربة التي كان يعجّ بها العالم السرياني (السورى) . وما كان تدمير هذين التنظيمين الجامعين الدنيويين واستئصال أطماعهما السياسية بأسرها ، إلا المحنة التي بعثت الدين اليهودى إلى الوجود ، وبلغت أسمى تعبيراتها فى مناحة « الخادم المكابد »[2] التي كتبت فى القرن السادس قبل الميلاد فى إبان مخاض عصر الاضطراب ، الذى كان يمر به العالم السريانى (السورى) عشية تشييد الإمبراطورية الأخيمينية .

بيد أن هذا لم يكن بداية القصة :

فإن للأصول اليهودية التي اقتبستها المسيحية ، أصلا موسويا خاصا بها[3] . وهذه المرحلة فى ديانة إسرائيل ويهودا السابقة لعصر النبوة[4] ، كانت نتيجة كارثة دنيوية سابقة ؛ كارثة تمثلت فى تداعى « الدولة الحديثة » فى مصر[5] التي كان الإسرائيليون ينتظمون بتقاليدهم الموروثة — فى صفوف

---

(١) الحضارة الفرعية هى التي تفرعت عن حضارة رئيسية مثل الحضارة الروسية التي تفرعت عن حضارة المسيحية الشرقية ، وحضارة اليابان التي تفرعت عن الحضارة الصينية . (المترجم)

(٢) فقرات مختلفة وردت فى سفر أشعيا الثانى سيما فى الفصل ٥٣ .

(٣) إذ يرجع إلى موسى عليه السلام . ويلاحظ على هذا الجانب من اليهودية تأثره بالقواعد الدينية المصرية . (المترجم)

(٤) إذ تتابع بعد موسى ظهور أنبياء بنى إسرائيل الواردة أسماؤهم وسيرهم فى العهد القديم . (المترجم)

(٥) حدث تداعى الإمبراطورية المصرية فى عهد أخناتون . وقد بسط فرويد العالم النفسانى اليهودى المشهور ، الصلة بين موسى وأخناتون . فجعل من موسى كاهنا مصرياً لأخناتون بل لقد جرده من الانتماء عنصرياً إلى اليهود . انظر كتاب موسى والوحدانية تأليف فرويد . (المترجم)

بروليتاريتها الداخلية . وتحكى هذه التقاليد نفسها ؛ أنه قد سبقت الأحداث المصرية من تاريخها ، بداية سومرية ؛ وفى خلالها إندفع إبراهيم بوحى من الرب الواحد الصمد — إلى تخليص نفسه من مدينة أور العظمى التى كان الرب قد حكم عليها بالدمار ، وذلك فى فترة تقع خــلال تحلل الحضارة السومرية .

وهكذا ؛ اقترنت الخطوة الأولى فى الارتقاء الروحى الذى بلغ ذروته فى المسيحية ، بأول بادرة عرفها المؤرخون عن إنهيار دولة عالمية . وفى ضوء هذا ؛ يتأتى النظر إلى المسيحية على أنها ذروة الارتقاء الروحى الذى لم يصمد للنكبات الدنيوية المتتابعة فحسب ، لكنه استخلص منها أيضا جمّاع إلهامه .

ويتضح من هذه المطالعة : أن تاريخ الدين يقوم على الوحدة والارتقاء . وهذا عكس ما يشاهد فى تواريخ الحضارات من تعدد وتكرار . ويتبدّى هذا التعارض بالنسبة للبُعد الزمنى كما يتبدّى بالنسبة للبُعد المكانى . والمسيحية والأديان الثلاثة العليا الأخرى[1] (التى ما تزال قائمة فى القرن العشرين) يرتبط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ؛ أشد كثيراً مما يربط الحضارات المعاصرة بعضها بالبعض الآخر . ونجد هذا التعاطف أشد وضوحا بين المسيحية والبوذية المهايانية . إذ تشترك الديانتان فى الإيمان بوجود إله مُخلّص يضحى بنفسه فداء للبشر . أما عن الإسلام والهندوكية ، فإنهما يعكسان كذلك نظرة عميقة لطبيعة الإله ؛ جعلت للعقيدتين معنى مميزاً ورسالة باتت علماً عليهما . إن الإسلام قد أعاد توكيد وحدانية الله ، فى مقابل الضعف البادى فى تمسك المسيحية بهذه الحقيقة الجوهرية . أما الهندوكية ؛ فقد أكّدت مرة أخرى شخصية الإله ، باعتبارها الهدف الذى يتجه إليه البشر بولائهم ؛ ويقابل هذا ، إنكار الفلسفة البوذية البدائية لوجود شخصية الإله إنكاراً صريحا .

---

(١) أى الإسلام والمهايانا والهندوكية . (المترجم)

حقاً ؛ إن الأديان العليا الأربعة ، مجرد ألوان أربعة لمنهج واحد .

ولكن ؛ إن كان الأمر كذلك ، فلم ينحصر — حتى الآن — إدراك وحدانية الوحي سواء في المسيحية أو الإسلام (وهما الديانتان اللتان لها أصول مشتركة) في أنفس قليلة نادرة ، بينما لا يدركها العاديون من الناس ؟

مناط الإجابة من وجهة النظر الرسمية لهاتين العقيدتين الدينيتين العالميتين ، إصرار كل منهما على أن الضياء المنبعث من فرجة نافذته ، هو وحده الضياء الكامل ؛ وأن الأخرى إنما تعيش في غبشة الليل ، إن لم يكن في الظلام الدامس . بل إن أهل كل طائفة من الدين الواحد ، يقفون نفس الموقف من سائر الطوائف . وهذا الإنكار لما بينهما من مقومات مشتركة ولما تنادى به كل منها ، قد دفع من يؤكد أن معرفة الله مستحيلة ، وقاده في نهاية الأمر إلى الإلحاد والتجديف .

فإن تساءلنا عما إذا كان يُقيّض لهذا الموقف المؤسف أن يبقى إلى الأبد ؛ لتطلبت الإجابة تذكير أنفسنا بما تعنيه في هذا المجال كلمة « دوما » . فالواقع ؛ علينا أن نذكر أن الجنس البشرى إذا لم يستخدم الأساليب التكنولوجية التى كشف عنها حديثاً في إبادة كل أثر للحياة على هذا الكوكب ، فسيستمر التاريخ البشرى وليداً ، وسيبقى آلافاً أخرى من السنوات لا حصر لها .

وعلى ضوء هذا التحليل ؛ تصبح فكرة بقاء كل دين متعزلا عن الآخر إلى الأبد ، فكرة سخيفة . فإما أن تزيح العقائد الدينية بعضها بعضاً من الوجود حتى لا يبقى منها واحدة ، ويصبح مثلها مثل قطط كيلكنى Kilkenny التى انتهى الأمر بها إلى تدمير نفسها بنفسها ؛ وإما أن يجد الجنس البشرى — وقد تمت وحدته — خلاصه من أشكال الوحدة الدينية . وعلينا الآن أن نرى إذا كان في وسعنا أن نستشف — ولو على سبيل المحاولة — طبيعة تلك الوحدة المرتجاة .

إن الديانات الدُّنيا[1]، ديانات محلية بطبيعتها . فإنها عقائد القبائل أو الدول الإقليمية المتعددة . ولقد ترتب على تشييد الدول العالمية ، أن زال ما يبرر وجود هذه الديانات المحلية . وتوافرت رقعة واسعة من الأرض تتنافس فيها ديانات أخرى علُيا أو غير علُيا لاجتذاب الناس لاعتناقها . ومن ثم ؛ أصبح الدين مسألة اختيار شخصى . ولقد شاهدنا أكثر من مرة خلال هذه الدراسة ، كيف تسابقت داخل الإمبراطورية الرومانية « تشكيلة » من الديانات المختلفة على إحراز قصب السبق الذى نالته المسيحية .

فماذا تكون حصيلة تفجُّر جديد لنشاط تقوم به رسالة تبشيرية جديدة فى وقت واحد وفى ميدان واحد ، يشمل هذه المرة مجال الدنيا بأسرها ؟

إن تواريخ النشاط المناظرة التى حدثت فى إطار الإمبراطوريات الأخيمينية والرومانية والكوشانية بالإضافة إلى إمبراطوريتى هان وجوبتا ؛ قد أظهرت أن حصيلة هذا النشاط لا تخرج عن أى من البديلين التاليين :

١ ــ فوز دين واحد على جميع الأديان .

٢ ــ لجوء الأديان المتنافسة إلى التوفيق فيما بينها لتعيش جنباً إلى جنب ، مصداقاً لما حدث فى العالمين الصينى والهندى .

ولا تختلف النتيجتان ، على نحو ما قد يبدو للوهلة الأولى . فإن العقيدة الدينية المنتصرة ، إنما تحقق انتصارها باستيعابها بعض السمات الجوهرية للعقائد الدينية المنافسة لها . مثال ذلك أن شخصيتى « إيزيس » و« سيبيل » تظهران ــ فى المسيحية ــ مرة أخرى فى تجلّى السيدة مريم فى شخصية أم الإله

---

(١) يتسم الدين الأعلى بانتشاره انتشاراً عالميا مثل الإسلام والمسيحية والبوذية المهايانية . وأما الدين الأدنى ، فإن اعتناقه قاصر على طائفة محددة من الناس مثل اليهودية والزرادشتية فى الوقت الحاضر والعقائد الشينتوية اليابانية . (المترجم)

الكبرى. كما نشاهد تقاطيع إله الشمس فى الصورة ذات الطابع الحربى التى يبدو فيها المسيح فى بعض الأحيان.

وأياً ما تكون الحال، فإن الاختلاف بين النتيجتين البديلتين له أهميته. ولن يستطيع أبناء القرن العشرين الذى انطبع بالطابع الغربى، البقاء بمنأى عن التفكير فيما هو متوقع لهم فى حالتهم.

تُرى، ما هى النتيجة الأشد رجحانا ؟

تغلّب روح التعصب فى الماضى، وقتما سيطرت الديانات العُليا — السماوية — على عقول الناس. وعلى العكس، كان التسامح دعامة الحياة وقتما كانت السيادة للمبادئ الدينية التى تضمنتها الحضارة السندية. ولعل مناط الإجابة عما ينتظر حدوثه فى عالمنا، يتوقف على طبيعة الخصوم الذين ستلقاهم الديانات العُليا فى طريقها.

فما هو السبب فى تقبّل المسيحية مرة أخرى الفكرة العقيمة اليهودية الأصل عن الإله الغيور ؛ بعد اعترافها بالفكرة اليهودية القائلة بأن الله محبة، ومجاهرتها بها ؟

إن هذه الردّة التى كبّدت المسيحية خسارة روحية جسيمة منذ ذلك الحين، كانت الثمن الذى دفعته المسيحية فى كفاحها المرير ؛ كفاح الحياة أو الموت مع عبادة قيصر. ولم تعد الكنيسة إلى مبدأ أن الله محبة، بعد انتصارها واستتباب السلام تبعاً لذلك. فإن عودة السلام لم تفصل ذلك الترابط بين شخصيتى يهوى[1] والمسيح، وإنما أكّدته.

وفى ساعة الظفر، تحوّل عناد الشهداء المسيحيين إلى تعصب مسيحى

---

(١) ياهوى كما مر بنا، هو الإله لدى اليهود. ومن سماته الغضب والقسوة والبطش وعدم التسامح. ويعنى المؤلف أن المسيحية الجديدة قد واءمت بين فكرتين متناقضتين :

الأولى — فكرة البطش وعدم التسامح.

الثانية — فكرة المحبة والتسامح التى تقوم عليها دعائم المسيحية الأصلية.

(المترجم)

جائر . وكان هذا الفصل المبكر من تاريخ المسيحية ، شؤماً على المصائر الروحية للقرن العشرين ذى الطابع الغربى . فإن عبادة القوة التى أوقعت بها الكنيسة المسيحية الأولى هزيمة بدت كما لو أنها حاسمة ، قد أعادت توكيد نفسها – فى انبعاث مشئوم – فى نمط من الدولة الجماعية[١] ، انتظمت فيه عبقرية التنظيم والتكنولوجية الغربية الحديثة واستُخدمتا فى مهارة شيطانية لاستعباد النفوس والأجسام ، إلى درجة عجز عن إتيانها أعتى طغاة العهد الماضى . وبدا كما لو أنه لا مناص من أن تنشب مرة أخرى فى العالم ذى الطابع الغربى ، حرب بين الله وقيصر[٢] . وبدا أن المسيحية فى تلك الظروف ستضطلع مرة أخرى بدور العقيدة الدينية المكافحة بقوة السلاح . وهو دور مجيد من الوجهة الأدبية ، وان كان شائكا من الوجهة الروحية .

ومن ثم ؛ قدّر على المسيحى ابن القرن العشرين الميلادى أن يحسب حسابا لاحتمال قيام حرب ثانية ضد عبادة قيصر ، من شأنها أن ترد الكنيسة مرة أخرى صوب عبادة ياهوى[٣] ؛ وهى لم تفق بعد من آثار الردّة السابقة . لكن إن آمن المسيحيون بأن إلهام الله – باعتباره محبة – يتجسّد فى آلام المسيح ، فإن هذا الإيمان سيحوّل فى النهاية قلوبا قُدّت من صخر إلى قلوب من لحم ودم . هنا قد يجرؤ المسيحيون على التطلع إلى قيام عقيدة دينية فى عالم متحد سياسيا ، حرره الإلهام الدينى من عبادة البطش متمثلة فى ياهوى أو قيصر .

---

(١) الدولة الجماعية : ضرب من التنظيم السياسى يخضع فيه المجتمع خضوعاً مطلقاً لسلطان فرد واحد أو سلطة مفردة . (المترجم)

(٢) أى حرب بين العقيدة الدينية والسلطة الزمنية الجماعية الملحدة . (المترجم)

(٣) أى يدفع الكنيسة إلى اعتناق مبادئ البطش وهى سمة ياهوى رب اليهود كما أشرنا فى موضع سابق . (المترجم)

وعندما بدأت الكنيسة المسيحية فى أواخر القرن الرابع الميلادى فى اضطهاد أولئك الذين رفضوا الانضمام إليها ؛ دوّن سياخوس Symmachus الوثنى احتجاجا تضمن الكلمات التالية : « إن الوصول إلى لب هذا السر الكبير ، لا يتأتى باتباع طريقة واحدة » . هنا يقترب الوثنى بهذه الكلمات من المسيح ، أكثر من اقتراب المسيحين الذين يضطهدونه . إن البرّ أم الفراسة والتجانس ، ليس ممكنا بوساطة اقتراب الإنسان من الإله الواحد الحق ؛ وذلك لأن الطبيعة الإنسانية تتسم بالتنوع المثمر ، وهو طابع الإله الخالق :

لقد وُجد الدين لتمكين النفوس البشرية من تلقّى الضياء الربانى . ولن يحقق الدين هذه الغاية إذا لم يعكس بأمانة ، التنوع القائم بين عباد الله . ويتأتى وفقاً لهذه الفكرة ، أن نتصور أن أسلوب الحياة وتصور الإله — اللذين تقدمهما كل من الديانات العليا القائمة حاليا — قد يقابلان أحد تلك النماذج السيكلوجية الكبرى . فإن عجز أى من هذه الأديان عن إشباع حاجات البشرية بعد أن صقلتها التجربة ؛ فإنه يصعب علينا أن نتصور توفيق أى منها فى كسب ولاء مثل هذا القدر العظيم من البشر لمدة طويلة .

فلو قدّر لهذا الأمل فى مصير الديانات أن يجرى مجرى اليقين ؛ لانفتح المجال لرأى جديد عن دور الحضارات . فإن ظلت حركة عجلة الدين ثابتة فى اتجاهها ، لن تكون الحركة الدائرية المتكررة لصعود الحضارات وسقوطها متطابقة فحسب ، بل إنها تصبح تابعة كذلك . إن هذه الحركة قد تؤدى غرضها وتجد دلالتها — وهى تدفع العجلة صاعدة نحو السماء — عن طريق دورات تتم من وقت لآخر على الأرض ؛ دورات تتجلى فى دوران عجلة الميلاد والموت ثم الميلاد . . وهكذا دواليك . . . وهى لعمرى عجلة كئيبة .

وعلى هدى هذا الرأى ، يتأتى بكل جلاء تبرير بقاء حضارات الجيلين الأول والثانى . بيد أن ادعاء بقاء حضارات الجيل الثالث ، تبدو

للوهلة الأولى أشد غموضا وإبهاما . فإن حضارات الجيل الأول هي التي أخرجت إلى الوجود في فترة انحلالها ، أصول الديانات العليا . وأنتجت حضارات الجيل الثاني أربعة نماذج كاملة من الديانات العليا ، ما تزال تمارس نشاطها عند كتابة هذه السطور . أما تلك الأديان الجديدة التي يمكن تميزها من بين ما تنتجه البروليتاريات الداخلية للجيل الثالث ، فإنها تبدو لنا وقت كتابة هذه السطور باهتة ضعيفة الأثر . . . وإذا كان جورج اليوت قد كتب « إن النبوءة هي أعظم شكل للخطأ الاختياري الإنساني » ؛ فلن يجازف الإنسان كثيراً بالتنبؤ بأن الأديان التي ظهرت في الجيل الحضاري الثالث ، لن تكون لها قيمة على طول المدى .

ولعل المبرر المعقول لبقاء الحضارة الغربية الحديثة — على ضوء النظرة التي نعرضها هنا للتاريخ — أنها قد تحقق للمسيحية وشقيقاتها الأديان العليا الثلاثة[1] صنيعا ، هو أن تقدم لها المكان الذي تلتقي فيه على صعيد عالمي ، فتعيد إليها وحدة قيمها ومعتقداتها الغائية ، وتطرح خلافاتها للنقاش ؛ لتتمكن من مواجهة تحدي انبعاث وثنية فاسدة تقوم على عبادة الإنسان لذاته .

(ب) مغزى ماضي العقائد الدينية :

تتعرض الفكرة التي قلنا بها في القسم السابق من هذا الفصل ، للهجوم من فريقين :

الأول — أولئك الذين يعتبرون جميع الأديان لغوا وآمالا فارغة .

الثاني — أولئك الذين ينكرون الأديان باعتبارها غير جديرة بالمبادئ التي تحترف الكلام عنها .

---

(١) الإسلام والبوذية الهايانية والهندوكية . (المترجم)

فأما عن الفريق الأول ؛ فإن الرد عليه يخرج عن مجال دراسة التاريخ هذه .

فإن حصرنا أنفسنا فى بحث ما يذهب إليه الفريق الثانى ؛ فإنا نسلّم مخلصين بأن لدى ناقدينا كثيراً من مواد الاتهام . ويطالعنا منها على سبيل المثال : انحراف زعماء الكنيسة المسيحية فى كثير من الأحيان منذ تشييد الكنيسة حتى أقرب وقت ؛ انحراف عن العقيدة ، بلغ درجة نكران مؤسس الكنيسة نفسه . إذ جعل رجال الدين من الدين مهنة يحتكرونها دون الناس جميعاً ، واتصفوا بذلك الرياء الذى كان من سمات الفريسيين اليهود[١] ؛ واعتنق رجال الدين كذلك — بدافع من مصالحهم — وثنية اليونان وتعدد أربابهم . وجعلوا من أنفسهم حماة للمصالح الموروثة ، يذودون عنها مستخدمين آراء المشرّعين الرومان .

وليست الأديان العليا الأخرى ، أقل عرضة لهذا النقد الذى تتعرض له المسيحية .

وقد يفسر هذا العجز الذى أصاب الكنيسة — وإن لم يكن له ما يبرره بطبيعة الحال — تلك العبارة الساخرة التى قالها أسقف أريب من العصر الفيكتورى ، عندما سُئل عن السبب الذى جعل رجال الدين على هذا القدر من الغباء فأجاب بقوله « وما الذى يمكنك توقعه ؟ ليس أمامنا إلا العلمانيون نخدعهم[٢] » .

حقاً ؛ إن الأديان لا تنتظم قديسين فقط ، ولكنها تنتظم آثمين أيضاً . وليس فى وسع ديانة أى مجتمع فى أى وقت من الأوقات — مثلها مثل

---

(١) طائفة من اليهود كان من دأبها الغلو فى الدين والتظاهر بالتشدد فى تطبيق أوامره ونواهيه ، حتى باتت علماً على الرياء والنفاق . (المترجم)

(٢) أى مثلما تكونوا يولى عليكم . (المترجم)

المدارس الفكرية — أن تسبق كثيراً جداً ، المجتمع الذى تقوم بين ظهرانيه وتتحرك فى نطاقه وتستمد منه كيانها .

وقد لا تُقنع الخصم هذه الإجابة . فيعاود الهجوم ، ويرد على المطران الفيكتورى بخشونة ؛ قائلا إن الاختيار الذى أجرته الكنيسة من العلمانيين ، لم يقتصر على الصفوة ، وإنما اتجه إلى الحثالة .

ومن الاتهامات التى يكيلها باستمرار خصوم الكنيسة المسيحية من ذوى الفكر السياسى فى العالم الغربى ، اتهامها بأنها عقبة فى طريق التقدم :

« فى الوقت الذى كانت فيه الحضارة المسيحية الغربية تنبثق — منذ القرن السابع عشر وما بعده — عن العالم المسيحى الغربى ؛ خشيت الكنيسة — بحق — شيوع التمسك بالأمور الدنيوية والارتداد إلى وثنية جديدة . هنا مزجت الكنيسة — خطأ — الإيمان الدينى بالنظام الاجتماعى الذى كان فى طريقه إلى الزوال . وهكذا ، بينما كانت الكنيسة تقود فى المؤخرة معركة ثقافية ضد ما اعتبرته أخطاء « تحررية » و « مستحدثة » و « علمية » ؛ سقطت دون أن تدرى فى هاوية الرجعية السياسية . فأصبحت — من ثم — تؤيد الإقطاع والملكية والأرستقراطية — بل و « الرأسمالية » — وتسند بوجه عام النظم القديمة القائمة . وغدت الكنيسة حليفة بل غالبا ما كانت أداة عناصر السياسين الرجعيين ، الذين كانوا فى الواقع خصوما للمسيحية والروح الثورية على السواء . ومن هنا كان مصدر السجل السياسى للمسيحية الحديثة : ففى القرن التاسع عشر تحالفت مع الملكية والأرستقراطية لكى تسفه الديمقراطية اللبرالية ، وهى فى القرن العشرين تتحالف مع الديمقراطية اللبرالية لتسفه النظم الجماعية . وهكذا بدت الكنيسة ، وقد وقفت دائماً منذ الثورة الفرنسية عند مرحلة سياسية متخلفة عن سير الزمن . وهذه النقطة بالذات ، بيت القصيد فى نقد الماركسية للمسيحية فى العالم الحديث . ولعل رد المسيحية

على هذا الاتهام هو القول بأن من واجب الكنيسة أن تلزم مؤخرة القطيع الذى يندفع برعونة إلى هاوية الحضارة المتحللة وأن تشدّ أنظار أكبر قدر ممكن من القطيع إلى أعلى المنحدر من جديد »[١] .

ولقد يجد من يعتبرون الدين لغوا ، فى هذه الاتهامات ما يؤيد وجهة النظر التى ارتضوها . وأما المؤمنون – مثل كاتب هذه الدراسة – بأن الدين هو أهم ما فى الوجود ؛ فإن هذا الإيمان يدفعهم إلى بسط وجهة نظرهم منفصلة . فهم يستعيدون ماضيا حافلا ، وإن كان قصيرا نسبيا ، ماضيا غاب فى طيات القِدَم ؛ ويتصورون مستقبلا يستمر أحقابا سرمدية ، إن لم تقطع طريقه قنبلة هيدروجينية أو غيرها من « روائع التكنولوجية الغربية » .

(ج) صراع القلب والعقل :

كيف يتأتى للنفوس فى نشدانها الإله أن تنتزع جوهر الدين من أحداثه ؟

وكيف تأتى للمسيحيين والبوذيين والمسلمين والهندوكيين – منفصلين عن بعضهم بعضا – أن يحرزوا مزيدا من التقدم والازدهار فى عالم بات متحدا على نطاق عالمى واسع ؟

إن الطريق الوحيد المفتوح أمام هؤلاء الرفاق الباحثين عن الضياء الروحى ، هو الطريق الشاق الذى سلكه أسلافهم وبلغوا به درجة الاستنارة الدينية الماثلة فى الديانات العالية القائمة فى القرن العشرين بعد ميلاد المسيح[١] وإن استنارتهم النسبية هذه لتُظهر بكل وضوح تقدماً رائعاً إذا ما قورنت بمرحلة الوثنية البدائية .

---

(١) تعليق تلقاه المؤلف من المستر مارتين وايت وطبع فى كتابه المطول « دراسة التاريخ » المجلد السابع صفحة ٤٥٧ .

(٢) أى الإسلام والمسيحية والهندوكية والبوذية والمهايانية . (المترجم)

لكنهم لن يستطيعوا البقاء طويلا عند الجهود التى بذلها أسلافهم . فقد أرهقهم صراع بين القلب والعقل ، وليس فى استطاعتهم ترك هذ الصراع دون حل ؛ ولا حل له إلا مزيد من الدفع الروحى إلى الأمام .

ويقتضى حلّ هذا الصراع ، تفهّم كيفية نشوئه . وليس مبعث هذا الصراع القائم بين القلب والعقل — لحسن الحظ — مجهولا فقد تبدّى فى شكل تأثير العلم الغربى الحديث على الأديان العليا ، وداهمها فى مرحلة من سيرها حين كانت لا تزال تحمل قدراً من التقاليد القديمة لم تعد لها قيمة من أية وجهة ، حتى ولو لم تكن النظرة العلمية قد ظهرت إلى الوجود .

ولم يكن هذا أول صدام بين الدين والعقل ، عرفه التاريخ . فإن التاريخ يطالعنا بحادثين سابقين على الأقل :

فلنذكر أولا أقرب الحادثين ؛ وعسانا تذكر أنفسنا بأن كلا من الأديان الأربعة العليا الحالية قد واجه لوناً قديما من النظر العقلى خلال « عهد سابق » من تاريخه ، وأنه قد وُفّق إلى مصالحته . وما القواعد الدينية المقررة فى كل عقيدة عُليا إلا حصيلة توفيق تم بينها وبين فلسفة دنيوية جابهتها العقيدة الدينية وقت نشوئها ، وألفت نفسها عاجزة عن نبذها أو إنكارها . ذلك لأن هذه المدرسة الفكرية كانت تسيطر على الجو الفكرى الذى كانت تعيش فيه أقلية مثقفة فى المجتمع ؛ ذلك المجتمع الذى اعتبرته العقيدة الدينية وقتذاك ميدان تبشيرها . فما اللاهوت المسيحى والإسلامى إلا عرضاً للمسيحية والإسلام بأسلوب الفلسفة الهلينية . كما كان اللاهوت الهندوكى عرضا للعقيدة الدينية الهندوكية بأسلوب الفلسفة السندية . بينما كانت المهايانا إحدى مدارس الفلسفة السندية التى حوّلت نفسها إلى دين دون أن تزول صفتها فى نفس الوقت كفلسفة .

بيد أن هذا لم يكن أول فصول القصة :

فإن المدارس الفلسفية ، كانت تكوّن نظاماً فكرياً راسخاً فى الوقت

الذى عرفتها فيه الأديان العليا إبان نشوئها ؛ فكانت بذلك قوة فكرية دينامية . وفى إبان هذه المرحلة الباكرة من الحياة والنمو والازدهار ــ وهى مرحلة تمكن مقارنتها بمرحلة نمو العلم الغربى الحديث ــ جابهت المدارس الفلسفية الهلينية والسندية ، العقائد الوثنية التى ورثتها الحضارتان الهلينية والسندية عن الإنسان الأول .

ويبدو للوهلة الأولى كما لو أن هذين الحادثين السابقين قد عادا إلى الظهور :

فإذا كانت البشرية قد أمكنها الصمود لاصطدامين فى الماضى بين الدين والعقل ، أفلا يتيسر التنبؤ بخروجها سليمة من الاصطدام الحالى ؟

مدار الإجابة عدم نشوء مشكلة الصراع بين العقل والدين فى الاصطدامين السابقين ؛ بينما لقيت هذه المشكلة فى الاصطدام الأخير حلا كان من قوة الأثر فى أهداف عصره وبيئته ، بحيث عاش ليغدو لُبّ المشكلة التى تواجه عالم القرن العشرين الذى طبعه الغرب بطابعه .

لم تنشأ مشكلة التوفيق بين القلب والعقل عند ما حدث الاصطدام بين فلسفة بازغة ووثنية موروثة ؛ ذلك لانعدام العلة التى تدفع الفريقين إلى الاصطدام . فإن العمل ــ لا الإيمان ــ هو لباب الدين البدائى . ولا تتوقف المشاركة فى الدين على قبول العقيدة ، لكنها تتوقف على المشاركة فى ممارسة الطقوس الدينية . وما مزاولة الطقوس الدينية فى الدين البدائى غاية فى ذاتها . ولا يعرض للمزاولين لتلك الطقوس أن يتطلعوا إلى ما وراءها ، بحثاً عن الحقيقة التى تحملها تلك الطقوس بين طياتها . وبكلمة أوضح ؛ لا تحمل هذه الطقوس فى الدين البدائى أى معنى سوى الإيمان بالأثر العملى الذى يُحدثه أداؤها على الوجه الصحيح .

وعلى هذا ؛ فإن قام فلاسفة فى ظل هذا الوضع الدينى البدائى وأخذوا على عاتقهم وضع الخطوط العامة التى تحدد البيئة البشرية على هدى قواعد

تقوم على العقل ، تدمغ أمرا بأنه « حق » وآخر بأنه « زائف » ؛ إن حدث هذا ، فلن يقع صدام بين العقل والدين ، طالما بقى الفيلسوف قائماً بواجباته الدينية المتوارثة . وليس ثمة فى فلسفته ما يمنعه عن القيام بها ، نظراً لأن هذه الطقوس الموروثة خالية من أى شىء يتعارض مع أية فلسفة .

وهكذا ، واجهت الفلسفة والدين البدائى أحدهما الآخر دون أن يتصادما . ولهذه القاعدة استثناء واضح — على الأقل — ولكن طبيعته تختلف إن بُحث عن قرب . فسقراط لم يكن من شهداء الفلسفة ، ولكنه لقى حتفه على أيدى الوثنية التى اضطهدته . وقد دلت دراسة ظروف مصرعه على أن الحكم عليه بالموت ، نتيجة من نتائج الصراع السياسى الوحشى بين الأحزاب المتنابذة ؛ ذلك الصراع الذى ظهر فى أعقاب هزيمة أثينا فى حرب البلوبونيز . ولو أن زعيم « الفاشست » الأثينيين لم يكن من بين تلاميذه ؛ لكان من المحتمل أن يموت سقراط فى فراشه بسلام ، مثلما مات كونفوشيوس ، نظيره فى العالم الصينى .

لكن إنبعث وضع جديد ، حالما ظهرت الأديان العليا إلى الوجود . وحتماً إن الأديان العليا قد ساقت أمامها — وحملت معها — مجموعة ضخمة من الطقوس الموروثة التى كانت شائعة فى المجتمعات التى شهدت النشأة الأولى لهذه العقائد الجديدة ؛ إلا أن هذا الزبَد لم يكن جوهرها بالطبع . والطابع الجديد المميز لهذه الأديان العليا ، أنها طالبت أتباعها بالولاء لها على أساس تلقّى أنبيائها الوحى بانفسهم من لدن الله الكريم وعرض الأنبياء ما يوحى إليهم على أنه تعبر عن حقائق ؛ وبذلك يمكن أن تكون صدقا أو زيفا .

وأيا ما تكون الحال ؛ أصبحت « الحقيقة » مجالا ذهنيا تختلف فيه الآراء . فهناك سلطانان مستقلان أحدهما عن الآخر :

الأول — الوحى النبوى .

الثانى : العقل الفلسفى .

ويطالب السلطانان كلاهما بالقوامة على ميدان نشاط الفكر بأسره . وبالتالى ، استحال على العقل والوحى أن يعيشا بسلام جنباً إلى جنب ، على غرار ما حدث قبلئذ من تكافل ودى متبادل بين العقل والطقوس الدينية .

وظاهر أنه قد أصبح للحقيقة أسلوبان فكريان يدّعى كل لنفسه الحق المطلق والمشروعية الجارفة : ولكن يجافى أحدهما الآخر . ولا نجد إزاء هذا الموقف الأليم ، إلا بديلين فحسب :

الأول : أن يتمكن أسلوبا الحقيقة ، اللذان يقومان جنباً إلى جنب ، من التوفيق فيما بينهما .

الثانى : أو أن يصارع أحدهما الآخر حتى يصرعه ، فيتم له إخراج خصمه من الميدان .

وقد أمكن الفريقان المواءمة بينهما سلميا عندما تلاقت الفلسفتان السندية واليونانية مع الديانات المسيحية والإسلامية والبوذية والهندوكية . وفى هذه المواءمة ، ارتضت الفلسفة ضمنا ، إرجاء توجيه النقد العقلى لما يتلقاه الأنبياء من وحى ، وذلك مقابل السماح للفلسفة بأن تعيد تشكيل رسالات الأنبياء فى أسلوب جديد هو أسلوب السوفسطائيين :

ولسنا نشك فى إخلاص الفريقين كليهما فى تقبّل هذا الحل الوسط . ولكننا نرى أنه ليس حلا حقيقياً لمشكلة العلاقة بين الحقيقة القائمة على الفهم ، والحقيقة القائمة على الوحى . وهذا الذى سُمى بالتوفيق بين نوعى الحقيقة الماثل فى أسلوب عقلى جديد دعى بـ « اللاهوت » لا يعدو أن يكون كلاما . وأثبتت الصيغ التى تنادى بها المعتقدات ، أنها لن تستطيع أن تدوم ؛ لأنها تركت المعنى المبهم للحقيقة ، على غموضه الذى ألفته عليه :

وانحدر إلى الأجيال التالية ، هذا الحل الكاذب ؛ ليصبح عقبة كأداء أكثر منه عوناً مثمراً فى حل الصراع بين الدين والعقل فى العالم المعاصر الذى

طبعه الغرب بطابعه . ولن يأتى الاهتداء إلى الحل الصحيح إلا إذا اعترف بأن لفظ « الحقيقة » نفسه (سواء استخدمه الفلاسفة والعلماء أو استعمله الأنبياء) لا يشير إلى نفس الوقائع ، ولكنه « جناس »[1] لنوعين مختلفين من التجربة :

وأصبح مقدّراً للصراع أن ينشب مرة أخرى عاجلا أو آجلا ، نتيجة للحل الوسط الذى وصفناه . فإن فرض وصيغت حقيقة الوحى فى أسلوب الحقائق العلمية ، فإن رجال العلم لن يطيقوا حبس أنفسهم عن توجيه النقد لجماع مذهب يسبغ على نفسه صفة الحقيقة العلمية : ومن ناحية أخرى ، فإن المسيحية إذا ما استطاعت يوماً أن تصوغ مذهبها بأسلوب النظر العقلى ، فإنها لن تتحرج عن المطالبة بالهيمنة على ميادين المعرفة التى هى المجال الشرعى للعقل .

فما أن بدأ العلم الغربى الحديث فى إبان القرن السابع عشر فى التحرر من سحر فلسفة اليونان ، وأخذ يشق لنفسه أرضا جديدة فى مجال الفكر والثقافة ، كان أول ما خطر على بال كنيسة رومة أن أصدرت حظراً على « عدوان » الفكر الغربى الناهض ، على حليفها القديم وهو الفكر اليونانى ، كما لو كانت النظرية اليونانية التى تقرر أن الأرض مركز النظام الشمسى ، دعامة من دعائم العقيدة المسيحية ، أو أن تصحيح جاليليو لبطليموس خطيئة دينية !!

ولبثت الحرب سجالا بين الكنيسة والعلم ، وفى عام ١٩٥٢ يكون قد انقضت ثلاثمائة سنة على نشوبها ، وانتهت السلطات الكنسية إلى موقف أقرب ما يكون إلى موقف حكومتى بريطانيا وفرنسا عقب تدمير هتلر البقية الباقية من تشيكوسلوفاكيا فى مارس ١٩٣٩ . فما برح العلم خلال مائتى عام

---

(١) جناس : كلمة تشترك مع أخرى لفظاً وتخالفها معنى . (المترجم)

ينتزع من الكنيسة مجالاتها ، مجالا بعد آخر . من ذلك أن العلم قد قبض على ناصـــية علوم : الفلك ، أصل الكون ، التأريخ ، الأحياء ، الطبيعة ، النفس . . . وأعاد العلم صياغتها على قواعد لا تتمشى مع التعاليم الدينية المقررة . ولا تلوح للكنيسة — على مدى البصر — نهاية لخسائرها . وما تزال هناك طائفة من الهيئات الكنسية ترى فى الإصرار على عدم التسليم للعلم ، أملها الوحيد فى استبقاء نفوذها . وقد انعكس عنادها هذا فى قرارات مجمع الفاتيكان عام ١٨٦٩ — ٧٠ ، وفى قرار الحرمان الذى أصدرته الكنيسة الرومانية الكاثوليكية عام ١٩٠٧ ضد ما أسمته بـ « الاتجاهات العصرية الضارة » .

أما عن الكنائس البروتستانتية لأمريكا الشمالية ، فقد تحصّنت خلف ما أسمته « قواعد الحزام الإنجيلى » . وبالمثل ؛ انعكس موقف العالم الإسلامى فى الحركات السلفية المجاهدة التى انتشرت فى ربوعه مثل الوهابية والسنوسية والمهدية ؛ على أن هذه الحركات لم تكن مظاهر قوة ، ولكنها علامات ضعف ؛ بل توحى إلى الأذهان بأن الأديان العليا تحث الخطى نحو حتفها . على أن توقع فقدان الديانات العليا ولاء البشر لها ، أمر ينذر بالشر ؛ لأن الدين إحدى الملكات الضرورية للطبيعة البشرية . وحسبنا القول بأن افتقار المرء للدين ؛ يدفعه إلى حالة من اليأس الروحى ، تضطره إلى التماس فتات العزاء الدينى على موائد لا تملك منها شيئا .

وأمامنا مثال قديم هو المسخ المدهش الذى خرجت بواسطته ديانة المهايانا من بين الفلسفة المحرمة على الأشخاص . وتعتبر أولى المحاولات التى بذلها تلاميذ سيدهارتا جواتاما لصياغة رسالة بوذا . وعندما تحولت البوذية من فلسفة إلى الدين ، كانت النتيجة الموفّقة ؛ عقيدة دينية عالمية :

بل لقد حدث خلال القرن العشرين فى العالم ذى الطابع المسيحى ، أن جُرِّدت النفوس الروسية من غذائها الدينى الموروث ، فاستخلصت من الفلسفة المادية الماركسية ، تعاليم أصبحت تقوم لديها مقام العقيدة الدينية :

ولكن إن قُدّر للأديان العليا أن تُقصَى عن الميدان ، لحدث فراغ يُخشى أن تشغله أديان دُنيا .

ألم يصبح المعتنقون للأيدلوجيات الدنيوية الجديدة — الفاشية والشيوعية والنازية وما فى حكمها — من القوة بحيث نجحوا فى تسنّم زمام الحكم فى بلادهم وفرض مذاهبهم ورسومهم باستخدام أساليب القمع والاضطهاد ؟

وهذه الأيدلوجيات وأمثالها ؛ هى فى صميمها عودة للإنسان إلى عبادته القديمة لذاته ، واستردادها حيويتها مستترة وراء القوة البدنية . بيد أن داء عبادة الذات ، لا يقتصر انتشاره على تلك الأيدلوجيات وأمثالها . فإن أخطر ظاهرة يواجهها العالم اليوم فى البلاد المسلّم بديمقراطيتها وباعتناقها المسيحية ؛ أن أربعة أخماس عقيدة جمهرة السكان ، هى فعلا العبادة الوثنية البدائية للجماعة التى أصبحت موضع تأليه جمهرة الناس ، وهى عبادة تستتر وراء كلمة لطيفة هى « الوطنية » .

على أن عبادة الذات الجماعية هذه ؛ لم تعد وحدها من بين أطياف الماضى . فإن جميع الجماعات البدائية التى لا تزال باقية حتى اليوم وكذلك جميع طوائف الفلاحين فى المجتمعات غير الغربية .. لا يكادون يقلّون بدائية عن تلك الجماعات ؛ وهم جميعا يبلغون فى الوقت الحاضر ثلاثة أرباع البشر ، قد ينتمون إلى طوائف البروليتاريا الداخلية فى المجتمع الغربى المنتفخ . وفى ضوء السوابق التاريخية ، نرى أن الطقوس الدينية التى كان يمارسها أفراد البروليتاريا ، والتى رنا إليها هؤلاء الأقوام البسطاء الذين انضموا حديثا إلى ركب الحضارة الغربية ليجدوا فيها ما يشبع توقهم إلى الدين ؛ هذه الطقوس الدينية قد بدا أنها عرفت طريقها إلى القلوب الجوفاء لسادة هؤلاء البروليتاريين المضللين .

وفى ضوء ما ذكرنا ؛ نرى أن انتصار العلم على الدين انتصاراً ساحقا ،

كارثة على العقل والدين جميعا . فإن كلا من الدين والعقل ، ملكة جوهرية من ملكات الطبيعة البشرية . ففي خلال المائتين والخمسين عاما السابقة لشهر أغسطس عام ١٩١٤ ، مضى رجال العلم في الغرب يستخفهم اقتناع ساذج ، بأنه ليس عليهم كي يؤمّنوا للعالم حياة أفضل ، إلا أن يمضوا يستخرجون مكتشفات جديدة كل يوم . وقال شاعرهم :

عندما يستكشف العلماء شيئا جديداً

نغدو أسعد حالا مما كنا فيما مضى[1]

على أن رجال العلم يرتكبون خطأين رئيسيين :

الأول : نسيان رجال العلم أن الرخاء النسبي الذى تمتع به العالم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، يعزى إلى مآثر العلم وحدها .

الثاني : ظن العلماء بأن هذا الرخاء النسبي سيدوم إلى الأبد .

حقا ، إن الأرض التي كانت على بعد خطوات منهم ، كانت أرض الضياع ، لا أرض الميعاد .

والحق أن السيطرة على الطبيعة غير البشرية التي منحها العلم للإنسانية ، هى أقل للإنسان أهمية – إلى أقصى الحدود – من أهمية علاقاته بنفسه وبإخوانه البشر وصلته بالله . فما كان ليتأتى للعقل البشرى أن يجعل من الإنسان سيدا على العالم ، لو لم يوهب سلفه في المرحلة السابقة على الإنسانية[2] ، القدرة على التحول إلى حيوان اجتماعى . ولكن الإنسان البدائى لم يرتفع إلى ذلك النبع الروحى ، بحيث يستطيع أن يتعلم ويأخذ من هذه المقومات الاجتماعية التي تكوّن الظروف التي لا غنى للإنسان العامل عنها كي يؤدى الأعمال القائمة على التعاون والتآزر .

---

(١) من شعر بيلوك في الضوء الكهربائى ، حصل على جائزة شعرية في ١٨٩٠ .

(٢) الحلقة التطورية التي سبقت مباشرة الحلقة الإنسانية . (المترجم)

على أن ما حققه الإنسان من مآثر فكرية وتكنولوجية ، لها أهميتها لشخصه ، لا فى حد ذاتها ؛ وإنما بقدر ما ساقته إلى مجابهة القضايا الأدبية ومصارعتها . وبغير ذلك ، لعله يمضى فى طرقه معرضا عنها .

وعلى هذا ؛ فقد أثار العلم الحديث قضايا معنوية بالغة الأهمية ، ولكن العلم الحديث لم يشارك فى إيجاد حلول لها ، وما كان فى وسعه أن يفعله . والواقع أن أهم الأسئلة التى ينبغى على الإنسان أن يجيب عنها ، ليس للعلم فيها قول . وهذا هو الدرس الذى سعى سقراط إلى تعليمه ، وقتما نبذ دراسة علم الطبيعة ، بغية نشدان الاتحاد مع الطاقة الروحية التى تعلن عن الكون ، وتحكمه .

هنا يتضح لنا ما هو المطلوب من الدين : إن عليه أن ينزل للعلم عن كل فرع من فروع المعرفة العقلية ومنها تلك التى اصطلحت التقاليد على أنها داخلة فى اختصاصه ، واستطاع العلم أن يضمها إلى حوزته . ذلك لأن السلطان التقليدى الذى تمتع به الدين على ميادين المعرفة ، كان عرَضا تاريخيا . وقد ربح الدين كلما تخلى عن سلطانه القديم على ميادين المعرفة ؛ فإن معالجتها لم تكن أصلا جزءا من واجباته ومدارها توجيه الإنسان صوب غايته الحقيقية وهى عبادة الله ودخول ملكوته تعالى . وبهذا كسب الدين — دون شك — بتنازله للعلم عن ميادين فكرية مثل الفلك وعلم الحياة (البيولوجية) وغيرها من ميادين المعرفة التى سردناها فيما سبق . بل إن نزول الدين للعلم عن ميدان «علم النفس» ، قد يكون مفيداً للدين بقدر ما هو مؤمل له . لأن اللاهوت المسيحى قد تخلص بذلك من طائفة من تلك الغيبيات التى تمثل الآلهة فى طباع البشر . وقد ثبت فى الماضى أنها كانت أمنع حاجز قام بين النفس الإنسانية وخالقها .

فإذا استطاع العلم أن يفعل ذلك ، لأثبت — حقا — أنه بدلا من

أن ينتزع النفس البشرية من الله ، قد دفع بها خطوة إلى الأمام تقربها من بلوغ غايتها الأبدية البعيدة .

ولو أمكن للدين والعلم كلاهما أن يصطدما فى المجالات التى خصت كلا منهما ، بحيث يكون التواضع حيث ينبغى والثقة بالنفس حيث تجب ؛ لو تم هذا ، لربما وجد العلم والدين أنفسهما فى النهاية وقد التقيا عند صيغة تمهد لإعادة التوفيق بينهما . إلا أن الشعور الطيب وحده لا يغنى عن السعى ؛ فإذا أراد كل من الدين والعلم تحقيق عودة التوفيق بينهما ، فإن عليهما البحث فى سبيل هذه الغاية عن جهد مشترك .

وقد عرف العلم والدين ذلك فى الماضى عند ما تصادمت المسيحية بالفلسفة الهلينية ، واصطدمت العقيدة الهندوكية بالفلسفة السندية . لكن الفريقين المتصادمين وفقا إلى حل سلمى أوقف الصراع بينهما ؛ مداره إضفاء تعبير لاهوتى على الطقوس الدينية ، واستخدام التعبيرات الفلسفية فى سرد الأساطير . بيد أن التوفيق بين الفلسفة والدين ، قام على تشخيص فاسد للعلاقة بين الحقيقة الروحية والحقيقة العقلية ؛ وجاء ذلك عن افتراض خاطئ بإمكان صياغة الحقيقة الروحية فى عبارات فلسفية . وهذا ما يدفعنا فى عالم القرن العشرين الغربى الطابع ، إلى بذل النصح للقلب والعقل بالحذر من التردى فى مثل هذه التجربة التى لن يكتب لها النجاح فى النهاية .

وحقاً ؛ إن افترضنا اطّراح اللاهوت الموروث للأديان الأربعة العُليا الحالية ، وأن يحل محلها لاهوت مستحدث يعبّر عنه بمصطلحات العلم الغربى الحديث ؛ لما كان نجاح هذا العمل الجرىء إلا مجرد تكرار لخطأ سابق . وتفسير ذلك أن اللاهوت المصاغ صياغة علمية (بفرض تصور حدوثه) سيثبت قصوره وفنائه على طول المدى . مثله مثل ضروب اللاهوت التى صيغت من قبل صياغة فلسفية فأصبحت وقت كتابة هذه السطور

تتدلى كأحجار الرحى حول أعناق البوذين والهنــدوكين والمسيحيين والمسلمين . إن الصيغة العلمية قاصرة ، لأن لغة الفكر أضعف من أن تنقل فراسة النفس . وهذه الصيغة العلمية فانية ؛ لأن إحدى مزايا البحث العقلى أنه دائم التحول ، وأنه يطرح جانبا النتائج التى سبق أن توصّل إليها .

إذن ؛ ما الذى ينبغى أن يفعله القلب والعقل للتوفيق بينهما ، مسترشدين بإخفاقهما فى الماضى فى الوصول إلى صيغة تجمع بينهما فى صورة لاهوت ؟

وهل ثمة منفذ لعمل مشترك يقومان به فى اتجاه آخر أدعى إلى الأمل ؟

إن العقل الغربى ما يزال حتى كتابة هذه السطور ، مأخوذاً بالانتصارات المتوالية التى حققتها العلوم الطبيعية والتى توّجت حديثاً بالانتصار الرائع ، ألا وهو تحطيم تركيب الذرة .

ولكن ؛ إنْ صح القول بأن ميلا واحداً يقطعه الإنسان فى طريق سيطرته على الطبيعة غير البشرية ، لا يعدل فى أهميته للإنسان بوصة واحدة يحرزها طريق تعزيز طاقته على التعامل مع ذاته ومع رفاقه ومع الله . إذا صح هذا ؛ لاتضح أن أعظم مآثر الإنسان الغربى فى القرن العشرين لميلاد المسيح وأبهر أعماله إذا قيست بالماضى ، مداره فتح أرض جديدة فى ميدان النفوذ إلى حقيقة الطبيعة البشرية .

وقد يتيسر إدراك ومضة من ضياء فى أبيات نظمها شــاعر إنجليزى أريب معاصر :

ما عادت السفن تعود زاهية عبر المحيط

من أقصى الأرض ونهاية العالم

عائدة إلى الوطن ، إلى ركن صغير من أوروبا

وقد أثقلها ما أمدها به عالم كشف حديثاً . . :

وحتى مع ذلك ورغماً عن كل تغيير

يبقى ثمة عالم واحد ، ما فتئ الخيال مشدوداً إليه

بعيداً فى بحر غامض وعلى شاطئ غير معروف

لم يكتشفه الإنسان إلا حديثاً

عالم من الأشباح والضباب المخيف المسكون بالأرواح

عالم لايرتاده رجال البحر ، ولكن علماء النفس

عالم ليس فيه خط استواء ، ولاخط طول أو عرض ، أو قطب

ولكن فيه خليط مضطرب محجباً عن النفس البشرية[1] .

لقد كان ولوج الفكر العلمى الغربى فجأة إلى هذا الميدان ، ميدان علم النفس ، إلى حد ما ، أحد النتائج الفرعية للحربين العالميتين الماضيتين اللتين استخدم فيهما أسلحة قمينة بإحداث نتائج مدمرة هزت النفس البشرية . وقد أمكن الفكر الغربى بفضل التجربة الإكلينيكية التى لم تسبق من قبل ، استبانة أعماق النفس والإحاطة بخفايا الشعور الباطن . فكان أن أحرز فكرة جديدة عن نفسه ، باعتباره حارساً يهيمن على هذه اللجة النفسية التى لا يسبر غورها .

ويمكن تشبيه الشعور الباطن بطفل أو بهمجى ، بل بحيوان وحشى ؛ إلا أنه كذلك وفى نفس الوقت ، أشد من الشعور فطنة وأكثر أمانة وأقل منه تعرضاً للخطأ . إن الشعور الباطن عمل من أعمال الخالق الثابتة الكاملة ، أقامها جل شأنه لتكون مراكز انتظار . أما الشخصية البشرية الشعورية فإنها أبداً غير مكتملة النمو . إذ تقترب دواماً إلى كائن أعلى منها بما لا يقاس . فهو الكائن الأعلى ، خالق هاتين الأداتين المختلفتين — وإن كانتا متلازمتين — المعبرتين للنفس البشرية : الشعور واللاشعور . وإذا كان قد أتيح للعقل الغربى الحديث ،

---

(١) صفحة ٤١ و ٤٢ .Skimmer Martyn : Letters to Malaya, III & IV ..

أن يكشف اللاشعور (الشعور الباطن) ليرى فيه – فقط – مادة جديدة لعبادة الوثنية ؛ فإنه يكون بذلك قد أقام بينه وبين الله حاجزاً جديداً ، عوضاً عن إغتنامه فرصة جديدة تزيده من الله قرباً ؛ وإنها – دون شك – لفرصة جديدة للعلم والدين ، أجدر بهما أن ينتهزاها معاً لتحقيق مزيد من القرب من الله . ويتأتى ذلك بأن يتوفّرا معاً على تفهّم مخلوق الله المتغاير – أى النفس – فى أعماق لاشعورها ، وفى سلوكها الشعورى على السواء ؛ فإن تأتى ذلك ، فأى كسب يناله العلم والدين جزاء وفاقاً لهذا الجهد المشترك ؟

حقا ؛ إن الجزاء سيكون رائعا ؛ فإن اللاشعور – لا العقل – هو أداة الإنسان ووسيلته إلى حياته الروحية . إنها ينبوع الشعر والموسيقى والفنون المرئية ، وهى السبيل الذى تسلكه النفس إلى الاتحاد مع الله :

إن الهدف الأول لهذه الرحلة الفاتنة التى ترتادها النفس – أن تتغلغل بعيداً فى نبضات القلب . فإن للقلب عللا خاصة به لايدركها العقل .

والهدف الثانى للنفس البشرية من هذه الرحلة – أن تكشف عن طبيعة الاختلاف بين الحقيقة المطابقة للفعل ، والحقيقة التى يدركها الحس ، وتتعرف عليها البديهة . ومبعث الخلاف ، إيمان كل من الحقيقتين وحدها بأنها تملك الحقيقة الأزلية .

والهدف الثالث – محاولة العثور على القاعدة الأساسية للحقيقة الأزلية ؛ تلك القاعدة التى ينبغى أن تقوم عليها : الحقيقة العقلية ، والحقيقة الحدسية .

والهدف الأخير للنفس البشرية فى هذه الرحلة الروحية – أنها بوصولها إلى الصخرة القابعة فى أعماق عالم النفس ، يتأتى لها أن تبلغ مزيداً من الإلمام الكامل بالله القيوم :

وللأسف الشديد ؛ يتجاهل علماء اللاهوت – بخلوص نية – التحذير

القائل « إن الله لن يرضيه أن يمنح شعبه الخلاص عن طريق الجدل »[١] وهذا ماتردده الأناجيل بقولها « كابدوا أيها الأطفال الصغار ولاتمنعوهم إن صدوكم عن القدوم إلىّ ، لأن هذا طريق ملكوت السماء . . ولن تدخلوا ملكوت السماء حتى تؤمنوا وتصبحوا كما لو كنتم أطفالا صغاراً » .

والحق أن اللاشعور – من وجهة نظر العقل – مخلوق يشبه الطفل من ناحيتين :

الأولى – من ناحية أنه فى بساطة تفكيره يتمشى مع الله ويستجيب إليه تعالى . وهذا أمر يعجز العقل عن مجاراته .

الثانية – من ناحية انتفاء روح المنطق منه ، وهذا ماينبذه العقل .

وعلى العكس من ذلك ، يرى العقل ، اللاشعور متعالما[٢] لا قلب له ، اشترى معجزة السيطرة على الطبيعة بثمن قوامه خيانة النفس . إن اللاشعور قد جعل رؤياه لإله تتضاءل وتفنى فى وضح النهار العادى .

على أن العقل بالطبع ليس عدو الله ، مثلما أن الشعور الباطن (أى اللاشعور) ليس فى الحقيقة خارج نطاق الطبيعة . إن العقل واللاشعور كلاهما من عمل الله ، ولكل منهما ميدانه وعمله المقسوم له . ولا يقتضى الأمر أن يشهّر أحدهما بالآخر ، إن صدّقا عن العدوان .

٤ – بشائر مستقبل الأديان

إن جاز للجيل الذى ولد فى القرن العشرين من ميلاد المسيح أن يتطلع إلى يوم ، يعود فيه القلب والعقل إلى الوفاق ، فلعله يأمل كذلك فى حثّ القلب والعقل على أن يتلاقيا فى التعرّف على دلالة ماضى العقائد الدينية .

---

(١) صفحة ٤٢ من الفصل الخامس من الكتاب الأول Ambrose : De Fide .

(٢) المتعالم : مدعى العلم أو المتظاهر به . (المترجم)

وهذه الدراسة ، تقدّم لنا نقطة بداية فى المرحلة الأخيرة من بحثنا عن العلاقة بين الأديان والحضارات .

وبعد أن أبان لنا البحث أن الأديان ليست سرطانات ، وأنها لا تعدو أن تكون يفعات[1] عرَضية ، مابرحنا ننعم النظر فى احتمال كونها أنواعا عليا من المجتمع . ولن يمكننا إصدار حكم فى هذه القضية دون أن نتساءل عن الضوء الذى قد يلقيه ماضى الأديان على بشائر مستقبلها . وعلينا هنا أن نتذكر قبل أى شىء آخر ، أن الأديان وما تتضمنه من عقائد – فى قياس الزمن التاريخى – ماتزال فتية إلى أبعد حد ، ويذكّرنا هذا القول بأنشودة شاعت فى أماكن العبادة إبان العصر الفيكتورى ، تضمنت :

تواصل الكنيسة المسيحية طريقها

بعيداً على مدى العصور

أن رحلتها الآن على وشك التمام

وتتوق إلى بلوغ موطنها

وحكى عن أحد رجال الدين أنه أوصى رعايا أبروشيته بتغيير السطر الثالث وقراءته « تكادتبدأ رحلتها » . وهذا تغيير يتفق تماماً مع حقائق الموضوع كما يفهمها كاتب هذه الدراسة . إن الحضارات ليست إلا مخلوقات الأمس القريب ، إن قورنت بالمجتمعات البدائية ؛ وعقائد الأديان العليا ، لم تبلغ من العمر نصف ما بلغته أقدم الحضارات .

فما هو الطابع الذى انفردت به العقيدة الدينية عن الحضارة والمجتمع البدائى على السواء ، والذى جعلنا نعمد إلى تبويب العقائد الدينية واعتبارها أنواعا تتميز عن الجنس الذى يضم بين دفتيه كل نماذج المجتمع الثلاثة السالفة الذكر ؟

---

(١) دور من أدوار الحشرة سيما الفراشة . (المترجم)

إن الطابع المميز للعقائد الدينية ، اتصالها جميعا بالله الواحد الحق . وبفضل هذه الصحبة للإله الواحد الحق (صحبة حاولتها الأديان البدائية وبلغتها الأديان العليا) ؛ بفضل هذه الصحبة ، تأتى لهذه المجتمعات أن تحرز على طائفة من الفضائل لم تدركها المجتمعات البدائية أو الحضارات. فلقد زودتها بطاقة للتغلب على الخلاف القائم فيها ، وهو أحد أرزاء المجتمع البشرى المتأصلة فيه . إنها قدمت حلا لمشكلة معنى التاريخ .

والخلاف خصلة متأصلة فى حياة البشر ؛ لأن الإنسان أسخف مخلوقات الدنيا التى يضطر الإنسان إلى ملاقاتها ، فإنه حيوان اجتماعى ، وهو مزوّد فى نفس الوقت بإرادة حرة . ومؤدى اجتماع هذين العنصرين ، أنه فى مجتمع لا يتألف إلا من البشر ، لا مناص من حدوث صدام دائم بين إرادات الأفراد . وينتهى المطاف بمثل هذا المجتمع ، إلى نهاية انتحارية ؛ إلا إذا صادفت الإنسان معجزة الهداية .

وهداية الإنسان ، أمر لا بد من توافره لنيله الخلاص . فإن إرادته الحرة المنهومة ، تزوّده بطاقة روحانية تعرّضه لخطر إبعاده عن الله . وما كان هذا الخطر ليحلّ بهذا الحيوان الاجتماعى — قبل أن يستحيل بشراً — ما لم يكن مزوّداً بفضيلة — أو برذيلة — امتلاك طاقة روحانية مرتفعة فوق النفس اللاشعورية . ذلك لأن النفس اللاشعورية تتمتع — دون جهد — بنفس الانسجام مع الله ؛ انسجام تؤكده براءة النفس اللاشعورية لكل المخلوقات فى رحلتها السابقة للآدمية .

لكن هذه الحالة السلبية[1] الهيّنة ما لبثت أن تبددت عندما استكملت

---

(١) وهى ما يعبر عنها الأستاذ المؤلف بحالة « الين » وتعنى حالة السكون . فى حين يستخدم اصطلاح « اليانج » للتعبير عن حالة الحركة والانطلاق . والاصطلاحان كما مر بنا القول ، من أصل صينى . (المترجم)

المخلوقات شعورها وشخصيتها البشريتين فى حركة من الانطلاق والاضطراب، « فرّق الله فيها الضياء من الظلام » .

على أن نفس الإنسان الواعية ، تستطيع أن تكون أداة الله المختارة لتحقق للإنسان تقدما روحانيا معجزاً . لكنها قادرة كذلك على أن تقود نفسها إلى هاوية مؤسفة ، إن قادها إدراكها بأنها خلقت على صورة الإله ، إلى عبادة ذاتها .

وهذا الافتتان بالذات بمثابة انتحار ، وهو ثمن خطيئة الكبرياء ؛ ضلال تتعرض له نفس الإنسان دوما ، وسط هذه البلبلة التى هى السمة الأساسية للشخصية البشرية . ولن تستطيع الذات أن تهرب من نفسها المضطربة ، بالعودة إلى عالم السكون السلبي الهنيء التى يدعوها الهنود بالنيرفانا[1] . لأن هذا العالم الذى يلتمس فيه الإنسان خلاصه لنفسه ، لايقدّم سلاما قائما على إفناء الإنسان لذاته — وقد تراخت أعصابه — لكنه سلام يقوم على توازن مشدود كما يشدّ الوتر .

إن النفس البشرية بعد أن نبذت « سلوك الأطفال » ، تبذل جهداً لتستعيد فضيلة من فضائل الأطفال : إن على الذات أن تسترجع وفاقها الطفولى مع الإله . عن طريق ممارسة رجولية للإرادة التى زوّدها بها الإله لتنفذ مشيئته . فتنال بذلك غفرانه تعالى .

فإذا سلّمنا بأن ذلك هو طريق الإنسان لخلاص نفسه ، فإن الطريق وعر شاق . ذلك لأن العمل الجليل الذى قام به الإله وهو إيجاد « الإنسان

---

(١) حالة الغبطة الكاملة التى تتمتع بها الروح فى العقيدة البوذية بعد سلسلة طويلة من التناسخ البشرى والحيوانى . ومعنى هذه الحالة بقاء الروح فى حالة سكون — أى بعيداً عن عمليات التناسخ — إلى جانب الروح العظمى (أى البوذا) . (المترجم)

العاقل »[1] ، جعل من المتعذر — بنفس العمل تحوله إلى « إنسان مستسلم »[2]. فتعيّن على ذلك الحيوان الاجتماعى الذى غدا « إنسانا صانعا »[3] ، أن يأخذ بنزعة التضامن ؛ وإلا دمّر نفسه بنفسه .

ولقد أوتيت كل جماعة بشرية ، قدرة الإحاطة والشمول التامّين بفضل ما جُبل عليه الإنسان من ألفة وحسن معاشرة . وإنه وإن لم يتأت لأية جماعة بشرية حتى كتابة هذه السطور عام ١٩٥٢ ، أن تشمل العالم بأسره فى جميع مجالات النشاط الاجتماعى ، إلا أن الحضارة العلمانية الغربية الحديثة قد بلغت مؤخراً فى المجالين الاقتصادى والتكنولوجى مكانة عالمية الطابع دون أن تدرك نجاحاً مشابهاً فى المجالين السياسى والثقافى . بل أصبح توحيد العالم السياسى أمراً مشكوكاً فيه ، بعد ما كابده العالم من تجربة مدمّرة خلال حربين عالميتين ، دون أن يتعرّض لتلك الضربة القاضية المألوفة التى ما برحت الثمن التقليدى للوحدة العالمية فى تواريخ الحضارات .

لكن اتّباع هذه الوسيلة الفظة ، لن يحقق — على أية حال — وحدة الجنس البشرى . إن الوحدة المرتجاة ، لن تتم إلا نتيجة عَرَضية لعمل يستند على الإيمان بوحدانية الله ، وعلى النظر إلى المجتمع الأرضى الموحّد على أنه جزء من ملكوت الله .

ولقد صوّر فيلسوف غربى محدث ، الهوة التى تفصل بين الملكوت الإلهى الفسيح الأرجاء ، والمجتمع الدنيوى المغلق الذى تبديه الحضارات جميعاً ، كما وصف القفزة الروحية التى لن يتيسر بدونها عبور هذه الهوة ؛ صوّر ذلك ووصفه فى قوله :

---

(١) homo sapins .

(٢) homo concors .

(٣) homo faber .

« خُلق الإنسان ليعيش فى مجتمعات صغيرة جداً ، وكون المجتمعات البدائية على هذه الصورة ، حقيقة أصبح مسلماً به بصفة عامة . ولكن على الرغم من تطور الإنسان الحضارى ، ما تزال النفس البشرية تحيا فى ذاته ، تختفى تحت تلك العادات التى لولاها ما قدّر للحضـــارات أن تخرج إلى الوجود . . . . إن الإنسان المتحضر يختلف عن الإنسان البدائى بذلك القدر الهائل من المعرفة والعادات التى اكتسبها . . . غير أن الإنسان الطبيعى ما يزال يرقد تحت تلك الطباع المكتسبة ، ولم يصبه تغيير من الناحية العملية . . . إن من الخطأ القول (ادفع الطبيعية بعيداً ، تأتك ركضاً) ؛ فلن يتيسر لك التخلص منها ، لأنها هناك دوماً . أن الخصال المكتسبة أبعد من أن تُلقّح أو أن تنقل نفسها بالوراثة كما يظن الناس عادة . . . إن الطبيعة البدائية — وإن تبدّت خامدة مكبوتة — تبقى فى أعماق الشعور . . . إنها تظل تنبض بالحياة فى أرقى المجتمعات حضارة . . . إن مجتمعاتنا الحضارية رغم أنها تختلف عن نوع المجتمع الذى خُلقنا لنعيش فيه أصلا ، وتشابهه فى ناحية جوهرية ، فهما جميعاً مجتمعان مغلقان . ورغم ما يبدو من إتساع الحضارات إن قورنت بالجماعات الضئيلة التى هُيئنا لها بالغريزة ، فإن لها مع ذلك نفس الخاصية ، وهى أنها تضم بين ظهرانيها أقواماً وتُقصى آخرين . إن بين الأمة — أياً ما تكون ضخامتها — وبين البشرية ، من البعد ، ما بين المتناهى واللامتناهى ، بين المغلق والمفتوح .

« إن ثمة بين المجتمع المغلق والمجتمع المفتوح ، أى المدينة والبشرية ؛ اختلاف ، لا من حيث الدرجة ، ولكن من حيث النوع . إن تضامن الدولة ، يُعزى أساساً إلى حاجتها للدفاع عن نفسها ضد عدوان الدول الأخرى . وإن الفرد يحب مواطنيه لأنه يكره الأجانب . تلك هى الغريزة البدائية ، وما تزال راقدة هناك تحت قشرة الحضارة السطحية . إننا ما زلنا نشعر بحب طبيعى لذوى قربانا وجيراننا فى حين أن حب البشرية حسّ مكتسب : إننا نصل

إلى النوع الأول من المحبة مباشرة ، أما النوع الآخر ، فنبلغه بعد أمد . ذلك لأنه عن طريق الله وحده ، يهدى الدين الإنسان إلى محبة الجنس البشرى ؛ مثلما أنه عن طريق العقل وحده يلقننا الفلاسفة ما للشخصية البشرية من عزة وكرامة ، وما للناس جميعاً من حق أن يكونوا موضع الاحترام . ولن يتأتى لنا — سواء فى الحالة الأولى أو الثانية — إدراك فكرة البشرية على مراحل : مرحلة العائلة ومرحلة الأمة »(١) .

أجل ؛ لن تتحقق للبشرية وحدتها المرتجاة ، من غير مشاركة الله . فلو أسقطت البشرية المرشد العلوى من اعتبارها ؛ لاندفع الإنسان إلى الفتنة والتنافر ؛ وهو ما يجافى طبيعته القائمة على الألفة وحسن المعاشرة . ولعذبه ذلك الحس من العناء الكامن فى نفسه ، بحكم كونه كائنا اجتماعيا ؛ ذلك العناء الذى يزداد حدة كلما ازداد الإنسان قدرة على أن يرتفع بحياته إلى تحقيق الاحتياجات المعنوية لطبيعته الاجتماعية ، طالما سعى الإنسان أن يلعب دوره فى مجتمع نبذ الإله الواحد الحق الصمد . وهذا العناء ناجم من أن الجهد الاجتماعى الذى يبذله المرء ليستكمل ذاته ، يتعدى بمراحل حدود حياته على الأرض زمانا ومكانا .

وعلى هذا ؛ يصبح التاريخ عند كل امرئ يشارك فيه — على حدة — مجرد « حكاية لامعنى لها يرويها أبله » . لكن هذا الشيء الذى لامعنى له ، يكتسب معنى روحيا ، عندما يكشف المرء فعل الإله الواحد الحق .

وعلى هذا النحو ؛ قد تكون الحضارة — أية حضارة — ميدانا للدراسة مفهوما بعض الوقت . إلا أن ملكوت الله ، هو ميدان العمل الوحيد المسلم به أخلاقيا . وتهيئ الأديان العليا للنفوس البشرية ، إكتساب

---

(١) صفحات ٢٤ — ٢٨ و ٢٨٨ و ٢٩٣ و ٢٩٧

Bergson H. : Les Devx Sovrces de la Morales et de la Religron.

رعوية هذه الدولة الإلهية ، على الأرض : فيتاح للإنسان — من ثم — المساهمة بقسط غاية فى الضآلة ، فى سير التاريخ الدنيوى . قسط يكفل له تأدية دوره على الأرض ، ولكن على اعتبار أنه مساعد إرادى لإله يُضفى سلطانه على جهود الإنسان لتأدية رسالته على الدنيا ؛ يُضفى عليها قيمة ومعنى ربانيين ، بدون ذلك تصبح جهوده حقيرة تافهة . وليس أدل على عِظَم هذا الدور الإلهى ، أنه فى عالمنا الغربى الدنيوى الطابع ، نجد القائلين بالمذهب العقلى[١] ممن نبذوا المسيحية . يستخلصون للتاريخ فلسفة يستخدمون فيها المصطلحات المسيحية . وقد فسّر ذلك أحد المفكرين بقوله :

« ذلك لأن المسيحيين بإيمانهم بالإنجيل وبالكتاب المقدس وبقصة الخلق وبإعلان ملكوت الرب ؛ استطاعوا الإقدام على تركيب « جماعية التاريخ[٢] » أو شموله . ولم تفعل كل المحاولات التالية من نفس النوع ، إلا أنها أحلّت محل الغاية السامية التى أكّدت وحدة التركيب فى العصور الوسطى ، قوى ذاتية مختلفة استخدمتها كبديل لله ؛ ولكن بقيت جميع المحاولات فى جوهرها واحدة . وكان المسيحيون أول من أدركوا ذلك : وهو أن يقدّموا لشمول التاريخ تفسيراً مفهوماً يفسّر أصل البشرية ويحدد غايتها .

« يستند المذهب الديكارتى كله على فكرة وجود إله قادر على كل شىء ، أوجد بطريقة ما نفسه بنفسه . وخلق بطريق المصادفة[٣] ، الحقائق الأزلية ومنها حقائق الرياضيات . وخلق كذلك الكون من العدم ؛ وهو يحافظ عليه بالخلق المتصل الذى بدونه تتردى جميع الأشياء إلى العدم من حيث انتشلتها مشيئته تعالى . . تأمل قضية ليبنتز[٤] ... ماذا يبقى من فلسفته

---

(١) المذهب العقلى ، مذهب لا يقر إلا ما يطابق العقل الحر . (المترجم)

(٢) من حيث الكل أو المجموع . (المترجم)

(٣) A fortiori .

(٤) ليبنتز : فيلسوف ألمانى (١٦٤٦ — ١٧١٦) . (المترجم)

لو استصفيت منها العناصر المسيحية الأصلية ؟ بل لن يبقى منها وصفه لمشكلته الأساسية وهى ماهية الأصل الأول للأشياء وخلق الكون على يد إله كامل حر الإرادة . . . أن ثمة حقيقة غريبة – وإن كانت لا تساوى شيئا – مؤداها أن معاصرينا إذا كانوا لم يعودوا يلجأون إلى « مدينة الله » وكتابه المقدس – على نحو ما لم يتردد ليبنتز فى فعله – فإنهم لم يفعلوا ذلك لأنهم خلصوا من تأثيرهما . إن كثيرين منهم إنما يعيشون على ما آثروا إنكاره »[١] .

وأخيرا ، لا تتحقق بشائر التطهر من الأدران ، فى مجتمع يعكف على عبادة الإله الواحد الحق ، وهو ما وصفناه فى موضع سابق من هذه الدراسة بـ « مجازفات المحاكاة » . إن نقطة الضعف فى التشريع الاجتماعى للحضارة ، تكمن – كما رأينا – فى اعتمادها على المحاكاة (أى التقليد) كوسيلة للتدريب الاجتماعى الذى يكفل اقتفاء جماهير البشرية إثر زعمائها .

وتتجه جماهير العامة إلى الاستعاضة عن محاكاة أجدادها ، بمحاكاة الشخصيات البشرية المبدعة فى عصرها . ويتم ذلك عند تحوّل الحضارة من حالة الهدوء الراكد إلى حالة النشاط[٢] ، ذلك التحوّل الذى يحدث إبان نشوء حضارة ما بوساطة تبدّل يلمّ بطابع المجتمع البدائى . بيد أن الطريق الواسع الذى ينفتح للتقدم الاجتماعى بهذه الطريقة ، قد ينتهى إلى أبواب الفناء ، طالما لا يتيسر الإبداع لأى إنسان إلا فى نطاق محدود ، ولن يستقر له الإبداع طويلا . عندئذ لا مناص له – على طول المدى – من مجابهة فشل محتوم يتولّد عنه حتما ، تبديد الأوهام التى سيطرت عليه طوال فترة تمتعه

---

(١) صفحات ٣٩٠ – ١ و ١٤ – ١٧ من الترجمة الإنجليزية .
Gilson E. : The Spirit of Medical Philosophy.

(٢) أى من حالة الين الساكنة إلى حالة اليانج الحافلة بالحركة ، وفقاً لتعبير الأستاذ المؤلف كما سبق لنا بيانه . (المترجم)

بميزة الإبداع . هنا ينزع الزعماء ، وقد تجرّدوا من أهليتهم للزعامة المبدعة ؛ إلى اللجوء إلى القوة ، ليحتفظوا لأنفسهم بسلطان زال عنهم معنويا .

ويختلف الحال فى ملكوت الرب عنه فى المجتمعات الدنيوية . إذ يتيسر فى ملكوت الرب اتّقاء هذه المجازفة ، بفضل انتقال جديد حيوى للمحاكاة ؛ من محاكاة الجماهير لزعماء الحضارات الدنيوية – وهم بعد بشر محكوم عليهم بالفناء – إلى محاكاتهم إليها هو مصدر الإبداع البشرى بأسره .

وهذه المحاكاة للإله ؛ لن تعرّض النفوس البشرية التى تنذر نفسها له تعالى ، لهذه الحالة من تبدد الوهم ؛ حالة لا بد وأن تلحق بأولئك الذين يحاكون حتى أشد البشر شبها بالله . لكن اتصال الروح بالله الواحد الحق ، محال أن ينحدر إلى عبودية لطاغية غشوم ، مثلما يحدث لمن يلتزم محاكاة البشر . وهذا ما يوضحه كل دين من الأديان العالمية بدرجات متفاوتة . ففى كل منها نجد رؤيا الله كقوة وسلطان ، تتجلى فى رؤياه تعالى كمحبة .

وإن إبراز هذا الرب العطوف كإله ميّت[1] تجسّد فى إنسان ، يعتبر نضالا للعدالة الإلهية ضد الخطيئة ، تجعل لمحاكاة المسيح مناعة تجنّبها المأساة التى تقترن بكل محاكاة للشخصيات الإنسانية الذاوية .

---

(١) عند المسيحية دون غيرها من الأديان السماوية . (المترجم)

الفصل السابع والعشرون

دور الحضارات فى حياة العقائد الدينية

(١) الحضارات افتتاحيات

إن أقنعنا الاستقصاء الآنف الذكر بأن العقائد الدينية العليا ، صور مختلفة على الأرض قريبة الشبه بملكوت الرب ، وأن نوع المجتمع الذى تمثّله دولة الرب – وهو نوع فريد فذ – يعتبر أرقى روحانية من جميع الأنواع التى تمثّلها الحضارات ؛ فإن إقتناعنا هذا ، ليشجعنا على المُضى قُدما فى تجربة أخرى تقوم على عكس افتراضنا القائل بأن دور الحضارات أعظم فى التاريخ سلطانا ، وأن دور العقائد الدينية هو دور التابع .

وبالتالى ؛ عوضا عن بحث الأديان من خلال دراسة الحضارات سنجازف بالسير فى اتجاه جديد ، هو بحث الحضارات من بين ثنايا بحث الأديان ؛ فإذا بحثنا عن سرطان اجتماعى ، سنلقاه – وفقاً لهذا القياس – لا داخل ديانة تحل محل حضارة ، ولكن سنجده داخل حضارة تحل محل ديانة .

وإذا كان بحثنا الماضى قد قادنا إلى اعتبار الديانة بفعة تعيد من خلالها حضارة قديمة شخصيتها من جديد ؛ يتعين علينا الآن أن نفكّر فى الحضارة الوليدة باعتبارها افتتاحية أو مقدمة لظهور عقيدة دينية ، وأن ننظر إلى الحضارة الفرعية على أنها نكوص[1] عن المستوى الرفيع الذى بلغته الحياة الروحانية من قبل .

---

(١) النكوص : رجوع انحلال إلى أحد الأطوار السابقة فى التطور الحضارى . (المترجم)

ولو جعلنا من نشأة الكنيسة المسيحية اختباراً لصحة هذه القضية ، مستشهدين فى اختبارنا بالبيّنة البسيطة — وإن كان لها دلالتها — التى يقدمها تحوّل الألفاظ من نطاق المعنى والاستعمال الدنيوى إلى مجالها الدينى ؛ لو اتبعنا هذا ، لألفينا هذه البيّنة اللغوية تؤيد الفكرة القائلة بأن المسيحية منهاج دينى ذو افتتاحية دنيوية . وإن هذه الافتتاحية لا تتألف فقط من نجاح الرومان السياسى فى تشييد دولة عالمية هلينية ؛ لكنها تتضمن كذلك الحضارة الهلينية بجميع أطوارها ومظاهرها .

وحقاً ؛ تدين الكنيسة المسيحية باسمها ذاته ، إلى مصطلح فنى سبق أن استخدمته دولة مدينة أثينا للتعبير عن الجمعية العامة للمواطنين التى كانت تنعقد لتبادل الرأى فى الشئون السياسية . لكن الكنيسة باستعارتها لفظ « المجمع ecclesia » قد أعطته معنى مزدوجا كان يعكس النظام السياسى للإمبراطورية الرومانية . إذ غدا الاستعمال المسيحى للفظ « المجمع ecclesia » يعنى الجماعة المسيحية المحلية ، والدين العالمى على السواء .

وانعقدت الكنيسة المسيحية — فى مدلولها المحلى ومستواها العالمى — على طبقتين دينيتين : العلمانيون ، والأكليروس . ثم نُظّم الأكليروس فى رتب كهنوتية متدرجة .

عندما حدث هذا ؛ ولّت الكنيسة وجهها شطر الألفاظ الدنيوية اليونانية واللاتينية ؛ تستعير منها ما يعوزها من مصطلحات فنية . وعلى هذا النحو :

١ — اشتقت الكنيسة كلمة « غلمانى » من كلمة Laos « اليونانية وتعنى جمهرة الناس ، تمييزاً لهم عمن بيدهم الحكم والسلطان .

٢ — اقتبست كلمة الأكليروس للتعبير عن رجال الدين من كلمة Klêros اليونانية . وتعنى بصفة عامة ، النصيب المعيّن فى ضيعة موروثة ؛

وقد تبنّت الكنيسة اللفظ اليونانى لتدل به على هذا البعض من الجماعة المسيحية التى اختصها الله لخدمته تعالى بوصفهم كهنته المحترفين .

٣ ـ استعارت الكنيسة ألقاب رجال الدين[١] من ألقاب الطبقات المتمتعة بالامتيازات السياسية فى الجهاز الرومانى السياسى ، مثال ذلك ألقاب السناتو[٢] .

٤ ـ أصبحت أعلى طبقات رجال الدين تعرف بالأساقفة ، والمعنى الحرفى للفظ هو « المراقبون » أى Ebiscopos .

٥ ـ أن الكتاب المقدس للكنيسة المسيحية ـ حيث لا يشار إليه باسم « الكتب Biblia » ـ أُخذ من مصطلح كان شائعاً بين مصطلحات الضرائب داخل الدولة الرومانية ، وهو Scriptura . أما بالنسبة للعهدين القديم والجديد ، فكان يطلق عليهما لفظ Diathekai اليونانى وTestamenta اللاتينى . إذ اعتُبرا بمثابة وثيقتين شرعيتين أو عهدين ، أعلن الرب بهما إلى البشرية ـ على دفعتين ـ مشيئته ووصيته لتنظيم حياة البشر على وجه الأرض .

٦ ـ أن التدريب Ascêsis الذى أخذت به الصفوة الروحية المختارة من النساك فى أيام الكنيسة الأولى نفسها ، اشتق من التدريب الجسمانى الذى كان يخضع له الرياضيون الذين كانوا يُدرَّبون للاشتراك فى الألعاب الأوليمبية وما فى حكمها من المباريات الرياضية الهلينية .

وفى القرن الرابع الميلادى ، استُبدل بتدريب المرء ليكون شهيداً ، تدريبه ليكون زهداً . وغدت المحنة التى يواجهها هذا النموذج الجديد فى أبطال المسيحية ، أن يثبت تحمله عزلة الصحراء ، بدلا من مجابهة

---

(١) Ordines.

(٢) وكان يستخدم بمجلس الشيوخ الرومانى . (المترجم)

المثول علانية أمام القضاة أو حلبات الصراع . حينئذ وجدت الكنيسة طلبتها فى الكلمة اليونانية Anachorêtês التى كانت تطلق فى الأصل على الأشخاص الذين يعتزلون حياة العمل ؛ إما لتكريس أنفسهم للتأمل الفلسفى ، أو احتجاجاً على الضرائب الفادحة . وأُطلق هذا التعبير بصفة خاصة على النصارى الذين غمرتهم الحماسة وخاصة فى مصر ؛ فانسحبوا إلى الصحراء (فى أديرة يقطنها الزاهد أو الناسك Erémos) إلتماساً للاتصال بالله واعتراضاً على آثام الدنيا . وعندما أخذ هؤلاء المتفرّدون أو الرهبان Monachoi (وهذا اللفظ يباين حقيقة المعنى الحرفى لإسمهم من العزلة والتفرّد) يعيشون فى جماعات منظّمة ؛ استعارت الجماعة اسمها اللاتينى « الدير Conventus » من كلمة جمعت فى الاستعمال العلمانى بين معنيين هما : اجتماعات الحى والغرفة التجارية .

وعندما تبلورت الإجراءات الشكلية الأولى فى الاجتماعات الدورية لكل كنيسة محلية فى شكل طقوس شاقة عنيفة ، اشتقت هذه « الخدمة الدينية العامة (أى القداس Leitourg) » اسمها عن النفقات الاختيارية — اسمياً — التى كانت تعرف فى أثينا إبان القرن الخامس قبل الميلاد بهذا الإسم الشرقى المستعار ، إخفاء لحقيقة كونها بالفعل ضرائب إضافية إجبارية . وبلغت هذه الطقوس ذروتها فى « القربان المقدس » ، ويعنى مشاركة المسيح فى العشاء الربانى — وقوامه تناول الخبز وشرب النبيذ — والرمز إلى رفقة المسيح وصحبته . إن هذا العشاء الربانى المسيحى ، قد استعـــار اسمه Sacramentum من أحد الطقوس الرومانية الوثنية ، حين يُنذر المجند الجديد نفسه للجيش الرومانى . أما القربان المقدس (ويصل إلى ذروته فى العشاء الربانى) فقد اتخذ اسمه من كلمة تعنى من لفظها اليونانى Koinônia (وترجمته اللاتينية Communio) المشاركة فى أية مصلحة اجتماعية ، ولكن فى جماعة سياسية أولا وقبل كل شىء .

إن استخلاص معنى روحى من معنى مادى ،عملية دعوناها بـ « الأثيرة »[1] فى موضع سابق من هذه الدراسة ؛ وسلّمنا بأنها دلالة التقدم والارتقاء . وهذا ما لجأت إليه الكنيسة المسيحية وقتما عمدت إلى « أثيرة » الألفاظ اليونانية واللاتينية ذات الأصل المادى ؛ وهو أمر يمكن أن يستمر ، ويكفى هنا للتدليل على أن الهلينية كانت تحضيراً حقاً للعقيدة المسيحية . وأننا فى بحثنا عن مبرر وجود الهلينية فى ضوء الخدمة التى أدتها الهلينية كتقدمة للمسيحية ، قد وقفنا — على أية حال — فى أول طريق يبشر بالأمل .

وعلى هذا النحو ، عندما تصبح حضارة تحضيراً لميلاد عقيدة دينية ، فإن انتهاء تلك الحضارة — التى أرهصت بظهور تلك العقيدة — لا يكون كارثة ، ولكن خاتمة طبيعية للقصة .

(٢) الحضارات نكوص[2]

اعتنقنا فى دراستنا لتواريخ الأديان ، وجهة نظر تخالف النظرة الغربية الحديثة التى تهتدى بتاريخ العقائد الدينية خلال بحثها تاريخ الحضارة . فكان أن قادتنا وجهة النظر هذه ، إلى اعتبار حضارات الجيل الثانى مقدمات للأديان العليا التى لا تزال قائمة حالياً . ويتفرع عن ذلك ؛ النظر إلى هذه الحضارات ؛ لا على أنها انتهت إلى العجز الذى دمغها بالسقوط والتحلل ، بل على أنها حققت نجاحاً وتوفيقاً ؛ بما أسدته من عون لهذه الأديان العليا فى انبعاثها إلى الوجود .

وتصل بنا هذه المطابقة ؛ إلى اعتبار حضارات الجيل الثالث ،

---

(١) الأثيرة : جعل قوام الشىء المادى أثيرياً أى شفافاً . ويقصد به معنى : التسامى من المجال المادى إلى الروحانيات . (المترجم)

(٢) يقصد بالنكوص : الرجوع الانحلالى إلى أحد الأطوار السابقة فى عملية الارتقاء . (المترجم)

« نكوصاً » عن الأديان العليا التي قامت من بين أطلال الحضارات السابقة . فإذا اعتُبرت النتائج الروحية التي ترتبت عن الحضارات التي انقضى أجلها ، شفيعاً لها عن فشلها في المحيط الدنيوي المادي ، فإن المآثر الدنيوية للحضارات الحالية في تفجّرها من أصولها الدينية ، واتجاهها إلى حياة دنيوية جديدة ، ينبغي بالمثل أن يحكم عليها وفقاً لمقياس تأثيرها على حياة الروح . وواضح أن هذا التأثير عكسي .

فإن جعلنا من تفجّر الحضارة الدنيوية الغربية الحديثة عن الجماعة المسيحية إبان القرون الوسطى ، موضع تجربة – مستهدين بطرائق بحثنا الواردة في النصف الأول من هذا الفصل – فهاهنا تقفز أمامنا كلمات غدت تُستخدم في الحياة الدنيوية ؛ وكانت تستعمل في المجال الديني من قبل . ولعل الاستشهاد بالتغيّرات التي طرأت على معاني مواضع استخدامها ينير لنا سبيل البحث . من ذلك كلمة Cleric ؛ فقد استُخدمت في الأمور الدينية وفي الحياة الدنيوية حيث أُطلقت على الكاتب المتواضع الذي يؤدي في إنجلترا العمل الكتابي القليل الأهمية ، والذي يقبع في أمريكا وراء منضدة في مخزن . وكلمة « التحويل » conversion » ، كانت تستخدم وقتاً ما بمعنى هداية النفس إلى الله ، أصبحت أكثر استعمالا لتعني تحويل الفحم إلى طاقة كهربية أو تحويل احتياطي ٥ ٪ إلى احتياطي ٣ ٪ . وإننا نسمع الآن القليل عن « علاج النفوس » بينما نسمع الكثير عن دور الأدوية في علاج الأجسام . وأصبحت كلمتا اليوم المقدس Holy Day ، كلمة واحدة تعني العطلة Holiday .

يشير هذا كله إلى عملية ارتداد من الأثيرية إلى المادية ؛ عملية تُنبي عن تحوُّل – لا شك فيه – نحو الحياة الدُّنيا .

وكان فردريك الثانى(١) تلميذا روحياً للبابا اينوسنت العظيم الذى جعل من الكنيسة دولة ، كان رجلا مثقفا . ولن نستغرب إذ نجد فكرته عن الإمبراطورية ، انعكاساً لتنظيم الكنيسة . فإن الدولة الإيطالية لصقلية بأسرها التى اشتهاها البابوات متذرعين بأنها ميراث آل إليهم عن القديس بطرس ، قد استحالت ميراثاً دنيوياً آل إلى هذا العاهل الموهوب عن قيصر . وقد عمل فردريك الثانى على أن يطلق عقال الطاقات العلمانية والثقافية التى كانت ممتزجة بعضها ببعض ، فى الوحدة الروحية للكنيسة ؛ وعلى قاعدتها يشيد إمبراطورية جديدة . . . فلنتفهم المغزى الكامل لدولة فردريك الإيطالية الرومانية وقوامها مُلك إيطالى جامع يضم بين ظهرانيه خلال فترة قصيرة ، عناصر جرمانية ورومانية وشرقية . ويقوم على رأسها فردريك نفسه — إمبراطور العالم ، السيد الكبير والطاغية العظيم — آخر من تقلد إكليل روما من الأمراء ، الذين لم تمتزج قيصريتهم بالملكية الجرمانية فحسب — كما كانت قيصرية برباروس — ولكنها امتزجت كذلك بالطغيان الصيقلى الشرقى . فإذ تفهمنا هذه الفكرة ، استبان لنا أن جميع الطغاة الذين أنجبهم عصر النهضة أمثال « سكالا Scala »(٢) و « مونتفلتر Montefeltre »(٣) و « فيسكونتى Visconti »(٤)

---

(١) فردريك الثانى (١١٩٤ — ١٢٥٠) : توج فى سنة ١١٩٨ ملكاً على صقلية . وفى نفس السنة ماتت والدته فأصبح تحت وصاية البابا اينوسنت الثالث . وفى عام ١٢١٢ انتخب إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة . وأصبح عام ١٢٢٥ حاكم ألمانيا المطلق . وفى عام ١٢٢٨ اشترك فى الحروب الصليبية وأعلن نفسه عام ١٢٢٩ ملكاً على بيت المقدس . على أن البابا جريجورى التاسع استطاع خلال غيبته فى الأراضى المقدسة ، اجتياح أملاكه فى إيطاليا ، لكن فردريك استطاع بعد عودته استرداد أملاكه وعقد معاهدة سان جرمانو مع البابا . (المترجم)

(٢) سكالا : اسم يطلق على عائلة إقطاعية حكمت فيرونا بإيطاليا إبتداء من عام ١٢٥٩ حتى عام ١٢٨١ . (المترجم)

(٣) مونتفلتر : إحدى العائلات الإقطاعية الإيطالية . (المترجم)

(٤) فيسكونتى : عائلة إقطاعية حكمت ميلانو بشمال إيطاليا منذ عام ١٢٦٢ . (المترجم)

و« بورجيا Borgia »[1] و« مديشي » . إلى من جاء بعدهم من صغار الطغاة: هم حفدة وخلفاء فردريك الثانى ، وهم بالنسبة إليه كقواد الإسكندر الأكبر[2] ، [3] .

وفى مكنتنا الاسترسال فى إيراد هذه القائمة من خلفاء فردريك هوهنشتافن من أمثاله الطغاة ، حتى القرن العشرين من ميلاد المسيح . ولعل الحضارة الدنيوية للعالم الغربى الحديث ، هى فى جانب من جوانبها ، إنبثاق عن روحه . ومن السخف أن نُلقى جميع الأخطاء التى ارتُكبت إبان الصراع بين البابوية والإمبراطورية على عاتق أى من الفريقين دون الآخر . على أن ما يعنينا فى هذا المقام ، هو أن نلاحظ كيف أن تفجّر حضارة دنيوية من رحم الجمهورية المسيحية[4] ، قد تحقق عملياً بفضل انبعاث النظام الهلينى الماثل فى الدولة « المطلقة السلطان » التى تجعل من الدين ، واحدا من فروع سياساتها .

هنا نوجّه إلى أنفسنا السؤال التالى :

عندما تنبثق إحدى حضارات الجيل الثالث عن نظام دينى ، فهل

---

(١) بورجيا : عائلة إسبانية الأصل ، إستقرت بإيطاليا وأصبح أحد أفرادها عام ١٤٥٥ بابا تحت اسم كاليكس الثالث . كما تولى عرش البابوية فرد آخر هو اسكندر السادس . وأمكن العائلة بفضل نفوذ أفرادها الدينى واستعانتها بكافة الوسائل ، تولى مناصب ضخمة فى أنحاء إيطاليا ، سيما فى المناطق التى خضعت لسلطانها . (المترجم)

(٢) قواد الإسكندر الأكبر : يعرفون اصطلاحاً بـ « الديادوتشى Diadochi » . وقد حارب بعضهم بعضاً خلال أعوام ٣٢٣ — ٢٨١ ق . م لتقسيم إمبراطوريته الضخمة . وأهم هؤلاء القواد : أنتيباتر Antiparter الوصى على مقدونيا وبطليموس الذى استأثر بملك مصر ، وسلوقوس الذى امتلك بابل . (المترجم)

(٣) صفحات ٥٦١ — ٢ و ٤٩٣ — ٤ من الترجمة الإنجليزية Kantorwicz, C : Frederick The Second .

(٤) الجمهورية المسيحية ترجمة لاصطلاح Respublica Christiana وتعنى الجماعة المسيحية . (المترجم)

يعتبر بعث حضارة تنتمى بأصولها إلى الجيل الحضارى الثانى ، أداة أكيدة لا غناء عنها لبلوغ غاياتها ؟ .

تتضح الإجابة عن السؤال ، إن أمعنّا النظر فى تاريخ الحضارة الهندية . فلن نجد فيها مثيلا فى بعث إمبراطورية الموررياس أو الجوبتاس . لكن أن تحوّلنا من الهند إلى الصين ، ونظرنا إلى تاريخ حضارة الشرق الأقصى فى موطنها ـ الصين ـ لاهتدينا بالفعل إلى شبيه لإنبعاث الإمبراطورية الرومانية يماثله تماماً . هذا الشبيه يتجلى لنا فى صورة مذهلة لا تخطئها الفراسة ، فى إنبعاث أسرتى « سيوى Siu » و « تانج Tang » فى إمبراطورية هان . لكن ثمة اختلاف مداره فى الحالتين أن بعث الروح الإمبريالية فى الصين ، كان اعظم نجاحاً وأشد توفيقاً من حركة البعث الهلينى للإمبراطورية « الرومانية المقدسة » . كذلك كان بعث الإمبريالية الصينية أكثر نجاحاً من قرينه ، البعث الهلينى للإمبراطورية البيزنطية ، فى محيط المجتمع المسيحى الأرثوذكسى الشرقى .

ومما له دلالته فى موضوع بحثنا الحاضر ؛ أن الحضارة المنتمية إلى الجيل الحضارى الثالث ـ وهى التى طفق تاريخها يحمل بين طياته نهضة الحضارة السالفة وينقلها على طول المدى ـ كان ينبغى لها ـ لذلك ـ أن توفق غاية التوفيق فى أن تخلّص نفسها من شباك العقيدة الدينية التى بعثتها الحضارة السالفة إلى الوجود . ويطالعنا فى هذا الشأن أن العقيدة البوذية المهايانية[1] ، قد ظلت أمداً مكّنها من الاستحواذ على عالم صينى محتضر ـ مثلما حدث تماماً للعالم الهلينى المحتضر الذى طوته المسيحية . لكن أصاب

---

(١) البوذية المهايانية : شيعة من العقيدة البوذية يتبعها الصين واليابان وكوريا وما إليها من بلاد آسيا الشمالية الشرقية . (المترجم)

الانحلال السريع ، البوذية المهايانية بعدما بلغت أوج مجدها فى الشرق الأقصى ؛ وقتما شارفت فترة تعطل الحضارة على الزوال .

* * *

نخلص من الاستعراض السالف إلى نتيجتين :

الأولى : أن بعث حضارة خامدة إلى الوجود ، ينذر بعملية ارتداد من عقيدة دينية قائمة .

الثانية : كلما مضت حركة البعث فى طريقها ، اشتـــدت حركة الرِّدَّة عنفاً .

الفصل الثامن والعشرون

تحدى الفطرة الحرية على الأرض

لاحظنا فى الفصل السابق ؛ أن الحضارة الدنيوية التى تنبثق عن تنظيم دينى ، قمينة بأن تشق طريقها بمعاونة جملة عناصر تستمدها من حياة الحضارة السابقة على وجودها . بيد أنه لا يزال علينا أن نبحث كيف تتاح الفرصة لهذا الانبثاق . وواضح أن البحث عنها يعتبر « بداية المتاعب » ، يجب أن يتجه ؛ صوب نقطة ضعيفه فى التنظيم الدينى ، أو نحو إجراء خاطئ للعقيدة الدينية ، ترتبت عليه عملية الانبثاق .

إن إحدى المحن الرهيبة التى تواجه عقيدة ما ؛ كامنة فى تبرير وجودها . فالعقيدة تدأب فى الكفاح على الأرض بقصد اجتذاب هذا العالم إلى ملكوت الرب . ويعنى هذا ؛ أن لا مناص للكنيسة من أن تهتم بالأمور الدنيوية ، اهتمامها بالمسائل الروحية ؛ وبالتالى لا محيص لها عن أن تقيم نفسها على الأرض كنظام دنيوى . عندئذ تجد الكنيسة نفسها مرغمة على تغطية عُريها الأثيرى بلحاء مادى ، حتى تُحقق رسالتها الروحية فى بيئة نافرة . غير أن هذا اللحاء يجافى طبيعة الكنيسة الروحية . فلا عجب والحالة هذه ، إذا رأينا الكارثة تحل بالقواعد الأمامية للكنيسة . وهى لا تستطيع أن تؤدى واجبها الروحى ؛ إلا بعد أن تضطر إلى مكابدة المشكلات الدنيوية ، متدرعة بما تصطنعه الدول من سلاح .

وإن تاريخ البابا هيلدبراند Hildebrand لأشهر مأساة من هذا النوع ، ولقد شاهدنا فى موضع سابق من هذه الدراسة ؛ كيف أن سلسلة محتومة من الأسباب والنتائج ، قد ساقت هيلدبراند إلى حافة الهاوية . فقد اعتقد أن

إيمانه لن يكون حقا ، إن لم يقذف بنفسه فى خضم الصراع ليستخلص الأكليروس من الانحلال الجنسى والفساد المالى . ورتّب على ذلك فكرة قوامها أنه لن يستطيع إصلاح الأكليروس دون إحكام نظام الكنيسة ، وأنه لن يستطيع إحكام نظام الكنيسة من غير مجابهة موضوع الفصـــل بين اختصاص كل من الدولة والكنيسة . وإذ كانت وظائف الكنيسة والدولة خلال عصر الإقطاع متشابكة تشابكا معقّدا ، فقد عجز عن تحديد الخط الفاصل بين الدولة والكنيسة تحديدا ترضى عنه الكنيسة ، من غير أن يتطاول على مجال سلطان الدولة . على نحو برر نفور الدولة . وهكذا نُشب صراع بدأ بحرب سلاحها المنشورات ، ثم استفحل الأمر ، فالتجأ الفريقان إلى العنف مستخدمين مواردهما من « الأموال والسلاح » .

إن مأساة كنيسة « هيلدبراند » مثال بارز لنكوص روحانى دُفعت إليه عقيدة دينية ، تخبطت فى أحابيل الأمور الدنيوية ، واستسلمت لأساليب العمل الدنيوية ، كنتيجة حتمية لمحاولتها أن تقوم هى بشئونها بنفسها .

على أن ثمة طريقاً عريضا آخر يقود إلى مثل هذه النزعة الدنيوية التى تعمل على تدمير الروحانية . فإن العقيدة الدينية تتعرض لخطر النكوص بفعل تمسكها بمستوى حياتها ذاتها وتفسير ذلك أن الأهداف الاجتماعية المستقيمة للمجتمعات الدنيوية تعبّر عن مشيئة الله إلى حد ما . وهذه المُثُل العليا الدنيوية تُصيب نجاحا أوفى على يد أولئك الذين لا يهدفون إلى تحقيق هذه المثل كغايات فى حد ذاتها ، وإنما إلى ما هو أسمى من ذلك .

يطالعنا فى مجال تطبيق هذه القاعدة ، مثلان قديمان ، يبدوان فيما حققه كل من القديس بندكت والبابا جريجورى الكبير . فلقد عكف هذان القديسان على هدف روحانى تبلور فى التسامى بالحياة الديرية فى العالم الغربى . على أن هذين الرجلين العزوفين عن الدنيا ، حققا — إلى جانب عملهما الروحى — مشروعات اقتصادية كانت فوق طاقة رجال السياسة . وإن المؤرخين المسيحيين والماركسيين على السواء ، ليحمدون مآثرهما

فى الميدان الاقتصادى . ولو افترضنا أن هذا الثناء الإجماعى قد وصل إلى مسامع بندكت وجريجورى فى العالم الآخر ؛ لتذكّرا بالتأكيد قول معلمهما[1] : « ويل لك إن أثنى عليك الناس جميعاً » . ولتحوّل شكهما بلا ريب إلى جزع ، أن أُتيحت لهما العودة إلى هذه الحياة الدنيا ليشاهدا بأعينهما العواقب المعنوية النهائية التى تمخضت عنها الآثار الاقتصادية الناجمة عن جهودهما الروحية إبان حياتهما على الأرض .

إن ثمة حقيقة محيّرة ، وهى أن الثمار المادية التى وفدت عرضاً مع الجهود الروحية لملكوت الرب ؛ ليست إقراراً بتوفيقها الروحى فحسب ، بل إنها كذلك شراك قد يتعثر المرتاض[2] الروحانى فى صورة أبشع شيطانية مما لحق بـ « هيلدبراند » المشهور ، من دمار ؛ بفعل تردّيه فى حبائل السياسة والحرب . وإن حقبة الألف سنة من تاريخ الرهبنة ، الممتدة من عمر القديس بندكت إلى إنتهاب المؤسسات الدينية خلال ما يعرف بعصر الإصلاح الدينى ، لقصة شائعة . وليس ثمة حاجة بنا إلى أن نصدق جميع مزاعم الكتاب البروتستانت والمناهضين للمسيحية عامة .

ونسوق فيما يلى استشهاداً من مؤلف لكاتب محدث يعلو عن شبهة التحيز ضد الرهبنة . ولعلنا نلحظ أن وصفه لا ينسحب على الفترة التى سبقت الإصلاح الدينى ، والتى ينعقد الرأى على أنها أسوأ وآخر مرحلة فى تاريخ الرهبانية :

« إن الهوة البادية بين الراهب والدير ، تعزى — إلى حد كبير — إلى تكدّس الثروة . إذ طفقت أملاك الأديرة تتضخم على مرور الأيام ، حتى ألفى الراهب نفسه ، وقد كاد ينقطع كلية لإدارة أراضيه ولتصريف

---

(١) أى السيد المسيح عليه السلام . (المترجم)
(٢) المرتاض : من يحسن اللعب الرياضى . (المترجم)

المسئوليات المختلفة المتصلة بها . وفى نفس الوقت ؛ حدث تطور مشابه بين النسّاك أنفسهم ، وهو تقسيم الأعمال والأملاك ... فكان أن إنقسم كل دير – من الناحية العملية – إلى أقسام ينفصل إحداها عن الآخر ولكل دخله الخاص وواجباته الخاصة . ونجد « دوم دافيد نوليس Dom David knowles» يقول فى هذا الشأن : إذا ما استثنينا أديرة مثل وينشستر Wéinchester وكانتيربرى Canterbury وسنت ألبان Saint Alban حيث تعظُم التأثيرات الثقافية والفنية ، غدت إدارة مثل هذه الأعمال ، الشغل الشاغل الذى استغرق جميع المواهب الإدارية[1] .

ومع ذلك ؛ فإن الراهب الذى تحدّر إلى رجل أعمال ناجح ، لا يمثل أبشع صور « النكوص الروحى » . وأسوأ المغريات التى تصادف المواطنين فى ملكوت الرب على هذه الحياة الدنيا ، ليست الانغمار فى معترك السياسة أو انزلاقهم فى خضم الأعمال ؛ لكن الشر الفادح كله ، ماثل فى تمجيد النظام الدنيوى الذى اتخذته الكنيسة المحاربة على الأرض دون إتقان ؛ وإن لم تستطع تجنبه . وإذا كان « تحلل الأفضل هو أشد حالات التحلل شؤما »[2] ، فإن إستحالة العقيدة الدينية إلى وثن ، أشد خطورة من الأوثان الأخرى التى تجسّمها مخيلة الناس فيتعبدون لها واهمين إياها عمالقة وهى لا تعدو أن تكون ركاما من النمل البشرى .

إن أية عقيدة دينية تواجه خطر التردّى فى عبادة الأوثان هذه ، وقلما يصل بها الأمر إلى حد الاعتقاد بأنها ليست فقط مستودع الحقيقة ، بل المستودع الأوحد للحقيقة المطلقة التى أُلهمتها على أعلى وجه . وإن العقيدة الدينية لتتعرض خاصة إلى الإنزلاق فى هذا المنحدر المؤدى إلى جهنم ، بعد ما تكابد

---

(١) صفحات ٢٧٩ – ٨٠ و ٢٨٢ و ٣٠٣ Moorman. J. R. H. : Church Life in England.

(٢) Corruptio Optimi Pessima .

ألوانا من الضربات القاصمة ، وخاصة إذا جاءتها من أناس ينتمون إليها . وأمامنا مثال مألوف هو الكنيسة الكاثوليكية بعد أن أخذت بالإصلاح المضاد فى مجمع ترنت[1] فى الصورة التى رآها عليها غير الكاثوليك . فإن أولئك الذين أوتوا موهبة الإدارة ولكنهم لم يوهبوا أى مُلك يطبّقون فيه موهبتهم ، يجدون فى الأديرة – بممتلكاتها الواسعة – مجالا لإظهار موهبتهم . ولقد ظلت تلك الكنيسة طيلة أربعمائة سنة مضت منذ ذلك الوقت حتى كتابة هذه السطور ، تقف يقظى كما يقف الحارس ، واتخذت وضع التزمت الشديد والسهر والحذر ووضعت فوق رأسها خوذة البابوية ، وتدرعت بالرتب الكهنوتية . وهى لا تفتأ تقدم سلاحها إلى الله فى إيقاع رتيب ، رتابة قداس مفروض .

ولقد كان الغرض اللاشعورى لذلك الهيكل الضخم فى سلاحه الثقيل ، أن يثبت لأصعب النظم العلمانية المعاصرة مراسا ، ويعيش من بعدها . وإن فى وسع أى ناقد كاثوليكى فى القرن العشرين بعد الميلاد وفى ضوء أربعمائة عام من تاريخ البروتستانتية أن يحاجج بقوة ، الرأى القائل بأن ما أبدته البروتستانتية من ضيق صدر بالكاثوليكية فى عهدها السابق على مجمع ترنت على ما كانت عليه من ضعف العدّة ، كان أمرا سابقا لأوانه . على أن ذلك الحكم – على إقناعه – ليس دليلا على أن طرح العوائق جانبا ، أمر خاطئ دائماً أو أن مضاعفة تلك العوائق فى مجمع ترنت لم يكن كذلك أمرا خاطئاً[2] .

---

(١) مجمع ترنت : عقدته الكنيسة الكاثوليكية خلال الفترة ١٥٤٥ – ١٥٦٣ بمدينة ترنت لإجراء طائفة من الإصلاحات على نظام الكنيسة الكاثوليكية ، بعدما ثبتت دعائم حركة الإصلاح الدينى التى أسفرت عن انبعاث البروتستانتية . إذ خشيت الكنيسة الكاثوليكية أن يقود تزمتها إلى انضمام مريديها إلى البروتستانتية . (المترجم)

(٢) عرضت هذه الفقرة – هى وبقية هذا الجزء من دراسة للتاريخ منسوخة على الآلة الكاتبة – على المستر مارتن ويت **Martin Wight** صديق المؤلف . وقد وضع طائفة من التعليقات على صيغة الكتاب بأسرها . من ذلك التعليق التالى : إن الناقد الكاثوليكى لجيبك هنا بكلمات – كثيراً ما اقتبستها – ألا وهى « ترقب النهاية **Respice finem** » . إذ تحمل =

كشف لنا الاستقراء السالف الذكر عن طائفة من عوامل « النكوص » من الأديان العليا ، إلى حضارات دنيوية معادة لاغناء فيها . واستبان لنا فى كل حالة درسناها ؛ أن الكارثة لا تقع بسبب ضرورة عاتية أو قوة خارجية ، وإنما تقع بفعل « خطيئة أصيلة » كامنة فى طبيعة البشر على الأرض .

فإن سلّمنا بأن النكوص عن الأديان العليا جاء نتيجة للخطيئة الأزلية ، فهل يدفعنا ذلك إلى ترتيب نتيجة مؤداها أن لا مندوحة عن حدوث مثل هذا النكوص » ؟

فإن كان الأمر كذلك ، فمعناه أن تحدّى روح الكفاح على الأرض ، يبلغ حداً من الصرامة القاطعة بحيث لا يكون فى وسع أية عقيدة دينية الصمود لها على طول المدى . ويعود بنا هذا الاستقراء بدوره إلى الرأى القائل

= هذه الفقرة السابقة معنى الانتظار والتوقع ، لأن مضمونها لم يتحقق بعد . أليست الكنيسة الكاثوليكية الرومانية فى واقع الأمر أشد حيوية وأعظم نفوذاً فى القرن العشرين منها فى أى وقت مضى منذ انعقاد مجمع ترنت Trent ؟ فلقد نادت الكنيسة عام ١٨٧٠ بعصمة البابا كجزء من معتقداتها متحدية العالم الغربى . فبدا له قرارها هذا كما لو كان نهاية مصيرها . فى حين أنها فى عام ١٩٥٠ كانت — تحدوها الثقة بالنفس — لا تزال قادرة على أن تمضى فى تجريح العالم الغربى الدنيوى ، . فأضافت إلى معتقداتها مسألة صعود السيدة العذراء إلى السماء (أى تأليهها هى الأخرى) . ألا يحتمل بالمثل — وقت كتابة هذه السطور — أن تغدو الكنيسة الرومانية الكاثوليكية وقد تدرّعت بالسلاح الذى يزودها به مجمع ترنت ، النظام الغربى الحديث القادر — وحده — على تحدى الوثنية الجديدة الممثلة فى الدولة الشيوعية الجماعية وعلى الصمود لها ؟ ألا يؤكد هذا شعور الخوف والحقد الذى تكنه موسكو للفاتيكان ؟ فإن كان الأمر كذلك ؛ يصبح اختفاء الكنيسة وراء دروعها ، أقل كفاية من الحصار الناجح الفعال الطويل الأمد . وهنا قد تبدو لنا مرحلة مجمع ترنت فى التاريخ الكاثوليكى ، كمرحلة تشرشل فى التاريخ البريطانى منذ سقوط فرنسا حتى يوم النصر . إنك تحكم على النتيجة مقدماً ، ترقب النهاية .

بعدم جدوى العقائد الدينية . إلا فى قيامها بدور اليفعات القصيرة الأجل لحضارة تكرر نفسها دون طائل .

فهل هذا هو الحكم الأخير ؟

قبل أن نسلّم أنفسنا للرأى القائل بأن القدر قد حكم على نور الله الوافد بأن يغشاه دوما ظلام غشوم ، لنكرّ الفكر مرة أخرى إلى تلك التجلّيات الروحية المتوالية التى جلبتها الأديان العليا إلى الوجود . فلقد تدلل هذه الفصول من التاريخ الكنسى الرومانى الماضى ، على أنها بشائر البُرء الروحانى من الانتاكاسات التى تتعرض لها العقيدة الدينية المكافحة .

ولقد لاحظنا أن معالم الطريق المتعاقبة فى تاريخ ارتقاء الإنسان الروحانى التى اقترنت بأسماء إبراهيم وموسى والأنبياء والمسيح ؛ تقف جميعها عند مواضع تمكّن المتتبع لسير الحضارات الدنيوية من اكتشاف ثلمات فى الطريق وعقبات تعطل مسيرها . كما هيأ لنا الدليل التجريبى ، سببا للاعتقاد بأن تلاقى المواضع العليا فى تاريخ الإنسان الدينى مع المواضع السفلى فى تاريخه الدنيوى فى وقت واحد ، قد يكون واحداً من « قوانين » حياة البشر على الأرض .

فإن كان الأمر كذلك ، فلنتوقع أيضاً أن ترى المواضع العليا فى التاريخ الدنيوى تتلاقى مع المواضع السفلى من التاريخ الدينى فى وقت واحد . وعندئذ يتبين أن المعطيات الدينية التى تصاحب عصر الانحلال الدنيوى ، ليست فقط ارتقاءات روحية ، لكنها كذلك بلسم روحانى . وطبيعى أن تتكشف هذه الارتقاءات فى صورتها التقليدية : إبلالا من المرض .

فإن دعوة إبراهيم مثلا ؛ تبدو فى الأسطورة العبرية ، أثراً لتحدى بناة برج بابل المغرورين بقوتهم ، لله القدير .

ورسالة موسى ؛ تبلو حركة لإنقاذ « شعب الله المختار !! » من التمتع الآثم بخيرات مصر .

وقد أُوحى إلى أنبياء إسرائيل ويهوذا للتبشير بتوبة بنى إسرائيل من الانحدار الروحى الذى حلّ بهم عندما أصابوا نجاحا ماديا فى استغلال الأرض التى تفيض لبنا وعسلا ، وهى الأرض التى منحها لهم « ياهوى Yahweh .

وإذا كان المؤرخ العلمانى[1] يفسّر آلام المسيح عند الصلب ، بأنها مغزى يحفل بجميع شدائد عصر الاضطرابات الهلينى ؛ إلا أن الأناجيل تفسّرها بأنها تدخل من الله نفسه ابتغاء توسعة نطاق العهد الذى عقده جل شأنه فيما مضى من سالف الأيام مع بنى إسرائيل ليشمل البشرية بأسرها ؛ سيما وأن خلفاءهم قد نقضوا العهد وقتما خلطوا تراثهم الروحى بالشكليات الفريسية[2] ، ومزجوه بمادية الصّدوقيين[3] ، وتقبّلوا الانتهازية الهيرودية[4] ، وأخذوا بتعصب طائفة المندفعين[5] .

---

(١) مؤرخ علمانى : أى المؤرخ الذى يخضع أحكامه للعلم أساساً ويستقرئ الأحداث التاريخية على ضوء المنطق الفكرى المجرد . (المترجم)

(٢) الفريسية : نسبه إلى كلمة Pharisees اليونانية الأصل . وأصلها العبرى « باروص » وتعنى لغة الانفصال . والفريسيون — من حيث المعنى — حزب دينى يهودى حقق فى بداية الأمر مكانة مرموقة خلال النصف الأخير من القرن الثانى قبل الميلاد . وقد عارضوا حركة تحول رجال الدين إلى علمانيين ، كما استمسكوا بحرفية الشريعة وتطبيقها على علاتها ، ونادوا بأنها أبدية وغير قابلة للتغيير أو التفسير ، وأوجبوا الفصل بين اليهود وغيرهم من الأمم وعارضوا الآراء التحررية تماماً . (المترجم)

(٣) الصدوقية : إحدى طوائف اليهود الهامة أيام ظهور السيد المسيح . وتتسم تعاليمها بالنزعة المادية . وتنكر طائفة الصدوقيين : خلود النفس ووجود الملائكة أو الأرواح . وثمة أوجه شبه قليلة بين هذه الطائفة وطائفة القرائين اليهودية فى الوقت الحاضر . (المترجم)

(٤) الهيرودية : شيعة يهودية سياسية تنتسب إلى هيرود اليهودى (حاكم الجليل ٧٣ — ٤ ق . م) . وقد ناصبت العداء — هذه الطائفة هى وطائفة الفريسيين — السيد المسيح . (المترجم)

(٥) طائفة المندفعين Zealots : طائفة يهودية اعتنقت مبدأ العنف لتنفيذ أغراضها . وكان ينتسب إليها بطرس أحد حوارى السيد المسيح الإثنى عشر . (المترجم)

وقصارى القول ؛ إن ثمة أربع سوْرات من التجليّات الروحانية ترتبت عن حالات الأفول الروحانى ، بالإضافة إلى أنها صاحبت كوارث دنيوية . وعسانا نحدس بأن هذا لم يحدس بمحض الصدفة . وقد لاحظنا فى جزء سابق من هذه الدراسة ؛ قدرة البيئات الشاقة مادياً ، لأن تصبح مشاتل تترعرع فيها المنجزات الدنيوية . وعلى أساس هذه المطابقة ، يتأتى للبيئات الروحية الشاقة أن يكون لها تأثيرٌ مثير على النشاط الدينى . والبيئة الروحية الشاقة ؛ هى البيئة التى تغصّ فيها الرفاهية المادية بالتطلّعات الروحية . إذ تقود الرفاهية الدنيوية الدنسة إلى حيرة الجماهير ، وقد تستثير روحياً ، النفوس الحساسة العنيفة ، لتحدى مفاتن الحياة الدنيا .

فهل تعنى عودة الناس إلى أحضان الدين فى القرن العشرين بعد الميلاد، ارتقاء روحانياً ؛ أو تصبح محاولة خسيسة للتملص ـ الغير المجدى ـ من حقائق الحياة الشاقة كما نعرفها .

إن إجابتنا عن هذا السؤال ، تعتمد إلى حد ما على تقديرنا لاحتمالات الارتقاء الروحانى :

لقد سبق أن ألمعنا إلى احتمال : أن يتخذ توسّع الحضارة الغربية الدنيوية الحديثة فى آفاق الأرض جميعاً ، شكلا سياسياً خلال زمن ليس بالبعيد . ويتم ذلك بقيام دولة عالمية تحقق فى نهاية المطاف النظام المثالى لهذا النوع من الدول؛ إذ ينتظم وجه الأرض كلها فى دولة واحدة تنتفى منها الحدود المادية . كما قادنا الفكر إلى إحتمال إدراك أتباع الأديان الأربعة العليا القائمة فى الوقت الحاضر[١]، أن نظمهم المتنافسة ما هى إلا وسائل متعددة للاتصال بالله الحق الأحد فى مسالك تقدّم لروادها ، ومضات مختلفة من رؤيا النعيم[٢] .

---

(١) الإسلام والمسيحية والهندوكية والبوذية المهايانية . (المترجم)

(٢) أولا – فى النصرانية : تراه الملائكة والله يراه عند ولوج الجنة .
ثانياً – فى الإسلام : ترى فى وجوههم نضرة النعيم . (المترجم)

ولقد طرحنا جانباً الفكرة القائلة بأن فى وسع الأديان التاريخية القائمة فى الوقت الحاضر ـ على هدى هذا الضياء ـ أن تُعبّر فى آخر الأمر ، عن هذه الوحدة بالتنوع . وذلك بأن تتطور معاً إلى عقيدة دينية واحدة مجاهدة .

فلنفترض حدوث ذلك ، فهل يعنى تشييد ملكوت السماء على الأرض ؟

يبدو أن لا مناص من توجيه هذا السؤال فى العالم الغربى فى القرن العشرين بعد الميلاد : ذلك لأن تحقيق لون من الفردوس على هـــذه الأرض ، قد أصبح هدف معظم الأيدلوجيات الدنيوية . وفى رأى الكاتب أن الإجابة عن هذا السؤال بالنفى :

والسبب الواضح للرد على هذا السؤال بالنفى ، ظاهر فى طبيعة الجماعة ، وفى سجية الإنسان . فما الجماعة إلا الأرض المشتركة بين ميادين نشاط الشخصيات . وللشخصية البشرية طاقة فطرية على الشر ، كما للخير . ولن تتمكن هذه العقيدة الدينية الواحدة المجاهدة ـ مصداقا لما تخيلناه ـ من تطهير الإنسان من الخطيئة الأزلية . فإن هذا العالم جزء من ملكوت الله ، بيد أنه جزء ثائر . وسيظل كذلك ، وفقا لطبيعة الأشياء .

الباب الثامن

عصـــور البطولة

الفصل التاسع والعشرون

سياق المأساة

(١) حاجز اجتماعى

تنهار الحضارة النامية بفعل سريان الفساد فى أقليتها المُبدعة . إذ تفقد فتنتها ، فتنقلب إلى أقلية مسيطرة بغيضة . هنا ينفر منها مريدوها السابقون من أعضاء المجتمعات التى كانت يوماً ما بدائية ، والتى كانت تتأثر بدرجات مختلفة بإشعاعات تلك الحضارة الثقافية ، فى غضون مرحلة نموها . وبالأحرى ؛ تتبدل نظرة المريدين السابقين ؛ من الإعجاب الذى يعبّرون عنه بمحاكاة الحضارة ، إلى عداوة تتفجّر إلى حرب تُسفر عن إحدى هاتين النتيجتين أو كلتاهما :

الأولى — أن يتم إخضاع العناصر المتبربرة ، نهائياً . وذلك إن نُشبت الحرب على طول جبهة تتيح فيها البيئة المحلية للحضارة المعتدية ، الوصول إلى حدود طبيعية كبحر لم يطرقه أحد ، أو صحراء جرداء لم يسلكها مخلوق ، أو سلسلة من الجبال الوعرة . ولكن إن لم توجد مثل هذه الحدود الطبيعية ؛ تكون الجغرافيا فى عون المتبربرين .

الثانية — أما إذا وجد المتبربرون فى إنسحابهم طريقا مفتوحاً يتيح لهم مجالا للمناورة غير محدود ؛ لابد لجبهة القتال المتنقلة إن عاجلا أو آجلا ، أن تبلغ خطاً ينتهى عنده التفوق الحربى للحضارة المعتدية ؛ وذلك بسبب طول المسافة المتزايدة بين قاعدة عمليات القوى المعتـــدية ، وجبهة القتال .

وعندئذ تتحول حرب الحركة على طول خط القتال هذا ، إلى حرب ساكنة ؛ لا يحقق فيها أى من الجانبين نتيجة عسكرية حاسمة . بل يتخذان مراكز ثابتة ، فيعيشان جنباً إلى جنب . مثلما عاشت الأقلية المبدعة للحضارة ، مع مريديها المتطلعين ، قبل أن يفرّق إنهيار الحضارة أحدهما عن الآخر .

بيد أن العلاقة السيكلوجية بين الفريقين ؛ لن تنكفئ فى هذه الحالة من البغضاء إلى سابق عهدها من التآثر[١] الإبداعى . وبالمثل ؛ لن تتأتى إستعادة الأوضاع الجغرافية السابقة التى ترعرعت هذه العلاقة فى ظلها فى ماضى الأيام ، وقد امتد إشعاع الحضارة بالتدريج إبان مرحلة نموها إلى مناطق المتبربرين المحيطة بها ، عبر واجهة عريضة تُهيئ للغريب باباً يعبر منه إلى مباهج الداخل . لكن انقلاب الصداقة إلى عداوة ، من شأنه تحويل هذه الواجهة الثقافية الموصّلة[٢] ، إلى جبهة قتال منعزلة على « الثغور »[٣]

إن هذا التغيّر ، هو التعبير للظروف التى تولّد عصر البطولة . والحق إن عصر البطولة هو النتيجة الاجتماعية والسيكلوجية لبلورة خط الثغور . وهدفنا الآن ، أن نتقصّى هذا التتابع للأحداث . وطبيعى أن قاعدة بحثنا هذا ، تصبح إستعراض عصابات الحرب من المتبربرين التى جابهت قطاعات متعددة من ثغور عدة دول عالمية . وقد حاولنا القيام باستعراض من هذا النوع فى موضع من هذه الدراسة ؛ فكان أن طالعتنا فى سياقها ، المآثر المميزة لعصابات الحرب هذه فى ميدانين :

الأول : الطائفية الدينية .

---

(١) التآثر : (أو التفاعل) تبادل الفعل أو التأثير الإبداعى . (المترجم)

(٢) التوصيل : اصطلاح نقصد به الشيء الذى يحرز خاصية التوصيل إلى المناطق الأخرى . (المترجم)

(٣) الثغور فى التعبير الإسلامى — هى المدن ذات الصفة الحربية الواقعة على الحدود (المترجم)

الثانى : الملحمة الشعرية[1] .

ولعل استخدامنا الاستعراض السالف الذكر ، ينير أمامنا سبيل بحثنا الحالى دون أن نضطر إلى استطراد . إن الثغور يمكن تشبيهها بسد « مانع » يقع عبر وادٍ لم يعد شديد الاتساع ؛ أو بنُصب هائل من مهارات البشر وبأسهم ، يتحدى الطبيعة ؛ وإن كان تحدياً خطيراً . لأن تحدى الطبيعة عمل لا يجرؤ الإنسان على الإقدام عليه دون أن يفلت من القصاص .

« تتحدث الرواية العربية الإسلامية المأثورة ، عن وجود بناء مائى هندسى هائل باليمن عُرف فى سالف الزمان بسد أو خزان مأرب . وكان يحجز المياه المنحدرة من جبال اليمن الشرقية ، فتكوّن خزانا ضخماً يروى رقعة فسيحة من البلاد ، فيبعث الحياة فى نظام للزراعة المكثّفة ، ومن ثم يعول عددا كبيراً من السكان . وتستطرد الرواية فتحكى أن السدّ قد تصدّع بعد فترة من الوقت ، فاجتاح فى تصدّعه كل شيء وألقى بسكان البلاد إلى حالة من الضنك الشديد مما دفع بكثير من القبائل إلى الهجرة »[2] .

وقد استُخدمت القصة لتفسير الدافع الكامن وراء الهجرات العربية التى اكتسجت شبه الجزيرة بأسرها يحدوها حافز[3] حملها إلى ما وراء جبال « تين شان Tien shan » والبرانس . فإن طبّقنا مغزى هذه القصة على غيرها من الأحداث ، لكانت قصة كل الثغور فى كل دولة عالمية .

فهل هذه النكبة الاجتماعية التى تصاحب انهيار السد الحربى ، مأساة حتمية ، أو أنها مما يمكن تحاشيه ؟

---

(١) الملحمة الشعرية : قصائد شعرية تتضمن سير الأبطال الأسطوريين . (المترجم)

(٢) صفحة ٢٦٦ من الجزء الأول Caetani L : Studi Orientale (Milan) .

(٣) يتمثل هذا الحافز فى العقيدة الإسلامية . (المترجم)

يلزمنا للرد على هذا السؤال ، تحليل التأثيرات الاجتماعية والسيكلوجية لتطفل بناة السد ، على السير الطبيعى للعلاقات القائمة بين الحضارة وبروليتاريتها الخارجية :

طبيعى أن أول نتيجة لبناء سد ، هو إقامة خزان فوقه . بيد أن لمخزان حدوده ، مهما يكن متسعاً ؛ فهو لن يُغطى أكثر من جانب من حوض تخزينه ، وبذلك سيكون ثمة فارق حاد بين البقعة المغمورة الواقعة وراء السد مباشرة ، وبين المنطقة الواقعة خلف البقعة الأولى — وهى أعلى منها — وقد تُركت خالية من المياه .

وقد لاحظنا — بالفعل — فى موضع سابق من هذه الدراسة ، التباين بين التأثير الذى تُحدثه الثغور فى حياة المتبربرين الذين يعيشون داخل نطاقها ، وبين الركود المخيم على الأقوام البدائيين الذين يعيشون فى المناطق البعيدة . من ذلك ؛ أن السلاف قد واصلوا حياتهم البدائية مستكينين فى مستنقعات بريبت Pripet على مدار ألفى سنة . وهذه الفترة قد شاهدت أولا البرابرة الآخيين وقد هزت كيانهم معيشتهم بقرب الحدود البرية الأوربية لدولة « مينوس ذات السيادة البحرية »[١] ، ثم شهدت هذه الفترة البرابرة التيوتون يمرّون بنفس التجربة نتيجة لجوارهم للتخوم البرية الأوربية للإمبراطورية الرومانية .

فما الذى أوقع الاضطراب بالبرابرة المقيمين فى « الخزان » ؛ بصورة غير عادية ؟ وما هو مصدر تلك الطاقة التى تنفُذ إليهم بعدئذ ، والتى تمكنهم دوما من اختراق التخوم ؟ .

لعلنا نهتدى إلى الإجابة عن هذين السؤالين إذا ما تتبعنا مقارنتنا التشبيهية من حيث وضعها الجغرافى فى آسيا الشرقية .

---

(١) مركزها كريت . (المترجم)

فلنفترض تصور سد يرمز إلى الثغور فى مقارنتنا التشبيهية ، وقد شُيِّد على جانبى وادٍ مرتفع فى المنطقة التى يخترقها الآن « سور الصين العظيم » وتقع داخل الولايتين الصينيتين اللتين دعيتا حديثا باسم شينسى Shinsi وشانسى Shansi .

فأين يقع المنبع الأصلى لهذه الكتلة المائية الهائلة التى تضغط بقوة متزايدة على سطح السد أعلى التيار ؟

أنه على الرغم من أن الماء كله ينحدر — بداهة — من أعلى السدّ ، فإن منبعه الأصلى لا يمكن أن يقع فى هذا الاتجاه . وذلك بسبب قِصَر المسافة الواقعة بين السدّ وخط تقسيم المياه . وتقع خلف هذا الخط ، الهضبة المنغولية الجافة . وبالتالى ، لن نعثر فوق السد على المنبع الأصلى للمياه المتدفقة ، ولكن نعثر عليه أسفله ، فهو ليس فى الهضبة المنغولية ، ولكن فى المحيط الهادى الذى تُحوّل الشمس أمواهه إلى بخار تحملها رياح شرقية أعلى الجو ؛ حتى يكثفها الهواء البارد ، فتسيل أمطاراً تتجمع داخل حوض تخزين المياه .

وبالمثل : لا تستمد الطاقة النفسانية التى تتجمع فى الجانب البربرى من التخوم ، إلا كمية طفيفة من المنطقة الواقعة وراء حدود التُراث الاجتماعى الضئيل للبرابرة أنفسهم . أما الغالبية العظمى ، فتستمده من « مستودعات » الحضارة التى أقيم السد لوقايتها .

فكيف يتولد هذا التحوّل فى الطاقة النفسانية ؟ .

إن عملية التحوّل ؛ عبارة عن تحلل إحدى الثقافات ، ثم إعادة تأليفها على نمط جديد . ولقد قارنا فى موضع آخر من هذه الدراسة ، الإشعاع الاجتماعى للثقافة ، بالإشعاع المادى للضياء . ويلزمنا هنا إستعادة « القوانين » التى استخلصناها فى سياق هذا البحث :

القانون الأول — أن شعاع الثقافة الكامل — كشعاع الضياء الكامل —

ينكسر إلى حلّ طيفى[1] لعناصره المركّبة . ويتم ذلك أثناء إختراقه مادة كاسرة للضوء .

القانون الثانى ـ أن الانكسار الضوئى ، قد يتم كذلك ؛ بدون أى تأثير لهيئة اجتماعية غريبة إذا كان المجتمع ـ صاحب الإشعاع ـ قد انهار فعلا وأصابه التفسّخ . إن الحضارة النامية يمكن تعريفها بأنها الحضارة التى يقوم التجانس بين الجوانب التى تتألف منها ثقافتها ـ سواء أكانت اقتصادية أم ثقافية بحتة ـ وبعضها بعضا . ومصداقا لنفس القاعدة ؛ تُعرّف الحضارة المتحللة ، بأنها الحضارة التى تنحدر فيها هذه الجوانب الثلاثة إلى حالة التنافر .

القانون الثالث ـ أن سرعة إشعاع الثقافة المتكاملة وطاقتها المتغلغلة ، تعتبر معدلات للسرعات المختلفة وللطاقات المتغلغلة التى تُظهرها جوانبها الاقتصادية والسياسية والثقافية (البحتة) . ويتم ذلك ؛ وقتما يرتحل بعضها بمنأى عن البعض الآخر ، نتيجة لانكسارها . فإن التيارين الاقتصادى والسياسى ، يسيران بأسرع من التيار الثقافى ، الذى لا يتعرّض للانكسار . وعلى ذلك ؛ فإن سير الجانب الثقافى من الحضارة يكون أبطأ من الجانبين الآخرين .

نخلُص مما تقدم إلى القول بأن الاتصال الاجتماعى بين حضارة متفسّخة وبروليتاريتها الخارجية ـ المتمردة على التخوم العسكرية ـ والإشعاع المنكسر للحضارة ، يكابد إجدابا يبعث على الأسى . وفعلا لا يحدث إتصال قطعاً ، إلا فيما يتصل بالاقتصاد والسياسة ؛ ونعنى بهما : التجارة والحرب . ومن بين هذين ، تشتد شيئاً فشيئاً حدّة القيود المفروضة على التجارة . لأسباب متعددة ؛ بينما تزداد حدة الحرب تأصّلا . وفى ظل هذه النُذر المشؤومة ، تتم أوجه المحاكاة الانتقائية التى تحدث بناء على دافع أو مبادأة من المتبربرين أنفسهم . إذ يظهرون ميلا لمحاكاة تلك العناصر التى يتقبلونها : على نحو يخفى الأصل الكريه لما حاكوه . ولقد أوردنا فعلا فى فصل سابق

---

(١) الحل الطيفى : انحلال النور إلى ألوانه الأصلية من خلال موشور . (المترجم)

من هذه الدراسة ، نماذج ، للتوفيقات الواضحة والإبداعات الجديدة التى تنجت عن تلك المحاكاة ، ولا نحتاج هنا إلا إلى تذكّر أن « المنبع » الذى ينزع البرابرة إلى الاغتراف منه ، يتمثّل فى شيئين :

الأول — دين أعلى ينتمى إلى حضارة متاخمة لهم ، ويعتنقونه فى صورة محرّفة (مثال ذلك اعتناق القوط ضربا من المسيحية المحرّفة هو المسيحية الآرية) ؛

الثانى — نظام قيصرى لدولة عالمية تتاخمهم . وتم الاستعارة فى صورة ملكية غير مسئولة ؛ لا تستند على القانون القبلى ؛ ولكن على المهابة العسكرية .

أما قدرة البرابرة على الإبداع المبتكر ، فتتبدى فى ملاحم شعر البطولة .

(٢) تجمّع الضّغط

إن الحاجز الاجتماعى الذى أقامته الثغور ، يخضع لنفس قانون الطبيعة الذى يخضع له الحاجز المادى الذى أقامه السد . فإن المياه المتجمّعة أعلى السد ، تتجه إلى أن تعود فتصبح على مستوى المياه المتجمعة أسفله . وهذا ما يدعو المهندس عند تشييد خزان مادى ، إلى إقامة صمامات أمن تتمثل فى فتحات يمكن فتحها أو إغلاقها حسبما تتطلبة الظروف . ومثل هذا التدبير الواقى ؛ لا يغفل عنه المهندسون السياسيون للثغور العسكرية ، كما سيتبين لنا . وليس من شأنه هذا التدبير — فى هذه الحالة — إلا أن يعجّل بالطوفان .

فنى حالة إقامة سد اجتماعى وصيانته ، يكون تخفيف ثقل الضغط عنه بإطلاق المياه ، أمرا غير عملى . إذ لن يتيسر تفريغ قدْر من الخزان من غير تعريض السد للانهيار ؛ طالما أن الماء أعلى السدّ ، فى زيادة متصلة تحتمها طبيعة الظروف ، عوضا عن ارتفاعها وهبوطها وفقاً لتقلبات الجو — رطوبة أو جفافا ؛

وبعبارة أوضح ؛ فنى السباق بين الهجوم والدفاع ، لا يعجز الهجوم

عن الفوز على طول المدى ؛ ويصبح الوقت بالتالى ، فى جانب المتبربرين . [لكن الوقت قد ينقضى – بفترة طويلة – قبل أن يتمكن المتبربرون خلف الثغور ، من النفوذ إلى الأرض المُشتهاة للحضارة المتحللة .

وهذه الفترة الطويلة التى تتحول [خلالها نفسية المتبربرين وتتأثر تأثراً عميقاً – بتأثير الحضارة التى صُدّوا عنها – هى التمهيد اللازم لـ « عصر البطولة » ، حين تنهار الثغور ويتدفق المتبربرون .

إن إقامة ثغر من الثغور ، يدفع إلى الانطلاق ؛ قوى اجتماعية تُنذر فى النهاية بالقضاء على بُناته . ويتعذر إطلاقاً ؛ إتباع سياسة العزوف عن الامتزاج بالمتبربرين وراء الحدود . إذ مهما يكن من أمر ما تقرره الحكومة الإمبراطورية ، فلا مناص من أن ينجذب التجار والرواد والمغامرون . . . ومن إليهم – بحكم مصالحهم – إلى ما وراء الحدود .

ويطالعنا تاريخ العلاقات بين الإمبراطورية الرومانية وبدو الهون Huns الأوراسيين الذين اخترقوا منطقة السهوب الأوراسية قبيل نهاية القرن الرابع بعد الميلاد ؛ أجل يطالعنا بمثال صارخ لهذه النزعة التى تبدو من سكان حدود دولة عالمية ، لعقد صلات مشتركة مع المتبربرين فيما وراء الحدود . وانعقدت تلك الصلات على الرغم مما عُرف عن المتبربرين الهون من الشراسة الخارقة ، وعلى الرغم من أن سطوتهم على طول الحدود الأوربية للإمبراطورية الرومانية ، لم تكن مطّردة . وقد سجّل تاريخ تلك الصلات حالات فذة من التآخى ، ما برحت قائمة بين البقايا القليلة للروايات المعاصرة لهذه الحقبة الوجيزة . وأشد هذه الحالات غرابة ؛ حالة مواطن رومانى من مقاطعة بانّونيا Pannonia[1] يدعى أوريستس

---

(١) مقاطعة رومانية قديمة . كان الدانوب يحدّها شمالا وشرقاً ، وتحدها غرباً جبال نوريكوم Noricum وتقترب حدودها الجنوبية من نهر الساف Save . وكان يقطن هذه المقاطعة جنس مجهول الأصل عرف بالبانونيين . وقد أصبحوا على مرور الزمن مواطنين رومانيين صالحين . (المترجم)

Orestes حقق ولده روميليوس أوجوستولوس Romulus Augustulis ـ كآخر أباطرة الرومان فى الغرب ـ سمعة مشينة . (وهذا المواطن أوريستس نفسه . قد استخدمه وقتا ما سيد الحرب آتيلا زعيم الهون ، سكرتيرا له) .

ومن بين جميع البضائع التى كانت تتجه نحو الخارج عبر الحدود المعزولة العديمة النفع ، لعل أسلحة الحرب أعظمها أثراً . فما كان فى وسع المتبربر قطعاً ، توجيه هجوم فعّال ، من غير إستخدام الأسلحة المصنوعة فى دور أسلحة الحضارة . ومصداقا لهذا ؛ شُوهد على الحد الشمالى الغربى الإمبراطورية فى الهند ابتداء من عام ١٨٩٠ وما بعده ؛ أن « تدفق البنادق والعتاد داخل أراضى القبائل . . . قد غير تماماً طبيعة حرب الحدود »[١] . وبينما كان السطو المستمر على القوات الهندية البريطانية المعسكرة على الجانب الآخر من الحدود ، هو المصدر الأول للأسلحة الصغيرة الغربية الحديثة الطراز ، « لم يكن ثمة مبرر للخوف الفائق ، لولا استفحال تجارة الأسلحة فى الخليج الفارسى ؛ تلك التجارة التى كانت أساساً ـ فى كل من بوشهر ومسقط ـ فى أيدى التجار البريطانيين[٢] .

وهذا مثال صارخ لاتجاه المصالح الخاصة لرعايا الإمبراطورية إلى تبادل التجارة مع برابرة ما وراء الحدود متحدية الصالح العام للحكومة الإمبراطورية ، القائم على قمع البرابرة .

على أن متبربر ما وراء الحدود ما كان ليقنع بالوقوف عند حد ممارسة الأساليب الرفيعة التى تعلمها من حضارة متاخمة ، فكثيراً ماكان يُدخل تحسينات عليها . ومن قبيل المثال أن القرصان الاسكندناويين المقيمين

---

(١) صفحة ١٧٦ : Davies, C.C. : The Psoblem of the North-West Frontier 1890-1908 (Cambridge 1932, University Press.

(٢) المرجع السابق صفحة ١٧٧ .

على الحدود البحرية للإمبراطورية الكارولنجية ولمملكة وسكس ، وقد اتجهوا إلى ممارسة أسلوب من بناء السفن وإتقان الملاحة ، لعلهم قد إكتسبوه من من الفريزيين[1] ــ وكانوا رجال حدود بحريين بالنسبة للمسيحية الغربية الوليدة فى تلك المناطق ــ مكنهم (أى القرصان الإسكندناويين) من السيطرة على زمام البحر واتخاذ موقف المبادأة فى الحرب الهجومية ، فمضوا فى شنها قُدُماً على طول شواطئ بحار البلاد المسيحية التى وقعت فريسة هجماتهم . حتى إذا ما تغلغلوا فى الأنهار وبلغوا نهايات الملاحة ، راحوا يستبدلون سلاحاً مستعاراً بآخر ، ويواصلون القتال على ظهور الخيل المسروقة . ذلك لأنهم أتقنوا فنون الفروسية التى استعاروها من الفرنجة ، مثلما مهروا فى فنون الملاحة التى اقتبسوها من الفريزيين .

ويطالعنا التاريخ الطويل لحرب الخيالة ، بحالة هى أشدها تأثيراً ، حين استحوذ متبربر على هذا السلاح من حضارة فوجهه ضدها . حدث ذلك فى العالم الجديد حيث كان الحصان مجهولا إلى أن جلبه الدخلاء المسيحيون الغربيون بعد اكتشاف كولمبوس للعالم الجديد . وكان استئناسه ، طريقة حياة البدوى فى العالم القديم . ونظراً لافتقار وديان حوض المسيسبى إلى هذا الحيوان المستأنس ، فقد ظلت أمداً طويلا منطقة تمارس فيها القبائل الصيد ــ بمشقة ــ على الأقدام ، على الرغم من أنه كان ينبغى أن تكون فردوساً لرعاة القطعان . ومن ثم كان لوصول الحصان فى آخر الأمر إلى هذه الأرض المثالية لاستيلاده ، نتائج ثورية على حياة كل من المهاجر والوطنى ؛ إنما اختلفت النتائج فى كل حالة عن الأخرى :

فقد أسفرت تربية الحصان فى سهول تكساس وفنزويلا والأرجنتين عن

---

[1] (١) الفريزى : نسبة إلى قبيلة تيوتونية كانت تقطن هولندا . (المترجم)

تحويل سلالة مائة وخمسين جيلا من المزارعين ، إلى بدو يتولون تربية الماشية .

بينما حدث فى نفس الوقت أن تحولت القبائل الهندية الضاربة فى السهول العظمى فيما وراء أملاك التاج الإسبانى والمستعمرات البريطانية التى كونت فيما بعد « الولايات المتحدة » ؛ تحوّلت هذه القبائل إلى عصابات حربية متحركة على ظهور خيولها . إن هذا السلاح المستعار وإن لم يزوّد هؤلاء المتبربرين القاطنين فيما وراء الحدود بالنصر فى نهاية المطاف ، غير أنه مكّنهم — زمناً — من تأجيل هزيمتهم النهائية .

وبينما شاهد القرن التاسع عشر الميلادى هنود البرارى فى أمريكا الشمالية وقد حوّلوا أحد أسلحة الأوربيين الدخلاء — الحصان المستورد — ضد أصحابه الأصليين الذين نازعوهم ملكية السهول ؛ كان القرن الثامن عشر قد شاهد بالفعل هندى الغابة يجعل من الغدّارة الأوربية ، قوام حرب عُمدتها الاقتناص ونصب الكمين . وهى حرب أثبتت — إلى جانب الغابة الساترة للهنود — أنها أكثر من ندٍّ لأساليب الحرب الأوربية المعاصرة لها . إذ ثبت أن التشكيلات المغلقة والتحركات الدقيقة ووابل الطلقات المنظمة ، تُحدث الدمار بأصحابها وقتما تستخدم على غير هُدى ضد أعداء استخدموا الغدّارات الأوربية بعد أن لاءموا بينها وبين ما يناسب ظروف الغابة الأمريكية . بل إنه حتى فى العصور التى سبقت إختراع الأسلحة النارية ، وجدنا أن اصطناع الأسلحة التى كانت تستخدمها حضارة معتدية وتتداولها ، وجعلها ملائمة لظروف الغابة ؛ قد مكّن المتبربرين القاطنين فى غابات ما وراء الراين فى شمال أوربا من إنقاذ ألمانيا — وكانت الغابات لا تزال تكتنفها وقتذاك — من الفتح الرومانى الذى كان قد اجتاح بلاد الغال وقد أُزيلت منها الغابات وزُرعت إلى حد ما أرضها ، فكان أن أُبتلى الرومان بكارثة

ماحقة رادعة فى موقعة تيوتبرجر والد Tentobuger Waid(١) فى العام التاسع بعد الميلاد .

وتلا ذلك إستقرار خط الحدود العسكرية بين الإمبراطورية الرومانية ومتبربزى أوروبا الشمالية طوال الأربعة القرون التالية . فأصبح هو بنفسه ، يفسّر علة وجوده . فإنه هو الخط الذى تقع وراءه غابة ظلت لها السيطرة منذ دورة الجليد الأخيرة ؛ وكانت ما تزال متفوقة على جهود « الإنسان الزراعى »(٢) . تلك الجهود التى مهدت الطريق أمام الفيالق الرومانية فى زحفها من البحر المتوسط حتى نهرى الراين والدانوب . وعلى طول هذا الخط — الذى اتفق لسوء حظ الإمبراطورية الرومانية أن قارب طوله أطول خط يتأتى رسمه عبر القارة الأوربية — كان على الجيش الإمبراطورى منذ ذلك الوقت ، أن يُزيد قوته العددية باستمرار ليوازن الزيادة المطّردة فى الكفاية الحربية لمتبربرى ما وراء الحدود الذين كان على الجيش الرومانى الوقوف لهم بالمرصاد .

ولقد أمكن للتكنولوجية الصناعية الغربية الحديثة ، التفوق بالفعل على حليفين عنيدين من غير البشر . وذلك على الحدود المحلية القائمة ضد المتبربرين فى الدول الإقليمية الصغيرة التى لاتزال قائمة فى عالم اصطبغ بالحضارة الغربية . وقد ضم هذا العالم بين دفتيه وقت كتابة هذه السطور ، كل ما على سطح كوكبنا من أرض مأهولة ومطروقة ، إلا القليل . فلقد تهاوت الغابة منذ زمن طويل أمام ضربات الصلب البارد ، بينما اجتاحت

---

(١) تيوتبرجروالد . سلسلة من التلال فى شمال غرب ألمانيا ، تمتد على طول حدود مقاطعتى هانوفر وستفاليا . وتمتاز بشدة كثافة أشجارها . وكانت فى العام التاسع الميلادى مسرحاً لمعركة هزمت فيها القبائل الألمانية الفيالق الرومانية تحت قيادة كونتيليوس فاروس Quintillius Varus . (المترجم)

(٢) homo Agricolo

السيارة والطائرة ، السهوب . لكن الجبل حليف المتبربر ، أثبت شدة مراسه ؛ كما أظهر الجبلي — حارس المؤخرة للبربرية — فى آماله الأخيرة اليائسة ، براعة — تلفت النظر — فى أن يستغل لصالحه ، طائفة من المبتكرات الغربية الصناعية الحربية الحديثة . من ذلك أن قبائل الريف[1] الجبلية ، أمكنها بفضل هذا الفعل الفذ « فسخ » الحدود النظرية بين منطقتى الاحتلال الاسبانية والفرنسية فى مراكش ، وإنزال كارثة « أنوال Anwal » بالإسبان عام ١٩٢١ ؛ وهى كارثة شبيهة بإبادة تشيروسكى Cherusci وجيرانه فى تيوتبرجروالد التيوتونية لفيالق « فاروس Varus » الرومانية الثلاثة فى العالم التاسع الميلادى . فى عام ١٩٢٥ ، زلزلت الهزيمة كيان الحكم الفرنسى فى شمال غرب إفريقية . وبنفس المهارة ، طفقت قبائل « محصود » فى وزيرستان ، تحبط المحاولات البريطانية المتكررة لإخضاعها ، طوال ثمانية وتسعين عاما ابتداء من عام ١٨٤٩ — حين انتزع البريطانيون هذه الحدود من السيخ — حتى عام ١٩٤٧ ؛ وقتما أزاح البريطانيون العبء عن كاهلهم بإلقائهم إياه على كاهل باكستان[2] ؛ تلك التركة الثقيلة ، هى « مشكلة الحدود الهندية الشمالية الغربية » التى لم تحلّ بعد .

فى سنة ١٩٢٥ ؛ أوشك هجوم قبائل الريف على قطع الممر الذى كان يصل بين الجزء الذى احتلته فعلا هذه القبائل من المنطقة الفرنسية فى مراكش ، والمنطقة الرئيسية التى تحتلها فرنسا من شمال إفريقية الغربية الفرنسية . ولو كانت قبائل الريف قد نجحت فى محاولتها — وكان بينها وبين النصر قيد أنملة — لعرضت للتهلكة ، كل إمبراطورية فرنسا على الساحل الجنوبى للبحر المتوسط . ولقد كانت مصالح السلطان البريطانى فى الهند

---

(١) الريف : منطقة الاحتلال الإسبانية — سابقاً — فى شمال المغرب . (المترجم)

(٢) لا تمثل الحدود الشمالية الغربية مشكلة لدولة باكستان . ذلك لأن إنتظام قبائل وزيرستان وغيرها فى دولة قومية إسلامية ، قد أزال الدافع الذى طفق يُغرى تلك القبائل المسلمة مائة عام ، على مناجزة الاستعمار البريطانى فى الهند . (المترجم)

ـ وهى لا تقل قدراً عن المصالح الفرنسية ـ فى كف القدر إبان اختبار القوة بين قبائل المحصود والقوات المسلحة للإمبراطورية فى حملة وزيرستان عام ١٩١٩/٢٠ . وفى هذه الحملة ـ كما كانت الحال فى حرب الريف ـ كانت قوة « المتبربرين »[١] المقاتلة كامنة فى مواءمتهم الحاذقة بين الأسلحة والأساليب الغربية الحديثة ، واستراتيجيه منطقتهم التى كانت غير ملائمة للأسلحة والأساليب المألوفة لدى مخترعيها الغربيين . وقد ظهر أن العتاد المتقن الصنع الباهظ التكاليف الذى ابتُدع فى جبهات القتال الأوربية خلال حرب ١٩١٤/١٨ واستُخدم فى عمليات جرت بين جيوش منظمة على نفس المستوى ؛ هذا العتاد ظهر أنه أضعف فعّالية وقتما استُخدم ضد فصائل من القبائل تترصد فى جبال متشابكة .

إن على الدولة الواقعة خلف الحدود المهددة ، أن تبذل لهزيمة « المتبربرين » فيما وراء الحدود ، وهم الذين بلغوا من التدريب العسكرى ما بلغته قبائل المحصود عام ١٩١٩ وقبائل الريف عام ١٩٢٥ ؛ على هذه الدولة أن تبذل جهداً ـ سواء أكان مقيسا بالقوة البشرية أو بالعتاد أو بالمال ـ أعظم كثيراً بما لا يقاس ، من الموارد الواهية لخصومها الشبيهين بالذباب .

وحقاً ؛ إن ما دعاه مستر جلادستون عام ١٨٨١ م « موارد الحضارة »[٢] ؛ يمكن أن يكون عائقا بقدر ما هو معين ، فى حرب من هذا النوع . ذلك لأن طاقة القوات الهندية البريطانية على الحركة ، قد عوّقها حشد الأجهزة التى استندت إليها لتوكيد تفوقها . وأيضاً ؛ إذا كانت المغالاة

---

(١) يعنى الأستاذ المؤلف بالمتبربرين هنا ، الأقوام الذين لم يصطبغوا بعد بأساليب الحضارة الغربية وإن كانوا قد اقتبسوا أسلحتها . (المترجم)

(٢) وبالمثل فإن الجنود المحنكين الذين خاضوا غمار حرب ١٨٠٨ ـ ١٨١٤ ، مستخدمين أساليب هزمت نابليون المرة بعد الأخرى ، قد كسروا كسرة مضحكة المرة تلو المرة فى نيو أورليانس عام ١٨١٤ ، بفضل أساليب رجل الحدود التى استخدمها ضدهم آندرو جاكسون .

فى الوفرة قد عرقلت القوات البريطانية الهندية عن الضرب بسرعة وفعالية ، فقد كانت قبائل « المحصود » من القلة بحيث لم تكن شيئاً جديراً بتوجيه الضربات إليه . إن المراد من الحملة التأديبية ، توقيع العقاب . لكن كيف يتسنى عقاب مثل هؤلاء القوم ؟

هل يُعمد إلى عزلهم وإفقارهم ؟ ! ! !

إنهم معزولون وفقراء فعلا . وإنهم قد تقبّلوا طريقة الحياة هذه على علاّتها وسلموا بها ، حتى وإن لم يستمرئوها . إن حياتهم هى بالفعل كما وصف توماس هوبز Thomas Hobbes « حالة الطبيعة » : منعزلة ، فقيرة ، قذرة ، خشنة ، قصيرة الأجل ؛ وما كان ليتيسر – إلا بمشقة – جعل هؤلاء القوم ؛ أكثر عُزلة ، وفقراً ، وقذارة ، وخشونة ، وأقصر أجلا . ولو كان هذا ممكناً ، فهل يتأكد المرء من إكتراثهم لذلك كثيراً ؟

هنا نصل إلى نقطة جاءت فى سياق الحديث بموضع سابق من هذه الدراسة ، ألا وهى أن الهيئة الاجتماعية البدائية تستعيد كيانها بسرعة أشد وسهولة أعظم مما تستطيعه هيئة اجتماعية تستمتع بحضارة مادية رفيعة . إن الهيئة الاجتماعية البدائية ، كدودة متّضعة ، إن تقطعت نصفين ، لاتُلقى إلى ذلك بالا ، وتمضى كحالها من قبل .

ولكن يجب أن ندع جانباً الريفيين والمحصودين الذين أخفقوا – إلى حد ما – فى الوصول بإغاراتهم على الحضارات[1] إلى نتيجة موفقة ، ونستأنف بحثنا لسير المأساة فى حالات شقت طريقها إلى فصلها الخامس .

إن الزيادة المطّردة فى حدّة حرب الثغور – بما تُسفر عنه من تحوّل مطّرد فى ميزان القوى الحربية – تُضعف بالتدرج الحضارة التى تورطت فى

---

(١) ليس عدلا من المؤلف أن يعتبر دفاع هؤلاء الأقوام عن أوطانهم عدواناً على الحضارة . (المترجم)

تلك الحرب : وذلك بما تُلقيه على إقتصادها النقدى من عبء الارتفاع المطرد فى الضرائب . ومن الناحية الأخرى ، فإنها لا تثمر إلا إثارة شهية المتبربرين للحرب . ولو أن المتبربرين فيما وراء الحدود قد بقوا على بدائيتهم ؛ لأمكنهم تكريس نسبة أعظم كثيراً من جُمّاع طاقاته لفنون السلام . ولأمكن بالتالى نجاح الضغط عليهم ، بمعاقبتهم بتدمير نتائج نشاطهم السلمى ؛ إن مجتمعاً كان بدائياً حتى وقت قريب ؛ تتمثل مأساة نفوره الأدبى من الحضارة المجاورة ، فى أن يطرح المتبرر طاقته الإنتاجية السلمية السابقة ليتخصص فى حرب الثغور تحقيقاً للدفاع عن النفس فى بداية الأمر ، ثم لتصبح هذه الحرب بعد ذلك للمتبربر بديلا أشد إثارة لاكتساب معيشته ، وهو أن يحرث ويحصد مستخدماً السيف والرمح .

وهذا التفاوت المذهل فى النتائج المادية لحرب الثغور – بالنسبة للفريقين المتنابذين – يتمثّل فى التفاوت العظيم والمطّرد بينهما فى الروح المعنوية . فإن حرب الثغور التى يمارسها أبناء الحضارة المتحللة ، تُلقى عليهم عبئاً مالياً مطرد الضخامة . أما فى الناحية الأخرى ؛ فإن هذه الحرب نفسها لا تشكّل عبئاً على كاهل المحاربين المتبربرين ؛ بل إنها تبعث فى نفوسهم البهجة ، لا الجزع ؛ فلا يستغرب والحالة هذه ، أن نجد الفريق الذى هو صانع الثغور وضحيتها ، لا يستسلم لمصيره ، قبل أن يحاول تجربة آخر وسيلة فى جعبته لاجتذاب خصمه المتبربر إلى صفه . ولقد درسنا بالفعل نتائج هذه السياسة فى موضع سابق من هذه الدراسة ، ولن نحتاج هنا إلا إلى إستجماع ما استكشفناه من قبل ، وهو أن تحاشى انهيار الثغور ؛ وسيلة تعجّل – فعلا – بوقوع الكارثة ، وهى التى كانت قد أُعدت (أى الثغور) لتحاشيها .

فى تاريخ كفاح الإمبراطورية الرومانية لوقف الرجحان العنيف للميزان إلى جانب متبربرى ما وراء الحدود ، نرى أن سياسة اصطناع طوائف

من المتبربرين لصد عدوان إخوانهم ؛ هذه السياسة — إذا صدّقنا ما قاله ناقد خصم لإدارة الإمبراطور تيودوسيس ، قد حملت بين طياتها عوامل إخفاقها ، إذ لقّنت المتبربرين فن الحرب الرومانى ، وأوقفتهم فى الوقت نفسه على ضعف الإمبراطورية .

« انقضى الآن عهد النظام فى القوات الرومانية ، وتحطم كل فارق بين الرومانى والمتبربر ، فلقد تمازجت تماماً فرق الفئتين إحداهما بالأخرى فى جميع الرتب ، بل إن السجلات التى تقيّد أسماء الجنود المحسوبين على قوة الوحدات الحربية لم تعد تمثّلها فى حالتها الفعلية . فإن الفارين ألفوا أنفسهم وقد غدوا — بعد أن تم إدراجهم فى التشكيلات الرومانية — أحراراً فى العودة إلى ديارهم وإرسال آخرين يحلّون مكانهم ، إلى أن يطيب لهم الحال ، فيؤثرون العودة إلى الخدمة الشخصية فى جيش الرومان . ولم تكن هذه الفوضى المطلقة التى باتت تسود التشكيلات العسكرية الرومانية بخافية على المتبربرين . فقد كان فى وسع الجنود الفارين من الخدمة العسكرية — وقد تُرك باب الاتصال بالمتبربرين مفتوحاً أمامهم على مصراعيه ، أن يقدموا للمتبربرين معلومات كاملة عن الرومان . ومن هذا كله قدّر المتبربرون كيف أن الكيان السياسى للدولة الرومانية أصبح سيئ الإدارة إلى درجة تُغرى بالهجوم عليها »[1] .

وإذا ما تحوّل مثل هؤلاء الجند المرتزقة المدربين تدريباً عالياً من معسكر لآخر فى شكل جماعات ضخمة ، فلا عجب أن يغدو فى وسعهم توجيه ضربة قاضية إلى إمبراطورية مترنحة . على أنه ما يزال علينا أن نفسّر الأسباب التى كانت تدفع هؤلاء الجند إلى الانقلاب على سادتهم .

ألا تتطابق مصلحتهم الشخصية مع التزامات حرفتهم ؟

إن الأجر المنتظم الذى يحصلون عليه ، أعظم عائداً وأكثر ضماناً من

---

(١) صفحات ١ — ٣ من الفصل الحادى والثلاثين من الكتاب الرابع Zosimus : Historiae .

الأسلاب التى يستولون عليها من إغاراتهم العارضة . فلم إذن يستحيلون إلى خونة .

مناط الإجابة أن الجندى المرتزق من القبائل المتبربرة ، بانقلابه ضد الإمبراطورية التى استؤجر للدفاع عنها ، يعمل – حقاً – ضد مصالحه المادية الذاتية . لكنه بفعلته هذه ، لا يرتكب شيئاً فذا ؛ ونادرا ما يهتدى الإنسان بنزعة « الإنسان الاقتصادى »[١] وحدها . وعلى هذا فإن سلوك الجندى المرتزق الخائن يحدده دافع أقوى لديه من أى اعتبار اقتصادى . إن الحقيقة العارمة أنه يكره الإمبراطورية التى يتناول أجره منها ؛ وأن الصدع المعنوى القائم بين الفريقين ، لا يمكن رأبه نهائيا ، عن طريق إتفاق مالى لا تدعمه أية رغبة حقيقية من جانب المتبربرين للمشاركة فى الحضارة التى تعهدوا بالذود عن حياضها . إن موقفه من تلك الحضارة لم يعد متسما بالتبجيل ، مثلما كانت حال أسلافه ، إبان أيام سعيدة مضت ؛ وقتما كانت تلك الحضارة نفسها فى مرحلة الازدهار التى يجعل النفوس تهوى إليها .

حقاً ؛ قد انعكس منذ زمن طويل ، إتجاه تيار المحاكاة . فلم تعد الحضارة هى التى تبث روح التبجيل فى نفوس المتبربرين ، بل بات المتبربرون هم الذين يستمتعون بالاعتبار فى أعين أصحاب الحضارة .

« لقد وُصف التاريخ الرومانى المبكر بأنه تاريخ شعب عادى أنجز أعمالا خارقة . أما فى عهد الإمبراطورية المتأخر ، فقد غدا الرجل الفذ لا يستطيع أن ينجز أى شىء ، إلا العمل الرتيب . ولما كانت الإمبراطورية قد كرّست جهدها طوال قرون لإعداد الرجال العاديين وتدريبهم ، أصبح الرجال غير العاديين فى صورها الأخيرة – مثل ستيلشو Stilcho وآيتيوس Aetius وأضرابهما – يُستقون باستمرار من دنيا المتبربرين »[٢] .

---

(١) homo Economicus

(٢) صفحة ٣٠٧ Collingwood, R.G. in Collingwood R.G. andM yers. g.N.L. Roman Britain and the English Settlemenis.

(٣) الجائحة وعُقباها

عند ما يتفجر الخزان ، تندفع إلى أسفل المنحدر ، كتلة المياه التى كانت قد تجمعت فيما وراء السدّ ، وتنحدر صوب البحر . ويترتب على إطلاق القوى التى ظلت محبوسة أمداً طويلا ، كارثة ذات ثلاث شعب :

الأولى ــ أن الفيضان يدمر العمل الذى شاده الإنسان فى الأراضى المنزرعة الواقعة أسفل الخزان المنهار .

الثانية ــ أن الماء الذى يُضفى الحياة ، يتدفق إلى البحر . فيتبدد سُدى دون أن يخدم الإنسان فى أغراضه العمرانية .

الثالثة ــ أن إنطلاق المياه يدع الخزان فارغاً ، وجوانبه مرتفعة جافة ، فيُحكَم بالموت على أى نبات يمكن أن يمدّ جذوره فى تلك الأراضى .

وصفوة القول ، إن المياه التى كانت تبعث الخصب والإثمار ــ طالما بقى الخزان قائماً ــ ما أن يطلقها إنهيار الخزان من أسره ، حتى تنطلق ناشرة الخراب كل مكان ، سواء فى الأرض التى خلفتها قاحلة ، أو فى الأرض التى أغرقتها .

هذه القصة فى نضال الإنسان ضد الطبيعة المادية ، تشبه ما يحدث عندما تنهار الحدود الحربية . فإن الطوفان الاجتماعى الذى يترتب على ذلك ، يشكل كارثة على جميع الأطراف ، ولكن أثر التخريب على كل طرف منها ليس متساوياً ، بل هو عكس ما كان متوقعاً . إذ لن يشقى بالانهيار الاجتماعى الرعايا السابقون للدولة العالمية الراحلة ، ولكن يشقى به المتبربرون بصفة خاصة ، وهم الفريق المنتصر . حتماً ، إن ساعة انتصارهم هى بادرة نكبتهم .

تُرى ما هو تفسير هذه المتناقضات ؟

إن الثغور الحربية لم تُنشأ فقط لتكون حصناً للحضارة ، لكنها كذلك

حماية شاءتها العناية الربانية للمتبربرين المعتدين ، لتحصين أنفسهم من عوامل التخريب الشيطانية الكامنة فى ذواتهم . ولقد رأينا من قبل ، كيف أن القرب من الثغور الحربية ؛ يبث نوعاً من الإعياء بين المتبربرين فيما وراء الحدود ؛ القاطنين داخل مجالها . إذ يتحلل نظامهم الاقتصادى وتنفك عُرى نُظُمهم البدائية ! بفعل وابل من الطاقة النفسانية التى تولّدها الحضارة داخل الثغور وهى تنساب عبر حاجز ، هو — فى حد ذاته — عقبة تحول دون قيام إتصال أكمل وأعظم إثماراً ، وهو الاتصال الذى تتسم به العلاقات بين حضارة مطردة النمو ، وبين مريديها البدائيين القاطنين وراء ثغورها المفتوحة التى تغريهم باقتحامها . كما رأينا أن المتبربرين طالما ظلوا قابعين وراء أسوارهم ، استطاعوا أن يحولوا — على الأقل — بعض هذا الفيض المتدفق من تلك الطاقة النفسية الغريبة عنهم ، إلى إنتاج ثقافى وسياسى وفنى ودينى ؛ بعضه مقتبس من نظم متحضرة ، وبعضه إنتاج أبدعه المتبربرون أنفسهم .

والواقع أنه طالما ظل السدّ متماسكاً ، بقى القلق النفسى الذى يتعرض له المتبربرون محصوراً فى نطاق ؛ يستطيع مَن هو داخله ، أن يُحدث أثراً ليس كله شنيعاً . ومن شأن وجود هذه الثغور الحربية ، إتاحة قيام هذا الصمام الواقى الذى ينزع المتبربر إلى تقويضه . ذلك لأن هذه الثغور طالما بقيت قائمة — إلى حد ما — بديلا للنظام الذى يفتقر إليه الإنسان البدائى ، بعد إذ استحال — بسبب انهيار عاداته البدائية — إلى « متبربر » ما وراء الحدود . وتفسير ذلك : أن الثغور تعمل على تدريبه ، بتقديمه أعمالا يقوم بها وأهدافاً يسعى لبلوغها ، وعقبات يصارعها ؛ فتظل جهوده دائماً متحفزة يقظى .

حتى إذا انهارت هذه الحدود فجأة واكتسحت معها هذا الصمام ؛ انتهى هذا التدريب . وفى الوقت نفسه دُعى المتبربر إلى أداء أعمال هى فى جملتها ، تشقّ عليه . وإذا كان هذا المتبربر الرابض فيما وراء الحدود ، أكثر وحشية وأشد تعقدا من سلفه البدائى ، فإن المتبربر — على عهده الأخير — الذى اندفع

عبر الحدود بعد تحطيمها ، وصنع لنفسه دولة اقتطعها من حطام الإمبراطورية الراحلة ؛ يغدو أكثر تحللا وفساداً من ذى قبل . فعندما كانت الثغور الحربية لا تزال قائمة ، يصرف المتبربر على نزوات خموله ، ما غنمه من إغارة موفّقة . لكن يقتضيه ذلك مواجهة الشدائد والأهوال التى يتطلبها الدفاع ضد الحملة التأديبية التى لا بد وأن تستثيرها إغارته . حتى إذا دُمِّرت الثغور ، طالت فترة تبطّله وتواصلت نزواته ؛ فيتصل استمتاعه دون أن يناله القصاص (1) .

وكما لاحظنا فى موضع سابق من هذه الدراسة ، أن المتبربرين قد حكموا على أنفسهم أن يؤدوا دوراً خسيساً ؛ دور النسور التى تتغذى على الجيفة ، أو الدويدات التى تدب فى الجثة المتعفنة . فإن بدت هذه المقارنة ممعنة فى القسوة ؛ فلعلنا نعمد إلى تشبيه حشود المتبربرين المنتصرين إذ يركضون دون وعى بين خرائب حضارة يعجزون عن إدراك حقيقتها ؟ نشبههم بعصابات من أراذل المراهقين الذين تحللوا من قيود البيت والمدرسة ، فأصبحوا يمثلون فى القرن العشرين من العصر المسيحى إحدى مشكلات الجماعات الحضرية المفرطة فى النمو .

« إن الصفات التى تبديها هذه المجتمعات ـ سواء أكانت فضائل أم نقائص ـ واضح أنها تنتسب إلى طور المراهقة . . . فإن سمتها البارزة هى التحرر ـ سواء أكان اجتماعيا أم سياسياً أم دينيا ـ من قيود شريعة القبيلة . . . أما خصائص عصر البطولة ، فإنها بصفة عامة ، لا تمت إلى الطفولة أو إلى النضوج . . . إن الفرد الأنموذجى من العصر البطولى هو إلى الشباب أقرب . . . ولكى تصبح المجانسة أقرب إلى الواقع ، علينا أن نأخذ فى الاعتبار حالة شاب تجاوز فى نموه آراء والديه وسلطانهما . . .

---

(1) in partibus civilization

وهذه حالة قد نجدها فى أبناء والدين غير معقدين ، وقد اكتسبوا بتأثير خارجى – فى المدرسة أو فى غيرها – المعرفة التى تبوئهم مكانة تسمو بهم على أفكار محيطهم[1] .

إن إحدى نتائج إنحلال العادات البدائية بين الأقوام البدائيين الذين استحالوا إلى متبربرين ، هى أن السلطة التى كانت تمارسها قبلا جماعات العشيرة ، تنتقل إلى فئات من الأفراد المغامرين الذين يتجهون بولائهم الشخصى إلى زعيم . وطالما بقيت الحضارة محتفظة فى نطاق دولتها العالمية بمظهر السلطان ، كان فى وسع هؤلاء القادة المتبربرين – هم ورجالهم – أن يؤدوا بنجاح – عند الاقتضاء – صنيعا ، وذلك بإقامة دول حاجزة[2] .

ولعل تاريخ قبائل الفرنجة حُماة حدود الإمبراطورية الرومانية على الراين الأدنى منذ القرن الرابع حتى منتصف القرن الخامس الميلاديين ، مثال من أمثلة متعددة لتوضيح هذه الفكرة . على أن مصائر الدول المستخلفة التى يشيدها الفاتحون المتبربرون فى نطاق أملاك – سابقة – لدولة عالمية مندرسة ، تُبين أن هذا الإنتاج الغلظ لعبقرية سياسية متبربرة قاحلة ، لايتناسب بأية حال من الأحوال مع عبء إحتمال أعباء تلك الدول وحل مشكلاتها . تلك الأعباء والمشكلات التى ثبت فعلا أنها فوق متناول القدرة السياسية لدولة مسيحية عالمية .

إن الدولة البربرية المستخلفة ، تمارس أعمالها عن جهل ، مستخدما أرصدة ضخمة باتت عديمة القيمة لدولة عالمية فعلية . إن هؤلاء الأجلاف المتربعين فى مناصب الدول ، يعجلون بأنفسهم مصيرهم المحتوم ،

---

(١) صفحات ٤٤٢-٤ Chadwick, H.M.: The Heroci Age (Cambridge 1912

(٢) الدولة الحاجزة : دولة تقع بين دولتين أكبر منها ، فتحد بالتالى عوامل الاحتكاك بينهما . (المترجم)

وذلك بخيانتهم أنفسهم بفعل قوى مهلكة خدّاعة ، كامنة فى ذواتهم؛ تنطلق تحت ضغط محنة أخلاقية . فإن نظاما يقوم كله على ولاء مذبذب تبذله عصابة من المتهورين المسلحين لزعيم عسكرى غير مسئول ؛ مثل هذا النظام غير جدير بتسيير دفة حكومة أية جماعة ، حتى ولو كانت هذه الجماعة قد بذلت محاولة — غير ناجحة — للاتجاه صوب التحضّر . وهكذا نرى أن إنحلال رابطة الجماعة البدائية فى مجتمع المتبربرين ، قد تبعه — على وجه السرعة — إنحلال الجماعة نفسها .

حقاً ؛ إن المعتدين المتبربرين بعدوانهم ، قد حكموا على أنفسهم بمكابدة إنهيار معنوى ، كنتيجة حتمية لعدوانهم. على أنهم لايذعنون لمصيرهم من غير صراع روحانى ؛ تخلّفت آثاره فى سجلاتهم الأدبية الحافلة بالأساطير والطقوس ومعايير السلوك . ومصداقا لهذا الرأى ؛ يتردد فى جميع الأساطير البربرية الرئيسية ، وصف صراع البطل الظافر مع جبار أسطورى فى سبيل الاستحواز على كنز ، يحتجزه العدو الغير الآدمى عن البشر. تلك هى حبكة حكايات قتال بيولوف Beoulof [1] مع جريندل Grendel ومع أم جريندل ،

(١) بيولوف : ملحمة شعرية تعتبر من أهم نماذج الأدب الألمانى المبكر ، وقد كتبت حوالى عام ١٥٠٠ ميلادية . وتحكى الملحمة أفعال بيولوف ابن أخ أحد الأمراء الألمان . وقد أبحر إلى الدنمرك يصحبه أربعة عشر صديقاً لمعاونة أخيه ملك الدنمرك الذى اجتاح مملكته غول جبار فى صورة آدمى يدعى جريندل . وقد أمكن بيولوف فى أول لقاء مع عدوه ، إنتزاع يده عن جسده . ففر جريندل الجبار مثخناً بالجراح ، وعاد الملك الشرعى إلى عرشه . على أن والدة جريندل خطفت أحد النبلاء الدنمركيين ، فتبعها بيولوف محاولا استخلاص النبيل المأسور . وأخيراً أمكنه قتلها فى إحدى البحيرات الدنمركية حيث وجد جثة جريندل الغول . وقد كوفئ بيولوف على بطولته بتنصيبه ملكاً على الدنمرك بعد وفاة أخيه الملك . (المترجم)

وقتال سيجفريد[١] مع التنين ، وشجاعة برسوس Perseus[٢] فى قطع رأس جورجون Gergon ، ثم عمله الفارة بعد ذلك من فوزه بأند روميدا Andromeda بعد ذبحه جبار البحر الذى هدد بافتراسها . وتعود نفس الحبكة الروائية إلى الظهور فى انتصار جاسون Jason[٣] على الأفعى حارسة « العِهْن الذهبي »[٤] . كما نجدها فى خطف هرقل Herakles[٥] لـ « سربيروس Cerberus » .

وتبدو هذه الأسطورة للعالم الخارجى ، انعكاسا للصراع السيكلوجى فى أعماق نفس المتربر ذاتها . إذ أن استخلاص الكنز الأسمى للإنسان : ألا وهو إرادته العقلية الحرة ، من إسار قوة روحية شيطانية أطلقتها فى أعماق النفس اللاشعورية ، تجربة مضطربة ؛ هذه التجربة تتضمن العبور بقفزة واحدة ، من أرض

---

(١) قصة سيجفريد هى إحدى القصص التى تتضمنها مجموعة الملاحم الشعرية لأهالى شمال أوربا . وتذكر القصة أن سيجفريد كان ابن ملك هولندا ، إستطاع الاستحواز على كنز ثمين ، إلا أن أحد أعدائه قتله واستولى على الكنز وأخفاه فى نهر الراين . وأخيراً استطاعت أرملة سيجفريد بفضل زواجها من آتيلا زعيم الهون ، الانتقام له بذبحها قتلته . (المترجم)

(٢) برسوس — فى الأسطورة اليونانية — أوفده والده زيوس كبير أرباب الأوليمب ليأتيه برأس جورجون الغول الجبار . ونجح برسوس فى مهمته وأمكنه تخليص آندروميدا (وهى بنت ملك حبشى كما تذكر الأسطورة) من جبار البحر ؛ واتخذها زوجة له . (المترجم)

(٣) جاسون . فى الأساطير اليونانية ابن ملك أيولكا . طرده أخوه غير الشقيق من المملكة . فلما حاول أن يدخل المملكة متنكراً أرسله أخوه — وقد أصبح ملكاً — الحصول على العهن الذهبى ونجح فى هذا كما وفق إلى دخول المملكة منتصراً . (المترجم)

(٤) العهن : الجزة الصوفية للغنم — الوبر . (المترجم)

(٥) هرقل : فى الأساطير اليونانية ، أحد أبناء الرب اليونانى زيوس . وقد اشتهر بقوته البدنية الخارقة حتى أنه قتل أسداً وهزم جيشاً برمته . . . إلى غير ذلك من أعمال البطولة البدنية التى توجت بخطفه سردسيروس من العالم السفلى . (المترجم)

لا صاحب لها خارج الحدود ، إلى عالم مسحوز فتح انهيار السد أبوابه . وقد تكون الأسطورة – حقاً – تعبيراً بأسلوب القصص الأدبي ، عن طقوس دينية . إذ تستهدف طرد الأرواح الشريرة من بطل متبربر انتصر في ميدان القتال ولكن روحه أصيبت ؛ فهو يلتمس علاجاً عملياً لهذا المرض النفسي الذي استبد به .

أما إن إنبثقت للسلوك مقاييس خاصة يتيسر تطبيقها على الظروف الخاصة بعصر بطولي ؛ يصبح في وسعنا – بإتخاذ أسلوب آخر للبحث – أن نعثر على محاولة جديدة تستهدف وضع قيود أخلاقية على نزعات شيطان مريد يكمُن في نفوس زعماء المتبربرين مثلما يربض في نفوس أصحاب حضارة متداعية ، وقد أطلقت سراحه الحواجز المادية التي أقامتها الحدود الحربية .

ويطالعنا مثالان بارزان لتلك القيود الأخلاقية يبدوان في صفتَي « المعرّة » و « السخط »[1] في أساطير هوميروس ؛ وفي صفة « الحلم » التي تؤثر عن الأمويين .

« إن الخاصية الكبرى لصفتي « المعرّة » و « السخط » كما هي للشرف بصفة عامة ، أنهما لا يظهران ولا يعملان وقلّما يكون الإنسان حراً ، أي عندما ينتفي عامل الإرغام . إنك أن بحثت حالة أناس انفلتوا من ارتباطاتهم القديمة ، واخترت من بينهم صنفاً من الزعيم القوي الثائر الذي لا يهاب أحداً ؛ فسيقرّ في ذهنك للوهلة الأولى ، أن مثل هذا الرجل حر في تنفيذ ما يجول في خاطره . ثم سترى بطبيعة الحال أنه في إبان تمرده ، تنبعث بعض أفعال ستدفعه – بطريقة ما – إلى الشعور بالضيق ، فإن كان هو مرتكب هذا الفعل ، استبد به القلق والإحساس بالندم على إتيانه . فإن لم يكن هو بالذات مرتكبه فإنه يحجم عن إتيانه . يحدث هذا ، لا لأن أحداً أرغمه ، أو لأنه

---

(١) المعرة والسخط تعبيران للكلمتين اليونانيتين : Aidos, Nemeais .

نتيجة معينة سوف تترتب على إتيان الفعل ، ولكن لمجرد شعوره بـ « المعرّة » .

« . . . إن المعرّة هى ما تحس به عن فعل اقترفته أنت . أما السخط ، فتعبير عما تحس به تجاه فعل ارتكبه آخر . أو غالباً ما يكون . . . تصورك إحساس الآخرين تجاهك . . لكن افترض أن أحداً لم يرك ، يظل الفعل — كما تعلم جيداً — شيئاً تحس نحوه بالسخط ، لكن ليس ثمة أحداً يحس به . ومع ذلك ، فلو أنك شخصياً كرهت ما ارتكبته فشعرت بـ « المعرّة لارتكابه ، فإنك تشعر حتما أن هناك أحداً أو شيئاً ما ، يأنف منك أو يستقبح فعلك . . . إن الأرض والماء والهواء حافلة بالعيون اليقظة . . . فهى التى رأتك وسخطت عليك بسبب الشيء الذى ارتكبته »[1] .

وفى إبان عصر البطولة — الذى تلا الحضارة المينوية والذى صورته ملحمة هوميروس — تتمثل الأفعال التى استثارت إحساسى « المعرّة » و « السخط » فى تلك الأفعال التى تتضمن « الخيانة ، الكذب ، الحلف كذباً ، الافتقار إلى التوقير ، الجور على البائس أو خداعه :

« هناك طبقات معينة من الناس أشد تأثيراً فى إشعار غيرهم بإحساس « المعرّة » . فإن ثمة أُناساً يحسّ الإنسان فى حضورهم بالخجل والشعور بالذات الباعثة على الخوف ، وشعور أشد من المعتاد بأهمية التخلق بالخلق الحسن . أى نوع من الناس يثير فى النفس بالذات شعور المرء بـ « المعرّة » ؟ هناك بالطبع : الملوك ، المسنون ، الحكماء ، الأمراء ، السفراء . . ومن إليهم . إنهم جميعاً أناس تشعر تجاههم — بالطبع — بالتوقير ، ولرأيهم الطيب — أو السيء — أهميته فى العالم . . . لكنك ستجد أن ليس هؤلاء الناس ، بل غيرهم بالكلية هم المشحونون بطاقة تدفعك إلى الشعور بـ « المعرّة » قلباً وقالباً . . . أولئك الذين تشعر أمامهم بأنك ما تزال أشد

---

(١) Muray, Gilbert : The Rise of Greeke Epie صفحتا ٨٣ و ٨٤

إحساساً بتفاهتك ، والذين لرأيهم الحسن أو السيء وزن فى نهاية المطاف لا يمكن تفسيره بحال . . . ألاإنهم المستضعفون فى الأرض ، من يحل بهم الضيم ، هم العاجزون . . . ويدخل فى سربهم أشد العاجزين بما لا يقاس . . أى الموتى »[١] .

وعلى النقيض من صفتى « المعرّة » و « السخط » اللتين تطرقان جميع مناحى الحياة الاجتماعية : فإن الحلم فضيلة أهل السياسة[٢]. إنها صفة أشد — نوعاما — قيداً من صفتى « المعرّة » و «السخط» وهى أقل — تبعاً لذلك — جاذبية . وليس « الحلم » تعبيراً عن الضّعة .

« بل إن هدفه إذلال خصم بوساطة إرباكه بإظهار سمو خُلُق الحليم على غير ما يتوقعه الخصم ، وإبراز ما يتحلّى به من هدوء وإباء ... إن الحلم فى حقيقته كمعظم الصفات العربية فضيلة يُبتغى منها الزهو والتفاخر . إذ تتضمن المباهاة أكثر مما تحتويه من جوهر أصيل . . إن الاشتهار بالحلم قد يُنال بثمن بخس كإيماءة رشيقة أو لفظ رنان مما يتناسب ومجتمع مضطرب ؛ كما كانت حال المجتمع العربى ، حيث يستثير كل فعل عنيف الثأر القاسى . . . إن الحلم كما مارسه خلفاء معاوية الأموى ، قد يسّر لهم مهمة تربية العرب تربية سياسية .. إنه قد لطّف لتلامذتهم مرارة التزامهم بتضحية حريتهم الصحراوية الفوضوية لصالح حكام أُوتوا قدراً من المجاملة مكّنهم من إسدال قفاز من المخمل على اليد الحديدية التى حكموا إمبراطوريتهم بها[٣] » .

هذا الوصف الدقيق لطبيعة صفات : « الحلم » و « المعرّة » و « السخط » ؛ يُظهر كيف أمكن مواءمة مقاييس السلوك هذه — بدقة — مع الظروف الخاصة

---

(١) صفحتا ٨٧ و ٨٨ من المرجع السابق .

(٢) صفحة ٨١ Lammens, S. J., Fâie II : Etudes sur la Règne du Caliife Omacyade Mo'awia Ier.

(٣) المرجع السابق صفحات ٨١ و ٨٧ و ١٠٣ .

لعصر البطولة . وإذ كان عصر البطولة — مصداقاً لما ذكرناه من قبل — هو فى جوهره طور إنتقال ؛ فإن العلامات المؤكدة لحلوله وانحساره تتجلى فى ظهور مُثُله المميزة له ، وخسوفها . وإذ تختفى صفتا « المعرّة » و« السخط » يستثير اختفاؤهما صيحة القنوط .

« إن الألم والشجن ، هما النصيب الذى قُسم للإنسان الفانى ، ولن يكون ثمة دفاع عن يوم السوء »[1]. إن هسيود Hesiod[2] قد أمضّه اعتقاده الواهم ، بأن اختفاء هذه الأضواء التى أنارت الطريق لأبناء العصر المظلم ، نذير ببداية الظلمة الدائمة . وغاب عليه أن انطفاء أضواء الليل ، بشير بعودة النهار .

والحق ؛ إن « المعرّة » و« السخط » يعودان فيرتقيان إلى الملأ الأعلى بمجرد أن تحتل الحضارة الجديدة الوليدة وجودها على الأرض ؛ حين تبدأ عملية انبثاقها القصيرة ، قصرا لا يدرك . وتُلقى إلى التداول شيئاً لا قيمة له بين الناس : فضائل أخرى هى أجدى على الإنسانية من الوجهة الاجتماعية ، وإن كانت أقل جاذبية ، من ناحية الجمال . وإن « العصر الحديدى » الذى أبدى هسيود أسفه لأنه ولد فيه ؛ هو بالفعل العصر الذى بزغت فيه حضارة يونانية جديدة حيّة ، من بين أنقاض حضارة مينووية راحلة . وغدت صفة « الحلم » التى كانت سر الحكم الأموى ، عديمة النفع لخلفائهم العباسيين . والعباسيون هم الساسة الذين وضعوا حدا نهائياً لمحاولة الأمويين الإفادة من عملية استصفاء الثغور السورية للإمبراطورية الرومانية ، رجاء استعادة الدولة العالمية السورية .

حقا ؛ إن الشيطان الذى يتملك روح المتبربر بمجرد أن تطأ قدمه الثغور

---

(١) السطور ١٩٧ — ٢٠٠ Hesiod : Works and days .

(٢) هسيود Hesiod أو هسيؤدوس Hesiodus . أقدم شعراء اليونان القديمة التربويين . ظهر فى إبان القرن الثامن عشر الميلاد . وأول أشعاره ما ظهر تحت عنوان « الأعمال والأيام » ويتضمن نصفها نصائح وجهها إلى أخيه المنحرف ، رافعاً إياه إلى العمل الشريف . أما بقية أشعار الديوان فتبحث فى أيام العمل الوزاعى السعيد منها والشق . وأجمل ما ورد فى أشعاره ، وصفه الشتاء . (المترجم)

المهارة ، يصعب طرده منها . إذ يتحايل الشيطان على إفساد الفضائل نفسها التي احتمى بها ضحيته . ولعل أحدهم يقول – بحق – عن « المعرّة » ما قالته مدام رولان عن الحرية « كم من الجرائم ترتكب باسمك » . إن حاسة الشرف لدى المتبربر « تهدر مثل الوحش الضاري الذي لا يدرك على الإطلاق متى يملأ معدته »[١].

وإن الفظائع الجماعية هي السمة البـارزة لعصر البطولة في التاريخ والأسطورة على السواء . حتى لقد إعتاد عليها المجتمع البربري المتحلل أخلاقياً . وأصبحت مألوفة عنده ؛ إلى درجة أن المنشدين الذين أخذوا على عاتقهم إضفاء الخلود على ذكرى سادة الحرب ، لم يترددوا في تحميل أبطالهم وبطلاتهم آثاماً قد يكونون أبرياء منها تماماً ؛ إعتقاداً منهم بأن تشويه صفاتهم على هذا النحو ، من شأنه تضخيم شجاعة أبطالهم . ولا يقتصر هؤلاء الأبطال على توجيه فظائعهم المفزعة إلى أعدائهم الرسميين وحدهم . فإن أهوال استباحة طروادة لا يفوقها بشاعة إلا الشقاق العائلي بين أفراد بيت آترويس Atrews[٢] ؛ ومنه نستخلص الحكمة القائلة بأن العائلات التي تنقسم على نفسها ، لا يقدر لها البقاء طويلا .

حقاً ؛ إن السمة البارزة للدول المتبربرة المنتمية إلى عصر البطولة ، هو سقوطها الفجائي المثير من حالق . ويطالعنا التاريخ بأعجب الأمثلة ،

---

(١) صفحة ٣٠٥ من المجلدين الثاني والثالث Gronbech, V : The Culture of the Teutons.

(٢) آتروس . في الأساطير اليونانية ، كان أحد ملوك اليونان وقد أغوى زوجة أخيه . فعمد الأخ إلى إرسال ابن آتروس من زوجته الأولى ليغتال أبيه . إلا أن آتروس قتل ولده دون أن يعلم . وانتقم آتروس من أخيه بقتله ولدى هذا الأخ . وأخيراً كان القتل نصيب آتروس على يد أخيه . وجدير بالذكر أن الشاعر هوميروس لم يذكر شيئاً عن هذه الأسطورة ، لكن سوفوكليس أورد هذا في مسرحيتين من مسرحياته كما عرض لها أوربيديس في إحدى مسرحياته . (المترجم)

كالأفول الذى أصاب الهون بعد وفاة آتيلا ، والوندال بعد وفاة جنسريك Genseric . ويؤكد هذان المثلان وغيرهما من الأمثلة التاريخية الواضحة ، القول المأثور بأن موجة الفتح الآخى قد انطلقت ثم انهارت بعد ابتلاع طروادة ، وأن أجاممنون المقتول كان آخر قواد الحرب فى العالم الآخى الكبير .

ومهما بلغ من اتساع فتوحات قادة الحرب هؤلاء ، فلقد عجزوا عن إبداع التنظيمات . ولا شك فى أن مصير قائد من هؤلاء بالغاً ما بلغه حاكم كشرلمان من التعقيد والحضارة النسبية ، ليوضح هذا العجز توضيحاً دراميا .

(٤) الوهم والحقيقة

إذا كانت الصورة التى عرضها الفصل السابق لم تعدُ الحقيقة ؛ يصبح لا مناص من أن يكون حكمنا على عصر البطولة صارماً . بل إن أكثر الأحكام إعتدالا ، تصمه بأنه مغامرة جوفاء . فى حين يدينه الحكم الصارم ، بأنه عصر الاغتصاب الإجرامى . إننا نستمع إلى الحكم على هذا العصر بالتفاهة فى شعر رخيم لأديب من العصر الفيكتورى ، إمتد به العمر ليشهد صقيع عصر بربرى جديد[1] :

اتبع طريق أولئك المحاربين الشقر ، القوط الفارعين
منذ اليوم الذى قادوا أهلهم زرق العيون
بعيداً عن مراعى الفيستولا الباردة ، حيث وطنهم المعتم .
سالكين شاطئ بحر البلطيق الموشى بالعنبر
تملأهم عزمات الرجولة النقية

---

(١) يقصد الأستاذ المؤلف بالعصر البربرى الجديد ، عصرنا الحاضر الذى حفل بحربين عالميتين وبظهور النازية والفاشية وأضرابهما . (المترجم)

يتحسسون طريقهم الغامض إلى أرض ميعاد مجهولة
يشقونه عند الأهداب المفككة للدولة الأرجوانية
ويطئون تخومها العريضة ، ويهزمون جيوشها
ويذبحون إمبراطورها ويحرقون مدنها
لقد سلبوا أثينا وروما ليعزلوا قيصر
إنهم قد حكموا العالم ، حيث حكم الرومان من قبل
ولكن بعد تلك القرون الثلاثة الطويلة من الغضب والدماء
وقسوة القلب ووحشية اليد المجازفة
لم يبق إلا القليل ؛ وهؤلاء القوط كانوا أشداء ، ولكن فى التخريب
لم يكتبوا قط ولم يصنعوا فكرة أو يبدعوا شيئاً
لكن طالما كان الميدان زنخا بالشيلم والقمح الغض
فقد نال حصدهم بعض التمجيد ، وإلا ما خلفوا وراءهم أثرا[1] .

ومن العسير أن يكون هذا الرأى المتزن الذى قيل منذ خمسة عشر قرنا ، موضع الرضا من شاعر هلينى ، كان لا يزال يشعر بمرارة طاغية إذ يرى ، نفسه فى مجتمع قذر شاده المتبربرون الذين خلفوا دولة مينوس التى سادت البحار[2] . فإن هسيود لم يقتصر على إلصاق وصمة التفاهة بعصر البطولة الذى تلا الحضارة المينووية والذى كان فى إبان أيامه يرهص بحضارة هلينية وليدة ؛ بل اتهمه بالإجرام . حقاً إن حُكم هسيود قاس خلا من الرحمة :

---

(١) السطور ٥٣٥ — ٥٥ من الكتاب الأول Bridges : The Testament of Beauty .

(٢) دولة مينوس البحرية — كانت الدولة العالمية للحضارة المينووية وكان مركزها جزيرة كريت . (المترجم)

« أوجد الإله زيوس جنسا ثالثاً من الرجال الفانين ـ جنسا يتألف من البرونز ـ لم يكن فى حكمة عنصر الفضة ، شُكِّل من رماد الجذوع ؛ جرىء ومروع . كانت بهجتهم أن يمارسوا أفعال آريس Ares[١] المفجعة وآثام العتوّ . لم يجاوز الخبز شفاههم قط لكن قلوبهم التى فى صدورهم قدّت من الفولاذ ؛ وما كان فى وسع أحد الدنوّ منهم . قوتهم هائلة التى انبعثت من أكتافهم القائمة على هياكلهم المتينة ، لا تغلب . من البرونز صُنعت دروعهم ومن البرونز شُيِّدت منازلهم ، وبالبرنز يحرثون أرضهم (لم يكن الحديد الأسود قد عرف بعد) . ومضوا وقد خفّضوا أدواتهم بأيديهم ، إلى بيوت لا تحمل إسما ، شُيدت من العالم البارد لأرواح الموتى . ورغما عن جُرأتهم المفرطة ، أسرَهم الموت فى قبضته السوداء ، فبارحوا ضياء الشمس المنير[٢] .

وكان ينتظر أن تكون هذه الفقرة من شعر هسيود ، الكلمة الأخيرة فى حُكم الأعقاب على ما كابدوه من طوفان المصائب التى جلبها المتبربرون على أنفسهم بحماقاتهم الإجرامية ؛ لولا أن الشاعر نفسه يستطرد فيقول :

« والآن عندما توارى الأرض هذا الجنس ، يخلق زيوس بن كرونوس Cronos مرة أخرى على سطح الأرض أم الجميع ، جنسا رابعا ؛ جنسا أفضل وأكثر استقامة ؛ جنساً مقدساً من الرجال الأبطال ، يطلق عليهم أنصاف الآلهة ؛ جنساً كان على الأرض الفسيحة فى الأزمان الغابرة . هؤلاء قد دمرتهم حرب منحوسة ؛ فقضى بعضهم نحبه بأسفل بوابات طيبة السبعة

---

(٣) آريس : إله الحرب فى الأساطير اليونانية . ويعادل مارس فى الأساطير الرومانية . وقد اشتهر فى تلك الأساطير بقوته وشدة بطشه . (المترجم)

(٤) السطور ١٤٣ — ٥٥ من ديوان هسيود — الأعمال والأيام .

فى أرض كادموس Cadmus[1] وقتما حاربوا مع جماعات أوذيب OEdipus[2]. بينما نُقل آخرون فى سفن على خليج البحر الكبير ليُبادوا فى طرواده ، فى سبيل هيلين ذات الشعر الفتان ، وهناك يقيناً واجهوا نهايتهم وتواروا فى أحضان الموت . على أن ثمة قلة وهبها زيوس بن كرونوس الحياة ووفر لأفرادها مسكناً بعيدا عن البشر ، وجعلهم يُقيمون فى أطراف الأرض فى جزائر السعداء . وهناك يظلون إلى جانب دوامات المحيط العميقة وقد خلت قلوبهم من الشجن ، خالى البال ، أبطال سعداء تغلّ لهم الحقول المثمرة ثلاث مرات كل سنة محصولا من العسل الحلو»[3] .

فما هى العلاقة بين هذه الفقرة والفقرة التى سبقتها مباشرة ، وما هى بالذات علاقتها بقائمة الأجناس التى تضمنتها ؟

إن سياق القصة يوقف إطّراد القائمة ، فى موضعين :

فى المحل الأول ـ أن الجنس الذى مرّ فى هذا العرض ، لم يُرمز

---

(١) كادموس فى الأساطير اليونانية ـ أحد أرباب اليونان ، وينسب إليه نقل ستة عشر حرفاً هجائياً من مصر إلى اليونان . وتعتبره تلك الأساطير ، مخترع الفنون النافعة ومبدع الحضارة بصفة عامة . (المترجم).

(٢) أوديب : فى الأساطير اليونانية ـ كان ابن أحد ملوك طيبة فى اليونان القديمة . أنذرت والده إحدى النبوءات بهلاكه (أى هلاك الوالد) بيدى عقبه . فكان أن أمر الوالد بإلقاء إبنه أوديب على جبل ليموت . إلا أن أحد رعاة ملك كورنث أنقذه ، واتخذه هذا الملك ولداً . ولما أصبح أوديب شاباً نصحه ساحر معبد دلفى بأن لا يعود إلى وطنه لأن القدر يحتّم قتله والده واتخاذه أمه زوجة له . فهالته تلك النبوءة فبارح كورنث . على أنه فى طريقه إلى طيبة تعارك مع رجل فقتله ، وكان والده دون أن يعلم ، وتزوج أمه جاهلا حقيقتها وجاهلة حقيقته . فعاقب الإله المملكة بنشر الطاعون فى أرجائها . هنا ظهرت نبوءة تقرر ضرورة عقاب المعتدى ليرفع الإله نقمته عن المملكة . فبحث أوديب الأمر فاكتشف أنه قتل والده وتزوج أمه . فانتحرت الوالدة وهجر أوديب العرش وهام على وجهه وأقام منفياً باختياره بمدينة كولونوس . وقد كانت مأساة أوديب محور مسرحيات كتبها يوربيديس وأشيلوس وسوفوكليس وغيرهم من الكتاب المحدثين . (المترجم)

(٣) هسيود : السطور ١٥٦ ـ ١٧٣ من ديوانه . الأعمال والأيام .

إليه بأى معدن ؛ خلافاً للأجناس السالفة من الذهب والفضة والبرونز ، فضلا عن عنصر الحديد ؟

وفى المحل الثانى ــ جُعلت الأجناس الأربعة الأخرى بحيث يتبع أحدها الآخر فى ترتيب تنازلى من حيث الجدارة : هذا إلى أن مصائر الأجناس الثلاثة السالفة الذكر بعد الموت ، جاءت متفقة وحياتهم على وجه الأرض . ومصداقاً لهذا الرأى ؛ تطور عنصر الذهب بفعل إرادة زيوس « العظيم » إلى أرواح طيّبة تطفو على الأرض ، تقوم على حراسة الرجال الفانين وتهبهم « الثراء » . أما عنصر الفضة الأقل من الأول قيمة ، فما برح يكتسب بين البشر الفانين لقب المباركين « تحت الأرض » . وهو رغم أنه يتلو عنصر الذهب فى الشرف ، لكنه مسربل بالمجد أيضاً . حتى إذا ما وصلنا إلى عُنصر البرونز ، وجدنا مصير أفراده بعد الموت قد انقضى فى صمت مشؤوم . ولا ريب أنه فى قائمة نُسجت على هذا النمط ، نتوقع وجود العنصر الرابع مقضياً عليه ــ بعد الموت ــ بمكابدة آلام الملعونين . على العكس من ذلك ، نجد بنأى عن جمهرة أفراده ، قلةً مختارة ، ينتقل أفرادها بعد الموت إلى دار الخلود[1] ، حيث يعيشون ــ فوق الأرض ــ الحياة نفسها التى كان يحياها عنصر الذهب .

وواضح أن إدراج « جنس الأبطال » بين « عنصر البرونز » و « عنصر الحديد » ؛ فكر طارئ ، يحجبُ مغزى الشّعر ، ويُخلُّ بتناسق فكرته ، ويزعزع مبناه .

فما الذى دفع بالشاعر إلى اللجوء إلى هذا الإدراج السخيف ؟

مناط الإجابة : إن الصورة الممثلة هنا لجنس الأبطال ، قد إنطبعت فى

---

(١) فى الأصل Elyium وهو فى الأساطير اليونانية دار أرواح أبطال اليونان بعد الموت . (المترجم)

مخيلة الشاعر وجمهوره إلى درجة حتّمت البحث عن موضع توضع فيه . إن عنصر الأبطال ، إن هو إلا عنصر البرونز أُعيد تقييمه فى عبارات ليست من أسلوب الشاعر هسيود فى جِديّة حقائقه ، ولكنها استعارة من خيال هوميروس المفتّن .

إن عصر البطولة إذا نظرنا إليه من الناحية الاجتماعية ؛ ليعتبر عصر حماقة وإجرام . إلا أنه إذا نظرنا إليه عاطفياً ، يُعدّ تجربة كبرى . إنه تجربة مثيرة ؛ تجربة النفوذ بين تضاعيف الحاجز الذى طالما أعجز أسلاف الغزاة المتبربرين أجيالا ؛ والانفلات إلى عالم يبدو ولا حدّ له ، يقدّم لهم إمكانيات تبدو لا حدود لها . على أن هذه الإمكانيات ما تلبث أن تستحيل إلى إجداب ، خلا شيئاً واحداً مجيداً . ومع ذلك فإن الإخفاق التام المثير الذى أصاب البرابرة على الصعيدين الاجتماعى والسياسى ، يُهيّء – على النقيض – التوفيق لإبداع شعرائهم .

ذلك لأنه فى دنيا الفنون ، يكون الفشل فى الإبداع الفنى ، أبعث على الإبداع أكثر من النجاح . فقصة نجاح ، لن تبلغ ما تبلغه مأساة . فإن الحماسة التى تولّدها هجرة الشعوب ، تتحلل إلى فساد يسرى فى النفوس السُّكرى للرجال الفعّالين ، بينما هى تُلهم الشاعر المتبربر ليعبر عن ذكرى أبطاله ، بأغنية خالدة . بما هم عليه من إثم وفدامة ، وفى هذا الملكوت المسحور – ملكوت الشعر – يحقق الغزاة المتبربرون – بالإنابة – المجد الذى عجزوا عن بلوغه فى حياتهم الواقعية . وهكذا يتجه التاريخ وجهة عاطفية يكتب لها الخلود .

وإذا كان شعر البطولة يخلب لباب المعجبين المُحدثين ، فهو يصرفهم عن رؤية الحقيقة ، وهى أنه كان فاصلا كئيباً من فناء حضارة ومولد أخرى لتخلفها ؛ هذا الفاصل الذى أطلقنا عليه فى هذه الدراسة فى تهكم مقصود ، تعبير : عصر البطولة أو عصر الأبطال .

وأول ضحايا ذلك الوهم هو – كما رأينا – شاعر « عصر مظلم » ، هو نتاج لعصر البطولة . ومصداقاً لما أبدته اللمحة الماضية ؛ ليس للعصور المظلمة أن تخجل من ظلمتها ؛ وهي ظلمة تعني أن المشعلات[1] البربرية الحارقة قد خبّت بعد ما أحرقت في النهاية نفسها . وعلى الرغم من أن سطح الأرض وعليه آثار اللهب – قد اختفى تحت ركام من الرماد ، إلا أن العصور المظلمة تُظهر قُدرتها الإبداعية ، بينما لم تكن عصور البطولة كذلك . حتى إذا مضى الزمن واكتمل ، أشرقت في الوقت المناسب حياة جديدة ، تكسو حقل الرماد بالنبت الغض ، وشعر هسيود على حوشيته – إن قُورن بشعر هوميروس – إرهاص بعودة الربيع . لكن هذا القصّاص الأمين لعهد الظلام قبل بزوغ الفجر ، كان لا يزال مبهوراً بشعر أوحته إليه نزعة التحريق بالليل ؛ نزعة إعتنقها هومير كحقيقة تاريخية ، وتخيلها صورة لجنس الأبطال .

وتبدو أوهام هسيود متسمة بالغرابة . وذلك إن أخذنا بعين الاعتبار أنه في الصورة التي رسمها لعصر البرونز ؛ قد حفظ لنا وصفاً قاسياً لا رحمة فيه للمتبربر على حقيقته . ثم نرى أنه قد أعاد إلى الأذهان مرة أخرى ، صورة المتبربر في خيال هوميروس . بيد أنه حتى بانتفاء هذه الدلالة ، في وسع البيّنة الباطنية نسف الأسطورة البطولية . فإذا ما أطفأنا جميع الأنوار المصطنعة وعلى ضوء النهار الساطع وحده ، ورحنا نفحص ذلك الاستعلاء الشعري للقتال الثائر والمآدب الصاخبة ؛ تبدّى لنا مثوى الأبطال وقد عاشوا حياة شريرة ، وماتوا الميتة الشنيعة التي ماتها جنس البرونز ، وتبدّى لنا مثوى الأبطال وقد استحال إلى حي قذر . إن المحاربين الجديرين بالقبول في مثوى الأبطال ؛ ليسوا إلا أشباه الشياطين الذين صبّ عليهم هؤلاء المحاربون جرأتهم . وأن المتبربرين إذ يتلاشون من على وجه البسيطة ، قد خلصوا العالم من مجمع الشياطين ؛ وحين هلكوا

---

(١) المشعلة : نار لإحراق هشيم أو غيره . (المترجم)

جميعاً وحطم بعضهم بعضاً وفنوا ، قدموا للعالم صنيعاً قدّره كل إنسان ما عداهم .

ولعل هسيود هو الأول – لكنه لم يكن الأخير قطعاً – الذى خدعته بهجة الملاحم البربرية . فإننا فى القرن التاسع عشر الميلادى – الذى يُفترض أنه عصر إستنارة – نشاهد فيلسوفاً مدّعياً يقدم أسطورته عن جنس نوردى متبربر خيّر ، يفعل دمه فى البدن فعل إكسير الشباب إذا لُقّح به مجتمع أثقلته السنون . ولعل نياط قلوبنا ما تزال تتقطع إذ نراقب « لعبة الروح »[1] الأرستقراطية الفرنسية الرشيقة ، تتحول إلى أسطورة عنصرية على أيدى دعاة البربرية الشيطانية الألمانية الجديدة . وحقاً ؛ فإن إصرار أفلاطون على إستبعاد الشعراء من جمهوريته ، يكتسب معنى واضحاً إذا ما تتبعنا السبب والأثر بين مؤلفى الأساطير النوردية ومؤسسى الرايخ الثالث[2] .

على أن المتبربرين المتطفلين قد سنحت لهم الظروف ليقدّموا خدمة متواضعة للأجيال التالية . ففى إبان الانتقال من حضارات الجيل الأول إلى حضارات الجيل الثانى ؛ صنع المتبربرون المتطفلون فى بعض الأحيان ، حلقة وَصَلَتْ بين الحضارة الراحلة وخليفتها الوليدة . وهى حلقة تماثل تلك التى هيأتها الأديان اليفعة لتعبُر فى مرحلة الانتقال التالية : من حضارات الجيل الثانى ، إلى حضارات الجيل الثالث . ويطالعنا على سبيل المثال :

أولا – إرتباط الحضارتين السريانية (السورية) والهلينية بحضارة سابقة

---

(١) يقصد الأستاذ المؤلف ما نادى به الكونت جوبينو الفرنسى فى مستهل القرن التاسع عشر من سمو العنصر النوردى – انظر صفحات ٨٨ – ٩٠ من الجزء الأول من ترجمة هذه الدراسة . (المترجم)

(٢) أى المفكرون الألمان فى العهد الهتلرى وقد نادوا بسمو الجنس النوردى على غيره من الأجناس ، بل واعتبروا طائفة من الأجناس منحطة يحق للجنس النوردى السيطرة عليها لمنفعته أو إبادتها عند الاقتضاء . (المترجم)

عليهما – وهى الحضارة المينووية – بواسطة حلقة تتمثل فى البروليتاريا الخارجية لهذا المجتمع المينووى[1].

ثانياً – وكذلك قيام الحضارة الحيثية بنفس العلاقة بالنسبة لحضارة سابقة عليها هى الحضارة السومرية .

ثالثاً – نشوء الصلة بين الحضارة الهندية والثقافة السندية المتقدمة عليها فى الزمن ، وفقاً لنفس الأسلوب. وذلك مع إفتراض أن الحضارة السندية عاشت حياة مستقلة عن الحضارة السومرية .

وهكذا تتبدى ضآلة الخدمة التى أداها المتبربرون ، إن قورنت بالدور الذى أدته الأديان اليفعات :

فإن البروليتاريا الداخلية – وهى التى تُشيِّد العقائد الدينية – والبرليتاريا الخارجية – وهى التى تستولد عصابات الحرب – وإن اجتمعتا فى الأصل المشترك ، بحسبانهما كليهما خلف انشقاق سيكلوجى عن حضارة متحللة ؛ إلا أن البروليتاريا الداخلية تمتلك وتخلِّف للأجيال التالية – كما هو ظاهر – تُراثاً من الماضى أخصب بكثير من التراث الذى تمتلكه وتخلّفه البروليتاريا الخارجية . ويتجلى هذا بوضوح إن قارنا ما تدين به الحضارة المسيحية الغربية للحضارة الهلينية ، بما تدين به الحضارة الهلينية للحضارة المينووية : فلقد اصطبغت الكنيسة المسيحية بصبغة هلينية إلى حدّ التشبّع ؛ فى حين جهل الشعراء الهومريون[2] تماما بالمجتمع المينووى . فكأنهم صوروا عصر

---

(١) البروليتاريا الخارجية فى هذه الحالة . البرابرة الآخيون كما مر بنا بموضع سابق من هذه الترجمة . (المترجم)

(٢) نسبة إلى هوميروس الشاعر اليونانى الذى تنسب إليه صياغة ملحمة الإلياذة والأوديسية ، وقد بسط فيهما بطولات المتبربرين الآخيين . (المترجم)

البطولة فى « خلاء » ؛ إلا من إشارة عابرة إلى الجيفة[1] الضخمة التى أولم عليها الأبطال النسور — أبطال فى شعر الشعراء — نهّابو المدن ؛ كما كانوا يفخرون بتسمية أنفسهم .

وفى ضوء ما تقدم ، يلوح أن الخدمة التى أداها الآخيون وغيرهم من متبربرى جيلهم الذين أدوا نفس الدور الانتقالى ، تتضاءل إلى حد العدم .

فما هو مبلغ ما وصل إليه هذا الصنيع بالفعل ؟

تتجلى حقيقته ، وقتما نقارن سائر الحضارات المنتمية إلى الجيل الثانى — تلك التى تنتسب أسلافها بوساطة هذه الحلقة المتبربرة الواهية — بمصائر بقية الحضارات الثانوية . وأية حضارة ثانوية لا تنتسب إلى سلفها الحضارى بوساطة البروليتاريا الخارجية للحضارة السالفة ، لابد أن يكون انتسابها عن طريق الأقلية المسيطرة للحضارة التى انبعثت هى منها . هذان هما الحلان البديلان ، طالما لم تنبعث عقائد دينية يقمعة عن الأديان العليا الأساسية للبروليتاريا الداخلية للحضارات الأولى .

وهكذا تصبح لدينا مجموعتان من حضارات الجيل الثانى :

الأولى — مجموعة الحضارات التى تنتسب إلى أسلافها عن طريق البروليتاريات الخارجية .

الثانية — مجموعة الحضارات التى تم عملية انتسابها بوساطة الأقليات المسيطرة لأسلافها .

وتقف هاتان المجموعتان — من وجهة نظر أخرى — على طرفى نقيض :

---

(١) يقصد الأستاذ المؤلف بهذا التعبير الحضارة المينووية التى أجهزت عليها عصابات الحرب البربرية الآخية . (المترجم)

أولا – أن حضارات المجموعة الأولى تمايز عن الحضارات السالفة إلى درجة تجعل نفس حقيقة إنتسابها ، موضع شك .

ثانيا – أما المجموعة الثانية ، فهى شديدة الارتباط بأسلافها إلى حد قد يجعل من إدعائها كيانا منفصلا ، موضع نقاش . وتطالعنا أمثلة ثلاثة لهذه المجموعة : فى الحضارة البابلية التى يمكن إعتبارها ؛ إما حضارة منفصلة ، أو إمتدادا للحضارة السورية ؛ وفى الحضارتين الياكوتية والمكسيكية اللتين تمتان بالمثل إلى الحضارة المايانية .

وعسانا بعد تنسيق هاتين المجموعتين أن نمضى قدما ، فنلاحظ تباينا آخر بينهما . ذلك لأن مجموعة الحضارات الثانوية « فوقا لمنتسبة » (أى الجلوع الميتة للحضارات الأولى) قد منيت جميعها بالفشل ، فى حين قيض النجاح لحضارات المجموعة الأخرى : الهلينية ، السريانية (السورية) ، السندية . وحقا ، ما من حضارة « فوق المنتسبة » قد أفلحت فى إنجاب دولة عالمية ، قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة .

فإذا أعدنا إلى الأذهان النتيجة التى انتهينا إليها ؛ وهى أن ترتيبنا المسلسل لنماذج المجتمع المتتابعة زمنيا ، هو فى نفس الوقت ترتيب تصاعدى من حيث قيمتها ، بحيث تبلغ الأديان العليا أقصى درجة ؛ إذا فعلنا ذلك ، لاحظنا أن يفعات الحضارات المتبربرة المنتمية إلى الجيل الثانى (لا إلى الجيل الثالث) ، لها أن تفخر بشرف المشاركة فى تطوير العقائد العليا .

وفى وسعنا بوساطة الجدول التالى ، عرض القضية بأجلى بيان :

جدول تسلسل لنماذج المجتمع المتتابعة

الحضارة المينووية

البرابرة التالون للحضارة المينووية
(الفلسطينيون والآخيون)

الحضارة السريانية

الإسلام
(مشتق من الحضارة السريانية عن طريق بروليتاريتها الداخلية)

الحضارة الهلينية

المسيحية
(مشتقة من الحضارة الهلينية عن طريق بروليتاريتها الداخلية

الثقافة السندية

الثقافة التالية للحضارة السندية

البرابرة الآريون (الأرياس)

الحضارة السندية

الديانة المهايانية
(مشتقة من الحضارتين الهلينية والسندية عن طريق بروليتاريتهما الداخلية)

العقيدة الدينية الهندوكية
(مشتقة من الحضارة السندية عن طريق بروليتاريتها الداخلية)

ملاحظة ــ كتيبة النساء المريعة

لعل من المتوقع أن يكون عصر البطولة ، عصر مُذكر فى المكان الأول . ألا تدينه الشواهد بأنه عصر قوة بهيمية ؟

وإذا أُطلق العنان لهذه القوة العارمة ، فأى حظ للنساء أن يتماسكن إزاء الجنس الآخر المتفوق عليهن من الناحية الجسمية ؟

ولكن هذا المنطق المفحم لا تنقضه فحسب الصورة المثالية التى يعرضها شعر البطولة ، بل تفنّده كذلك وقائع التاريخ .

فى عصر البطولة ، قُدّر للكوارث الفادحة أن تكون من صنع النساء ، حتى وقتما كان دورهن فيها سلبيا . فإذا كانت رغبة آلبيون Albion [1] فى روزامند Rosamund ــ وهى رغبة لم تتحقق ــ كانت السبب فى استئصال مملكة آل جيبيدائى Gepidae ، فإن من المعروف أن تخريب طرواده Troy سببه إشباع رغبة باريس Paris فى هيلانه Helen . وأكثر من ذلك شيوعاً ؛ أن نجد النساء ــ أصل الكوارث بلا مواربة ــ يدفع حقدهن الأبطال إلى ذبح بعضهم بعضا . وما الشجار ــ الذى ترويه الأسطورة ــ بين برونهيلد [2] Brunhild وكريمهيلد Kriemhild ، وظهر فى النهاية فى عملية الذبح التى تمت فى باحة آتيللا على الدانوب ؛ إلا قطعة من الأحداث الحقيقية فى الصراع بين

---

(١) آلبوين Aibom . ملك اللومبارد ٥٦٥ – ٥٧٣ أمكنه بمعاونة الأفاريين اجتياح مملكة جيبدائى وقتل ملكها . ثم اتخذ من ابنة القتيل – وتدعى روزامند – زوجة له . وحوالى عام ٥٦٨ م أغار على إيطاليا ، وفى عام ٥٧٣ م قتله عشيق زوجته بتحريض منها لأنه (أى الملك البوين) أرغمها أن تحتسى الخمر فى كاس صنعت من جمجمة والدها . (المترجم)

(٢) برونهيلد Brunhild : فى الأساطير الشمالية – كانت ملكة ايسلندا . طلب سيجفريد Siegtried يدها للملك جونثر Gunther ملك بورجاندى Burgundy . لكن كريمهلد Kriemhild أخت الملك جونثر وزوج سيجفريد أثارت الحقد فى نفس الملكة على زوجها . وكان للملكة صديق يدعى هاجين Hagen من أتباع الملك جونثر ، فحرضت صديقها على سيجفريد فقتله . (المترجم)

شخصية برونهيلد التاريخية[1] وعدوها فريدجوند Fredegund . وهو صراع اقتضى مملكة المرفنجيين (إحدى الممالك التى انبعثت عن تفتت الإمبراطورية الرومانية) أربعين سنة من الحرب الأهلية .

وبالطبع ؛ لا يقتصر تأثير النساء على الرجال – إبان عصر البطولة – على تحريض رجال عشيرتهن على قتال بعضهم بعضا . فما من امرأة خطت فى التاريخ أثراً أعمق مما خطته أولمبيا أم الإسكندر ؛ وهند أم معاوية بن أبى سفيان ؛ وكلتاهما قد خلدتا نفسيهما بنفوذهما الأدبى طوال حياتهما على ولديهما الجبارين . ولكن فى الوسع إيراد قائمة تطول إلى ما لانهاية ؛ تضم نساء من سجلات التاريخ المؤكدة ، من طراز جونريل Gonerel وريجان Regan واللادى ماكبث .

ولعل ثمة اتجاهان لتفسير هذه الظاهرة : أحدهما اجتماعى والآخر سيكلوجى :

ويقوم التفسير الاجتماعى على أن عصر البطولة ، عصر فراغ اجتماعى تحطمت فى غضونه العادات الاجتماعية للحياة البدائية . بينما لم تتولد بعد عادات جديدة عن حضارة وليدة أو ديانة عليا ناشئة . وهكذا ؛ تتولى ملء الفراغ الاجتماعى – فى هذا الموقف القصير الأجل – روح فردية مطلقة يبلغ من قوتها أن تنسخ الاختلافات الكامنة بين الجنسين . ومن العجيب أن نجد هذه الفردية المطلقة العنان ، تحمل ثماراً لا يكاد يمكن تمييزها عن ثمار تحملها روح أنثوية غير واقعية ؛ تجاوز فى جملتها ، المجال العاطفى والأفق الثقافى للنساء والرجال الذين عاشوا فى مثل هذه العصور .

---

(٣) برونهيلد فى التاريخ . كانت ابنة آثاناجيلد Athanagila أحد ملوك القوط الغربيين . إقترنت بسيجبرت Sigbert ملك أوستراسيا . وكانت أختها فى نفس الوقت زوجاً لملك نوستريا ، إلا أنه قتلها وسعى إلى قتل أخت زوجته كذلك (أى قتل برونهيلد) إلا أنها أمكنها تفادى قصاصه واستطاعت بعد وفاته أن تؤدى دوراً هاماً فى تاريخ الممالك الفرنجية . وقيض لها عدة مرات النجاة من أعدائها . إلا أنها سقطت أخيراً فى أيديهم فأماتوها شر ميتة . (المترجم)

وإذا ما اقتربنا من جانبها السيكلوجى ، فلقد يقال أن الأوراق الرابحة فى صراع المتبربرين المميت فى سبيل البقاء ، لا تتمثل فى قوة بهيمية ؛ لكنها تتجلى فى صفات : الدأب ، الثأر ، التأجج ، الاحتيال ، الغدر ؛ وتلك هى نزعات زُوّدت بها الطبيعة البشرية الآثمة : ذكراً أكانت أم أنثى .

فإذا ما تساءلنا فيما إذا كان النساء اللاتى مارسن هذه النزعات فى « جحيم » عصر البطولة ، هن بطلات أم أفاقات أم ضحايا ؛ فلن نوفّق إلى إجابة صريحة . أما الواضح ، فهو أن مأساة تناقضهن المعنوية ، تجعل منهن موضوعات للشعر مثالية . فلا يُستغرب إذن : أن يصبح ما يدعى بـ « قوائم النساء » ، واحداً من « الإيقاعات » المحببة فى تُراث ملاحم عصر البطولة الذى أعقب انهيار المجتمع المينووى . وفى هذه القوائم يُبرز القصاص إلى العيان أسطورة جريمة ارتكبتها امرأة مسترجلة ، ويصف آلامها . ويمضى فى سرده الشعرى لسير النساء من تلك الطبقة ، الواحدة بعد الأخرى .

ولا ريب أن النساء الحقيقيات اللاتى عشن فى التاريخ وردد هذا الشعر مغامراتهن الشريرة ، يبتسمن متضجرات ، لو علمن — مُسبقا — أن هذه الذكريات ستُثير يوما ما قصيدة من الشعر فى خيال أحد شعراء العصر الفيكتورى . وهن يشعرن بكل تأكيد براحة تامة فى جو المشهد الثالث من الفصل الأول من مسرحية ماكبث .

الباب التاسع

الاتصال بين الحضارات فى المكان



الفصل الثلاثون

امتداد ميدان الدراسة

تستند الفكرة الأساسية لدراسة التاريخ هذه ، على أن الحضارات التاريخية هى ميادين للدراسة متعددة ، قابلة للفهم . وإن مهمتنا لتصبح عاجزة إن أثبتت الفكرة صلاحيتها للتطبيق فى جميع مراحل تواريخ الحضارات . ولكنا رأينا أن حضارة ما ؛ تبدو قابليتها للفهم ، طالما نبحث نشوءها ونموّها وانهيارها . إلا أنها تفقد قابليتها للفهم ، إن انتقلنا إلى دراستها فى مرحلة التحلل . ولن يتأتى تفهّم هذه المرحلة الأخيرة فى التاريخ الحضارى إلا إن وسّعنا مجال بصرنا الذهنى إلى أبعد من حدوده المألوفة ، وأخذنا فى اعتبارنا تأثير العوامل الخارجية . وهنا يحضرنا مثال واضح فرد ، وهو أن الإمبراطورية الرومانية هيأت المهد الذى فيه ترعرعت المسيحية ، المستوحاة من الحضارة السريانية (السورية) .

ويفسر أحد الأمكنة الشائعة فى الجغرافية التاريخية ، أهمية الدور الذى أدّاه التصادم بين مختلف الحضارات ، فى عملية تكوين الأديان العليا . وللتدليل على صحة هذا الرأى ؛ أن خارطة أماكن إنبعاث الأديان العليا؛ تبين تكدسها فى — أو حول — رقعتين صغيرتين نسبيا من مجموع مسطح الأرض فى العالم القديم وهما :

أولا — حوض نهر سيحون وجيحون — كان مسقط رأس البوذية المهايانية على الصورة التى انتشرت بها فى عالم الشرق الأقصى . ولربما نشأت بذلك الموضع قبلئذ ، عقيدة زرادشت .

وثانيا ـ سوريا ـ ونقصد بذلك الاصطلاح معنى أوسع دلالة ؛ يشمل منطقة تُحدّ بالسهوب العربية الشمالية وبالبحر المتوسط والمنحدرات الجنوبية للهضبتين الأناضولية والأرمنية .

وفى أنطاكية بسوريا : تبلورت المسيحية فى الشكل الذى عمّت به ـ من هناك ـ العالم الهلينى ، بعد ظهورها فى الجليل فى بداية الأمر كضرب من اليهودية الفريسية . وفى سوريا الجنوبية[١] ؛ انبعثت اليهودية وشقيقتها الديانة السامرية[٢] . وفى سوريا الوسطى[٣] نشأت المسيحية المارونية المؤمنة بالإرادة الواحدة[٤] ، وكذلك الشيعة الدروز الذين يعبدون الحاكم[٥] .

ويتبدّى هذا التركيز الجغرافى للأماكن التى ولدت بها الأديان العُليا فى صورة أوضح ، إن نحن وسّعنا مجال أفقنا ليتناول مناطق متاخمة . فإن الحجاز وهو امتداد سوريا صوب الجنوب على طول المرتفعات التى تطرّز البحر الأحمر يحتوى على البقاع التى نشأ فيها الإسلام العقيدة الدينية الجديدة[٦] .

---

(١) أى فلسطين .

(٢) لا تعترف العقيدة السامرية إلا بالأسفار الخمسة الأولى أى : التكوين ـ الخروج ـ اللاويين ـ العدد ـ التثنية . ولا تؤمن ببقيتها وتبلغ ٣٤ سفراً . (المترجم)

(٣) أى لبنان .

(٤) الكنيسة المارونية : أسسها القديس مارون قبل عام ٤٢٣ ميلادية . وكانت تؤمن بأن للمسيح إرادة واحدة . وهذا عكس المذهب الشائع عند معظم المسيحيين القائل بأن للمسيح إرادتين : إرادة بشرية وأخرى إلهية . وفى سنة ١١٨٢ م إتحدت الكنيسة المارونية مع كنيسة روما ، ثم أصبح المارونيون منذ عام ١٢١٦ م راسخين فى العقيدة الكاثوليكية . (المترجم)

(٥) أى الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله . (المترجم)

(٦) إن اعتراف الإسلام بالسيد المسيح عليه السلام ـ عكس اليهودية التى تنكره جملة وتفصيلا ـ وإن اقتصر ذلك الاعتراف على الطبيعة البشرية إطلاقاً ، قد حدا بالأستاذ المؤلف إلى القول فى بعض مواضع كتابه بأن الإسلام مسيحية من نوع خاص . وردنا على ذلك أن الإسلام ينكر طائفة من قواعد المسيحية الأساسية التى يستند عليها جوهرها المميز وفيها تتخذ شكلها المعروف :

=

وإذا نحن وسّعنا كذلك أفق نظرتنا لحوض نهرى سيحون وجيحون ؛ اكتشفنا المكان الذى وُلدت فيه المهايانا فى أول ظهورها فى حوض السند ، وهو مسقط رأس البوذية البدائية . وكذلك وقعنا فى الحوض المتوسط لنهر الجانج على المكان الذى ولدت فيه العقيدة الهندوكية التالية للبوذية .

تُرى ما هو التفسير ؟

= أولا – فكرة الصلب – فلا يعترف الإسلام بصلب السيد المسيح . وفى هذا يقول الله فى محكم آياته : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » . فالإسلام ينكر بالتالى فكرة الفداء وهى ركن المسيحية الركين .

ثانياً – إنكار ألوهية السيد المسيح والأقانيم الثلاثة بالتالى ، إنكاراً باتاً .

ثالثاً – عدم اعتراف الإسلام بفكرة الخطيئة الأزلية التى انحدرت إلى البشرية من آدم فأصبحت ترزح تحتها وهى التى تطلبت – وفقاً للمبادئ المسيحية – تجسد الإله فى صورة بشرية لافتداء الإنسان . إذ ينادى الإسلام بمسئولية كل فرد عن عمله (كل نفس بما كسبت رهينة – من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) .

رابعاً – يعترف الإسلام بالدنيا ؛ وعلى نوع عمل الإنسان فيها يتوقف جزاؤه فى الآخرة . وهذا عكس المسيحية التى تجعل من الحياة الدنيا رمزاً للخطيئة الأزلية . فهى لا تعترف بالدنيا وترنو إلى الآخرة حيث ملكوت الرب .

خامساً – ترى المسيحية أن نزول آدم إلى الأرض ، عقاب له على خطيئته التى باتت أزلية بانتقالها إلى أخلافه الذين يكابدون فى الحياة الدنيا بفعل ذنب ارتكبه جدهم الأعلى ولم يرتكبوه هم بالذات .

أما الإسلام فإنه وإن سلم بخطيئة آدم ، إلا أنه وحده المسئول عنها . بل إن الله تعالى قد تاب عليه بعد أن لقنه كلمات التوبة والغفران : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم » . أما نزول آدم إلى الأرض فإنه لإظهار إبداعه وقدرته تعالى « إنى جاعل فى الأرض خليفة » .

ومن ثم نجد القرآن الكريم يدفع المؤمنين إلى العمل الصالح ، وهو لا يقتصر على العبادة وحسن معاملة الناس لبعضهم بعضاً ، بل يمتد إلى تعمير الأرض بالأعمال المنتجة .

فمبادئ الإسلام والحالة هذه أصيلة ، غاية فى الأصالة . وإن اعترفت بطائفة من المبادئ والآراء المسيحية واليهودية التى تتفق والتعاليم الإسلامية الأساسية ولا تتنافى مع الرسالة الإسلامية السامية . وهذا الإعتراف مصداق لقوله تعالى « مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل » . وهذه الأصالة يعترف بها الأستاذ المؤلف فى مواضع أخرى من كتابه ، ونجد نظرته إلى الإسلام أشد وضوحاً فى كتابه **A Philosopher Approach to Religion**.

(المترجم)

إذا ما نظرنا إلى خصائص حوض سيحون وجيحون من ناحية ، وسوريا من الناحية الأخرى ، وقارنا أحدهما بالآخر ، نجد أن الطبيعة قد منحت كلا منهما القدرة على القيام بدور « دائرة التلاقى » حيث يمكن لأية حركة انتقال آتية من المنطقة ، أن تتحول إلى أية نقطة أخرى فى المنطقة ؛ فى خطوط لانهاية لها .

فى دائرة التلاقى السورية : تتلاقى الطرق الآتية من حوض النيل ومن البحر الأبيض المتوسط ومن الأناضول (مع ظهيرته الأرض الأوربية الجنوبية الشرقية) ومن حوض دجلة والفرات ومن السهوب العربية .

وكذلك تتلاقى — فى دائرة التلاقى من آسيا الوسطى — الطرق الآتية من حوض دجلة والفرات عن طريق الهضبة الإيرانية ، وتلك الآتية من الهند عبر الممرات الواقعة فوق جبال هندوكوش . ومن الشرق الأقصى ، عن طريق حوض نهر تاريم : وكذلك الطرق الآتية من السهوب الأوراسية المتاخمة ، التى أخذت مكان « منطقة بحر متوسط أخرى » وورثت خاصية التوصيل هى الأخرى ؛ وشهد على وجودها فيما مضى ، بقاياها الماثلة فى بحر قزوين وفى بحر آرال وفى بحيرة بالكاش .

فالدور الذى رسمه القدر — والحالة هذه — لهذين المركزين القويين لحركة التجارة ، وقد أداه كل منهما فى واقع الأمر ، المرة بعد الأخرى . وذلك فى غضون الخمسة آلاف أو الستة آلاف سنة منذ انبعاث الحضارات الأولى :

فقد ظلت سوريا خلال فترات متعاقبة ، مسرحاً للمصادمات بين الحضارتين : السومرية والمصرية ؛ وبين الحضارات : المصرية والحيثية والمينووية ؛ وبين الحضارات : السريانية (السورية) والبابلية والمصرية والهلينية ؛ وبين الحضارات : السريانية (السورية) والمسيحية الأرثوذكسية والمسيحية الغربية . وفى نهاية المطاف ، شهدت هذه المنطقة الاتصالات بين الحضارات : العربية والإيرانية والغربية .

وكذلك كان حوض سيحون وجيحون مسرحا للمصادمات خلال فترات متعاقبة بين الحضارتين : السريانية والسندية ؛ وبين الحضارات : السريانية والسندية والهلينية والصينية وبين : الحضارة السريانية وحضارات الشرق الأقصى .

وترتب على هذه المصادمات : أن كلا من هاتين المنطقتين الحاملتين للإشعاع الديني ، قد دخلت في نطاق الدول العالمية التي انتظمت في عدد من الحضارات المختلفة . وهذا التمازج الفعال الذي لا نظير له بين الحضارات في هاتين المنطقتين ؛ يفسّر التركيز الغير العادي – داخل حدودهما – لمواطن انبعاث الأديان العليا .

ولعلنا نجازف – مستندين على متانة هذه الحُجّة – باستنباط قانون مداره أنه – لدراسة الديانات العُليا – ينبغي توفير أضأل قدر ممكن فهمه من ميدان الدراسة . على أن يكون هذا القدر أوسع عند دراسة الأديان ، منه عند دراســة حضارة بمفردها . ففي ميدان العقيدة الدينية العليا ، تتصادم حضارتان أو أكثر .

لهذا ستكون خطوتنا التالية ، القيام بعرض لتلك المصادمات ، أوسع نطاقاً . وهي المصادمات التي عملت – في ظل أوضاع تاريخية خاصة – على إبراز الأديان العليا إلى الوجود .

والمصادمات التي نحن بصددها ؛ هي اتصالات في البُعد المكاني بين الحضارات التي – وفقاً للفرض – يجب أن تكون كل منها معاصرة للأخرى . ولكن قبل أن نصل إلى هذه النقطة من الجزء الحالي من هذه الدراسة ، عسانا ننوه بأن للحضارات اتصالات – إحداها بالأخرى – في البُعد الزماني كذلك .

وهذه الاتصالات من نوعين :

الأول : يتضمن علاقة التبنّي والانتماء بين الحضارات المتعاقبة . وهو موضوع رافقنا طوال هذه الدراسة .

الثانى : يشمل العلاقة بين الحضارة اليافعة و« طيف » الحضارة السابقة عليها فى الوجود ، والتى انقضى أجلها منذ أمد طويل : ولعلنا نطلق على الحضارات التى من هذا الطراز اسم « البعث » Renaissance مقتبسين الإسم الذى ابتكره فى القرن التاسع عشر ، كاتب فرنسى لوصف مثال خاص — ليس هو الوحيد بأية حال من الأحوال — لهذه الظاهرة التاريخية .

وسنفرد القسم التالى من هذه الدراسة للمصادمات بين الحضارات فى الزمن .

الفصل الحادى والثلاثون

عرض للمصادمات بين الحضارات المتعاصرة

---

(١) خطة العمل

إذ نضطلع بإجراء عرض للمصادمات بين الحضارات المتعاصرة[١] ، تواجهنا متاهة من التاريخ معقدة تعقيداً رهيبا ؛ مما يجعل من سداد الرأى البحث عن موضع مناسب نلج منه إلى تلك المتاهة .

ولقد بلغت عُدّة الحضارات التى حددنا أصلا مواقعها على خارطتنا الثقافية واحدا وعشرين حضارة . وإذا ما كشفت لنا الحفائر الأخيرة عن صدق فكرة أن الثقافة السندية تكوّن مجتمعا قائماً بنفسه منفصلا عن الحضارة السومرية ، وأن ثقافة شانج « Shang » كانت — كحضارة — سابقة على الحضارة الصينية . عندئذ ينبغى على هذا التغير فى عدّنا ، إزدياد مجموع الحضارات إلى ثلاثة وعشرين . على أن من الواضح ؛ حتى لو سلمنا بأنه لا يمكن وقوع تصادم من النوع الذى تعنينا دراسته هنا بين حضارتين متعاصرتين لم يحدث بينهما اتصال ؛ حتى لو سلمنا بهذا ، فإن عدد المصادمات بين الحضارات المتعاصرة ، قد يتجاوز بشكل مفرط — وهو الحاصل بالفعل — عدد الحضارات نفسها .

وقد أسفرت دراستنا — كما لاحظنا دائماً — عن وجود ثلاثة أجيال من الحضارات . وإذا كانت حضارات الجيل الأول قد تلاشت تزامنيا[٢]

---

(١) المتعاصر : الواقع معاً فى عصر بعينه . (المترجم)

(٢) التزامنى : أى فى نفس الوقت والزمن . (المترجم)

ولاقت حضارات الجيل الثانى نفس المصير ؛ عندئذ تصبح خيوط المصادمات فى البُعد المكانى بين الحضارات ، أكثر بساطة . وبالأحرى ؛ علينا التمعّن فى المصادمات المتبادلة لحضارات منتمية إلى الجيل الحضارى الأول : ا ، ب جـ ، د ، هـ ؛ دون أن نسلّم بإمكان وقوع تصادم بينها وبين حضارات منتمية إلى الجيل الحضارى الثانى : و ، ز ، ح ، ط ى.

وهذا بالطبع لم يحدث فعلا .

فلئن كانت الحضارة السومرية مثلا ، قد استسلمت برفق لنهاية متواضعة قبل أن يُقيّض لها مواجهة أية حضارة فتية من الحضارات المنتمية إلى الجيل الحضارى ؛ فقد سلكت الحضارة المصرية – تلك الحضارة المشعّة المنتمية إلى الجيل الأول – سلكت طريقا يختلف تماما عن الطريق الذى سلكته الحضارة السومرية .

وكان ثمة – حتى العصور الحديثة – عامل واحد ، جعل عدد المصادمات التى وقعت فعلا بين الحضارات المتعاصرة فى المكان ، يقصر كثيراً عن بلوغ أكبر عدد ممكن من الوجهة الحسابية . ولعل مرد ذلك ، إتساع البُعد المكانى ؛ أو أنه من طبيعة خاصة تحول دون وقوع التصادم التبادلى . فليست هناك – من قبيل المثال – مصادمات بين حضارات العالم القديم وحضارات العالم الجديد ، قبلما تتمكن الحضارة الغربية من السيطرة على فن الملاحة عبر المحيط ، خلال الفصل الحديث من تاريخها (حوالى ١٤٧٥ – ١٨٧٥) . وتعتبر هذه المأثرة معلما تاريخيا من معالم الطريق ، لعله يزودنا بدلالة تهدينا إلى مدخل ننفذ منه إلى متاهة التاريخ التى أخذنا على عاتقنا أن نرتادها .

وحقاً ؛ عند ما تمكن الملاحون الأوربيون الغربيون فى إبان القرن الخامس عشر للميلاد من فن الملاحة فى المحيط ، كسبوا بذلك وسيلة إستخدموها فعلا للوصول إلى جميع الأراضى المأهولة والصالحة للسكن على وجه هذا الكوكب . وهكذا غدا تأثير الغرب – بالتدريج – هو القوة الاجتماعية الطاغية على حياة جميع المجتمعات الأخرى . وكلما إزداد الضغط الجاثم عليها ،

إنقلبت حياة تلك المجتمعات رأساً على عقب . وبدا للوهلة الأولى ؛ كما لوأن حياة المجتمع الغربى فى غضون عُمر كاتب هذه الدراسة — من بين ثنايا تلاقى الغرب بالمجتمعات المعاصرة له ، تلاقى كدّر سماء المجتمع الغربى نفسه .

ولقد كان الدور الطاغى للغرب الذى جاء نتيجة تلاقى الغرب وبناء اجتماعى غريب ، ظاهرة مستحدثة فى التاريخ الغربى فى عهده الأخير .

فلقد ظل الغرب — إجمالا — منذ فشل الهجوم العثمانى على فيينا عام ١٦٨٣ م حتى هزيمة ألمانيا فى الحرب العامة ١٩٣٩/١٩٤٥ ، يحظى بالقوة والتفوق على بقية أنحاء العالم . إلى درجة جعلت الدول الكبرى الأوربية ، لا تحسب — أساساً — حساباً لأية دولة خارج دائرتها . لكن إحتكار الغرب لمظاهر التفوق ، إنقضى أجله عام ١٩٤٥ . إذ ظهر إلى الوجود منذ ذلك التاريخ وللمرة الأولى منذ سنة ١٦٨٣ ، تصادم فى السياسات الدولية ، وكان أحد الطرفين فيه — مرة أخرى — دولة عظمى ذات ملامح غير غربية .

وفى الحق ؛ يكتنف الغموض علاقة الاتحاد السوفييتى والإيدلوجية الشيوعية ، بالحضارة الغربية . فالاتحاد السوفييتى هو الوريث السياسى للإمبراطورية الروسية التى شادها بطرس الأكبر والتى تقبّلت عن طواعية واختيار ، أسلوب الحياة الغربية ، فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر الميلاديين . وشاركت منذ ذلك الحين فى ممارسة « اللعبة السياسية الغربية » وفقاً لتفاهم ضمنى مداره قبول المنضم إلى اللعبة ، قواعدها المقررة ؛ كما وضعها الغرب . ثم كانت الشيوعية — أصلا — مثل المذهب الحر والفاشية — إحـــدى الإيدلوجيات الدنيوية التى انبعثت فى الغرب الحديث بديلا عن المسيحية .

ومن ثم ؛ نجد وجهتى نظر لتفسير الموضوع :

الأولى — تنظر إلى المنافسة بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة على

زعامة العالم — وبين الشيوعية والمذهب الحر بالتالى — على اجتذاب ولاء البشرية ؛ تنظر إليها دواماً كموضوع نزاع عائلى داخل أسرة المجتمع الغربى .

الثانية — تعتبر الاتحاد السوفييتى — كسلفه امبراطورية بطرس الأكبر — دولة عالمية روسية أرثوذكسية تتشبث بأسباب الحياة بارتدائها ثوباً غربياً اصطنعته رداء تنكرياً وكأداة . وبنفس النظرة ؛ يمكن اعتبار الشيوعية بديلا أيدلوجياً للمسيحية الأرثوذكسية الشرقية ، اختارته وفضلته على المذهب الحر . لأن المذهب الحر نتاج غربى أصيل ، فى حين أن الشيوعية ، وإن انتسبت بأصلها إلى الغرب ، هى فى نظر الغرب ردّة كريهة .

ومهما يكن من أمر تلك الآراء ؛ فما لا يقبل الجدل ؛ أن إحياء النزعة المناهضة للغرب — فى صورة حادة — فى الشعور والفكر الروسيين ، كان إحدى نتائج ثورة عام ١٩١٧ الشيوعية الروسية . وكذلك كان قيام الاتحاد السوفييتى كإحدى الدولتين العالميتين المتنافستين الباقيتين ، مؤدياً — مرة أخرى — إلى قيام صراع ثقافى ، انضم إلى حلبة السياسة ؛ تلك الحلبة التى لبثت نحو مائتين وخمسين عاماً مقصورة على الخصومات العائلية بين دول كبرى ذات ملامح ثقافية واحدة[1] .

ويلاحظ كذلك أن الروس بعودتهم إلى ميدان الصراع ضد التأثير الغربى ، بعد انقضاء وقت طويل منذ تسليمهم بخسارة المعركة ، قد قدّموا أنموذجاً احتذاه الصينيون بالفعل بعد واحد وثلاثين عاما . ويحتمل كثيراً أن يحتذيه اليابانيون والهنود والمسلمون . بل قد تتبعه مجتمعات كانت قد اصطبغت بصبغة غربية عميقة ، مثل الكتلة الأساسية للمسيحية الأرثوذكسية

---

(١) أى البلاد التى اصطبغت أساساً بالحضارة البيزنطية واعتنقت المذهب الأرثوذكسى وهى بلاد البلقان . ثم أخذت الحضارة الغربية مع اختلاف فى حظها من التأثير . وتحكمها الآن جميعها — عدا اليونان — أحزاب شيوعية . (المترجم)

فى جنوب شرق أوروبا . وقد تتبعه أيضاً الحضارات الثلاث فى العالم الجديد التى كانت قائمة قبل كشف كولمبوس ، ثم غمرتها الحضارة الغربية[1] .

وتُنبئ هذه الاعتبارات بأن بحث التلاقى الذى وقع بين الغرب الحديث والحضارات الأخرى القائمة ، قد يصلُح أن يكون نقطة ملائمة لبداية البحث . وطبيعى والحالة هذه ؛ أن تتضمن المجموعة التالية من التلاقى الذى نتولى دراسته : تلاقى المسيحية الغربية فى مرحلتها المبكرة — وهى ما ندعوه بالعصور الوسطى — مع جيرانها من حضارات هذا العصر .

ومن ثم ؛ تتبلور خطتنا فى أن نستخلص من بين الحضارات المندرسة ، تلك التى أحدثت تأثيراً على الحضارات المناوحة لها ؛ تأثيراً تمكن مقارنته بتأثير الحضارة الغربية على الحضارات المعاصرة لها . وذلك دون أن نلتزم بدراسة كل تلاقى على حدة ، مما قد تكشفه دراسة تاريخية مُغرقة فى التقصى .

ولزام علينا قبل المُضى فى خطة العمل هذه ، أن نحدد التاريخ الذى يبدأ عنده الفصل « الحديث » من التاريخ الغربى .

إن الباحثين من غير الغربيين يؤثرون إتخاذ بداية للتاريخ الغربى ؛ اللحظة التى وصلت فيها السفن الغربية الأولى إلى شواطئ بلادهم . فإن الإنسان الغربى ، فى نظر غير الغربيين ، مثله مثل الحياة نفسها ترجع — طبقاً لفرض علمى — إلى أصل بحرى . من ذلك أن علماء الشرق الأقصى عندما وقعت أبصارهم على النماذج الأولى للإنسان الغربى أيام عصر أسرة مينج Ming ، أطلقوا على القادمين الجدد إسم « برابرة البحر الجنوبى » ؛ إستناداً على الجهة التى منها جاءوا ، وعلى مستواهم الثقافى الواضح . وفى هذا التلاقى وغيره ؛

---

(١) هى الحضارة الأنديانية والحضارة المايانية وحضارة أميركا الوسطى . وتتكون الحضارة الأخيرة من امتزاج الحضارتين الياكوتية والمكسيكية . (المترجم)

من الملاحون الغربيون المنتشرون فى أرجاء المعمورة ، بسلسلة من التحوّلات فى نظر ضحاياهم الذين استبد بهم الاضطراب . فعندما رسا الغربيون على شواطئهم لأول مرة ، بدا وكأنهم ملاحون مسالمون ، واعتقد الصينيون أنهم ينتسبون إلى فصيلة حيوانية من سلالة سابقة مجهولة . لكن لم يلبث القناع أن سقط عن وجوه هؤلاء الغربيين ، فبدوا على حقيقتهم غيلاناً متوحشين ، جاءوا من البحر ثم ظهر أنهم لصوص بحر وبر ؛ قادرين على الحركة على وجه الأرض ، قدرتهم على الحركة على سطح البحر الذى منه جاءوا .

أما من وجهة النظر الغربية الحديثة ؛ فإن تاريخ الغرب الحديث ، قد بدأ منذ اللحظة التى قدّم الإنسان الغربى شكره ، لا لله ، ولكن لشخصه هو ؛ على أنه قد جاوز مرحلة التدريب المسيحى الذى أَلِفَ الخضوع له طوال القرون الوسطى . وكانت إيطاليا هى البلد الذى بدأ فيه هذا الكشف . ومن قبيل المصادفة ، أن يكون الجيل الذى عاصر صبغ غالبية الشعوب الأوربية فيما وراء الألب بصبغة إيطالية ، هو نفس الجيل الذى شاهد إقتحام الشعوب الأوربية الغربية ، المحيط الأطلسى .

فعلى هُدى هذين المعلمين التاريخيين ، قد نحدد واثقين ، بداية الفصل الحديث من التاريخ الغربى ، عند الربع الأخير من القرن الخامس عشر .

على أننا إذا ما أقبلنا نتأمل نتائج التلاقى بين الغرب الحديث وسائر أنحاء العالم ، سنرى كم هى قصيرة فترة الأربعة القرون ونصف القرن التى إنصرمت منذ فاتحة الرواية . كما سندرك أننا نطالع قصة لم تتم فصولا . وتتضح معالم هذه الصورة إن حوّلنا اهتمامنا إلى الماضى ؛ إلى قصة سابقة من نفس النوع . بمعنى أننا إذا ما قارنا تاريخ تأثير الغرب الحديث على الحضارات التى عاصرته حتى وقتنا هذا ، بتاريخ تأثير الحضارة الهلينية على

المجتمعات . الحيثية ، السريانية (السورية) ، المصرية ، البابلية ، السندية ، الصينية .

وإذا ما عادلنا – بقصد تحقيق هذه الموازنة الزمنية – إجتياز الإسكندر للدردنيل عام ٣٣٤ ق . م . بعبور كولومبوس المحيط الأطلسى عام ١٤٩٢ ميلادية ، فإن فترة الأربعمائة والستين عاماً تصل بنا منذ التاريخ الأخير إلى سنة ١٩٥٢ . فإن أضفنا هذه الفترة إلى التاريخ الأول (أى إلى عام ٣٣٤ ق . م .) ، لا نصل إلا إلى عام ١٢٦ ميلادية . وهذا تاريخ يتأخر ببضع سنوات عن تاريخ المراسلات التى تبُودلت بين الإمبراطور تراجان Trajan ومندوبه السامى بلينى Pliny بشأن موضوع معاملة طائفة غامضة بمقاطعة بثينيا Pithynia وبونطس Pontus ، وهى طائفة المسيحيين .

فمن ذا الذى كان بوسعه وقتذاك أن يتنبأ انتصار المسيحية بعد ذلك ؟

إن هذا القياس التاريخى ، ليُظهر كيف أن المستقبل محجّب قطعاً فى عام ١٩٥٢ ، عن البصر العقلى لبحّاثة غربى يتعرف تأثير الغرب على بقية العالم .

ولما كان التلاقى الذى جرى بين الحضارة الهلينية والحضارات المعاصرة لها قد انتهى أمره منذ زمن طويل وقت كتابة هذه السطور فى القرن العشرين من ميلاد المسيح ، فقد تأتى للمؤرخ والحالة هذه ، تتبع القصة من البداية حتى النهاية ، لكن أين تكون النهاية ؟

إن معرفة ذلك لا يقتضى من الباحث أن ينقب فى الماضى إلى أبعد من القرن الثانى عشر الميلادى ، وقتما كان عالم الشرق الأقصى والعالم السريانى يواجهان تأثير الحضارة الهلينية برد فعل عارم لا ريب فيه . ولقد كانت الفنون المرئية فى عالم الشرق الأقصى ما تزال تستوحى وقتذاك المؤثرات الهلينية . وكانت فلسفة وعلم أرسطو ما يزالان وقتذاك يستثيران المفكرين من المشارقة عن طريق الترجمة العربية لمؤلفات أرسطو .

وبعد ؛ فإن مثل هذه الاعتبارات التى يتيسر إحكامها وتعزيزها بسرد أمثلة مستقاة من مصادر أخرى ، لتذكّر الأذهان بالقول الحكيم المأثور : إن كتابة التاريخ المعاصر أمر متعذر . بيد أنها فى نفس الوقت أحد هذه الأشياء المستحيلة التى يرفض المؤرخون – ولهم كل الحق فى ذلك – الكف عن محاولتها . وإننا مصداقاً لهذا الرأى ؛ نلج هذا الميدان بالذات فنُقدم على هذه المحاولة العسيرة ، بعينين مفتوحتين ؛ منذرين القارئ مقدماً .

وهذه هى المهمة التى نبدؤها فى التو :

(٢) عمليات وفقاً لمنهاج

١ – تلاقى مع الحضارة الغربية الحديثة

أولا – الغرب الحديث وروسيا :

فى أثناء العقد الثامن من القرن الخامس عشر تم تشييد الدولة العالمية الروسية للمسيحية الأرثوذكية ؛ وذلك بإدماج جمهورية نوفوجورود Novogorod بدوقية موسكو العظمى . وجاء هذا الحدَث معاصراً لبدء الفصل « الحديث » من التاريخ الغربى . على أن المسألة الغربية[1] كانت مألوفة فعلا لأذهان الروس قبل ذلك التاريخ . إذ أن حكم بولندا وليتوانيا قد إمتد خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر على مساحات واسعة من الإرث الأصلى للمسيحية الأرثوذكسية الروسية . وفى خلال القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ؛ توطد سلطان الحضارة الغربية على الأهالى الروس فى مملكتى بولندا وليتوانيا – وقد اتحدا فى عام ١٥٦٩ م .

---

(١) المسألة الغربية . تعبير يجانس فيه الأستاذ المؤلف بتعبير « المسألة الشرقية » الذى صكه المؤرخون فى إبان القرن التاسع عشر للدلالة على مشكلة أوروبا مع قيام دولة تركية فى جنوبها الشرقى . (المترجم)

، قد نجحت بعثات اليسوعيين التبشيرية فى تحويل عدد كبير من ملاك الأرض الأرستقراطيين إلى الكاثوليكية ؛ فى حين أصبح جانب كبير من الفلاحين أعضاء فى كنيسة ذات استقلال ذاتى Uniate[1] ، التى سمح لها — فى تحفظ كبير — بالاحتفاظ بأكثر طقوسها التقليدية ونظمها ودعيت باسم « الكنيسة الشرقية الكاثوليكية » .

واستمر الصراع المرير ناشباً بين موسكو والغرب حول ولاء سكان أوكرانيا وروسيا البيضاء الذين انفصلوا عن إخوانهم الروس الأرثوذكس الشرقيين ، حتى نهاية الحرب العالمية ١٩٣٩/٤٥ ، عندما سيقت بقاياهم الأخيرة عنوة واقتداراً إلى داخل نطاق الحظيرة الروسية مرة أخرى[2] . ومع ذلك ؛ فإن هذه الأرض الروسية الأصل الواقعة على الحدود — وقد كانت نصف غربية حتى عهد قريب — لم تكن الميدان الرئيسى الذى اتخذ التلاقى بين روسيا والغرب الحديث سبيله فيه . إذ بلغ الانعكاس البولندى للثقافة الغربية حداً من الإعتام، حال بين الثقافة الغربية وبين أن تتمكن من طبع النفوس الروسية بطابعه العميق . فكانت الشعوب البحرية الغربية القاطنة على الشاطئ الأطلسى ، هى محور التلاقى الرئيسى ؛ وهى شعوب انتحلت لنفسها من الإيطاليين ، زعامة العالم الغربى . وأقبلت تلك الجماعة المتفوقة ؛

---

(١) uniate لقب يطلق على أتباع الكنائس الشرقية التى تعترف بسيادة البابا ، لكنها تستبق طقوسها وتختار رؤساء كنائسها . (المترجم)

(٢) وذلك بعد تعديل الحدود الروسية على حساب بولندا وجعلها وفقاً لخط «كيرزن» . ورغماً عن أن الدولة السوفييتية تناهض الدين إلا أنها ترفض بتاتاً أن يكون لرعاياها الكاثوليك أية رابطة تربطهم ببابا روما . بل تناهض الكثلكة ذاتها وتعتبرها لا تتفق مع القومية الروسية . مما يوحى بأن فكرة الأرثوذكسية الروسية هى طابع هام للقومية الروسية ما يزال كامنا فى اللاشعور عند قادة السوفييت ، رغماً عن اتجاههم اللاديني . ولقد نشطت الدولة السوفيتية عقب إنتهاء الحرب إلى تعيين بطريرك جديد للكنيسة الأرثوذكسية . (المترجم)

لتضم بين طياتها جيران روسيا الأقربين ، على طول ساحل البلطيق الشرقى . ورغماً عن التأثير الذى أضفته الطبقة الأرستقراطية الألمانية والطبقة البورجوازية فى مقاطعات البلطيق على الحياة الروسية — وهو تأثير يجاوز نسبة الطبقتين العددية — إلاأن تأثير شعوب الأطلسى الذى تشرّب عبْر موانى الدخول — التى عمدت الحكومة الإمبراطورية الروسية إلى فتحها لاستقبال ذلك التأثير — كان أعظم كثيراً من تأثير هاتين الطبقتين .

وفى هذه العلاقة ، كان التفاعل بين الطاقة التكنولوجية الغربية وتصميم النفوس الروسية على الاحتفاظ باستقلالها الروحى : هو الذى صاغ حبكة الرواية . فلقد وجد الاقتناع الروسى بفكرة تفرّد مصير روسيا ؛ تعبيراً فى الإيمان بأن التراث الذى خلّفته القسطنطينية — وهى روما الثانية — قد ألقته المقادير على عاتق روسيا[1] . وهكذا انتحلت موسكو لنفسها دوراً فريداً هو أنها وحدها مستودع الكنيسة الأرثوذكية وقلعتها الفريدة ؛ وتوّجت ذلك بتشييد بطريركية موسكو عام ١٥٨٩ ، فى نفس الوقت الذى كانت انتصارات التكنولوجية الغربية الحديثة تهدد منطقة النفوذ الروسى : بعد أن انتقص منها الزحف الغربى كثيراً ، فى إبان القرون الوسطى .

واتخذت استجابة روسيا للتحدى الغربى ثلاثة مظاهر متباينة :

---

(١) ولهذا كانت بانت بطرسبرج عاصمة روسيا قبل عام ١٩١٧ (وتدعى الآن لينينجراد) تدعى روما الثالثة ، أى خليفة روما الثانية (القسطنطينية التى استولى عليها الأتراك عام ١٩٥٣) ، وهى بدورها خليفة روما الأولى التى اجتاحها المتبربرون الأوربيون الشماليون . وإن إيمان الروس بدور بلادهم الذى يبينه المؤلف ، هو الذى جعلهم يطلقون اسم سانت بطرسبرج (أى مدينة القديس بطرس) على عاصمتهم تشبها بروما وهى مدينة القديس بطرس أحد حوارى المسيح ، لدفنه فيها . (المترجم)

الأول – رد فعل جماعى على نسق طائفة المندفعين[١] وجد هذا المنحى مريديه فى شيعة دُعيت باسم « قُدامى المؤمنين » . ويستمسكون بأن مجتمعهم يحمل بين طياته آمال البشرية .

الثانى – رد فعل يشابه تماماً النزعة الهيرودية[٢] ؛ وتمثّل فى عبقرية بطرس الأكبر . وقد إتجهت سياسة بطرس إلى تحويل الإمبراطورية الروسية من دولة عالمية مسيحية أرثوذكية ، إلى دولة من الدول القومية الإقليمية المنتمية إلى العالم الغربى الحديث . واعتبر الروس الرضوخ لسياسة بطرس ، تسليما بأنهم فعلا كسائر الشعوب . ويعنى هذا ضمنا ، تجريد موسكو من إدّعائها بأن القدر قد جعل منها وحدها قلعة الأرثوذكسية ؛ أو هى وحدها – كما نادى قدامى المؤمنين – المجتمع الذى يحمل فى أحشائه آمال البشر . وعلى الرغم من التوفيق البيّن الذى لاقته السياسة البطرسية طوال فترة جاوزت المائتى سنة ؛ إلا أنها لم تنل أبداً تأييد الشعب الروسى ، تأييداً قلبياً خالصاً . فلما حلّت الكارثة العسكرية المشينة بروسيا خلال الحرب العالمية ١٩١٤ / ١٩١٨ ؛ قدّمت دليلا أظهر أنه بعد انقضاء أكثر من مائتى عام على سياسة الاقتباس عن الغرب ، لم تكن هذه السياسة فقط مناهضة للروح الروسية ، بل لقد أثبتت فشلها كذلك فى إنقاذ « الأخيار » .

الثالث – رد فعل نشأ فى ظل الظروف السالفة الذكر وتمثّل فى عودة نزعة التصميم على أن القدر يدّخر لروسيا دوراً فريداً . وهى النزعة التى

---

(١) يشبه الأستاذ المؤلف هذا المنحى فى استجابة روسيا للتحدى الغربى ، بمنحى طائفة المندفعين Zealots وهى طائفة اعتنقت مبدأ العنف لتنفيذ أغراضها . (المترجم)

(٢) نسبة إلى هيرود الأكبر حاكم الجليل (حوالى ٧٣ – ٤ ق . م) . وقد أعاد بناء المعبد ، وكان يعنى خاصة بتشييد المبانى الفخمة . ويشبه الأستاذ المؤلف عهد بطرس الأكبر بعهد هيرود لعناية القيصر بمظاهر الأبهة والفخامة فى حكمه . (المترجم)

مضى عليها وقت طويل محجوبة بفعل الكبت ، قد قادت لتؤكد نفسها مرة أخرى ، عن طريق الثورة الشيوعية .

فالثورة الشيوعية إذن ، محاولة لتوفيق هذا الإحساس العارم بالمصير الروسى ، مع الضرورة التى لا غناء عنها لمجاراة التفوق التكنولوجى الغربى الحديث . وإن تبنّى الروس هذه الأيدلوجية الغربية الحديثة[1] – رغماً عن كونها أيدلوجية متمرّدة على المذهب الليبرالى الغربى الذائع – طريقة متناقضة ، إصطنعتها روسيا لتؤكّد من جديد فى مواجهة الغرب الحديث – دعواها بأنها الوريثة الوحيدة لتركة لا نظير لها . ولقد تكهّن لينين وخلفاؤه بأنه لن يُرجى النجاح لسياسة تقوم على منازلة الغرب بأسلحة مُنتقاة من صنعه ، إن كان المقصود منها أن تكون مجرد أسلحة مادية . فإن سر النجاح المُذهل الذى حققه الغرب الحديث ، كامن فى إصطناعه فى براعة وحذق ، كلا السلاحين : الروحى والحسّى . فحقاً ، إن الفجوات التى فجرّتها لفحة التكنولوجية الغربية الحديثة ، قد شقّت بالمثل الطريق لليبرالية الغربية الحديثة .

فإذا أُريد لرد الفعل الروسى تجاه الغرب أن ينجح ، فلا مناص لروسيا من الظهور بمظهر حامى حمى عقيدة تستطيع أن تقف على قدم المساواة ، فى منابزتها للمذهب الحر . وإن روسيا إذ تتسلح بهذه العقيدة ، عليها أن تنافس الغرب للفوز بالولاء الروحى لجميع المجتمعات القائمة التى لا تنتمى بتراثها الثقافى الغربى ، لا إلى الغرب ولا إلى روسيا . فإذا لم تقنع روسيا بهذا ، يصبح عليها أن تُقدِم على نقل الحرب إلى معسكر العدو ، بالتبشير بالعقيدة الروسية فى عُقر دار الغرب نفسه .

---

(١) أى الشيوعية باعتبار أنها نبعت فى الأصل عن الفلسفة الماركسية التى استمدت جذورها بدورها من المذاهب الفلسفية الغربية . (المترجم)

وهذا موضوع ؛ لا مناص لنا من العودة إليه فى قسم تال من هذه الدراسة .

ثانياً ـ الغرب الحديث والكتلة الرئيسية من العالم المسيحى الأرثوذكسى[1] :

كان دخول الثقافة الغربية فى بلاد الكتلة الرئيسية من العالم المسيحى الأرثوذكسى ، معاصراً لدخولها روسيا . ففى حوالى نهاية القرن السابع عشر الميلادى ؛ بدأت حركة الاقتباس من الغرب . وفى كلتا الحالتين ، أظهرت حركة الاقتباس من الغرب ردّة عن موقف عدائى طال أمده . وفى كلتا الحالتين كذلك ؛ كان مما دفع المسيحيين الأرثوذكس إلى تغيير موقفهم ، تحول سيكلوجى سابق فى موقف الغرب نفسه ؛ تحوّل من تعصّب دينى صارخ إلى تسامح لا دينى ، وهو تحول عكس ما شاع فى الغرب ـ إثر الحروب الدينية ـ من تبدد الأوهام .

على أن هاتين الحركتين المنفصلتين ، اللتين قامت بهما المسيحية الأرثوذكسية للاقتباس من الغرب ، قد سلكتا ـ على الصعيد السياسى ـ سبيلين متباينين :

---

(١) يقصد الأستاذ المؤلف من تعبير « الكتلة الرئيسية من العالم المسيحى الأرثوذكسى » ، بلاد جنوب أوروبا الشرقية ـ أى البلقان ـ حيث يعتنق جمهرة السكان المسيحيين مذهب الروم الأرثوذكس . وفى البلقان ـ وفى اليونان بالذات ـ نشأت المسيحية الرومية الأرثوذكسية ، وتبلورت سياسياً فى دولة إمبراطورية هى الدولة البيزنطية التى تهاوت تحت ضربات الأتراك العثمانيين التى توجت فى عام ١٤٥٣ بالاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الدولة . فكان أن خضع المسيحيون المعتنقون مذهب الروم الأرثوذكس للسلطنة العثمانية . وظلوا كذلك إلى أن أخذوا يكونون دولا قومية مستقلة بدأت باليونان عام ١٨٣٠ ثم رومانيا عام ١٨٧٨ . . . ومن القسطنطينية انتشر المذهب المسيحى الأرثوذكسى إلى روسيا . (المترجم)

فلقد كان المجتمعان المسيحيان الأرثوذكسيان كلاهما ـ وقتذاك ـ مشدودين معاً فى دولتين عالميتين . لكن الدولة العالمية الروسية كانت نتاجاً وطنياً . فى حين كانت الدولة العالمية التى انتظمت الكتلة الرئيسية للمسيحية الأرثوذكسية ، قد فرضت من خارجها على أيدى الأتراك العثمانيين . وبالتالى ؛ قُصد من وراء حركة الاقتباس من الغرب فى روسيا ، تقوية دعائم الحكومة الإمبراطورية القائمة . ولهذا ؛ فقد بدأت الحركة من أعلى متجهة إلى أسفل ، على يد عبقرية ثورية تمثلت فى القيصر نفسه . أما حركات الاقتباس من الغرب فى داخل الإمبراطورية العثمانية ، فقد رنت إلى إستعادة الاستقلال السياسى للصرب واليونان وغيرهم من الشعوب المسيحية الأرثوذكسية الخاضعة ؛ وذلك بخلع النير العثمانى . فإنها ـ والحالة هذه ـ حركات اندفعت من أسفل إلى أعلى ، بفضل جهود أشخاص فرادى ؛ لا بفعل أمراء ينفّذون أعمال السيادة .

وإذا قارن المرء بين درجة العداوة السابقة التى كان يكنها للغرب كل من الفريقين ؛ لألفى أن الانقلاب الذى شهده القرن السابع عشر فى موقف المسيحيين الأرثوذكس تجاه الغرب ، كان يعنى بالنسبة للصرب واليونان ، تغيراً أعظم منه بالنسبة للروس . ففى القرن الثالث عشر الميلادى إنبعث عن اليونانيين ردّ فعل عنيف ضد ما كان يدعى بالإمبراطورية اللاتينية التى فرضها عليهم طوال نصف قرن ، « فرنجة » الحرب الصليبية الرابعة . وفى القرن الخامس عشر ، رفض اليونانيون إتحاد الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية ؛ وهو الاتحاد الذى أُبرم على الورق فى مجمع فلورنسا عام ١٤٣٩ . على الرغم من أن هذا الاتحاد كان فرصة اليونانيين الوحيدة لكسب تأييد الغرب ضد إغارات الأتراك . بل لقد آثر اليونانيون ، الباديشاه على البابا . وتتبدى هذه الروح حتى وقت متأخر ، كما تنعكس فى البيان

الذى أصدره بطريرك القدس فى سنة ١٧٩٨ ونشرته صحافة القسطنطينية ، ويذكر فيه لقرائه مايلى :

« عندما شرع آخر أباطرة القسطنطينية فى إخضاع الكنيسة الشرقية للاسترقاق البابوى ، أرسلت العناية الربانية الإمبراطورية العثمانية لتحمى اليونانيين من الهرطقة ، ولتقوم حاجزاً ضد السلطان السياسى للأمم الغربية ، ولتكون حامى حمى الكنيسة الأرثوذكسية[1] .

على أن هذا الاستعراض لموضوع نزعة الاندفاع التقليدية ، ليس إلا طلقة فاصلة فى معركة ثقافية خاسرة ، كانت قد بدأت تتحول تحولا حاسماً منذ أكثر من مائة عام مضت . وأن تاريخ بدء هذا التحوّل فى الولاء الثقافى للمسيحيين الأرثوذكس من سادتهم العثمانيين إلى جيرانهم الغربيين ، تدل عليه قائمة التغيرات ذات الدلالة السيكلوجية فى طُرُز الهندام . وتعزز هذه الشهادة المادية ، دلالات أخرى فى الميدان الثقافى . ففى العقد السابع من القرن السابع عشر ، كان تأثّر العثمانيين لا يزال هدف الطموح الاجتماعى لرعية السلطان ؛ مصداقاً لما لاحظه فى ذلك الوقت السكرتير الأريب للسفارة الإنجليزية فى القسطنطينية ، السير بول ريكوت Paul Rycant فى قوله :

« مما هو جدير بملاحظة الرجل الحصيف ، كيف يسعد المسيحيون اليونانيون والأرمن بمحاكاة اللباس التركى ، فهم يقتربون منه إلى أدنى درجة ممكنة . وكيف يتيهون عندما تمنحهم الدولة فى بعض المناسبات فوق العادية ، حظوة الظهور فى غير ما يميزهم كمسيحيين »[2] .

---

(١) صفحات ٢٨٤ – ٥ من المجلد الخامس Finlay, O. A History of Greece from B.C. 146 to A.b. 1864) .

(٢) صفحة ٨٢ Rycot, Sir P. The Present state of theOttoman Embhire (London 1668).

بيد أن النبيل المسيحى الرومى الأرثوذكسى ديمتريوس كانتمير Demetrus Cantemir الذى عينه الباب العالى عام ١٧١٠ م أميراً على البغدان (ومنها فر فى السنة التالية إلى روسيا) ظهر فى صورة عصرية مرتدياً شعراً اصطناعياً وسترة وصدرياً ويحمل مفقراً[١] . وطبيعى أن تكون مثل هذه التغيرات فى الهندام ، دلالات خارجية لتغيرات مماثلة فى عقلية الناس . ومن قبيل المثال ؛ كان كانتمير مُلماً باللاتينية والإيطالية والفرنسية قراءة وكتابة . وكان الرؤساء الأتراك فى القرن الثامن عشر يُقوّمون الفناريين من الروم الأرثوذكس الذين فى خدمتهم ، بنسبة إلمامهم بطرائق الحياة الغربية ، فى عصر ألفت الحكومة العثمانية نفسها — مضطرة — إلى استخدام ديبلوماسيين ماكرين للتعامل مع الدول الغربية ، التى أصبحت الدولة تعجز عن هزيمتها فى ميادين القتال .

ويردّ الجانب الأعظم مما كابده رعايا الباب العالى من المسيحيين الأرثوذكس خلال القرن الثامن عشر ، إلى فساد الحكم . ذلك الفساد الذى انغمرت فيه الإمبراطورية وهى تنحدر على طريقها إلى التصدع . وعلى النقيض من ذلك ؛ صاحب شيوع مذهب « الشكّية »[٢] فى المسيحية الغربية ، ازدهار الكفاية الإدارية وبزوغ فجر الاستنارة السياسية .

---

(١) المفقر : سيف ذو حدين مستدق الطرف . (المترجم)

(٢) الشكية أو فلسفة الإرتياب والشك Scepticism ، تقوم على فكرتين أساسيتين :

الأولى — لبلوغ الحقيقة ؛ على المرء تكذيب كل شىء ، إلا أن تقوم الحجة على صدقه . ويعنى هذا إنكار الفطرة البدائية التى تؤمن بالنقيض .

الثانية — لا يتأتى للمعرفة البشرية إطلاقاً الوصول إلى الحقيقة . ويعنى هذا إنكار المعرفة الموضوعية . وظاهر أن هذه الفلسفة تتناقض على طول الخط مع فلسفة اليقين Dogmatism . والواقع أن فلسفة الشك قد انبعثت كرد فعل لتغالى أصحاب فلسفة اليقين فى بسط آرائهم . (المترجم)

ومصداقاً لهذا ، أبطلت ملكية هابسبرج الكاثوليكية إضطهاد رعاياها من غير الكاثوليك ، وسمحت للاجئين من رعايا الإمبراطورية العثمانية من المسيحيين الأرثوذكس الصربيين بالاستقرار فى المناطق العثمانية السابقة التى غزتها ملكية هابسبرج فى المجر . فغدا هؤلاء اللاجئون ، الواسطة السيكلوجية التى تنفذت عن طريقها الثقافة الغربية الحديثة إلى الشعب الصربى فى مجموعه .

وثمة مجرى آخر للتأثير الثقافى الغربى امتد عبر البندقية . والبندقية ظلت طوال أربعة قرون ونصف سابقة لعام ١٦٦٩ م تحتل جزيرة كريت المسيحية الأرثوذكسية اليونانية . كما سيطرت طوال فترات أقصر على أجزاء من أرض اليونان نفسها .

وهناك مصدر آخر للتأثير الثقافى الغربى تمثل فى البعثات الديبلوماسية الغربية فى القسطنطينية . فلقد استغلت المبدأ العثمانى التقليدى بمنح جميع الطوائف حق إدارة شؤونها الخاصة داخل نطاق الإدارة الإمبراطورية[١] . ولم تكتف تلك البعثات الديبلوماسية ببسط سلطانها على رعاياها المقيمين فى ربوع الإمبراطورية العثمانية ، بل تجاوزت ذلك إلى الهيمنة على الرعايا العثمانيين الذين استظلوا بحمايتها .

ثم افتتحت الجاليات التجارية اليونانية ممراً آخر ، أقامته فى العالم الغربى فى أماكن متطرفة وصلت إلى لندن وليفربول ونيويورك .

فالتأثير الغربى الحديث الذى بات يشع على الكتلة الرئيسية للمسيحية الأرثوذكسية عبر هذه الممرات البرية والبحرية ، كان يحدث تأثيره فى

---

(١) يعرف هذا فى الاصطلاح السياسى بالعبارة اللاتينية **imheria in imheria** (دولة داخل دولة) . (المترجم)

مجتمع يعيش في كنف دولة عالمية دخيلة . وعلى هذا ؛ فقد تمت محاولة اقتباس أسلوب الحياة الغربية الحديثة على صعيد التعليم ، قبل أن تمتد المحاولة إلى الصعيد السياسي . وحقاً ؛ فإن العمل الأكاديمي الذي أنجزه في باريس أغاماندبوس كوراس Adhamandios Korais وفي ڤيينا ڤوك قره جيتش Vok Karadzic ، قد سبق ثورات قره جورج Qara George وميلوس أوبرينوڤتش Milos Obrenovic على الدولة .

وفي بداية القرن التاسع عشر الميلادي ؛ كان في وسع المرء أن يتنبأ — عن ثقة — بأن المناطق الأوربية من الإمبراطورية العثمانية ، قمينة بالتعرّض لنوع من التحوّل صوب الثقافة الغربية . لكن شكل هذا التحوّل ، ما برح وقتذاك محاطاً بالغموض .

ففي سياق القرن الذي انتهى بعام ١٨٢١ م ؛ عمدت حاشية البطريرك المسكوني من اليونانيين الفناريين[١] إلى تحوير حلمهم القديم ببعث شبح الإمبراطورية الرومانية الشرقية من بين الأموات ، إلى حلم جديد يستند على حل للمسألة الغربية ذي طابع سياسي[٢] . وذلك بتحويل الإمبراطورية العثمانية — مثلما حوّل بطرس الأكبر الإمبراطورية الروسية — إلى صورة مُعادة من « الملكيات المستنيرة » المعاصرة في الدول الغربية المتعددة القوميات ، مثل ملكية هابسبرج على الدانوب . وشجّعت اليونانيين الفناريين على التطلع إلى تحقيق مطمحهم هذا سلسلة من الانتصارات المتعاقبة :

فإن السلطان العثماني ، بتنصيبه البطريرك المسكوني رئيساً على جميع

---

(١) الفناريون : نسبة إلى كلمة فنار التي كانت تطلق على الحي اليوناني في الاستانة . وأصبحت تطلق بعد ذلك على أفراد رجال الدولة العثمانية من اليونانيين . (المترجم)

(٢) أي مشكلة التأثير الغربي على المسيحيين الأرثوذكس مما يهدد بصهر خصائصهم القومية في البوتقة الغربية . (المترجم)

رعاياه المسيحيين الأرثوذكس الشرقيين في إمبراطوريته المطردة الإتساع ، قد جعل لأسقف القسطنطينية هذا ، سلطاناً سياسياً على شعوب مسيحية لم يسبق لها منذ الفتح العربي لسوريا ومصر خلال القرن السابع الميلادى ، أن دخلت في حكم أي إمبراطور من القسطنطينية . ثم امتد السلطان السياسي للفنار في إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر إلى أبعد من ذلك ، نتيجة لأعمال قام بها – عن غير قصد – رعايا الدولة من الأحرار المسلمين . فإنهم بضغطهم على الحكومة السلطانية (وكان قوامها العبيد)[1] طوال المائة عام بعد وفاة السلطان سليمان القانونى عام ١٥٦٦ م ، قد أرغموها على إشراكهم في إدارة الدولة ؛ واتبعوا هذا النصر السياسي باتخاذهم الرعية اليونانيين شركاء معهم . وانشئت مناصب ترجمان الباب العالى وترجمان الأسطول ، وذلك بقصد الإفادة من كفاية اليونانيين العثمانيين في إدارة شئون الإمبراطورية . وتلا ذلك اتخاذ إجراءات أخرى في صالح اليونانيين ، على حساب الرعايا المسيحيين من غير اليونانيين .

ولعل اليونانيين قد خُيِّل إليهم في نصف القرن السابق لعام ١٨٢١ م ، أنه قد بات في متناول أيديهم سلطان في الإمبراطورية العثمانية ، من ذلك النوع الذي كان الملك المعاصر جوزيف الثاني يعمل لكفالته للعنصر الألماني في ملكية هابسبرج الدانوبية . لكن ما لبث حلم السيطرة الفنارية أن بددته الأحداث الثورية في الغرب . إذ قفزت فكرة الروح القومية إلى مركز الصدارة ، وغدت الفكرة السياسية المسيطرة ، وحلّت بذلك محل فكرة الملكية المستنيرة . هنا لم يجد رعايا الإمبراطورية العثمانية من المسيحيين الأرثوذكس غير اليونانيين ، في إحلال سيطرة اليونانيين الفناريين محل الأتراك المسلمين ، ما يُرضى طموحهم القومي الناهض . فلا بدع والحالة هذه ، أن يجد السكان

---

(١) وهم ما يعرفون اصطلاحاً بالانكشارية . (المترجم)

الرومانيين فى ولايتى الدانوب ــ وقد جربوا حكم اليونانيين الفناريين مائة وعشر سنوات ــ يعملون على إحباط ثورة هيبسلاندى Hzpeilandi[1] على الإمبراطورية العثمانية ، بإعارتهم أذناً صماء لنداء هذا اليونانى لهم بالالتفاف حوله ــ بحسبانهم زملاء طائفة مسيحية أرثوذكسية واحدة ، نهضت لتحرير نفسها ــ وحمل السلاح تحت قيادة اليونان الفناريين .

وكان تصدع الفكرة العظمى التى دعا إليها الفناريون ، بشيراً بأن السكان المسيحيين الأرثوذكس المتعددى القوميات فى الإمبراطورية العثمانية ــ وقد عقدوا العزم على اقتباس أسلوب الحياة فى الغرب ــ قد تعين عليهم أن ينتظموا فى مجموعة من الدول الإقليمية من : يونانية ورومانية وصربية وإلبانية وكرجية ؛ وفقاً لنماذج الدولة الإقليمية الغربية : فرنسا ، إسبانيا ، البرتغال ، هولندا . حيث يتكلم الناس لغة خاصة بهم ؛ وتكون هذه اللغة الخاصة ــ لا الدين الخاص ــ المقوم الذى يوحد بين المواطنين ويفرق بينهم وبين الأجانب .

لكن كان من الصعب فى بداية القرن التاسع عشر ، إدراك مقومات هذا الأنموذج الغربى الدخيل . إذ لا نكاد نجد إلا بضع مقاطعات من الإمبراطورية العثمانية فى ذلك الوقت متجانسة فى قوميتها اللغوية ، أو مالكة للمقومات الأساسية فى تكوين الدولة .

إن العملية الجذرية فى إعادة التخطيط السياسى ليتمشى مع التصميم الثورى الغربى الحديث ، قد حملت بين ثناياها البؤس لملايين البشر . واستفحل البلاء وزادت حدة انتشاره ، كلما طبقت هذه العملية المتزمتة تطبيقاً أعمى ، المرة تلو الأخرى ، على أراض وسكان ثبت ضعف

---

(١) هيبلاندى أو يبسيلانتى : زعيم يونانى فنارى ، قاد ثورة فاشلة ضد السلطنة العثمانية . (المترجم)

صلاحيتهم للتنظيم السياسى على أساس قومى . وتبدأ القصة المروّعة منذ استئصال اليونانيين للأقلية العثمانية المسلمة فى المورة عام ١٨٢٢ ، ممتدة إلى الفرار الإجماعى للأقلية اليونانية المسيحية الأرثوذكسية من غربى الأناضول عام ١٩٢٢[1] .

وما كان فى وسع الدول القومية المسيحية الأرثوذكسية التى برزت إلى الوجود فى الظروف المشؤومة وفقاً لهذا المقياس التافه ، أن تقتدى بالإمبراطورية الروسية بعد اصطناعها ثقافة الغرب . فتطمح إلى أن تؤدى أمام الغرب الحديث ، الدور الذى سبق للإمبراطورية الرومانية الشرقية إبان القرون الوسطى ، القيام به فى وجه العالم المسيحى الغربى . ذلك لأن طاقاتها الواهنة قد امتصّتها المنازعات المحلية على شذرات من الأرض . وكانت تلك الدول تضمر لبعضها بعضاً ، أشد ألوان الضغائن مرارة .

أما عن علاقاتها بالعالم الخارجى ، فقد ألفت نفسها فى موقف

---

(١) كانت نسبة الأتراك المسلمين إلى مجموع سكان المورة حوالى الخمس قبل عملية استئصال الأقلية الإسلامية من تلك المنطقة . وتكررت عملية استئصال الأقلية الإسلامية عقب الاستيلاء على كريت عام ١٨٩٨ وأجزاء من مقدونيا عام ١٩١٢ ، ولم أجد شخصاً مسلماً واحداً فى هاتين المنطقتين خلال زيارتى لهما عام ١٩٥٣ . أما ما يذكره الأستاذ المؤلف عن فرار اليونانيين من غرب الأناضول ، فيلاحظ :

أولا – أن اليونان قد احتلت هذا الجزء عقب هزيمة تركيا فى الحرب العالمية الأولى بمعاونة الحلفاء (وانجلترا بالذات) الذين رسموا سياستهم وقتذاك على طرد الأتراك من المنطقة واستيلاء اليونان عليها تحقيقاً لحلم استعادة الدولة البيزنطية ولو جزئياً .

ثانياً – تمت عملية ترحيل اليونانيين وفقاً لاتفاقية تبادل السكان بين الطرفين التى أبرمت عقب انتصار الأتراك عام ١٩٢٢ .

وجدير بالذكر أن عمليات ترحيل الأقليات الإسلامية فى البلاد البلقانية الأخرى بدأت عقب حصولها على استقلالها مباشرة ، وظلت مستمرة إلى عهد قريب . (المترجم)

لا يختلف عن موقف أسلافها خلال القرون التي سبقت مباشرة تشييد الإمبراطورية العثمانية[١] .

في ذلك الوقت ، جابه اليونانيون والصربيون والبلغاريون والرومانيون ، إختياراً بين قبول سيطرة بني دينهم مسيحيّ الغرب ، وبين سيطرة العثمانيين عليهم . أما في العصر الذى أعقب تصدّع الإمبراطورية العثمانية ، فكان عليهم أن يختاروا أحد أمرين :

الأول – الانتظام في كيان إجتماعي لا ديني غربي حديث .

الثاني – الخضوع لروسيا القيصرية أولا ثم الشيوعية ثانياً .

وفي عام ١٩٥٢ ، كانت أغلبية هذه الشعوب المسيحية الأرثوذكسية – بالفعل – تحت سيطرة روسيا العسكرية والسياسية ، باستثناء اليونان ويوجوسلافيا . ففي اليونان ، أخفق الروس في حرب لم تُعلن (بعد الحرب العالمية الثانية) بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ؛ ناب اليونانيون – أنفسهم – فيها ، عن المعسكرين المتحاربين الأجنبيين[٢] . أما يوجوسلافيا ؛ فلقد أبت بعد الحرب ، قبول السيطرة الروسية ، ورحّبت بالمعونة الأمريكية . وظاهر بالنسبة للدول التي تقع تحت السيطرة الروسية ، أن ممارسة روسيا لسيطرتها حتى بطريق غير مباشر ، أمر بغيض

---

(١) أو السلام العثماني Pax Ottomanica باعتبار أن تشييد الإمبراطورية قد حقق السلام في ربوعها بفضل النظام الذى تفرضه على شعوبها فرضاً . والاصطلاح يستخدم في الأصل عند الكلام عن السلام الروماني الذى حققته إقامة الإمبراطورية الرومانية . (المترجم)

(٢) يشير الأستاذ المؤلف هنا إلى الصراع المسلح الذى نشب عقب الحرب الأخيرة مباشرة بين الشيوعيين اليونانيين يؤيدهم الاتحاد السوفيتي ، والملكيين اليونانيين تناصرهم الولايات المتحدة وبريطانيا . وقد أسفر الصراع عن انتصار مؤيدى الكتلة الغربية . (المترجم)

إلى نفوس سكانها ؛ اللهم إلا أقلية ضئيلة من الشيوعيين حكّام تلك البلاد .

وإن هذا النفور من السيطرة الروسية ، لقصة قديمة تبدو معالمها من إستعراض تاريخ علاقات روسيا برومانيا وبلغاريا وصربيا فى القرن التاسع عشر قبل قيام الثورة الشيوعية فى روسيا بزمن طويل . فلقد تطلّعت روسيا – مثلا – غداة الحرب الروسية التركية ١٨٧٧ / ٨ إلى كسب نفوذ مطلق على صربيا التى كانت قد أنقذتها وشيكا من هزيمة على يد الجيوش التركية ، كذلك رومانيا التى قدّمت لها منطقة دوبروجه Dobruja . وفوق هذا كله ؛ حاولت روسيا بسط نفوذها على بلغاريا التى بعثتها إلى الوجود من العدم ، بفضل قوة الجيوش الروسية العارمة . لكن برهنت الأحداث التالية ، كما ظهر ذلك مرات كثيرة قبلئذ وفى مواطن كثيرة مختلفة ؛ على انتفاء وجود ما يدعى بعرفان الجميل فى السياسات الدولية .

وقد يبدو – لأول وهلة – هذا الشعور المناهض للروس فى البلاد المسيحية الأرثوذكسية غير الروسية ، شيئاً مستغرباً ؛ فى عصر كانت المسيحية الأرثوذكسية ما تزال العقيدة الدينية المقررة فى الدولة الروسية ؛ وفى وقت كانت اللهجة السلافية القديمة لا تزال تهيئ لغة مشتركة للطقوس الدينية ، تستخدمها الكنائس الروسية والرومانية والبلغارية والصربية الأرثوذكسية .

فلم بدت فكرة الجامعة السلافية والجامعة الأرثوذكسية ، بمثل هذا العُقم بالنسبة للروس ، فى تعاملهم مع هذه الشعوب التى أسدت إليها مثل هذا الصنيع الفعّال ، فى صراعها لتخليص نفسها من النير العثمانى ؟

يبدو أن الجواب عن ذلك ؛ أن المسيحيين الأرثوذكس العثمانيين قد وقعوا تحت سحر الغرب . وأنهم عندما فُتنوا بروسيا دهراً ، لم يكن

ذلك بسبب كونها سلافية أو أرثوذكسية ، بل لكونها رائدة فى الاقتباس من الغرب ؛ ذلك الاقتباس الذى عقدوا هم عليه أيضاً العزم . لكن كلما ازدادت هذه الشعوب الغير الروسية الآخذة بالثقافة الغربية معرفة بروسيا ، إزدادت إدراكاً لسطحية حركة الاقتباس من الغرب فى روسيا وزيفها ؛ مصداقاً للمثل القائل « حك جلد الروسى ينكشف التترى »(١).

وفى الاستطاعة إبراز قدر ضخم من الأدلة الواردة فى الوثائق القيصرية لتثبت صدق القول بأن المكانة الثقافية التى تمتعت بها روسيا بين المسيحيين العثمانيين ، قد بلغت الذروة فى عصر كاترين الكبرى (حكمت ١٧٦٢ — ٩٦) ، وأن هذه المكانة قد جنحت إلى الأفول كلما ازدادت روسيا تدخلا فى شئون الإمبراطورية العثمانية(٢) ، وكلما زادت هذه « الشعوب المسيحية المضطهدة »(٣) معرفة بالخصائص الروسية ، تلك الشعوب التى سعت روسيا لتنصيب نفسها حامية لها .

---

(١) هذا مثل شائع فى البلاد الغربية ويعلن عن شدة مراس التأثيرات الأسيوية على الشعب الروسى إلى درجة جعلت التأثيرات الغربية سطحية . لكن هذا القول مغرض ، لأن الواقع أن الشخصية الروسية من القوة بحيث صمدت لضغط التأثيرات الغربية فيما عدا ما تنقله روسيا من التراث التكنولوجى الغربى فى الإنتاج المادى . بل إن الآراء الماركسية — وهى نتاج غربى أصيل — قد حورت عملياً لتتلاءم مع البيئة والوسط الروسيين . (المترجم)

(٢) لا أتفق مع الأستاذ المؤلف فى هذا الرأى على علاته . فإنى أعتقد وفقاً لمشاهداتى الشخصية فى بلاد البلقان أن شعوبها تفتنها حقاً الثقافة الغربية بوجه عام ، إلا أن فكرة القومية تأسرها تماماً . فإنها لتعتز بقوميتها اعتزازاً شديداً يتضاءل معه تأثير فكرة الجامعة السلافية أو فكرة الرابطة الدينية المذهبية المشتركة ، بل والإيدلوجية الاشتراكية أن تعارضت مع روحها وخصائصها القومية . والحق أن تلك الشعوب قد استخدمت تلك التعبيرات السياسية للحصول على المساعدة الروسية لنيل مطامحها القومية . (المترجم)

(٣) إذ كانت الشعوب البلقانية تنادى باضطهاد الدولة العثمانية للمسيحيين استجلاباً لعطف الشعب الروسى الذى كان يتفق فى الجنس والمذهب الدينى مع تلك الشعوب ، لتبرير تدخل روسيا — من الناحية الأخرى — فى شئون الدولة العثمانية . (المترجم)

ثالثاً ــ الغرب الحديث والعالم الهندى :

تشابهت ظروف تلاقى العالم الهندى ، تشابهاً ملحوظاً فى بعض النقاط ، مع ظروف التجربة التى اجتازتها الكتلة الرئيسية للمسيحية الأرثوذكسية :

فلقد كانت كلتا الحضارتين قد دخلت بالفعل فى دور دولتها العالمية . وفى كل من الدولتين ، تولى فرض هذا النظام ، بناة إمبراطورية دُخلاء ، هم أبناء الحضارة الإيرانية الإسلامية . ففى العهد المغولى بالهند ــ مثلما كان الحال فى المسيحية الأرثوذكسية العثمانية ــ شعر رعايا هؤلاء الحاكمين المسلمين ، بالانجذاب نحو ثقافة سادتهم ؛ فى وقت تراءت لهم فى الأفق ثقافة الغرب الحديث . وبالتالى ؛ اتجه هؤلاء الرعايا بولائهم صوب هذا النجم الصاعد ، كلما أخذ شأن الغرب يتعاظم ، وصولة المجتمع الإسلامى تضعف .

لكن بحث أوجه التشابه هذه بين المجتمعين الأرثوذكسي والهندى ، يُبرز إلى العيان بعض نقاط اختلاف لا تقل عن سابقاتها أهمية .

فمن قبيل المثال :

أن المسيحيين الأرثوذكس من رعايا العثمانيين عندما ولّوا وجوههم شطر الثقافة الغربية ؛ كان عليهم أن يتغلّبوا على النفور التقليدى الذى كوّنته فى أنفسهم تجربتهم التعسة السابقة مع الحضارة الغربية ، وقتما تلاقوا معها إبان القرون الوسطى .

فى حين لم يحمل الهنود فى قلوبهم ــ وقت اتجاههم صوب الحضارة الغربية ــ مثل هذه الذكريات التعسة يجترونها . إذ أن التلاقى بين العالم الهندى والغرب ، الذى بدأ وقتما رسا فاسكو دى جاما فى كاليكوت عام ١٤٩٨ ؛ كان حقاً أول اتصال حدث بين هذين المجتمعين .

هذا إلى أن الاختلاف فى نتيجة التلاقى كان أهم بكثير من الاختلاف فى الأوضاع التى سبقته . وبيان ذلك ؛ أن الدولة العالمية الدخيلة التى انضوت فى ظلها المسيحية الأرثوذكسية ، ظلت فى أيدى مؤسسيها المسلمين حتى تصدّعت . فى حين أن الإمبراطورية التى أخفق الخلفاء الضعاف لتيمور من سادة الحرب المغول ، فى المحافظة على تماسكها ؛ قد أعاد تشييدها رجال الأعمال البريطانيون الذين اقتفوا إثر « السلطان أكبر » . حينما اتضح لهم أن أحداً من أهل الغرب لن يستطيع أن يمارس نشاطه فى الهند ، إلا فى ظل القانون والنظام ، وأنهم – أى البريطانيون – إن لم يقوموا هم بإعادة القانون والنظام فى الهند ، فسيقوم الفرنسيون عنهم بذلك .

وهكذا مرت حركة الاقتباس من الغرب فى الهند مرحلتها الحرجة ، فى وقت وقعت فيه الهند تحت حكم الغرب . وترتب على هذا ، أن اقتباس الثقافة الغربية الحديثة فى الهند – كما حدث فى روسيا – جاء من أعلى إلى أدنى . ولم يأت من أدنى إلى أعلى ، كما حدث للمسيحيين الأرثوذكس فى الدولة العثمانية .

وفى هذه الحالة ؛ نجحت فى المجتمع الهندى طبقتا السادة[1] والتجار – فيما بينهما – فى تأدية دور فى التاريخ الهندى ، فشل فى تأديته اليونانيون الفناريون فى تاريخ المسيحيين الأرثوذكس من غير الروس . ففى جميع العهود والأنظمة السياسية التى مرّت بالهند ؛ كان تقلّد البراهما مناصب وزراء الدولة ، من الامتيازات التى تمتعت بها هذه الطبقة ، فقد أدوا هذا الدور فى العالم السندى ، قبل أن ينهضوا به فى المجتمع الهندى الذى نبع عنه . ثم وجد حكام الهند من المسلمين السابقون للحكم المغولى – بل

(١) أى البراهما – وإن كانت تعنى فى الأصل طبقة كبار رجال الدين . لكن اللفظ غدا يشمل كذلك طبقة السادة . وطبقة البراهما هى أعلى طبقة فى التنظيم الهندوكى الطبقى . وأما طبقة التجار فهى المعروفة اصطلاحاً بـ « بانيا Banya » . (المترجم)

والمغول أنفسهم فيما بعد – أن من الخير أن يسيروا على نهج الدولة الهندية التي حلّوا محلها . وكان اشتراك الوزراء من البراهمة والموظفين الأقل منهم مقاماً في الحكم ، عاملا في التقليل من بشاعة هذا الحكم الأجنبي في نظر الهنود . ثم سار الحكم البريطاني على نهج الحكم المغولي في هذا الشأن . هذا بالإضافة إلى ما أتاحته مشروعات البريطانيين الاقتصادية لطبقة التجار من فُرص .

وترتب عن انتقال حكم الهند إلى أيدى البريطانيين ، أن أقدمت السياسة البريطانية على إحلال اللغة الإنجليزية محل الفارسية كلغة رسمية لإدارة الإمبراطورية* . فأصبحت للآداب الغربية الأفضلية على الآداب الفارسية والسانسكريتية كأداة للثقافة في التعليم العالى . وكان لهذا كله تأثير على اتجاه التاريخ الثقافي للهند ؛ يماثل تأثير سياسة الاقتباس من الغرب – التي جرى عليها بطرس الأكبر – على تاريخ روسيا الثقافي .

وفي كلتا الحالتين ، برزت إلى الوجود – بقرار حاسم من حكومة أوتوقراطية علمانية – قشرة من الحياة الغربية . لقد احتاج أفراد الطبقة الهندوكية العليا إلى التزوّد بالتعليم الغربي ؛ لأن الحكومة المسيطرة قد فرضت هذا التعليم مفتاحاً للالتحاق بالخدمة البريطانية الهندية العامة .

وترتب على اصطناع الأساليب الغربية في دوائر الأعمال والحكومة بالهند ، ظهور مهنتين غربيتين لبراليتين وهما :

الأولى – الكلية الجامعية .

الثانية – التقاليد القضائية .

وما كان ليتأتى في دوائر الأعمال المصطنعة للأساليب الغربية والقائمة على النشاط الفردى الحر ؛ أن تكون أكثر المجالات فيها ربحاً ، حكراً للرعايا البريطانيين .

فأصبح لا مناص لهذا العنصر الجديد فى المجتمع الهندى أن يتطلع — مثلما تطلع اليونانيون الفناريون فى الكتلة المسيحية الأرثوذكسية الخاضعة للدولة العثمانية — إلى الاستيلاء على أزمة السلطان فى الإمبراطورية العامة التى يعيشون فى ظلها . من الأيدى الأجنبية التى شيدتها ؛ وأن يحيلوها إلى واحدة من الدول الإقليمية التى يحفل بها عالم مصطبغ بالصبغة الغربية . على أن تسير الدولة العتيدة على النمط الدستورى الشائع فى هذا العصر .

وفى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، كان الفناريون يحلمون بتحويل الإمبراطورية العثمانية إلى ملكية مستنيرة من ملكيات القرن الثامن عشر . بينما آمن الزعماء السياسيون فى الهند المتشبعون بالثقافة الغربية ، فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ؛ بالتحول الذى طرأ على المثل العليا فى الغرب . فأخذوا على عاتقهم عبئاً أشق ، وهو تحويل الإمبراطورية البريطانية فى الهند إلى دولة قومية ديمقراطية على النسق الغربى .

وبعد انقضاء فترة تقل عن خمس سنوات ، منذ تم نقل حكم الهند من أيدى البريطانيين فى ١٠ أغسطس سنة ١٩٤٧ ؛ كان التنبؤ بنتيجة هذا العمل لا يزال غامضاً . لكن يمكننا القول فعلا ، بأن الخبرة لدى زعماء الهند ، أصابت توفيقاً جاوز آمال خيرة المتفائلين من الأجانب . وذلك بفضل الجهود التى بُذلت لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من وحدة البلاد الأساسية ؛ هذه الوحدة التى لعلها أثمن هبة قدمتها بريطانيا لشبه القارة الهندية . فلقد تنبأ كثير من البريطانيين ممن راقبوا تطور الأحداث ، بأن لا مناص من أن يتلو نهاية الحكم البريطانى ، تحول شبه القارة الهندية بأسرها إلى « بلقان »[1] أخرى . فكان أن ثبت خطأ

---

(١) بمعنى إنبعاث دول إقليمية متنازعة على الصورة التى حدثت فى شبه جزيرة البلقان عقب إنهيار الإمبراطورية العثمانية . (المترجم)

النبوءة ، وإن شوّه ، الوحدة – من وجهة النظر الهندية – إنفصال باكستان .

ويرد إصرار الهنود المسلمين على تكوين باكستان ، إلى خوف إنبعث عن شعور بالضعف . فإنهم لم ينسوا كيف أن سلطان المغول قد أخفق خلال القرن الثامن عشر الميلادى ، فى الذود بالسيف عن مُلك ناله بالسيف وحده . وكان المسلمون مُدركين أنه لولا التدخل العسكرى البريطانى الذى حوّل مجرى التاريخ السياسى الهندى وجهة مختلفة ؛ لولاه ، لآل – بحد السيف – الجزء الأكبر من المُلك المغولى السابق ، إلى دولتى الماهراتا والسيخ اللتين كان يقدّر أن تخلفا الدولة المغولية . كما علم المسلمون كذلك أنهم بتهاونهم وهم فى ظل الحكم البريطانى ، قد مكّنوا الهندوس من التفوق عليهم . لأن الحكم البريطانى كان قد قضى بأن يحل العلم مكان السيف ، أداة للمنافسة ، فى الصراع الدائم الناشب بين هاتين الطائفتين .

فلهذه الأسباب ، أصرّ المسلمون الهنود عام ١٩٤٧ م على أن تكون لهم دولة منفصلة . وكان تنفيذ فكرة التقسيم نذيرا بإحداث نتائج مفجعة تماثل ما أعقب تقسيم الإمبراطورية العثمانية خلال القرن الماضى .

إذ أن محاولة تصنيف طوائف متشابكة جغرافيا فى دولتين منفصلتين ، أدى إلى تخطيط حدود تُجافى الأوضاع الإدارية والاقتصادية ، ورغما عما بُذل فى هذا الشأن ، خلّف التقسيم أقليات جسيمة محتشدة فى كل من الدولتين وراء الحدود التى فصلت بينهما . فكان أن اضطُرّ ملايين اللاجئين إلى الفرار مذعورين ، مخلّفين دورهم وأملاكهم . فاغتصبها منهم أثناء رحلتهم الرهيبة ، خصوم تغصّ قلوبهم بالحقد . حتى إذا بلغوا مذعورين نهاية المطاف وفقدوا كل شىء ، كان عليهم أن يبدأوا حياتهم من جديد فى بلاد غريبة عليهم .

وأسوأ من ذلك ، أن ثمة قسما من الحدود بين الهند وباكستان ، نشبت فيه حرب لم تُعلن للاستيلاء على كشمير . على أنه مع حلول عام

١٩٥٢، كان الساسة الهنود والباكستانيون ، قد بذلوا فى كل من دلهى وكراتشي ، جهوداً مُضنية لإنقاذ شبه القارة الهندية من التردّى فى المصير الرهيب الذى لاقته الإمبراطورية العثمانية من قبل .

وهكذا كان الموقف فى الهند وقت كتابة هذه السطور ، باعثا على الأمل بوجه عام[1] ؛ إن نُظر إليه من الجانب السياسي القريب . وإذا كان تأثير الغرب ما يزال يهدد العالم الهندى بمخاطر جدية ، فهذه المخاطر ينبغى أن يتجه البحث عنها إلى ما تحت الأوضاع الاقتصادية ، وإلى داخل الأعماق الروحية ، أكثر من أن يتجه إلى سطح الحياة السياسية . وقد يحتاج الأمر إلى بعض الوقت حتى يتسنى إبراز هذه المخاطر إلى العيان .

وثمة خطران واضحان ترتبا على حركة الاقتباس من الغرب ، كان على العالم الهندى أن يعمل لهما حسابا :

ففى المكان الأول ـ أن الحضارة الهندية والحضارة الغربية لا تكادان تجدان لها أساسا ثقافيا مشتركا .

وفى المكان الثانى ـ أن الهنود الذين تملكوا جوهر الثقافة الغربية الحديثة التى كانت دخيلة على الهند ؛ أقلية ضئيلة ، اعتلت ظهور جماهير ضخمة من الفلاحين الجهلة المعدمين . حقاً ؛ لم يكن ثمة ما يدعو إلى الظن بأن عملية التغلغل الثقافى الغربى ستقف عند ذلك المستوى ، بل كان ثمة أسباب قوية تدعو إلى التنبؤ بأن هذه العملية ـ يوم أن تختمر بها جماهير الفلاحين ـ سوف تبدأ كذلك فى إحداث نتائج جديدة وثورية بين هذه الجماهير .

وما كانت الهوة الثقافية بين المجتمع الهندى والغرب الحديث مجرّد تباين بينهما ، بل كانت تناقضاً صارخاً .

وتفسير ذلك أن الغرب الحديث قد لفّق صيغة علمانية لتراثه الثقافى ،

---

(١) لم تحل مشكلة كشمير حتى اليوم ، وما زالت هذه المشكلة تشوّه العلاقات بين الهند وباكستان . (المترجم)

استبعد منها الدين . فى حين ما انفك الدين يسيطر على المجتمع الهندى حتى أعماقه ؛ إلى درجة تعرضه يقيناً لتهمة التزمت الدينى ؛ إن اعتبر التغالى فى التركيز على أعظم مطالب الإنسان أهمية، تهمة . إن هذا الطباق[1] بين نظرة للحياة متأثرة بالانفصال الدينى ، وأخرى تتطلع إليها بعين دنيوية محضة ؛ هذا الطباق قد عمل على إيجاد فاصل عميق بين جوانب الحياة الهندية ، أعمق مما يترتب على التباين بين دين وآخر .

وحقاً ؛ نجد فى هذه النقطة بالذات ، أن الثقافات الهندية والإسلامية والمسيحية فى الغرب الوسيط ، كانت أكثر وفاقاً مع بعضها بعضاً ، من اتفاق أى منها مع الثقافة الزمنية للغرب الحديث . وبفعل قوة هذا الأساس الدينى المشترك ، كان من الميسور للهنود أن يعتنقوا الإسلام أو المسيحية الكاثوليكية الرومانية ، دون أن يعرضوا أنفسهم لتوتر روحى لا تحتمله . وهذا ما بدا فى حالة المسلمين فى شرق البنغال والكاثوليك فى جوا Goa .

وهذه المقدرة التى أظهرها الهنود على شق طريقهم إلى أرض ثقافية غربية ، عن طريق الدين ؛ هذه المقدرة لها دلالتها . ذلك لأنه إذا كانت نزعة التدين هى السمة المميزة لحضارتهم ، فإن التعالى يكون مظهرها البارز التالى للدين فى الأهمية .

ولا شك أن نزعة التعالى قد تغلب عليها — فى المجال الفكرى من حياتهم الروحية — هذا الفريق من الهنود الذين حصلوا تعليما غربياً زمنياً . فأهلهم هذا إلى القيام بنصيب فى إعادة تشييد الجوانب السياسية والاقتصادية من حياة الهند على أساس غربى حديث . لكن هذا الفريق من الطبقة المثقفة التعسة ، إنما أدى خدماته النافعة بثمن باهظ هو ذلك الانفصال الذى حدث فى نفوسهم . فقد بقيت هذه الطبقة المثقفة الهندية — التى ربيت فى أحضان الحكم البريطانى — تنأى بقلوبها عن الطرائق الغربية التى

(١) الطباق : الجمع بين متضادين . (المترجم)

أليفتها عقولها . فأدى هذا التنافر إلى غثيان روحانى عميق الجذور ، لم يشفه ترياق سياسى ، هو إحراز الاستقلال لدولة قومية هندية تنظم على النمط الغربى .

ونزعة التعالى الروحى المتأبية هذه — التى أبداها الهنود الذين تثقفوا بالثقافة الغربية — واجهت نزعة أخرى من التعالى الروحى الحاد فى نفوس الحكام الغربيين الذين كان على الطبقة الهندية المثقفة أن تتعامل معهم فى ظل الحكم البريطانى . وفى خلال الفترة الواقعة بين عام ١٧٨٦ م — وفيه تقلد كورنواليس Cornwallis منصب الحاكم العام مفوضاً لإصلاح الإدارة — وعام ١٨٥٨ م — الذى شاهد إستكمال نقل السيطرة السياسية البريطانية من شركة الهند الشرقية إلى التاج البريطانى — كان ثمة تحول عميق شاق بوجه الإجمال ؛ فى موقف الطبقة الحاكمة البريطانية الأوربية المولد ، تجاه زملائهم فى الإدارة من رعاياهم الهنود الأقحاح .

ففى أثناء القرن الثامن عشر ، اصطنع الإنجليز فى الهند عادات البلاد ؛ لم يستثنوا منها عادة إساءة استعمال السلطة . وكانوا على علم بأساليب الاتصال الشخصى مع الهنود ، وكانوا فى الوقت نفسه يغشونهم ويظلمونهم . أما فى خلال القرن التاسع عشر ، فقد أنجز الإنجليز إصلاحاً أدبياً فذاً . فإن الانتشاء بالسلطان الذى أحرزه الإنجليز فجأة ، هذا الانتشاء الذى وصم الجيل الأول من الحكام الإنجليز فى البنغال ؛ تغلب عليه مثل أعلى جديد يقوم على النزاهة الأدبية التى تطلبت من الموظف الإنجليزى فى الهند ، أن يعتبر سلطته أمانة عامة وليست كسباً شخصياً .

ولكن تخليص الإدارة البريطانية المعنوى ، قد صاحبه تناقص الاتصال الشخصى بين الإنجليز المقيمين فى الهند وجيرانهم الهنود . وظلت الحال على هذا المنوال ، إلى أن تحول حكام « الأيام السوداء » السالفة من الإنجليز

« المهتدين » ذوى النزعة الإنسانية المفرطة ، تحوّل إلى ذلك الطراز الجديد من الموظفين البريطانيين الذين لا تلحقهم فى عملهم شائبة والذين كانوا يتعالون فلا يخالطون أحداً . وهذا الطراز من الموظفين البريطانيين هم الذين ودّعوا الهند فى سنة ١٩٤٧ بعد أن كرّسوا لها حياتهم العاملة دون أن يتخذوا منها وطناً .

فلِمَ انقضت تلك العلاقات الشخصية الطليقة السهلة ، فزالت — لسوء الحظ — فى زمن ما كان ليتيسر فيه تعويض فقدان تأثيراتها الطيبة ؟

إن مردّ التغيّر — بلا ريب — عدد من الأسباب :

ففى المحل الأول — قد يستطيع الموظف الرسمى البريطانى فى الحكومة الهندية أن يتعلل — بحق — بأن تعاليه كان الثمن الذى لا محيص عنه لنزاهته الخُلقية فى تأديته لواجباته . إذ كيف يُتوقع من رجل يقوم بعملة كإله ، دون أن يصطنع فى علاقاته الاجتماعية تعالى الآلهة ؟

وهناك سبب آخر لذلك التغيّر وإن كان أقل وجاهة ، وهو الغطرسة التى ولّدها الفتح فى نفوس البريطانيين. إذ لم يحل عام١٨٤٩ ، أو فى الواقع عام١٨٥٣ حتى كانت القوة الحربية والسياسية للبريطانيين فى الهند ، قد غدت أقوى بصورة محسوسة ، مما كانت عليه خلال القرن الثامن عشر .

ولقد حلل تأثير هذين العاملين السالفى الذكر تحليلا قويا ، باحث إنجليزى فى القرن العشرين فى تاريخ العلاقات الاجتماعية والثقافية بين الهنود والبريطانيين :

« بينما كان القرن (الثامن عشر) يقترب من نهايته ، طرأ على جو العلاقات الاجتماعية تطور تدريجى. إذ أخذت الولائم الكثيرة المتبادلة يتناقص عددها ، وتوقّف عقد الصداقات الوثيقة بالهنود ... وشغلت مناصب الدولة بموظفين

جلبوا من إنجلترا ، واستفحلت النزعة الإمبراطورية . وغدا سلوك هؤلاء الموظفين أشد علواً واستكباراً . والهوة التي استطاع أن يجتازها – وقتاً ما – النواب[1] المسلمون، والموظفون الإنجليز المقبلون على الحياة، والديبلوماسيون العارفون لغات الهند ودياناتها وتقاليدها ، والباحثون الإنجليز ... هذه الهوة عادت تتسع مرة أخرى . فقد تكونت عند البريطانيين « عقدة التفوّق » وبها نظروا إلى الهند على أنها ليست فقط بلداً نظمه سيئة وأهله فاسدون ، ولكنه بلد عاجز أبداً – بطبعه – عن تحقيق حياة أفضل » .

« إن من سخريات القدر في تاريخ العلاقات بين الأوربيين والهنود في الهند أن تطهير الإدارة قد صاحبه توسيع شقة الهوة العنصرية ... إن أيام موظفي الشركة الفاسدين والثروات المغتصبة والجور على الفلاحين والاعتداء على حرمات البيوت والاتصالات الجنسية المحظورة ، كانت – كذلك – أياماً أولع الإنجليز خلالها بالثقافة الهندية . فكتبوا الشعر بالفارسية ، واجتمعوا بكرام الهنود ورجال الدين والحكام ، على صعيد من المساواة الاجتماعية والعدالة الشخصية . إن مأساة كورنواليس Cornwallis[2] أنه بانتزاعه جذور الفساد المسلّم بها ، قد قلب التوازن الاجتماعي رأساً على عقب، وهو التوازن الذي استحال بدونه تحقيق أي تفاهم متبادل ... لقد أنشأ كورنواليس طبقة جديدة بإقصائه جميع الهنود عن مناصب الحكومة العالية . أجل، أزيل الفساد ، لكن على حساب المساواة والمشاركة . ولقد قرّ في ذهنه ، كما أصبح من الأمور الشائعة المسلّم بصحتها ، أن ثمة ارتباطاً لازماً بين التدبيرين ، وكان يقول « إني أعتقد يقيناً بأن كل هندي فاسد » .. وذار في خلده أن الفساد المتفشي بين الإنجليز يمكن أن يُعالج عن طريق منح أجور معقولة . ولم يفكر

---

(١) النواب : هو الحاكم المسلم لإحدى الولايات الهندية . وكان يقابله الراجا والمهراجا عند الهندوس . (المترجم)

(٢) أول حاكم للهند وعهد إليه إصلاح الإدارة ، والقضاء على مفاسد شركة الهند الشرقية . (المترجم)

لحظة فى أن نواياه الطيبة نحو الهنود ، كانت — على الأقل — قمينة بأن تجعله يحاول تجربة ذلك الدواء فى علاج الفساد بين الهنود أيضاً . إنه لم يفكر على الإطلاق فى إيجاد بيروقراطية هندية فى حكومة الإمبراطورية ، على طراز نظيرتها فى حكومة السلطان أكبر . وهى بيروقراطية كان من الممكن — بفضل التدريب الخاص والأجور المناسبة وتشجيعها عن طريق مساواة أفرادها فى المعاملة والترقى وآيات التكريم — أن تبذل للشركة ولاءها ، مثلما بذله موظفو المغول للإمبراطور »[1] .

وسبب ثالث لما حدث من تحوّل فى العلاقات الاجتماعية بين الهنود والإنجليز ، يتمثّل فى تزايد سرعة المواصلات بين إنجلترا والهند . إذ تسنى للبريطانيين السفر ، جيئة وذهاباً ، مراراً وتكراراً ، بين إنجلترا والهند ، مما ترتب عليه شعور الإنجليز — سيكلوجياً — بأنهم يعيشون فى وطنهم وهم على أرض إنجليزية (أى الهند) .

على أن ثمة سبباً رابعاً لعله أقوى من سائر الأسباب ؛ وبه كان الإنجليزى فى الهند المجنى عليه لا الجانى . ولعل هنديا ضاق ذرعاً بتعالى الإنجليزى المقيم فى الهند فى العهد الأخير من الحكم البريطانى ، بات أشد إحساساً بالعطف على هذا الإنجليزى الدخيل ، إن فَطِن إلى أن شبه القارة الهندية كانت قبل مجىء الإنجليز إليها بزمن طويل — لعله ثلاثة آلاف سنة — مكبّلة بنظام «الطائفية» ؛ وأن المجتمع الهندى قد أعلى من شأن آفة ورثها عن سلفه المجتمع السندى . وما يزال شعب الهند بعد رحيل الإنجليز — مثلما كانت الحال قبل قدومهم — مبتلياً بآفة اجتماعية من صـنع يديه . وبالأحرى ؛ إذا نُظر إلى الانعزالية التى التزمها الإنجليز ونمّوها طوال المائة والخمسين سنة ، بمرآة التاريخ

---

(١) صفحات ١٣٦ و ١٣٧ و ١٤٥ Spear, T. G. P. : The Nabobs-A Study of the Social life of the English Eighteenth - Century India.

الهندى على طول المدى ، لأمكن تشخيص تلك الانعزالية ، بأن الإنجليز أصيبوا إصابة خفيفة بوباء هندى متوطن .

ولما كان إنهاء الحكم البريطانى قد يُخلِّص الهند من الآثار السيئة لتعالى الإنجليز فى العهد الأخير من حكمهم ، فإن التأثير الإصلاحى للإدارة البريطانية على أحوال الفلاحين الهنود وآمالهم ، تراث بريطانى لعله يبقى حجر الرحى حول أعناق موظفى الحكومة من الهنود الذين تسلّموا الإدارة من البريطانيين .

وفى ظل « السلام البريطانى » نَمّت الموارد الطبيعية لشبه القارة بصور متعددة مثل : إنشاء السكك الحديدية — تحسين الرى . . وفوق هذا كله ، الإدارة القديرة الواعية . ولعل الفلاحين الهنود عند رحيل حكامهم البريطانيين ؛ قد أصبحوا يُدركون بالكاد ، فضل المنجزات التكنولوجية الغربية الحديثة والمُثُل السياسية الديمقراطية التى تستند فى صميمها إلى المسيحية الغربية ؛ بالقدر الذى يدفعهم إلى الارتياب فى عدالة وحتمية الفاقة ، التى رزح تحتها أسلافهم أجيالا .

لكن الفلاحين الهنود إذ تتراءى لهم هذه الأحلام ، يرتكبون فى نفس الوقت أسوأ ما فى قدرتهم إرتكابه للحيلولة دون وضع أحلامهم موضع التحقيق . وذلك بمتابعتهم الاستيلاد ، متجاوزين حدود العيش الكفاف . مما ترتب عليه أن الفائض من موارد الطعام الذى تحقق بفضل المشروعات البريطانية ، اتجه إلى مواجهة الزيادة المطّردة فى عدد الفلاحين ، عوضا عن تخصيصه لتحسين دخل كل منهم . لقد ارتفع عدد سكان الهند — قبل التقسيم — من ٢٠٦ ملايين نسمة عام ١٨٧٢ إلى ٣٣٨,١١٩,١٥٤ نسمة عام ١٩٣١ ثم إلى ٣٨٨,٩٩٧,٩٥٥ نسمة عام ١٩٤١ ؛ وما يزال الفيضان آخذا فى الارتفاع [1] .

---

(١) يقدر عدد سكان الهند وباكستان فى الوقت الحاضر بسبمائة مليون نسمة تقريباً . ويتزايد سكان الدولتين تقريباً بمعدل إثنى عشر مليون نسمة سنوياً . (المترجم)

والعلاج التقليدى الذى جرى عليه الهنود لمواجهة التضخم فى عدد السكان ، هو التسليم بالمجاعات والأوبئة واختلال الأمن والحروب ؛ بغية اختزال السكان ثانية إلى رقم ، يتيح للأحياء أن يتزودوا بأسباب الحياة التقليدية فى مستواها المنخفض المألوف .

وإن المهاتما غاندى — فى سعيه بوسائله الخاصة — لاستقلال الهند ؛ قد أراد لها مصيرا يقوم على مبدأ « مالتوس Malthus »[1] نفسه .

فإن قُدّر الفشل للسياسات التى ينتهجها مثل هؤلاء الساسة الهنود ذوى العقلية الغربية ؛ فليس هناك شك فى أن ترياقا روسيا سيتخذ سبيله إلى سجل الهند القومى . ذلك لأن روسيا الشيوعية قد ورثت عن ماضيها الثقافى — مثلما ورثت الهند المصطبغة بالصبغة الغربية — مشكلة وجود طبقة معدمة من الفلاحين . وقد استجابت روسيا بالفعل — على عكس الهند — لهذا التحدّى بأساليب من صنعها . وقد تكون هذه الأساليب الشيوعية من العنف والثورية ، بحيث يعجز الفلاحون أو المثقفون الهنود عن إتباعها راضين . لكن لما كانت هذه الأساليب بديلا عن مصير أشد تجهُّما نتيجة لإتباع الأساليب القديمة لإنقاص عدد السكان ، فثمة إحتمال بأن يجد الحل الشيوعى — فى يوم منحوس — طريقه إلى برنامج الحكومة الهندية .

رابعاً — الغرب الحديث والعالم الإسلامى :

عند بداية الفصل الحديث من التاريخ الغربى ؛ كان هناك مجتمعان

(١) نسبة إلى العالم الاقتصادى الإنجليزى « مالتوس الذى قرر بأن السكان يتزايدون وفقاً لمتوالية هندسية : ٢ — ٤ — ٨ — ١٦ — ٣٢ — ٦٤ . . . الخ » بينما تتزايد موارد الطعام وفقاً لمتوالية حسابية : ١ — ٢ — ٣ — ٤ — ٥ — ٦ . . الخ . الأمر الذى يقود فى النهاية إلى المجاعات وفناء البشر ، إن لم يحدّ من تزايد السكان بإيجاد التناسق بين تزايد السكان من جهة ، وموارد الطعام من الجهة الأخرى . (المترجم)

إسلاميان شقيقان وقد انتصبا ظهرا لظهر ؛ يسدّان جميع مسالك الاتصال بين ممتلكات المجتمعين الغربى والروسى ، وبين سائر بقاع العالم القديم :

١ ــ إذ كانت الحضارة العربية الإسلامية ما تزال ــ عند نهاية القرن الخامس عشر ــ تُهيمن على الشاطئ الأفريقى المطل على المحيط الأطلسى والممتد من بوغاز جبل طارق حتى السنغال .

فكان العالم المسيحى العربى ــ والحالة هذه ــ مقطوع الصلة ــ برا ــ بإفريقيا الاستوائية . بينما كانت موجات التأثير العربى تتدافع إلى القارة السوداء ، لا على طول حدّها الشمالى فى السودان خارج الصحراء الكبرى فحسب ، ولكن كذلك على طول ساحلها الشرقى المعروف بـ « السواحلى »[1] على شاطئ المحيط الهندى . والحق إن هذا المحيط قد غدا بحيرة عربية ، لم يكن للبنادقة ــ شركاء الوسطاء المصريين فى التجارة ــ سبيل إليه . وكانت السفن العربية لا تقنع بارتياد الشاطئ الأفريقى فى كل مكان من السويس حتى سوفالا ، وإنما كانت تشق طريقها كذلك إلى إندونيسيا . فانتزعت مجموعة الجزائر من الديانة الهندوسية وضمتها إلى حظيرة الإسلام . ثم اندفعت شرقا لتُقيم مركزا فى غربى المحيط الهادى ؛ إذ هدت إلى الإسلام سكان جنوبى الفلبين ، من عنصر الملايو .

٢ ــ وكانت الحضارة الإيرانية الإسلامية تشغل فى الوقت نفسه مركزاً استراتيجيا ، بدأ أقوى من ذلك الذى تمتعت به الحضارة العربية . فلقد احتل بُناة الإمبراطورية « العثمانيون » القسطنطينية والمورة وقرمان وطرابزون . وحوّلوا البحر الأسود إلى بحيرة عثمانية ، باستيلائهم على مستعمرات « جنوا » فى شبه جزيرة القرم . ومدّت الشعوب الإسلامية الأخرى التى تتحدث

---

(١) يضم هذا الإقليم فى الوقت الحاضر شواطئ اريتريا والصومال بأجزائه . وتشيع هناك اللغة العربية أو لغة تعرف بالسواحلية ، هى خليط من العربية واللهجات المحلية . (المترجم)

التركية ، سلطان الإسلام من البحر الأسود إلى المجرى الأوسط لنهر الفولجا ؛ ومن خلف هذه الجبهة الغربية ؛ اتسع العالم الإيرانى صوب الجنوب الشرقى حتى وصل إلى المقاطعتين الصينيتين « كانصو Kansu » و« شنسى Shensi » ، الواقعتين فى شمال غرب الصين . كما امتد الإسلام عبر إيران والهند ، إلى البنغال والدكن .

كانت هــذه الكتلة الإسلامية الضخمة ــ الحاجزة ــ تحدّيا ، إستثار رد فعل قوى بين الجماعات الرائدة فى المجتمعين المسيحيين المتعاصرين :

فى العالم المسيحى الغربى ؛ ابتكرت الشعوب الساكنة على شاطئ الأطلسى ــ فى القرن الخامس عشر ــ طرازا جديدا من السفن العابرة للمحيطات ، يتكون من ثلاث صوارى وموثّق حبال مربع للأشرعة يحتوى على رشّاش . وتألف موثّق الحبال فى بداية الأمر من شراع مُثلث الشكل ، ثم اشتمل فيما بعد على أشرعة السفينة من مقدّمها حتى مؤخرها ؛ ومكّن هذا الاختراع ، السفينة من البقاء فى عرض البحر شهورا بدون انقطاع ، دون أن تضطر إلى أن ترسو على ميناء . وباستخدام هذا الطراز من السفن ، استطاع الملاحون البرتغاليون ــ بفضل نجاح تجاربهم فى الملاحة فى أعالى البحار ــ كشف جزائر ماديرا حوالى ١٤٢٠ م وجزائر الآزور عام ١٤٣٢ م . ثم نجحوا فى تطويق الجبهة العربية البحرية على الأطلسى بدورانهم عام ١٤٤٥ حول الرأس الأخضر وبلوغهم خط الاستواء عام ١٤٧١ إلى كاليكوت Calicot على الساحل الغربى للهند ، وسيطرتهم عام ١٥١١ على بوغاز ملقا ، واندفاعهم فى غربى المحيط الهادى ليرفعوا علمهم فى كانتون Canton عام ١٥١٦ وعلى شاطئ اليابان عام ١٥٤٢ ــ ١٥٤٣ .

وهكذا فى لمحة البصر ؛ اختطف البرتغاليون من أيدى العرب ، السيادة البحرية على المحيط الهندى . بينما كان الرواد البرتغاليون المتجهون شرقا

يحدقون – بحركة خاطفة من التوسع البحرى للغرب – بالعالم العربى الإسلامى من الجنوب ؛ كان ملاحو الأنهار من القوازق يتجهون شرقا ويوسعون حدود العالم الروسى ، بنفس السرعة والاكتساح ؛ وذلك بإحداقهم بالعالم الإيرانى الإسلامى من الشمال . ولقد فتح الطريق أمام القوزاق ، القيصر المسكوفى إيفان الرابع حين استولى على قازان عام ١٥٥٣ . إذ كانت قازان قلعة العالم الإيرانى الإسلامى عند حدوده الشمالية الشرقية . وبعد سقوطها ؛ لم يعد ثمة عقبة – عدا الغابات والصقيع ، وهما حليفان تقليديان عرفهما البدو من محاربى القوزاق – تحول بين طلائع المسيحية الأرثوذكسية الروسية ، وبين عبور الأورال ، وشق طريقهم شرقا على طول الممرات المائية فى سيبريا . حتى انتهى بهم المطاف إلى التوقف ؛ لعثورهم مصادفة فى عام ١٦٣٨ على المحيط الهادى ، وفى ٢٤ مارس ١٦٥٢ على المستنقعات الشمالية الشرقية لإمبراطورية المانشو . وهكذا استطاع العالم الروسى المنتشر – بوصوله إلى تلك الحدود الجديدة – الإحداق ؛ لا بالعالم الإيرانى وحده ، ولكن بالسهوب الأوراسية كلها كذلك .

وهكذا ؛ فى غضون فترة تقل عن القرن ، لم يقتصر الأمر على الإحداق بالعالم الإسلامى – الذى كان شركة بين المجتمعين العربى والإيرانى – ولكن أمكن تطويقه تماما . فى أواخر القرنين السادس عشر وأوائل السابع عشر ، وضع الطوق حول رقبة الفريسة .

على أن المفاجأة التى تم بها إيقاع العالم الإسلامى فى تلك الحبائل ؛ لم تكن شيئاً خارقا للعادة . كما انقضى وقت طويل ، قبل أن يتنبّه المسلمون أنفسهم إلى ما يجب عليهم عمله لمجابهة الموقف . وتبلور هذا العمل بالنسبة للجانبين الغربى والروسى ، فى الانقضاض على فريسة عاجزة عجزا واضحاً .

أما بالنسبة للجانب الإسلامى ، فمحاولة الإفلات من تلك الضائقة العصيبة .

على أن دار الإسلام كانت فى عام ١٩٥٢ سليمة الجوهر . فلم يُنتقص

منها سوى يضع مقاطعات من أطرافها . أما لُبّها الأساسى الممتد من مصر إلى أفغانستان ، ومن تركيا إلى اليمن ؛ فكان حراً من أى حكم سياسى أجنبي ، أو حتى سيطرة أجنبية . إذ لم تأت سنة ١٩٥٢ ، حتى كانت مصر والأردن ولبنان وسوريا والعراق ، قد انتشلت نفسها من طوفان الامبريالية البريطانية والفرنسية التى غمرتها واحـــدة بعد أخرى ؛ من عام ١٨٨٢ ، وفى غضون الحرب العامة ١٩١٤/١٨[1] .

لكن رواسب التهديد لقلب العالم العربى ، لم تعد تَفِدُ من الدول الغربية فى الملابسات الثلاثة الآتية :

الأولى — فى الوقت الذى أصبح فيه ضغط الثقافة الغربية الحديثة الشغل الشاغل للشعوب الإسلامية — كما كان الروس ، وعلى عكس ما كان عليه المسيحيون الأرثوذكس فى الإمبراطورية العثمانية إبان نفس الأزمة من تواريخهم — كانت تلك الشعوب الإسلامية ، ما تزال — من الناحية السياسية — صاحبة مصيرها ؛ كما كان المسلمون ورثة تقليد حربى مجيد ، كان هو البيّنة على قيمة الحضارة الإسلامية فى أعين أبنائها . ومن ثم كان انكشاف تضعضعها العسكرى فى العهد الأخير — بفعل منطق عجز عن تبرير الهزيمة فى معركة — كان هذا أمراً مفاجئا بقدر ما كان مهينا لهم .

ذلك لأن رضاء المسلمين عن إقدامهم العسكرى التاريخى ، قد بلغ من عمق تأصّله فى نفوسهم ، أن الدرس الذى يتضمنه تحوّل المدّ الحربى ضدهم عقب إخفاقهم أمام فيينا عام ١٦٨٣ م ، لم يؤثر بعد فى نفوسهم تأثيراً

---

(١) تعزز موقف العالم الإسلامى بعد عام ١٩٥٣ باستقلال تونس والمغرب عام ١٩٥٤ والجزائر عام ١٩٦٢ . ثم استقلت معظم البلاد الإفريقية وبعضها أكثرية مسلمة مثل الصومال والسنغال ومالى وغينيا ونيجيريا ، أو أقليات إسلامية ضخمة فى البعض الآخر . بالإضافة إلى ما حدث من حصول باكستان وإندونيسيا والملايو على الحرية . (المترجم)

ذابال ، إلا حين بلغ ذلك الدرس مداه ـ بعد ذلك بنحو قرن ـ فوصل الأمر إلى حد تهديد المسلمين بطردهم من عُقر ديارهم . وحدث ذلك عقب نشوب الحرب بين الإمبراطورية العثمانية وروسيا عام ١٧٦٨ . إذ قيل للأتراك إن الروس عزموا على جلب أسطول من بحر البلطيق . ينزلونه إلى المعركة فكان أن رفض الأتراك ـ بعناد ـ أن يصدقوا أن ثمة طريقا بحريا يصل ما بين البلطيق والبحر المتوسط ، حتى وصل هذا الأسطول فعلا . وشبيه بذلك ؛ أن مراد بك القائد العسكرى المملوكى ، حين حذّره تاجر بندقى من أن استيلاء نابليون على مالطة قد يكون مقدمة لنزوله مصر ، إنفجر ضاحكا من سخف هذه الفكرة .

الثانية ـ أعقبت هزيمة العالم العثمانى فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر على يد أداة الحرب الغربية الحديثة ـ على نحو ما حدث فى العالم الروسى قبل ذلك بقرن ـ حركة إقتباس غربية إندفعت من أعلى المجتمع إلى أدناه . وهى حركة بدأت بإعادة تشكيل القـوات المسلحة على النظم الغربية .

لكن كان ثمة على الأقل نقطة واحدة ذات أهمية رئيسية اختلفت فيها السياسة العثمانية عن السياسة البطرسية . فإن بطرس الأكبر قد حذر ـ بفراسة العبقرى ـ بأن سياسة الاقتباس من الغرب ، يجب أن تشمل « كل شىء أو لا شىء البتة » . إذ أدرك أنه لكفالة النجاح لتلك السياسة ، عليه تطبيقها ؛ لا على الجانب العسكرى وحده ، ولكن على سائر مرافق الحياة . ولم ينجح النظام البطرسى قط فى تحويل ، أكثر من ظواهر الحياة فى المدن إلى الأساليب الغربية . ثم انتهى به الأمر إلى تأديته جزاء إخفاقه فى التأثير فى جموع أهل الريف ؛ تأثيرا يقيهم سحر الشيوعية فيما بعد . وعلى الرغم من فشله ؛ فإن ما حدث إذ ذاك من وقف المدّ الثقافى لنظام بطرس الأكبر قبل أن يبلغ أهدافه كاملة ؛ لا يرجع إلى قصر نظر القيصر نفسه ،

بقدر ما يرجع إلى إفتقار الجهاز الإدارى الروسى ، إلى قوة دافعة كافية .

وأما فى تركيا ؛ فإن المؤمنين — عن كره منهم — بسياسة تنظيم القوات المسلحة العثمانية على النسق الغربى ، قد لبثوا طوال قرن ونصف قرن منذ إندلاع الحرب الروسية التركية عام ١٧٦٨ حتى انتهاء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ ؛ يتشبثون بوهم إمكان الانتقاء والاختيار ، من العناصر الثقافية الأجنبية التى يعتنقونها . هذا رغما عن المظاهر المتتابعة المؤلمة لهذا الضلال الذى أوغلوا فيه . وحكمنا على العثمانيين فى كل حركات الاقتباس من الغرب التى تجرعوا غصصها ، جرعة بعد أخرى — بوجوه متجهمة — خلال هذه الحقبة من الزمن ، هو : « من كل جرعة قليل لا يكاد يكفى وفى وقت متأخر غير مناسب » . ولبثت الحال على هذا المنوال حتى جاء مصطفى كمال ورفاقه عام ١٩١٩ ، فاندفعوا دون أن تحفظ — على غرار المنهاج البطرسى — نحو سياسية شاملة للاقتباس من الغرب .

الثالثة — أن الدولة القومية التركية التى أقامها مصطفى كمال على النسق الغربى تبدو — وقت كتابة هذه السطور — عملا ناجحاً ، لم يتحقق مثله حتى ذلك الوقت فى أى بلد إسلامى آخر . فإن عملية صبغ مصر بالصبغة الغربية التى بدأها المغامر الألبانى محمد على خلال الربع الثانى من القرن التاسع عشر ، وإن كانت أكثر شمولا من أية محاولة سعى إليها أو أنجزها السلاطين الأتراك فى الحقبة نفسها ؛ هذه العملية تحولت إلى فساد إبان حكم خلفائه . وأظهرت فى مجملها أنها « هجين » غربى إسلامى ، يضم على السواء طائفة من أسوأ مظاهر الحضارة الأصيلة والحضارة المقلدة . وحاول أمان الله خان فى أفغانستان أن يحاكى — كالقرد — ما أنجزه مصطفى كمال فى تركيا ؛ فى ميدان أشد وعورة بمملكة شبه همجية . فكانت تجربة ، نُظر إليها — وفقاً لوجهات النظر المختلفة — كمأساة أو ملهاة ؛ لكنها على أى الحالتين ، لا تنجو من الحكم عليها بالفشل .

على أن نجاح أو إخفاق تجارب من نوع تجربة أمان الله خان ، ليس هو الذى سيقرر مستقبل العالم الإسلامى فى العالم الذى نعيش فيه فى منتصف القرن العشرين بعد ميلاد المسيح . ذلك لأن طالع العالم الإسلامى فى المستقبل القريب ، متوقف – على أى حال – على نتيجة اختبار القوة بين العالمين الغربى والروسى اللذين يطوّقان العالم الإسلامى فيما بينهما . ولقد تعاظمت أهمية العالم الإسلامى فى نظر هذين المتحاربين منذ إختراع محرك الاحتراق الداخلى .

فالعالم الإسلامى أهميته القصوى كمصدر للسلع الأساسية ، وكمعبر للمواصلات الرئيسية . ويضم العالم الإسلامى ثلاثة مواطن من الحضارات الأربع الرئيسية فى العالم القديم[١] . والثروة الزراعية التى انتزعتها فيما مضى هذه المجتمعات – التى بادت اليوم – من وديان : النيل الأدنى ، ودجلة والفرات ، والسند ؛ تلك الوديان التى استعصت فى ماضى أيامها على الاستغلال ، هذه الثروة قد زادت فى مصر والبنجاب ، واستُعيدت جزئيا فى العراق . وتم ذلك بفضل تطبيق الطرائق الغربية الحديثة فى ضبط المياه . على أن أهم إضافة لموارد العالم الإسلامى الاقتصادية ؛ جاءت نتيجة اكتشاف والانتفاع بمستودعات الزيت الكامنة فى بطن أرض ، لم تكن لها فى يوم من الأيام ، قيمة زراعية ذات شأن . إن التفجّرات الطبيعية التى أحالها التدين الزرادشتى فى العصر السابق للإسلام إلى قيمة دينية – إذ استعان بها ليُبقى ضياء الشعلة الخالدة تمجيداً للنار المقدسة – قد حذرته فى عام ١٧٢٣ عين بطرس الأكبر المتطلّعة ، كرصيد إقتصادى كامن . وإذا كان الأمر قد استلزم انقضاء مائة وخمسين سنة أخرى قبل أن يؤكّد الاستغلال الاقتصادى لحقول الزيت فى باكو صدق فراسة هذه العبقرية ، فلقد أظهرت – بعد

(١) أى الحضارات : المصرية – السومرية – السندية . والحضارة الرابعة هى الحضارة الصينية . (المترجم)

ذلك ــ الكشوف الجديدة المتعاقبة باستمرار ، بأن باكو ليست إلا حلقة فى سلسلة ذهبية تمتد صوب الجنوب الشرقى عبر كردستان وبختيارستان الإيرانية[1] ، حتى مناطق من الجزيرة العربية اشتهرت بجدبها .

وقد أسفرت النتائج التى تلت التدافع نحو الزيت ، عن وضع سياسى متوتر . طالما كان نصيب روسيا من تلك الغنيمة فى القوقاز وأنصبة الدول الغربية الكبرى فى إيران والبلاد العربية ، تقع فى نطاق سلسلة متصلة الحلقات .

ولقد زاد من حدّة هذا التوتر ، تجدد أهمية العالم الإسلامى كنقطة التقاء للمواصلات العالمية . فإن أقصر الطرق بين روسيا والعالم الغربى ــ على طرفى المحيط الأطلسى ــ من ناحية ، والهند وجنوب شرق آسيا واليابان من الناحية الأخرى ، إن أقصر هذه الطرق ، يخترق أرضا ومياها وأجواء إسلامية . وما برح الاتحاد السوفييتى والغرب على خارطة المواصلات وعلى خارطة الزيت ، يقفان ــ موقف الخطر ــ متجاورين وجها لوجه .

خامساً ــ الغرب الحديث واليهود :

مهما يكن من الحكم النهائى للبشرية على الحضارة الغربية فى فصلها الحديث من تاريخها ؛ فواضح أن الرجل الغربى قد وَصَم نفسه باقتراف جريمتين لن يمحى عارهما :

الأولى ــ شحن العبيد الزنوج من إفريقيا للعمل فى مزارع العالم الجديد .

الثانية ــ إستئصال اليهود المنتشرين فى مواطنهم الأوربية .

وإن التلاقى المُفجع بين اليهودية والعالم الغربى ، جاء نتيجة تفاعل بين :

---

(١) مقاطعة تقع فى جنوب غرب إيران وعاصمتها عبدان ، وتهيمن عليها قبيلة بختيار . (المترجم)

خطيئة أزلية ، وملابسات إجتماعية من نوع خاص . وسنكرس جهدنا لإيضاح هذه النقطة الأخيرة :

كانت اليهودية فى الشكل الذى اصطدمت به مع المسيحية الغربية ، ظاهرة اجتماعية شاذة . بحسبانها فضلة متحجرة من حضارة بادت وانقضت فى كل مظاهرها . فلقد كانت دولة يهودا Judah الإقليمية السريانية — وعنها انبثقت اليهودية — واحدة من الطوائف : العبرانية ، الفينيقية ، الأرامية ، الفلسطينية . ولكن بينما فقدت الطوائف الأخرى شقيقات طائفة يهودا كيانها — كما فقدت كذلك صفتها كدولة — بفعل المصائب القاتلة التى توالت على المجتمع السورى نتيجة لمصادماته المتعاقبة مع جاريه البابلى والهلينى ؛ فإن هذا التحدى نفسه الذى واجهه اليهود ، قد استثارهم ليُبدعوا لأنفسهم طرازاً طريفاً من الكيان الطائفى . وفى داخل نطاق هذا الطراز الجديد ، إستعاضوا عن فقدان دولتهم وبلادهم ، بالاحتفاظ بذاتيتهم — فى صورة تشتت[1] — بين ظهرانى أغلبية أجنبية ، وفى ظل حكم أجنبى .

وليس رد الفعل اليهودى الموفّق هذا ، بالشىء الفريد فى نوعه . فإن لتشتت اليهود فى أرجاء العالمين الإسلامى والمسيحى ، ما يماثله فى تشتت طائفة » البارسى » فى أنحاء الهند . وهذه الطائفة ، هى كذلك بقية متحجرة من بقايا المجتمع السورى نفسه .

والبارسيون هم بقايا من تحوّلوا إلى الحضارة السورية ، التى منحت المجتمع السورى دولته العالمية ، فى شكل إمبراطورية أخيمينية . إن طائفة البارسين — كاليهود — رمز حى لإرادة الحياة ، بعد أن فقدت الدولة والوطن . وهذه الخسارة للدولة والوطن جاءت — مثلما حدث لليهود —

---

(١) الانتشار أو التشتت : ترجمة اصطلاح الـ **Diaspora** . ويطلق على اليهود بعد تشتتهم عقب قضاء الرومان على دولتهم فى فلسطين وانتشارهم بين شعوب العالم تقريباً . (المترجم)

نتيجة مصادمات متتالية بين العالم السورى والمجتمعات المجاورة له . وكما يذل اليهود من تضحيات خلال القرون الثلاث المنتهية فى عام ١٣٥ ميلادية ، ضحى الآباء الأولون للبارسيين من أتباع زرادشت ، بأنفسهم فى محاولة فاشلة للتخلص من تأثير دخيل للحضارة الهلينية . وكما دفع اليهود الثمن الذى اقتضته منهم الإمبراطورية الرومانية جزاء فشلهم ؛ كذلك دفع الإيرانيون من أتباع زرادشت جزاء فشلهم ، الثمن الذى اقتضاه منهم الفاتحون العرب المسلمون فى القرن السابع الميلادى .

وحافظ اليهود والبارسيون فى إبان هاتين الأزمتين المتماثلتين من تاريخهما ، كل على ذاتيته ؛ بفضل استنباطه نظما جديدة ، والتخصص فى مجالات جديدة من العمل . ولقد وجد كل منهما فى أحكام شريعته الدينية ، وشيجة اجتماعية تربط بين أفراد الطائفة . ونجوا من عواقب الكارثة الاقتصادية التى أنزلها بهم ، إنتزاعهم من أرض آبائهم . وذلك بتنميتهم — وهم فى المنفى — مهارة خاصة فى شئون التجارة وغيرها من الحرف الحضرية ؛ فاستعاضوا بهما عن الفلاحة ، التى لم يعد يتيسر لهؤلاء المنفيين المجردين من الأرض ، ممارستها .

ولم يكن هؤلاء المشردون من اليهود والبارسيين وحدهم ، هم البقايا المتحجرة التى خلفها وراءه المجتمع السورى البائد . إذ أخرجت البدع الدينية المسيحية المناهضة للهلينية التى ظهرت خلال الحقبة الواقعة بين تأسيس المسيحية وقيام الإسلام ؛ أخرجت بقايا متحجرة فى شكل الكنيستين « النسطورية » و « المينوفيستية » .

كما أن المجتمع السورى ، لم يكن وحده المجتمع الذى وُفّقت الطوائف المنبثقة عنه فى أن تعيش بفضل الجمع بين التنظيم الروحانى والعمل التجارى ، بعد أن فقدت دولتها وأخرجت من ديارها . فإن الطائفة اليونانية المسيحية الأرثوذكسية التى خضعت لنظام عثمانى غريب عليها ، وأخرجت من

ديارها – إلى حد ما – قد استجابت لتحدى هذا النظام ، بإحداثها تغيرات في تنظيماتها الاجتماعية ومناحى نشاطها الاقتصادى . الأمر الذى سار بها شوطاً بعيداً فى مصير « التشتت » ، من نفس النوع الذى سبق ذكره ؛

وحقاً ، كانت الطوائف الدينية فى الامبراطورية العثمانية[1] ، مجرد صيغة أخرى للبناء الطائفى فى المجتمع . ذلك البناء الذى نما تلقائياً فى العالم السورى بعد أن سُحقت الدولة السورية ، واختلطت الشعوب السورية اختلاطا معقّدا بفعل عدوان العسكرية الأشورية . وأسفر ذلك عن إعادة وصل ما انقطع من أجزاء المجتمع فى شكل شبكة من الطوائف المختلطة جغرافيا ، عوضا عن التنظيم السابق لهذا المجتمع فى شكل مُرقّعة[2] من الدول الإقليمية المعزولة جغرافيا ؛ وورث هذا الأسلوب فى إعادة تشكيل المجتمع عن المجتمع السريانى (السورى) ، خلفاؤه المسلمون من العرب والإيرانيين . ثم فرضه فيما بعد بُناة الإمبراطورية العثمانيين – أتباع الحضارة الإيرانية – على الشعوب المسيحية الأرثوذكسية التى خضعت لحكمهم .

وعلى هدى هذه النظرة التاريخية الشاملة ؛ يتضح لنا أن التشتت اليهودى ، كان فى تلاقيه بالمسيحية الغربية ، أبعد من أن يكون ظاهرة اجتماعية فريدة فى نوعها . بل كان على العكس « عيّنة » لنموذج » من طائفة ؛ غدا الطراز المألوف فى أرجاء العالم الإسلامى الذى تشتت اليهود فيه ، وفى العالم المسيحى الغربى .

لهذا قد يتساءل المرء بحق ، عما إذا كان الوضع الاجتماعى الخاص الذى أسفر عنه التلاقى المفجع بين اليهودية والمسيحية الغربية ، لا يرجع إلى

---

(١) كان يعرف فى الإمبراطورية العثمانية بـ « ملت » من كلمة « ملة » العربية . (المترجم)

(٢) المرقعة : ما يؤلف من رقع أو أجزاء مختلفة – تلصيقة . (المترجم)

خصائص معيّنة فى جانب المسيحية الغربية ، لا تقل عما يوجد منها فى الجانب اليهودى . وفى وسعنا – إذ نطرح هذا السؤال – أن نستبين أن التاريخ الغربى قد تميز – بحق – بثلاثة اعتبارات تتصل جميعها بتاريخ العلاقات اليهودية الغربية :

أولا – أن المجتمع الغربى قد نظّم نفسه فى شكل مُرَقّعة من الدول الإقليمية المنعزلة إحداها عن الأخرى جغرافيا .

ثانياً – أن ذلك قد طوّر نفسه تدريجياً من مجتمع مُغرق فى اقتصاده الزراعى ، يتكون من فلاحين وملاك أرض ؛ إلى مجتمع مُغرق نزعته الحضرية ، قوامه الصناع والبورجوازية .

ثالثاً – هذا المجتمع الغربى فى شكله الأخير القائم على الفكرة القومية وعقلية الطبقة الوسطى ؛ إنبعث من بين طيات الظلام النسبى الذى ران عليه إبان القرون الوسطى ، ثم مضى سريعاً ليبسط ظله على سائر الدنيا .

ويُفصح تاريخ تشتت اليهود فى شبه جزيرة أيبريا ؛ عن الارتباط الكامن بين النزعة المعادية للسامية ، وبين المثل الأعلى للمسيحية الغربية ، وقوامه : تجانس الجماعة التى تنتظم جميع السكان فى إقليم معين .

فما أن التأمت الهوة بين طائفتى الرومان والقوط الغربيين – بفضل تحوّل القوط الغربيين عام ٥٨٧ م من المسيحية الآرية إلى المسيحية الكاثوليكية – حتى بدأ فى بلاد القوط الغربيين توتر بين الجماعة المسيحية الموحّدة والطائفة اليهودية التى زاد – تبعاً لذلك – شعورها بذاتيتها ؛ وتسجل تزايد حدة التوتر ؛ سلسلة من التشريعات المناهضة لليهود ، تناهض تماماً التشريع الإنسانى الذى صـدر فى نفس الوقت عن القوط الغربيين لحماية العبيد من استبداد سادتهم . على أن هذه التشريعات : السامى منها والمنحط على السواء ، دليل على نفوذ الكنيسة على الدولة .

وفى تلك الظروف ، تآمر – فى نهاية الأمر – يهود شبه جزيرة أيبريا مع إخوانهم فى الدين فى شمال أفريقيا ، ليحصلوا على تدخل العرب المسلمين لصالحهم . ولعل العرب كانوا يعتزمون – بلا شك – القدوم بصرف النظر عن إغراء اليهود لهم . وعلى أية حال ؛ وفد العرب ، وتلا هذا قيام نظام إسلامى فى شبه الجزيرة لبث خمسمائة عام (٧١١ م – ١٢١٢) . وفى الحكم الإسلامى ، لم تعد الطائفة اليهودية – وقد أصبحت تستمتع بالحكم الذاتى – قوماً « لهم طابع خاص » .

حقاً ، إن الأثر الاجتماعى للفتح العربى لشبه الجزيرة الأيبرية هو شعور الطائفة اليهودية بأنها آبت إلى وطنها . هذا التأثير الاجتماعى ، ماثل فى إعادة تشييد المجتمع أفقياً ؛ وهو ما جلبه العرب الفاتحون معهم من عالمهم السورى . لكن لم تستمر هناءة الطائفة اليهودية فى شبه الجزيرة بعد انهيار الحكم الإسلامى . فإن برابرة القرون الوسطى من المسيحيين الكاثوليك الذين غزوا أملاك الخلافة الأموية الأندلسية ، قد نذروا أنفسهم لتحقيق المثل الأعلى للجماعة المسيحية المتجانسة . فكان أن أضطُر اليهود فى الفترة الواقعة بين عامى ١٣٩١ و ١٤٩٧ إلى الخروج إلى النفى أو الاعتراف باعتناق المسيحية .

وهذا المثل الأعلى للجماعة المسيحية المتجانسة الذى كان الدافع السياسى لضيق المسيحية الغربية ذرعاً بوجود الأغراب اليهود بين ظهرانيها ، عززته تطورات اقتصادية واجتماعية على مر الأيام :

فما الموطن الذى نشأ فيه المجتمع الغربى ، إلا بقية قصية من العالم الهلينى ؛ أخفقت فيه الثقافة الحضرية الهلينية فى تأصيل جذورها . والحياة الحضرية الظاهرة على سطح المجتمع والتى أقيمت على أسس زراعية بدائية ، قد ظهر أنها عامل معوّق بدلا من أن تكون عامل دفع واستثارة . فما أن تقوّض – تحت

ثقل نفسه ـ هذا البناء السطحى الغريب الذى شيّده الرومان ، حتى عاد الغرب فارتدّ إلى نفس المستوى الاقتصادى الواطئ الذى كان عليه قبلما تسمى الحضارة الهلينية إلى غرس بذورها وراء جبال الابنين ،أو عبر البحر التيرانى.
وترتبت ـ بالذات ـ على هذا التأخر الاقتصادى نتيجتان :

الأولى ـ إنتشار اليهود المشتتين فى أرجاء العالم المسيحى الغربى . إذ عثر اليهود على ثغرة فى الغرب ، نفذوا منها إلى العمل لتدبير معاشهم . وذلك بتزويد المجتمع الغربى الغليظ ،بأدنى حد من الخبرة التجارية والتنظيم . وما كان فى وسع أى بلد زراعى قح ، أن يعيش بدون هذا الحد من الخبرة التجارية والتنظيم ، بل لم يكن هذا البلد ليستطيع ـ فى ظروفه وقتذاك ـ القيام به بموارده الخاصة .

المرحلة الثانية ـ وطمح خلالها المسيحيون فى المجتمع الغربى إلى أن يحلّوا محل اليهود عن طريق إتقانهم الفنون اليهودية المُربحة .

وعلى مر الأجيال ، بذل المسيحيون فى الغرب جهودا جبارة فى هذا الميدان الاقتصادى الذى كان إحتكارا لليهود ، أجدت عليهم فى النهاية أرباحا مثيرة . فلم يحل القرن العشرون للميلاد حتى كانت المؤخرة الشرقية[١] من « طابور » الشعوب الغربية ـ فى زحفها الطويل نحو هدفها الذى تتطلع إليه وهو بلوغ الكفاية الاقتصادية ـ تمر فى عملية تحوّل حققتها قبلها بألف عام ، شعوب شمال إيطاليا والفلمنك ؛ وقد كانوا الرواد الأول لحركة يمكن أن نطلق عليها دون أن نجاوز الحقيقة فى كلا الحالين : « التعصّر »[٢] أو « التهود »[٣] .

وكان ظهور طبقة من المسيحيين أهل لإنجاز جميع الأعمال التى تخصص

---

(١) أى بولندا والمجر وليتوانيا . (المترجم)
(٢) التعصر : الأخذ بالأساليب الحديثة Modernization . (المترجم)
(٣) التهود gudaizatism : اصطناع الأساليب اليهودية . (المترجم)

فيها اليهود[1] ثم تطلعهم بالتالى إلى طرد اليهود ، عاملا فى التاريخ الغربى تدلّ على بلوغ هذه المرحلة الاجتماعية من التقدم العصرى .

ولقد مرّ الصراع الاقتصادى بين اليهود والمسيحيين فى الغرب فى ثلاثة فصول :

فى الفصل الأول – كان اليهود موضع الكراهية ، بقدر ما كانوا طائفة لا غنى للمجتمع عنها . بيد أن سوء المعاملة التى كانوا يلقونها ؛ كان يحدّ منها عجز مضطهديهم من المسيحيين عن تدبير شئونهم اقتصادياً ، بدون اليهود .

واستهل الفصل الثانى فى البلاد الغربية – الواحد تلو الآخر – بمجرد أن استحوزت البورجوازية المسيحية الناشئة ، على قدر كاف لنفسها من الخبرة والمهارة ورأس المال ؛ بث فيها شعور القدرة على انتزاع المكانة التى يحتلها اليهود المحليون . وعند هذه المرحلة ؛ استخدمت البورجوازية المسيحية قوتها التى فازت بها – حديثاً – لتؤمن طرد منافسيها اليهود . وهذه المرحلة ؛ بلغتها انجلترا فى القرن الثالث عشر ، الميلادى وأسبانيا فى الخامس عشر ، وبولندا والمجر فى القرن العشرين .

وفى الفصل الثالث – كانت البورجوازية المسيحية قد وطدت مكانتها ، وتمكنت تماماً من الفنون الاقتصادية لدى اليهود . إلى درجة ؛ لم يعد خوفها التقليدى من عواقب الاستسلام للمنافسة اليهودية ، يمنعها من الإفادة من المقدرة الاقتصادية عند اليهود لخدمة الاقتصاد القومى المسيحى . وبهذه الروح ؛ أجازت حكومة توسكانا عام ١٥٩٣ وما بعده للاجئين

---

(١) فى الأصل : طبقة « أنطونيو تحل محل شيلوك . ويشير الأستاذ المؤلف هنا إلى مسرحية شكسبير « تاجر البندقية » التى رمز فيها إلى المسيحى الساذج بأنطونيو الذى وقع فى براثن اليهودى الماكر شيلوك حتى اقترض منه متعهد بوفاء الدين رطلا من لحمه إن عجز عن وفاء الدين نقداً . (المترجم)

اليهود الوافدين من أسبانيا والبرتغال ، الاستقرار فى بلجهورن . وكانت هولندا منذ عام ١٥٧٩ قد فتحت أبوابها لهم . أما انجلترا التى أحست فى نفسها القوة الكافية لطرد اليهود منها عام ١٢٩٠ ، عادت فشعرت بمثل هذه القوة لتجيز لهم العودة إليها منذ عام ١٦٥٥ .

وسرعان ما تلا هذا التحرر الاقتصادى لليهود فى العصر الحديث من تاريخ الغرب ، تحررهم اجتماعياً وسياسياً ؛ نتيجة الثورات الدينية والأيدلوجية المعاصرة فى العالم المسيحى الغربى . فإن الاصلاح البروتستانتى قد حطّم جبهة الكنيسة الكاثوليكية الموحّدة ، والمعادية لليهودية . ومصداقاً لهذا ؛ نجد انجلترا وهولندا فى إبان القرن السابع عشر ، ترحبان باللاجئين من اليهود ، باعتبارهم ضحايا الكاثوليكية الرومانية عدوة هذين البلدين البروتستانتيين . وترتب على هذا ، أن شارك اليهود — بصفة عامة — ثمرات روح التسامح المطرد فى النمو ، فى البلاد الكاثوليكية والبروتستانتية على السواء . وما أن حل عام ١٩١٤ ؛ حتى كان تحرر اليهود — رسمياً فى جميع مجالات النشاط البشرى — حقيقة مقررة منذ أمد طويل ؛ فى جميع بقاع العالم الغربى الحديث . باستثناء تلك الأراضى التى كانت تكوّن فيما مضى ، المملكة المتحدة لبولندا وليتوانيا ؛ والتى ضُمّت أخيراً إلى الإمبراطورية الروسية .

ولقد قرّ فى الأذهان عند هذه المرحلة ؛ كما لو أن المشكلة اليهودية قد وجدت حلا يقوم على امتزاج الجماعتين المسيحية واليهودية — إحداهما بالأخرى — عن طريق اتحاد قائم على حرية الاختيار من كلا الفريقين . لكن ما لبث أن دخلت فى فصل رابع أشد هولا من أى شىء سبقه .

فما الذى قاد إلى هذا المصير ؟ .

لقد نكأ الجرح القديم ، ذلك الحاجز السيكلوجى الذى ما برح قائماً بين المسيحيين من أهل الغرب واليهود . وحتى بعد أن أزيلت — رسميا — الفوارق

القانونية بينهما ، كان لا يزال ثمة « جيتّو »[1]. استمر المسيحيون يحصرون اليهود داخل نطاقه . كما تابع اليهود – من ناحيتهم – عزل أنفسهم عن المجتمع المسيحي الغربي . وما انفك اليهودى وهو يعيش فى مجتمع موحّد من الوجهة الرسمية – يجد نفسه – شخصا منبوذاً ، بمختلف الأساليب الملتوية . بينما ألفى الإنسان المسيحي نفسه ما يزال يجابه تضامناً وثيقاً – ماسونية – يربط اليهود بعضهم ببعض . كما يواجه طموحاً يهودياً إلى المطالبة بالمزايا التى يسبغها المجتمع الموحّد على جميع أفراده ، بما فى ذلك اليهود . لكن اليهود – من جانبهم – ما كانوا على استعداد لمنح غيرهم هذه المزايا .

فكان أن واصل الفريقان كلاهما إتّباع مقياس للسلوك مزدوج : فكان ثمة سلوك رفيع لتعامل المرء مع أفراد طائفته ، وسلوك آخر أقل مستوى يتعامل به مع بقية مواطنيه – بالاسم – الساكنين فى الجانب الآخر وراء الحاجز الاجتماعى ، الذي كان مفروضاً أنه لم يعد قائما . وإن هذا الرداء الجديد من النفاق ، الذى تحفظ فى طياته رذيلة الجور القديمة ، عمّق شعور الازدراء والاستهانة الذى يشعر به كل فريق إزاء الآخر . ومن ثم جعل الموقف بينهما أشد توترا وأقل احتمالا .

وأظهر تجدد النزعة المناهضة للسامية ، دقة العلاقات بين الطائفتين ، حينما كثرت نسبة اليهود العددية إلى مجموع السكان من العنصر المسيحى . فبدا هذا الاتجاه واضحاً للعيان عام ١٩١٤ فى لندن ونيويورك ، نتيجة للهجرة اليهودية التى تدفقت منذ عام ١٨٨١ من الأراضى البولندية واللتوانية السابقة ، التى ضمّت إلى الإمبراطورية الروسية ، هجرة تحت ضغط الاضطهاد الروسى . واشتدت هذه النزعة ضراوة فى النمسا الألمانية وفى الرايخ الألمانى ، نتيجة

---

(١) الجيتو ghetto : حى اليهود . وكان لا يسمح لهم بالإقامة خارج حدوده . (المترجم)

لهجرة يهودية أخرى ، وفدت إليهما خلال الحرب العالمية الأولى من غاليسيا وبولندا ومن المقاطعات الشرقية لما يسمى بـ« الحظيرة الروسية » . ولم تكن هذه النزعة المناهضة للسامية فى ألمانيا أضعف العوامل التى حملت الاشتراكيين الوطنيين الألمان[1] إلى تقلد زمام الحكم . ولا لزوم هنا لتفصيل ما تلا ذلك من استئصال اليهود ، على أيدى الاشتراكيين الوطنين الألمان . إذ تبلغ الوقائع من قبح الذكر ، ما تبلغه من الهول ، وتقيم للإثم معرضاً على مستوى قوى ، لعل التاريخ لا يجد له حتى الآن نظيرا .

وهاجمت الروح القومية الغربية الحديثة فكرة الانتشار اليهودى فى العالم الغربى على جبهتين فى وقت واحد :

فإن الروح القومية الغربية بجاذبيتها من ناحية وضغطها فى الوقت نفسه من ناحية أخرى ، قد دفعت اليهود الغربيين إلى اختراع قومية تقتصر عليهم وحدهم . ويمكن وصفها بأنها شكل جماعى للاقتباس من الغرب ؛ إذا قورن بالشكل الفردى من هذا الاقتباس الذى يقترن — عند اليهود — بعصر الليبرالية الذى بلغ أوجه فى القرن التاسع عشر .

وإذا كان المثل الأعلى فى التأثر بالغرب ، هو تحويل الفرد اليهودى إلى بورجوازى غربى يدين باليهودية ؛ فإن المثل الأعلى البديل له ، يهدف إلى تركيز اليهود المشتتين — أو جانب منهم — فى دولة قومية خاصة بهم لا تنتظم إلا سكانا متجانسين من اليهود . هذان الاتجاهان دليلان على أن تحرير اليهود كان من الصدق بحيث مكنهم من الاستجابة للأفكار الغربية الشائعة .

وكذلك كانت الصهيونية ، فى الوقت نفسه — بشهادة مؤسسها تيودور هرزل Theodor Herzl — قرينة على قلق اليهود من إغلاق الطريق الذى

---

(١) أى النازى . (المترجم)

يؤدى إلى استيعابهم ، كأفراد فى المجتمعات الأخرى ؛ بتأثير العصبية القومية بين المسيحيين الغربيين . تلك العصبية التى وفدت سريعا ، فى أعقاب النزعة الليبرالية . وقد لا يكون من قبيل المصادفة — والحالة هذه — أن تنبعث على التتابع : الصهيونية اليهودية ، والنزعة الجديدة المناهضة للسامية ؛ فى نفس المنطقة الجغرافية ؛ وهى الأراضى التى يتحدث أهلها الألمانية من الإمبراطورية النمسوية ، قبل تفككها عام ١٩١٨ .

ومن بين جميع سخريات التاريخ الكثيبة ؛ لا يُلقى أى منها ضياء نافذا على الطبيعة البشرية ، مثلما تُلقيه تلك الحقيقة السافرة . وهى أنه غداة أفظع ألوان الاضطهاد المتعددة التى حلّت بالشعب اليهودى فى تاريخه ، نجد اليهود أصحاب النموذج القومى الجديد — وهو الصهيونية — يُقيمون على أنفسهم الحجة بأن الدرس الذى تعلمه الصهاينة من الفظائع التى قام بها النازى ضد اليهود ؛ لم يدفعهم إلى تنكّب ارتكاب نفس الجريمة التى كانوا هم ضحاياها . بل راحوا يضطهدون شعبا أضعف منهم ، وهم الفلسطينيون العرب ، الذين كانت كل جريمتهم لدى اليهود ، أن فلسطين كانت وطن أجدادهم . وإذا كان اليهود الإسرائيليون لم يقتفوا آثار النازيين إلى درجة إبادة العرب فى معسكرات الاعتقال وحجرات الغاز ، فإنهم استصفوا غالبيتهم — وقد جاوزوا نصف المليون [1]— بطردهم من الأراضى التى شغلوها وزرعوها أجيالا هم وآباؤهم من قبل ؛ والاستيلاء على المتاع الذى عجزوا عن حمله أثناء فرارهم . ومن ثم أصبح العرب ؛ فى حالة العدم ، وغدوا « قوماً لاجئين » .

وأثبتت هذه التجربة الصهيونية فيما أثبتت من نتائج ، نقطة وردت فى

---

(١) يجاوز عدد اللاجئين الفلسطينيين فى الوقت الحاضر المليون . وإن فظائع اليهود فى دير ياسين وغيرها . لا تقل عن فظائع النازيين ضد اليهود ، مع فارق أن الألمان فعلوا ما فعلوه فى وطنهم وضد جماعة شاذة أضرت بقضيتهم إبان الحرب العالمية الأولى . فى حين أن الصهاينة قوم غرباء عن فلسطين ، وضعهم الاستعمار رأس رمح فى العالم العربى . (المترجم)

مكان سابق من هذه الدراسة . ألا وهى أن الخصائص « اليهودية » التى طالما ألصقها المسيحيون منذ أمد طويل باليهود المقيمين بين ظهرانيهم ، هى حصيلة الملابسات الخاصة التى صاحبت تشتت اليهود فى أنحاء العالم الغربى ؛ ولا ترجع ـ أى الخصائص اليهودية ـ إلى أية خلة عنصرية خاصة موروثة . إن تناقض الصهيونية ، أنها إذ تبذل جهدها الشيطانى لتشييد صرح جماعة يهودية لحما ودما ؛ ما برحت تعمل بنفس القدر من النشاط لانخراط اليهود فى عالم غربى . مثلما دأب الفرد اليهودى على التطلع إلى أن يصبح بورجوازيا غربيا يهودى العقيدة ، أو بورجوازيا لا أدريا[1] .

إن اليهودية فى تاريخها ، عبارة عن تشتت . وإن الطبع اليهودى والنظم اليهودية ـــ من ولاء مغرق فى الحذر لشريعة موسى ، والتزام تام لقواعد وأحكام التعامل التجارى والمالى ـــ كانت من الأعمال التى جعل منها التشتت اليهودى على مر العصور ؛ طلاسم إجتماعية ، منحت هذه الطائفة المتفرقة جغرافيا ، قدرة سحرية على البقاء . ولكن يهودا محدثين إصطبغوا بالصبغة الغربية ـــ سواء انتموا إلى المدرسة الليبرالية أو إلى الصهيونية ـــ خرجوا على هذا الماضى التاريخى . وكان خروج الصهيونية عليه أشد عنفا ؛ مما فعله اليهود ، مريدو الليبرالية .

فإن الصهيونية بنبذها تقاليد « التشتت » اليهودى جملة ، لتقيم أمة جديدة مستقرة جديدة على ظهر الأرض ؛ على غرار ما فعله الرواد البروتستانت المحدثون من المسيحيين الغربيين الذين أقاموا الولايات المتحدة الأمريكية واتحاد جنوب أفريقيا واستراليا ونيوزيلند ؛ أجل إن الصهيونيين بفعلتهم

---

(١) مذهب اللاأدرية Agnasticism : صكه هكسلى عام ١٨٦٩ . ويقول بجهل الإنسان ـ بحكم طبيعة الأشياء ـ بكل ما يتصل بالوجود الروحى ، سواء اتصل هذا الوجود الروحى بالله أو بالإنسان نفسه . وبالأحرى تقتصر معرفة الإنسان على الظواهر المادية وحدها . (المترجم)

هذه ، كانوا يدمجون أنفسهم فى الوسط الذى يطلقون عليه « الأمى »[1] .
وإذا كانوا يقولون بتلقيهم الوحى من أسفارهم ؛ فإن هذا الوحى ، ليس هو الوحى الذى تلقوه عن شريعة موسى ، ولا هو وحى الأنبياء ؛ لكنه وحى تلقوه من القصص الواردة فى سفرى الخروج ويشوع[2]

وبهذه الروح ؛ اتجهوا فى تحد وحماسة ، إلى إحالة أنفسهم إلى عمال يدويين ، عوضا عن عمال ذهنيين ؛ إلى قوم ريفيين ، عوضا عن سكان مدن ؛ إلى متنجين ، عوضا عن وسطاء ؛ إلى زراع ، عوضا عن صيارفة ؛ إلى محاربين ، عوضا عن تجار ؛ إلى إرهابيين ، عوضا عن شهداء .

وقد أظهر اليهود فى أدوارهم الجديدة ، مقاومة للضغط وصلابة مذهلتين ، مثلما أظهروه فى أدوارهم القديمة . لكن ما تخبئه الأيام للإسرائيليين

---

(١) الأمى Gentile : لقب يطلقه اليهود - على سبيل الإزدراء - على من عداهم من البشر . (المترجم)

(٢) ورد فى سفر الخروج - آية ٣٦ إصحاح ١٢ - أن اليهود سلبوا المصريين الفضة والذهب والأمتعة والثياب . كذلك جاء فى الآيات ٢٩ - ٣١ من نفس الإصحاح أن الرب - رب اليهود - خرّب المصريين جميعاً من فرعون إلى الأسير فى السجن ؛ بل ضرب كل بهيمة ، حتى لم يكن بيت ليس فيه ميت .

وورد فى سفر يشوع - ويشوع خلف موسى بعد موته - أن الرب أمره بالاستيلاء بالقوة على كل أرض تدوسها أقدام بنى إسرائيل من البرية ولبنان إلى نهر الفرات وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس . وورد فى الإصحاح السادس من هذا السفر - آيات ٣١ - ٣٥ - تفصيل ما فعله اليهود بمدينة أريحا عند دخولهم إياها بقيادة يشوع . إذ سلبوا المدينة وقتلوا أهلها ولم ينج منهم - كما تقول الآية ٣١ - رجل وامرأة وشيخ ، حتى البقر والغنم والحمير ذبحها اليهود . ولكن نجت امرأة تصفها التوراة بأنها زانية وتدعى راحاب لأنها خبأت لديها جاسوسين إسرائيليين بعدما أمضيا الليلة فى فراشها - كما تقول التوراة . ولقد خلدت حكومة إسرائيل اسم هذه المرأة الزانية بإطلاق اسمها على مدينة « راحابوت » . وفعل اليهود بالمدن والقرى الأخرى التى دخلوها بقيادة يشوع ما فعلوه بأريحا من سلب وذبح وتخريب .

ويعنى الأستاذ المؤلف بعبارته السالفة الذكر أن الصهيونية لم تستلهم فى أفعالها شريعة موسى ، لكنها استلهمت ما ورد فى سفرى الخروج ويشوع من سلب وذبح وتخريب فى معاملتها لعرب فلسطين . (المترجم)

ـ وهو الاسم الذى يطلقه يهود فلسطين على أنفسهم ـ رهن بما سيظهره المستقبل وحده . إذ يبدو أن الشعوب العربية المحيطة بهم مصممة على طرد الدخلاء من بين ظهرانيها . وهذه الشعوب العربية فى الهلال الخصيب يفوق عددها ، عدد الإسرائيليين بكثير ؛ وإن كان تفوقها العددى يحدّه فى الوقت الحاضر نقصها فى الطاقة والكفاية [١] .

وفوق هذا ؛ فقد أصبحت جميع المسائل عالمية الطابع :

فإلى أى جانب يجد كل من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة مصالحه فى الشرق الأوسط حين يجدّ الجد ؟

هذه هى المسألة ! !

فمن ناحية الاتحاد السوفيتى ، يصعب التنبؤ .

وأما فيما يتصل بالولايات المتحدة ؛ فما برح العامل المحدد لسياستها الفلسطينية كامناً حتى اليوم ، فى التفاوت الكبير فى عدد وثراء ونفوذ كل من العنصرين اليهودى والعربى فى مجموعة سكان تلك البلاد . إذ يبدو الأمريكيون العرب ـ إن قورنوا باليهود الأمريكيين ـ كمًّا مهملا ؛ حتى وإن أخذ فى الحسبان أولئك العرب اللبنانيون ذوو الأصل المسيحى . أما الجانب اليهودى من كتلة المواطنين الأمريكيين ؛ فإنه يمارس سلطاناً سياسياً ، لا يتناسب إطلاقاً مع عدد أفراده . ذلك لأن اليهود الأمريكيين يتركزون بمدينة نيويورك . وهذا أمر له وزنه فى معترك المنافسة على كسب

---

(١) نلاحظ على هذه العبارة ما يلى :

أولا ـ أنها كتبت قبل ثورة ١٩٥٢ . ومنذ ذلك التاريخ والبلاد العربية بعامة ومصر بخاصة تسير بخطى سريعة فى طريق التقدم المادى والمعنوى . فأصبحت مصر تتفوق على إسرائيل تماماً اقتصادياً وتكنولوجياً وعسكرياً .

ثانياً ـ لا تقتصر مناهضة إسرائيل على دول الهلال الخصيب ، بل أصبح العرب بعد استقلال دولهم فى الشرق والغرب يجمعون على فكرة القضاء على إسرائيل .
(المترجم)

لأصوات فى السياسة الأمريكية المحلية فى دولة رئيسية . على أن تقديرات الساسة من المسيحيين الأمريكيين المستهترين ، لأصوات اليهود فى الانتخابات ، ليست هى – كما يتجه إليه إعتقاد بعض المراقبين الذين لا يقلون عن هؤلاء الساسة حمقاً – التفسير الكامل للتأييد الساحق الذى بذلته حكومة الولايات المتحدة لإسرائيل ، خلال السنوات الحرجة التى أعقبت مباشرة انتهاء الحرب العالمية الثانية . إذ لم تكن هذه السياسة إنعكاساً لمجرد تقديرات جافة لاعتبارات داخلية ؛ وإنما كانت أيضاً إنعكاساً بشعور الرأى العام فى أمريكا بالامبالاة ، ومثاليته ، وتشويه معلوماته .

لقد ألفى الأمريكيون أنفسهم قادرين على التدخل فى المصائب التى أنزلها النازى فى أوروبا باليهود . لأن يهوداً آخرين كانوا يمثلون نماذج بشرية مألوفة فى حياتهم اليومية . أما العرب ، فليسوا منتشرين فى الحياة الأمريكية ، يذكرون الأمريكيين بنكبات عرب فلسطين .

« إن الغائبين دائماً مخطئون » .

سادساً : الغرب الحديث وحضارة الشرق الأقصى والحضارات الأمريكية الوطنية الأصيلة :

إن الحضارات الحالية التى استعرضنا – حتى الآن – تلاقيها مع الغرب الحديث ؛ كان لها جميعها تجاربها مع المجتمع الغربى ، قبلما تبدأ هى فى تلقى تأثيراته ، فى غضون مرحلته الحديثة . وصدق هذا القول حتى على المجتمع الهندى ؛ وإن كانت إتصالاته بالغرب ضئيلة نسبياً . وعلى العكس ؛ كان وجود الغرب فى الأمريكتين ، مجهولا تماماً . وكان مجهولا تقريباً فى الصين واليابان ، إلى أن وصل الرواد الأول من الغربيين شواطئهما . وترتب على الجهل بالغرب ، أن استقبل مبعوثوه فى بداية

الأمر من غير استرابة بنوايا الغربيين ؛ وكان لمـا جلبوه معهم ، فتنة الطرافة .

على أن القصتين اتخذتا بعد ذلك ، وجهتين مختلفتين اختلافا حاداً .

فإن الحضارات الأمريكية لم توفّق فى مواجهة الموقف العصيب ، بينما أصابت حضارتا الشرق الأقصى توفيقاً فى مواجهته .

فإن الفاتحين الأسبان لوسط أمريكا وجنوبها ؛ سرعان ما سحقوا بقوة السلاح، ضحاياهم الأبرياء السيئ العدة والعتاد . واستأصل الفاتحون بالفعل، تلك العناصر من السكان التى حافظت على الثقافة الوطنية الأصيلة . ونصبوا أنفسهم أقلية مسيطرة دخيلة ، وأنزلوا السكان الفلاحين إلى وضع بروليتاريا داخلية للمجتمع المسيحى الغربى . وذلك بوضعهم عملهم ؛ رهن تصرف رجال الأعمال الأسبان المسيحيين ، ممن سيرتهم نزعة تجمع بين الاقتصاد والدين ! إذ كان من المتفق عليه أن هـذه الإرساليات التبشيرية الغارسة ؛ تجعل من بين واجباتها تحويل هذه القطعان البشرية إلى المسيحية فى شكلها الكاثوليكى . ورغماً عن ذلك ؛ لا يمكن النظر بعين التأكيد — وقت كتابة هـذه السطور — إلى أن الثقافات الوطنية الأصيلة ، لن تُبعث فى صورة من الصور فى آخر الأمر ؛ مثلما عاد المجتمع السورى إلى الوجود ، فاستعاد كيانه الذاتى بعد انقضاء ألف سنة من السيطرة الهيلينية .

وصمد مجتمعا الشرق الأقصى فى الصين واليابان — من الناحية الأخرى — لما تعرضا له من خطر داهم ، جلبه عليهما جهلهما البدائى . فلقد حاولا تقييم الحضارة الغربية بالميزان ، فبدت لهما قاصرة ، فكان أن وطّنا النفس على نبذها . وعندئذ حشدا قدرا من الطاقة قمينا بتطبيق سياسة مرسومة ، تقوم على تحاشى الاتصال الفعّال بالغرب . ولكن ذلك — كما ظهر — لم يكن نهاية القصة .

فإن الصينيين واليابانيين ، بفصمهم علاقاتهم بالغرب ، بالشكل الذى عرضه عليهم الغرب فى بداية الأمر ؛ لم يتخلصوا إلى الأبد من « مشكلتهم الغربية » . فإن الغرب الذى نبذوه ؛ عمد بعد ذلك إلى تغيير مرآه . وعاد إلى الظهور على مسرح الشرق الأقصى بعرض هديته الأساسية فى شكل أساليبه التكنولوجية ، عوضا عن عقيدته الدينية . عندئذ ألفى مجتمعا الشرق الأقصى نفسيهما يجابهان إختيارا بين أمرين :

الأول ــ إتقان هذه التكنولوجية الغربية المستحدثة .

الثانى ــ أو الاستسلام لسيطرتها .

وفى مأساة الشرق الأقصى هذه ؛ كان سلوك الصينيين واليابانيين فى بعض النواحى متشابها ، كما كان متباينا فى البعض الآخر :

فثمة نقطة تشابه تُلفت النظر . ففى الفصل الثانى من المأساة ؛ إنحصر استقبال الثقافة الغربية الدنيوية الحديثة فى بداية العهد بها ــ فى الصين واليابان كليهما ــ فى طبقات المجتمع الدُّنيا ، ثم صعد إلى طبقاته العليا . فقد أخفقت إمبراطورية المانشو فى الصين مثلما فشلت شوجونية توكوجاوا Tokogawa [1] فى إقتناص المبادأة ؛ عكس ما فعلته القيصرية البطرسية فى روسيا .

لكن اليابان ــ عكس الصين ــ جنحت خلال المنظر الثانى من هذا الفصل إلى أسلوب بطرس الأكبر .

ومن الناحية الأخرى ؛ ففى الفصل الأول ــ أى أثناء تلاقى المجتمعين بالحضارة الغربية إبان القرن السادس عشر ــ اتخذ مجتمعا الشرق الأقصى

---

(١) شوجونية : نسبة إلى كلمة « شوجن » . وكان الشوجن حاكم اليابان الفعلى فى عهدها الإقطاعى ، فى حين لم يكن لإمبراطورها ــ الميكادو ــ من السلطة سوى الاسم فقط . ونجد لهذا النظام نظيراً فى العالم الإسلامى ، وقتما استأثر السلاطين السلاجقة بالحكم تاركين للخليفة العباسى اللقب فقط . وانتهى عهد الشوجن فى اليابان عام ١٨٥٣ باستعادة الإمبراطور سلطته ــ وكان ميجى وقتئذ جد الإمبراطور الحالى (هيروهيتو) . وبهذا العام نؤرخ نهضة اليابان الحديثة . (المترجم)

منذ البداية ، سبيلين مختلفين . ففى غمار المحاولات المترددة لاستقبال ثقافة الغرب الحديثة فى ثوبها الدينى الذى تزيّت به فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وما تلا ذلك من نبذها ، جاءت المبادأة — فى مجموعها — فى الصين من الطبقات العُليا ثم هبطت إلى الدُنيا . أما فى اليابان فقد بدأت من الطبقات الدُنيا ، ثم صعدت إلى العُليا .

ولو قد أتيح لأحد أن يرسم فى خطوط بيانية ، ردود فعل مجتمعى الشرق الأقصى لتأثير الغرب الحديث فى غضون الأربعة القرون الأخيرة؛ لتبين له أن المنحنيات اليابانية ، أشد تقلّباً من المنحنيات الصينية . فالحق أن الصينيين لم يبلغوا قط المدى الذى بلغه اليابانيون ؛ سواء فى استسلامهم للثقافة الغربية فى كل ساحة ، أو فى اعتزالهم إياها ؛ خلال الحقبة التى تخللتها كراهية الأجانب .

وفى أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر — حين لم تكن اليابان قد استكملت وحدتها السياسية — تعرّضت البلاد لخطر داهم هو الخوف من أن تُفرض الوحدة السياسية عليها من خارجها على أيدى أجانب غلاظ . فإن الغزو الأسبانى للفلبين بين عامى ١٥٦٥ و ١٥٧١ ، والغزو الهولندى لفورموزا عام ١٦٢٤ ، كانا درسين موضوعيين للمصير الذى قد يحل باليابان .

وعلى النقيض من ذلك ؛ لم يمثّل وصول قرصان ذلك العصر الغربيين إلى الصين ، خطراً جدياً تخشاه شبه القارة الصينية المتسعة الأرجاء . فإن هؤلاء المغيرين البحريين الذين تعوزهم الأساليب الآلية — مهما يكن من أمر ما أحدثوه من إزعاج — لم يكن من المتوقع أن يتحوّلوا إلى غزاة فاتحين . أما المخـاطر التى أحدثت قلقاً جدّياً للحكومة الإمبراطورية الصينية فى ذلك الوقت ، فقد انحصرت فى خطر الغزو البرى الوافد من السهوب الأوراسية . ولكن بعد أن ولّى عصر أسرة مينج

Ming وحل مكانها – فى غضون القرن السابع عشر – المانشو الأقوياء أنصاف المتبربرين ؛ زال الخطر من داخل القـارة طوال مائتى سنة أخرى.

إن هذا التباين فى الوضع السياسى الجغرافى لكل من الصين واليابان ؛ يذهب بعيدا فى تعليل السبب الذى من أجله تأخر سحق المسيحية الكاثوليكية الرومانية فى الصين ، حتى نهاية القرن السابع عشر . ولم يأت ذلك نتيجة لملابسات سياسية ، لكنه جاء نتيجة لمحاولات دينية . وهذا نقيض ما حدث فى اليابان ، من القضاء على المسيحية الكاثوليكية الرومانية ، فى حدة وقسوة بالغتين ؛ ثم قيام اليابان فى نهاية الأمر بقطع كل ما يربطها بالعالم الغربى ، عدا خيط هولندى منعزل . وبدأت الضربات المتعاقبة التى وجهتها الحكومة اليابانية المركزية الجديدة عام ١٥٨٧ ، بأمر أصدره هيديوشى Hideyoshi بإخراج جميع البعثات التبشيرية المسيحية من اليابان . وبلغت إجراءات الحكومة اليابانية الأوج بالأوامر الصادرة خلال الأعوام ١٦٣٦ — ٩ بمنع الرعايا اليابانيين من السفر إلى الخارج ، والرعايا البرتغاليين من الإقامة فى اليابان .

وفى اليابان – كما فى الصين – جاء العدول عن سياسة الانعزال ؛ من طبقات المجتمع الدنيا ، ثم صعدت الفكرة إلى طبقاته العليا . وكان مبعث هذا العدول ، التوق إلى تذوق ثمار المعرفة العلمية الغربية الحديثة . وقد كابد كثيرون من رواد هذه الحركة ، الاستشهاد – إيمانا منهم بالأساليب التكنولوجية – طبقا للقرارات التى صدرت بين عامى ١٨٤٠ – ١٨٥٠م ؛ أى قبيل ما دعى باسم « فتح اليابان أبوابها » عام ١٨٥٣ . واتسمت الحركة فى اليابان ببعدها المطلق عن الدين .

أما فى الصين ؛ فإن الحركة المناظرة والمعاصرة لحركة اليابان فى القرن التاسع عشر ، كانت مرتبطة بنشاط بعثات التبشير البروتستانتية التى رافقت

التجار البريطانين والأمريكيين إلى الصين. مثلما رافقت ــ قبل ذلك ــ البعثات المسيحية الكاثوليكية الرومانية ، التجار البرتغاليين فى رحلتهم إلى اليابان . فلقد كان صن ــ يات ــ صن مؤسس الكيومنتانج[١] ابن رجل تحول إلى المسيحية البروتستانتية . كما قامت أسرة مسيحية أخرى بدور كبير فى تاريخ الكيومنتانج التالى ، فى شخص : حرم صن ــ يات ــ صن ، وشقيقتها حرم تشيانج كاى شيك ، وأخيهما ت ــ ف ــ سوونج .

وواجهت حركتا الاقتباس من الغرب فى اليابان والصين ــ عبئا ضخما هو استصفاء نظام علمانى وطنى وطيد الأركان ، والحلول مكانه . لكن دُعاة الاقتباس من الغرب فى اليابان ؛ كانوا أكثر من الصينيين يقظة ، وعزما ، وكفاية . فنى غضون خمس عشرة سنة من ظهور قطع من الأسطول الأمريكى فى عام ١٨٥٣ بقيادة الكومّودور برى Perry فى مياه اليابان الإقليمة ؛ لم يقتصر اليابانيون على خلع نظام مُلك توكوجاوا Tokogawa الذى أخفق فى الارتفاع إلى مستوى الأحداث ، بل لقد أنجزوا كذلك عملا أشق من ذلك بكثير ألا وهو إقامتهم محل النظام القديم ، نظاما جديداً قادراً على أن يضع موضع التنفيذ ، حركة اقتباس شاملة من الغرب تسير من أعلى إلى أسفل .

أما الصينيون فقد استغرقوا مائة وثمانية عشر عاما ليحققوا ــ سلبيا ــ نصف هذا القدر من العمل . فما كان وصول سفارة اللورد ماكارتنى Macartney إلى بكين عام ١٧٩٣ ؛ مظاهرة ؛ لا تقل فى دلالتها على صولة الغرب المتزايدة ، عن وصول الكومّودور برى إلى خليج « يدو Yedo » بعد ذلك بستين عاما . لكن لم يعقب ذلك ــ كما حدث فى اليابان بعد ذلك ــ

---

(١) الكيومنتانج : هو الحزب الذى أنشأه صن ــ يات ــ صن . وبعد وفاته تولى رئاسته تشانج كاى شيك . وظل الحزب يحكم الصين حتى عام ١٩٤٨ وقتما استولى الحزب الشيوعى على مقاليد الحكم فى البلاد . (المترجم)

إسقاط النظام القديم ، الذى لبث قائماً حتى عام ١٩١١[1] . ولم يحل مكانه نظام جديد فعّال مصطبغ بالصبغة الغربية ؛ ولكن انتشرت فوضى ، أخفق الكيومنتانج فى القضاء عليها طوال ربع قرن (١٩٢٣/٤٨) ، وكانت – طواله – حركة الاقتباس الغربية الليبرالية « المزعومة » فى متناول يده .

ويمكن قياس الاختلاف بين البلدين بدرجة التفوق العسكرى الذى أحرزته اليابان على الصين طوال الخمسين سنة التى تلت إندلاع الحرب الصينية اليابانية عام ١٨٩٤ – ١٨٩٥[2] . فإن الصين كانت طوال ذلك النصف قرن ، تحت رحمة اليابان الحربية . وإنه وإن ظهر فى الجولة الأخيرة من هذا الصراع ، أن افتتح الصين بأسرها فوق ما تطيقه موارد اليابان ؛ فقد ثبت بالمثل ، أنه لولا تحطيم الولايات المتحدة أداة الحرب اليابانية ؛ لما تمكن الصينيون وحدهم بأية حال من الأحوال من أن ينزعوا من أيدى اليابانيين ؛ الموانى التى استولوا عليها ، والمناطق الصناعية والسكك الحديدية . وهذه كلها ، فى الصين ؛ مقومات حركة الاقتباس من الغرب .

ومع هذا ؛ فما أن بدأ النصف الثانى من القرن العشرين ، حتى كان الأرنب اليابانى والسلحفاة الصينية قد بلغا – فى نفس الوقت تقريبا – ذات الهدف المروّع . فقد سقطت اليابان صريعة تحت أقدام الاحتلال العسكرى لأعظم الدول الغربية شأواً . بينما اجتازت الصين – عن طريق الثورة – الفوضى ، ووصلت إلى نقيض الثورة ، فى شكل سيطرة النظام الشيوعى على البلاد بيد من حديد . وسواء اعتبرنا هذا النظام نظاماً غريباً ، أو حركة مناهضة للمُثُل الغربية – وهى نقطة سبقت لنا مناقشتها – فإنه على أية حال ؛ أيدلوجية دخيلة ، من وجهة نظر الشرق الأقصى .

---

(١) أعلن الزعيم صن – يات – صن الجمهورية فى تلك السنة . (المترجم)

(٢) يصور رسم كاريكاتورى نشر بمجلة بنش Punch عن هذه الحرب وعنوانه « اليابانى قاتل المارد » ، الموقف الودى السخيف الذى وقفه الرأى البريطانى فى ذلك الوقت . (المؤلف)

فما هو تفسير هذه الكارثة الواحدة التى انتهت بها المرحلة الأولى من التلاقى الثانى ، بين مجتمعى الشرق الأقصى بالغرب الحديث ؟

للكارثة فى كل من الصين واليابان جذورها التى تمتد إلى مشكلة مألوفة ، بقيت دون حل فى آسيا وأوروبا الشرقية . وهى مشكلة طفرت إلى ذهننا بالفعل عند بحثنا تأثير الغرب على العالم الهندى .

فماذا عساه يكون تأثير الحضارة الغربية على قوم من الفلاحين البدائيين ، ألفوا ــ أجيالا ــ أن يتكاثروا حتى وصلوا إلى حد الكفاف ، والذين لُقِّحوا الآن بلقاح جديد من السخط والقلق . وهم لم يشرعوا بعد، فى مواجهة حقيقة مدارها ؛ أن إمكانيات التحسّن الاقتصادى لن يتيسر تحقيقها إلا بإحداث ثورة اقتصادية واجتماعية ؛ وثورة سيكلوجية فوق كل اعتبار ؟

لكى يحققوا الوفرة المنشودة[1] ؛ على هؤلاء الفلاحين ــ الذين تلتصق جلودهم بعظامهم ــ إحداث ثورة فى أساليبهم التقليدية فى استغلال الأرض وفى نظم حيازتها ، وعليهم كذلك تنظيم إنسالهم .

ولقد أمكن تثبيت الحياة الاقتصادية والسياسية لليابان فى ظل حكم توكوجاوا ــ إلى المدى الذى وصلت إليه خلال تلك المدة ــ بفضل وجود أساس لاستقرار معدل الزيادة فى السكان . إذ أُبقِى المعدل لا يتأخر ولا يتقدم ــ فى حدود الثلاثين مليون نسمة ــ باستخدام وسائل مختلفة تضمنت فيما تضمنته : الإجهاض ، ووأد الولد[2] .

---

(١) فى الأصل : إحداث ثقب فى قرن آمالثيا Amalthea . وآمالثيا فى الأساطير اليونانية كانت مرضعة زيوس كبير آلهة اليونان القديمة وقتما كان طفلا . وكانت تمثل فى صورة عنزة . ومن أسطورة آمالثيا اشتُقت أسطورة أخرى هى قرن الوفرة Cornu Copiae الذى كان يمتلئ تلقائياً بكل ما يشتهيه حائزه . (المترجم)

(٢) المقصود بالولد هنا ، الطفل من ذكر وأنثى . (المترجم)

وعندما استُصفى هذا النظام ، تفكك هذا الكيان الاجتماعى المصطنع الذى شهدته اليابان . وأخذ تعداد السكان يزداد عدواً وقفزاً . وخلافاً للتغيرات التى حدثت على الصعيدين السياسى والاقتصادى ، لا ترجع العودة إلى التناسل دون قيد ، إلى تأثير الغرب . ولكنه يُعزى إلى مجرد إرتداد إلى العادات التقليدية لمجتمع ريفى ، كبحت جماحه سياسة سيكلوجية بارعة ، إبان عصر الجمود الذى فرضه حكم توكوجاوا . بل إن النزعة المعاصرة للاقتباس من الغرب قد زادت من التأثير الديموجرافى لهذه العودة إلى العادات البدائية ؛ وذلك بتقليلها معدل الوفيات .

وفى هذه الظروف ؛ كان على اليابان : إما أن تتوسع ، أو تنفجر . وانحصرت أشكال التوسع التى يمكن تحقيقها ، فى أمرين :

الأول – ترغيب بقية العالم فى الاتجار معها .

الثانى – الاستيلاء بقوة السلاح ، على أرض وموارد وأسواق إضافية من أصحابها الحاليين ؛ الذين كانوا أضعف من الدفاع عن أملاكهم ، ضد عدوان يابانى مسلح على النسق الغربى .

وإن تاريخ سياسة اليابان الخارجية منذ عام ١٨٦٨ حتى عام ١٩٣١ م ، لهو تاريخ التأرجح بين هذين الأمرين . ولقد كان لاشتداد نزعة الحماية الاقتصادية وانتشارها فى العالم بأسره ، تأثير فى إندفاع الشعب اليابانى – بالتدريج – صوب اختيار التوسع العسكرى . وهذا ما أكدته التجربة المُريعة التى أسفرت عنها الكارثة الاقتصادية التى حطت على حى المال والأعمال فى نيويورك Wall Street فى خريف ١٩٢٩ ؛ ثم جرفت أمامها بعد ذلك ، بقية العالم . فلم يكد يمضى على ذلك سنتان بالضبط ؛ حتى بدأت اليابان بهجومها على موكدن Mukden فى ليلة ١٨ / ١٩ سبتمبر سنة ١٩٣١ ، مغامراتها العدوانية التى انتهت باستسلامها عام ١٩٤٥ .

ولما كان الصينيون لا يتكدسون – مثل اليابانيين – فى عنقود من

الجزائر الصغيرة نسبيا ، لكنهم ينتشرون فى شبه قارة ضخمة ؛ فليس لمشكلة السكان بالصين ذلك الطابع الحاد الذى اتخذته باليابان[١] . ولم تقتض معالجتها إستخدام الإجراءات القاسية التى لجأت إليها اليابان . لكنها مع ذلك تماثلها فى المدى البعيد ؛ ووقعت مسئوليتها فى الوقت الحاضر على كاهل الحزب الشيوعى الصينى[٢] .

وإن الغزو الأيدلوجى الذى حققته الشيوعية فى الصين ، هو الخطوة الأخيرة فى الهجوم الروسى على الكتلة الرئيسية من مجتمع الشرق الأقصى . ذلك الهجوم الذى ما برح يتقدم يوما بعد آخر طوال الثلاثمائة سنة تقريباً . ولن نستقرئ هنا مراحله الأولى ؛ أما فى القرن التاسع عشر – فى وقت لم تكن اليابان فيه منافسا له خطره – فقد ظهرت روسيا والدول الغربية بمظهر المعتدين المتنافسين ، الذين راحوا يقضمون جيفة إمبراطورية صينية محتضرة .

وفى هذه المرحلة ، كان مدار السؤال : عما إذا كان قد قُدّر لهونج كونج وشانغهاى أن تصبحا نقطتى إنطلاق فى بناء الإمبريالية البريطانية فى الصين ،على غرار الدور الذى قامت به بومباى وكلكتا للإمبريالية البريطانية فى الهند . ومن الناحية الأخرى ، أحرزت روسيا السيادة على فلاديفستوك عام ١٨٦٠ ، وحصلت عام ١٨٩٧ على حق استئجار ميناء آخر أكثر

---

(١) كان للدعاية التى ما برحت تبذلها الهيئات الحكومية والجمعيات المختلفة ضد التغالى فى الإنجاب – بالإضافة إلى تيسير الحصول على العقاقير المضادة للحمل – أثرها فى هبوط معدل المواليد فى اليابان خلال العشرين سنة الأخيرة . وثمة عامل آخر هو تزايد سكان المدن على حساب الريف تزايداً هائلا حتى أصبح ٦٠٪ من سكان اليابان يقطنون بمدن باتت تضيق بالسكان ، الأمر الذى دفع الناس إلى تقليل نسلهم . ولقد أصبح هبوط معدل الزيادة فى الوقت الحاضر ، يقلق طائفة من الاقتصاديين اليابانيين الذين أخذوا يخشون أن لا تجد اليابان فى عام ١٩٧٥ رصيداً كافياً من القوة العاملة الضرورية لمتابعة نشاطها الاقتصادى المتزايد . (المترجم)

(٢) يقدر عدد سكان الصين فى الوقت الحاضر بسبعمائة مليون نسمة . ويقرر الخبراء أن عددهم سيصل إلى ألف مليون نسمة فى نهاية القرن العشرين . (المترجم)

توسطاً وأعظم أهمية ، وهو ميناء بورت آرثر . وكانت اليابان هى التى انتزعت ثمرة الجهد الروسى قبل أن تكتمل ، بعد أن هزمت روسيا فى الحرب الروسية اليابانية ١٩٠٤ — ٥ .

وشهدت نهاية الحرب العالمية الأولى مرة أخرى ، روسيا وقد استحالت إلى فوضى واضحة . فى حين حصلت اليابان على مكاسب مفرطة ؛ باعتبارها شريكا نائما — بشكل أو آخر — فى تحالف غربى منتصر . على أنه حينما أخفقت القيصرية الروسية ، وُفِّقت الشيوعية الروسية لأسباب عرفناها — فى شكل أو آخر — خلال هذه الدراسة . وهى أسباب ترجع إلى نوع من المتناقضات تتسم بالتفاهة ، وتُجمعها عبارة مأثورة تقتبسها الكتب وتلك هى « اليراع أقوى من السيف » . فإن إنجيل ماركس الدنيوى قد زوّد روسيا بإغراء سيكلوجى افتقرت إليه القيصرية المجرّدة . ومن ثم تسنى للاتحاد السوفيتى أن يوجد فى الصين — كما فعل فى أماكن أخرى — طابوراً خامساً . فإذا كانت روسيا الشيوعية الآن تقدّم أدوات العمل كلها أو بعضها لمريديها ، فإن فى إمكانها أن تعتمد على المعجبين بها فى تنفيذ مآربها[1] .

سابعاً — خصائص التلاقى بين الغرب الحديث ومعاصريه :

إن أبرز خاتمة يُتوصل إليها بمقارنة ضروب التلاقى ، هى أن كلمة « حديثة » الواردة فى إصطلاح « حضارة غربية حديثة » ، يمكن إضفاء مفهوم عليها أكثر دقة وتماسكاً ، وذلك بترجمته إلى اصطلاح « طبقة

---

(١) حدث تطور خطير فى العلاقات السوفييتية الصينية منذ عام ١٩٦٠ خاصة . إذ نشأ صراع مذهبى بين الدولتين تزداد حدته بمرور الوقت ، على الرغم من تقديم روسيا للصين مساعدات مادية ضخمة . الأمر الذى أصبح يهدد علاقات الدولتين الشيوعيتين . وهذا النزاع الأيدلوجى ، هو فى الواقع مرآة لتباين المصالح القومية بين الدولتين . بل إن الأصوات تتعالى فى الصين شيئاً فشيئاً ، مطالبة بإعادة الحدود بين روسيا والصين إلى ما كانت عليه قبل استيلاء روسيا خلال القرن التاسع عشر على أراضى صينية شاسعة .

(المترجم)

وسطى » . فإن الجماعات الغربية لم تصبح « حديثة » إلا بمجرد أن أبرزت إلى الوجود طبقة « بورجوازية » كانت أهلاً لتصبح العنصر المسيطر فى المجتمع .

وإننا ننظر إلى الفصل الحديث من التاريخ الغربى الذى بدأ فى نهاية القرن الخامس عشر باعتباره « حديثاً » . ذلك لأن هذا العصر ؛ شهد لدى الجماعات الأكثر تقدماً ، شروع الطبقة المتوسطة فى تسلّم زمام القيادة . ويترتب على ذلك ؛ أنه إبان سير العصر الحديث للتاريخ الغربى ، ظهر أن قابلية غير الغربيين للأخذ بالأساليب الغربية ، إنما تتوقف على قدرتهم على الانخراط فى سلك الحياة الغربية القائمة على وجود الطبقة الوسطى . فإذا ما تفحصنا أمثلة سبقت الإشارة إليها لعملية الاقتباس من الغرب ، بدأت من أدنى فئات المجتمع وارتفعت إلى أعلاها ؛ نجد — من قبيل المثال — أنه كانت هناك بالفعل فى الكيان الاجتماعى الذى سبق وجود المسيحية الأرثوذكسية الروسية ، وحياة الصينيين واليابانيين ؛ عناصر من الطبقة الوسطى ، ربت بتأثير خميرة الاقتباس عن الغرب .

ومن الناحية الأخرى ؛ فى الحالات التى اتجهت فيها عمليات الاقتباس من الغرب ، من فئات المجتمع العليا إلى فئاته الدنيا ، لم ينتظر الأوتوقراطيون الذين أخذوا على عاتقهم صبغ رعاياهم — بالأمر — بالصبغة الغربية ؛ لم ينتظروا حتى تزودهم عملية تطور خال من الإرغام ، بعملاء من الطبقة الوسطى ؛ أصيلين ، ويمتّون إلى أصل وطنى قُح . ولكنهم وجدوا أنفسهم مسوقين بالحرص على بديل لهذه الطبقة الوسطى ، التى تتكون وتنمو فى تربة الوطن . ذلك البديل هو إصطناع طبقة مثقفة .

وطبيعى أن هذه الطبقات المثقفة التى ظهرت إلى الوجود — على هذا النحو — فى روسيا والعالم الإسلامى والعالم الهندى ؛ قد وُفّق خالقوها فى تزويدها بصبغة أصيلة من طباع الطبقة الوسطى فى الغرب . على أن هذه

الصبغة – كما ظهر فى حالة الطبقة المثقفة فى روسيا – قد ثبت أنها صبغة لا تدوم . فإن الطبقة المثقفة الروسية التى ظهرت أول ما ظهرت على أيدى القيصر بطرس الأكبر لتدفع بروسيا إلى مجال الطبقة المتوسطة الغربية ؛ قد ثارت فى سريرتها على كل من القيصرية وعلى المُثُل البورجوازية الغربية . وحدث هذا قبل انفجار ثورة عام ١٩١٧ م بوقت طويل .

وكان من الميسور ، أن ما حدث فى روسيا ؛ قد يحدث للطبقات المثقفة فى جهات أخرى . وعلى ضوء هذه النزعة المناهضة للبورجوازية – التى اعتنقتها الطبقة المثقفة الروسية – قد يكون جديرا بأن نقف هنا لإنعام النظر فى أوجه الشبه والاختلاف بين الطبقات المثقفة فى غير البلاد الغربية ، والطبقة الوسطى فى الغرب . وهذه الطبقات المثقفة ؛ هى التى أُلقى على عاتقها فى البيئات غير الغربية ، أن تنهض بدور الطبقة الوسطى .

والظاهرة المشتركة فى تاريخ هاتين الفئتين (أى الطبقات المثقفة الغير الغربية من ناحية ، والطبقة المتوسطة الغربية من الناحية الأخرى) ؛ أن كلا منهما ، قد جاء من خارج نطاق المجتمع الذى وطّدت مكانتها فيه . فقد شاهدنا المجتمع الغربى – عندما انبعث لأول مرة من وراء حُجُب العصور المظلمة – مجتمعا زراعيا ؛ كان النشاط الحضرى غريبا عليه . حتى إن بعض وجوه نشاطه ، كانت تمارسها طوائف يهودية دخيلة ؛ إلى أن أزاحتها طبقة مسيحية متوسطة ، انبعثت إلى الوجود بفضل توق المسيحيين إلى الحلول محل اليهود .

وثمة تجربة أخرى مشتركة بين الطبقة المتوسطة الحديثة فى الغرب ، والطبقات المثقفة المعاصرة . وهى أن كلاهما قد أحرز التفوق فى المجتمع ، بفضل انتفاضه على سادته الأولين . فى بريطانيا وهولندا وفرنسا وغيرها من بلاد الغرب ، أحرزت الطبقة المتوسطة السلطان . إذ جاءت فى ركاب

الملوك ، وكونت ثرواتها فى ظل رعايتهم لها[1] . وشبيه بذلك ما حدث بالنسبة للنظم الحكومة فى البلاد الغير الغربية ، إبان العصور الحديثة المتأخرة . فإن الطبقة المثقفة ، إنما أحرزت السلطان بفضل ثورتها على الحكام المستبدين الذين اصطنعوا أساليب الغرب ، وهم الذين دبّروا خلق هذه الطبقة .

فإذا ما ألقينا نظرة شاملة على هذا الفصل المشترك من تاريخ روسيا البطرسية ، والإمبراطورية العثمانية فى أيامها الأخيرة ، والبريطانية فى الهند ؛ سنرى أن ثورة الطبقة المثقفة ، لم تشمل هذه الأقطار الثلاثة جميعاً فحسب ؛ وإنما وقعت الثورة فى كل قطر منها كذلك ، بعد أن مضى عليها نفس القدر من الزمن .

ففى روسيا : إندلعت ثورة الديسمبريين[2] — التى أُجهضت — فى عام ١٨٢٥ . وكانت هذه الثورة بمثابة إعلان حرب من جانب الطبقة المثقفة الروسية على النظام البطرسى . وقد إنفجرت بعد ١٣٦ سنة من تسلّم بطرس الأكبر زمام السلطة فعلا عام ١٦٨٩ .

وفى الهند ، بدأ الاضطراب السياسى يظهر فى أواخر القرن التاسع عشر .

---

(١) ومن قبيل المثال ؛ ما هو شائع فى تاريخ انجلترا وهو أن السلطة التى منحها ملوك التيودور لأعضاء مجلس العموم ، قد استخدمها هؤلاء ضد الملوك من أسرة ستيوارت . (المؤلف)

(٢) الديسمبريون : اسم أُطلق على حركة قام بها فى ديسمبر سنة ١٨٢٥ ، طائفة من المثقفين الروس من المدنيين والعسكريين . واتجهت الثورة إلى التخلص من الحكم الملكى الفاسد . وتبلورت مبادئ الحركة فى تحقيق المساواة القانونية بين المواطنين جميعاً ، وإتاحة التقاضى على قدم المساواة بين جميع المواطنين . كما رنت الثورة إلى إلغاء الاحتكارات والمستعمرات العسكرية وتنفيذ الإصلاحات اللازمة فى الجيش والكنيسة . وفشلت الحركة على الرغم من شجاعة القائمين بها . وعاقبهم القيصر نيقولا الأول عقاباً قاسياً ، فشنق خمسة من زعماء الحركة دون محاكمة ، ونفى الباقين إلى سيبريا . (المترجم)

أى بعد انقضاء فترة تقل عن ١٤٠ سنة من إقامة الحكم البريطانى فى البنغال .

وفى الإمبراطورية العثمانية ؛ خلعت جمعية الاتحاد والترقى السلطان عبد الحميد الثانى عام ١٩٠٨[1] . أى بعد انقضاء ١٣٤ سنة على اضطرار الباب العالى للمرة الأولى – عقب صدمة هزيمته فى الحرب الروسية التركية ٢٧٦٨ / ٧٤ – إلى البدء بتدريب عدد لا بأس به من رعاياه المسلمين ، على فنون الحرب الغربية الحديثة .

بيد أن نقاط التشابه هذه ؛ يقابلها اختلاف واحد كبير على الأقل . إذ كانت الطبقة المتوسطة الغربية عنصراً وطنياً أصيلا فى المجتمع الذى بُعثت لتظله بسيادتها . فكانت تشعر – سيكلوجياً – بأنها فى بيتها . وعلى العكس ؛ رزحت الطبقات المثقفة تحت وطأة قيد مزدوج : الشعور بأنهم رجال محدثون من ناحية ، ودخلاء على المجتمع من ناحية أخرى . فهم ليسوا ثمرة نمو طبيعى ؛ ولكنهم ثمرة مخاض كابده مجتمع غريب عليه ، هو الغرب الحديث .

وهكذا ؛ لم تكن الطبقات المثقفة بشائر قوة ، لكن علامات ضعف . وكانت الطبقات المثقفة – من جانبها – شديدة الإحساس بهذا الاختلاف الباعث على الحقد . فإن الرسالة الاجتماعية التى أُنشئت هذه الطبقة لتؤديها ، جعلت من أفرادها دخلاء على المجتمع الذى يعملون فيه . وتضافر شعورهم بجحود المجتمع جهودهم ، مع إرهاق عصبى لا يريم – نتيجة ما فى وضعهم الاجتماعى من قصور – ؛ تضافر هذا وذاك ، ليولّد فى نفوسهم كراهية دفينة للطبقة المتوسطة الغربية التى كانت بالنسبة لهذه الطبقات المثقفة سيدة ، وسُمّاً فى الوقت نفسه ؛ وبينا هى نجمها الهادى ؛ فهى الغول الذى تخشاه . وإن موقف الطبقات المثقفة فى شعورها المعذّب وأفكارها المبلبلة ، إزاء هذه

---

(١) خُلع السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩ بعد أن دبر انقلاباً على الدستور الذى اضطر إلى إعادة العمل به فى العام السابق . (المترجم)

الشمس الآسرة التى جعلت هذه الطبقات المثقفة تسير فى فلكها ؛ إن هذا الموقف قد صوره بحذق الشاعر كاتولوس[1] فى هذا المقطع :

أكرهك وأحبك
لعلك تتساءلين عن السبب — لا أعرفه
لكن هذا ما أحس به ، وإن كان يعذبنى .

وبقدر ما تشعر به الطبقة المثقفة الدخيلة إزاء الطبقة الوسطى الغربية من المقت الشديد ؛ يكون قياس توقعها العجز عن مجاراة الطبقة الوسطى الغربية فى نشاطها . وهناك مثل تقليدى ما تزال له حتى اليوم جدته ، يدلل على صدق هذا الشعور بالمرارة . ذلك هو كارثة إخفاق الطبقة المثقفة فى روسيا — عقب أولى ثورتى عام ١٩١٧م الروسيتين — فى وضع الرسالة الخيالية التى أخذتها على عاتقها — موضع التنفيذ ؛ ألا وهى : إحالة حطام القيصرية البطرسية إلى دولة برلمانية ، وفقاً للأنموذج الغربى فى القرن التاسع عشر . فقد أثبت نظام كيرنسكى[2] فشله ؛ « لأنه حاول إعداد الآجر بدون القش» . بمعنى أنه حاول إقامة حكومة برلمانية ، مع خلو البلاد من طبقة متوسطة : متينة البنيان ، مقتدرة ، محنكة ؛ تستمد منها حاجتها . وعلى النقيض من ذلك نجح لينين ؛ لأنه أخذ على عاتقه ، تحقيق نظام مناسب .

وحقاً ؛ ما كان حزب لينين « الحزب الشيوعى لجميع الاتحاد » ، فريداً فى نوعه إطلاقا . ففى التاريخ الإيرانى الإسلامى ؛ نجد إرهاصا به نظام

(١) كاتولوس (catulus Quintus) : قائد رومانى وشاعر ، عين قنصلا بالاشتراك مع ماريوس عام ١٠٢ ق . م . لكن ماريوس غدر به ، فأقدم كاتولوس على الانتحار . (المترجم)

(٢) كيرنسكى : رئيس الحكومة التى خلفت النظام القيصرى بعد سقوطه عام ١٩١٧ . وسعى كيرنسكى إلى تطبيق النظام البرلمانى الغربى . وتألف مجلس نيابى كان أتباع لينين فيه أقلية . لكن هذه الأقلية البلشفية استطاعت إحداث ثورة على الثورة ، انتهت بتسلم البلاشفة زمام الحكم فى روسيا . (المترجم)

أرقاء قصر البادبشاه العثمانى[١]، ونجده فى الأخوة الماثلة فى طائفة « قزل باش »[٢]، أنصار الصفوية ؛ والتآخى الذى جمع بين أتباع طائفة « خالصة » التى أنشأها السيخ لمحاربة التسلّط المغولى بأسلحته .

فى هذه الجماعات المتآخية ؛ لا تخطئ العين أن تدرك بوضوح « طابع » الحزب الشيوعى الروسى . إن دعوى لينين بإصالة فكرته ، تستند إلى أنه ابتكر من جديد هذه الأداة السياسية الرهيبة لمنفعته ، وإلى أنه كان أول من طبّقها لخدمة هدف خاص وهو : تمكين المجتمع الروسى — وهو مجتمع غير غربى — من الاحتفاظ بذاتيته فى مواجهة الغرب الحديث . ويتم ذلك بإتقان آخر ما ابتكرته التكنولوجية الغربية ؛ مع اجتناب — فى نفس الوقت — أيدلوجية الغرب التقليدية الشائعة .

وإن ظهور عدد من مقلّدى نظام لينين القائم على ديكتاتورية الحزب الواحد ، دليل على نجاح هذا النظام . فإذا ما تجاوزنا عن أولئك المقلّدين الذين يعتنقون الشيوعية ويدعون أنفسهم شيوعيين ؛ لا يبقى إلا أن نشير إلى النظام الذى أنشأه مصطفى كمال أتاتورك لتجديد شباب تركيا تجديداً قوياً ؛ وإلى نظام موسولينى الفاشى فى إيطاليا ؛ وإلى نظام هتلر الاشتراكى الوطنى فى ألمانيا . ومن بين هذه النظم الثلاثة ذات الحزب الواحد — غير الشيوعية — يُعتبر نظام تركيا الجديد فذاً فى نوعه . إذ استطاع أن يتحوّل — بالوسائل السلمية — إلى نظام يقوم على حزبين وفقاً للأساليب الغربية الليبرالية . عوضاً عن أن يتعرض لكارثة ، كثمن لهذا التحول .

---

(١) المعروفون بالانكشارية . (المترجم)

(٢) هم أتباع وعلماء الشيعة الصفويين فى الأناضول ؛ وقد عمل السلاطين العثمانيون على استئصالهم . (المترجم)

(ب) التلاقى مع مسيحية القرون الوسطى الغربية

أولا – مدّ الحروب الصليبية وجزرها :

إن مصطلح « الحروب الصليبية » يُطلق عادة على تلك الحملات العسكرية الغربية التى خرجت من أوربا الغربية بتحريض البابا وبركاته ؛ لتحقيق إنشاء مملكة مسيحية فى بيت المقدس ، أو لدعمها ؛ أو لإنشائها مرة أخرى.

على أننا هنا نستخدم الاصطلاح بمعنى أوسع ؛ ليشمل جميع الحروب التى خاضها العالم المسيحى الغربى على حدوده ، إبان العصور الوسطى :

١ – ضد الإسلام فى أسبانيا وسوريا ، سواء

٢ – ضد مسيحية الإمبراطورية الرومانية الشرقية .

٣ – ضد البرابرة الوثنيين على الحدود الشمالية الشرقية .

ويمكن أن تسمى هذه الحروب « حروبا صليبية » . لأن المحاربين المشتركين فيها ، حسبوا أنفسهم – عن شعور وقصد ، لا عن نفاق تام – أنهم يحاربون لمدّ حدود المسيحية أو الذود عن حياضها . وعسانا نتصور أن « الشاعر تشوسر Chaucer » يرضى عن التوسع فى استخدام هذا المصطلح ، وأن الفارس المهذب الكامل الذى تزين صورته رواق معارض التصوير ؛ والذى قدمه « تشوسر » فى مقدمة « قصص كانتربرى » ، كان فى الحق جنديا متمرسا ؛ جديراً بأن يحارب فى شبابه فى معركتى كريسى Crécy وبواتييه Poitiers[1] . لكن لم يخطر على بال من أبدع شخصيته ، أن يجعل له صلة بالمعارك المحلية التى دارت بين أعضاء أسرة الدول الغربية . بل على النقيض من ذلك ؛ عُنى برسمه محاربا خاض كل معركة على

---

(١) من المواقع التى دارت بين المسيحية والإسلام فى أوربا . (المترجم)

طول جبهة الحدود الغربية للعالم المسيحي : من غرناطة غربا ، إلى روسيا وبروسيا وليتوانيا شرقاً . وإذا كان « تشوسر » ، لم يطلق على هذا المحارب لقب « الصليبي » فعلا ؛ فإنه من الواضح أنه يرى فيه محاربا كرّس حياته لخوض حروب ذات طابع مسيحي متميز .

وقبل أن نمضي قُدُما فى تحليل تأثير المسيحية الغربية المعتدية على الحضارات الأخرى التى تلاقت معها ، سنحصر إهتمامنا هنا فى تكوين فكرة عن المجرى العام لحروب التوسع التى جرت فى القرون الوسطى :

إن إنطلاقة المجتمع الغربى الوسيط فى القرن الحادى عشر الميلادى ، كانت حاسمة بشكل يدعو إلى الدهشة . مثلما كانت إنطلاقة المجتمع الغربى الحديث فى نهاية القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر . كذلك فإن المغامرة الغربية إبان القرون الوسطى[1] ، قد إنهارت بنفس السرعة التى أحرزت بها نجاحها الملحوظ فى بداية الأمر .

ولو أن مراقبا أريبا من الصين – مثلا – اتخذ طريقه ، فى أواسط القرن الثالث عشر الميلادى إلى الطرف الآخر من العالم القديم : لما كان يُحتمل أن يتكهن بأن المعتدين كانوا على شفا الطرد من دار الإسلام ومن رومانيا (ويُقصَد برومانيا مُلك الكنيسة الأرثوذكسية فى الإمبراطورية الرومانية الشرقية) . مثلما كان يستحيل عليه – إن وصل إلى مسرح الأحداث قبل ذلك بثلاثمائة سنة – أن يتكهن بأن نفس العالمين (أى الإسلام والمسيحية الأرثوذكسية) كانا على وشك أن تهاجمهما وتجتاحهما جمهرة من الوطنيين الغلاظ المتأخرين تأخرا ظاهرا ؛ ممن ينتسبون إلى الغرب القصى من هذا العالم المتحضر المأهول ، الذى ينتمى إليه هذا المراقب . ولكنه إذا ما أحاط بالفارق بين المجتمعين المسيحيين المتأثرين

---

(١) هى المغامرة التى تبلورت فى الحروب الصليبية . (المترجم).

بالهلينية ، وبينهما وبين عالم سوزى فى طريقه إلى اعتناق العقيدة الإسلامية ؛ فلعله يُدرك أنه من بين المتنافسين الثلاثة للسيطرة على حوض المتوسط والمناطق المتاخمة له ؛ فإن للمسيحية الأرثوذكسية أحسن الفرص ، بينما للمسيحية الغربية أسوأها .

وحقاً إذا إتُخذت مختلف المستويات فى الثروة والتعليم والكفاية الإدارية والتوفيق فى الحرب ، مقياسا ؛ لكان من المؤكد أن المسيحية الأرثوذكسية تقفز إلى رأس القائمة التى يضعها هذا المراقب فى منتصف القرن العاشر ، بينما تكون المسيحية الغربية فى الحضيض .

إذ كانت البلاد التى يدين أهلها بالمسيحية الغربية وقتذاك ؛ مجتمعا زراعيا ، كانت الحياة الحضرية غريبة عليه . وكان إستخدام النقد ظاهرة نادرة فى التعامل . بينما شاع فى البلاد التى يعتنق أهلها المسيحية الأرثوذكسية ، إقتصاد نقدى مستند إلى تجارة وصناعة رائجتين . وكان التعليم فى نفس الوقت فى بلاد المسيحية الغربية ، محصورا فى طبقة الأكليروس ، بينما كان ثمة فى بلاد المسيحية الأرثوذكسية طبقة حاكمة علمانية متعلمة تعلما عاليا . وبينما ارتدّت المسيحية الغربية إلى الفوضى بعد إخفاق الإمبراطورية الرومانية الجديدة التى أسسها شارلمان ، فلم تعش طويلا ؛ كانت الإمبراطورية الرومانية الجديدة التى أقامها « ليوسيروس » فى العالم المسيحى الأرثوذكسى الشرقى إبان القرن الثامن الميلادى نفسه ؛ ماتزال مزدهرة ؛ وكانت قد شرعت فى استرداد الأراضى التى استولى عليها المسلمون العرب فى القرن السابع ، من الإمبراطورية الرومانية الأصيلة .

وإذا كانت موجة الفتح الإسلامى قد أخذت فى الانحسار برا ، فقد استمرت بحرا فترة من الزمن . فإن كلا العالمين المسيحيين الشرقى والغربى ،

قد قاسى تماما على أيدى المغاربة[1] فى القرن التاسع . على أن المسيحية الأرثوذكسية أجابت على تحدّى هؤلاء القرصان ، باسترداد كريت منهم . فى حين لم تبدِ المسيحية الغربية إستجابة مماثلة . وعلى العكس ، كان الغزاة المسلمون وقتذاك ، ما يزالون يندفعون برا من الريفيرا مغيرين على ممرات الألب .

على أن إلقاء نظرة أشد نفاذا على مسرح الأحداث — مما لا قِبَلَ لمراقبنا الصينى به — قد يُظهر بلا ريب بضع حقائق كامنة . إن هذه النظرة قد تُفصح عن ضعف مميت يكمُن وراء المظاهر المهيبة التى يبدو بها العالم المسيحى الأرثوذكسى . وقد تُظهر أن العالم المسيحى الغربى الذى تبدّى بهذا المظهر الهزيل فى الأبيض المتوسط ؛ قد أبرز فى جهات أخرى ، روحا نضالية باسلة ، ضد المغيرين عليه من المتبربرين المجريين والاسكندناويين ؛ بل لقد أخذت الحدود المسيحية الغربيةقبالة المسلمين ، تتقدم ببطء فى طريقها الطويل فى شبه الجزيرة الإيبرية . وكانت المسيحية الغربية إبان القرن العاشر الميلادى — خلافا لحضارتى منافسها — حضارة فى مرحلة النمو . وكانت الرهبانية ، هى قلعتها الروحية . وكانت حركة « كلونى »[2] الهادفة إلى إحياء طريق سان بندكت فى حياة الرهبنة فى القرن العاشر ؛ قاعدة ونموذجا للإصلاحات الاجتماعية التى تلتها فى الغرب : من دينية ودنيوية .

على أن إمارات الحيوية هذه فى العالم المسيحى الغربى فى القرن العاشر ، لا تكاد تكفى لتعليل سَوْرة الطاقة الغربية المدهشة التى انبعثت فى القرن

---

(١) المغرب : هو الاسم الإسلامى للذراع الشمالى الغربى من أفريقيا . ويتكون فى الوقت الحاضر من : تونس — الجزائر — مراكش . وإن « أفريقيا الصغرى » هذه ، هى — افتراضاً — جزيرة ، لأن الصحراء الكبرى تعزلها عن أفريقيا الاستوائية أكثر مما يعزلها البحر الأبيض المتوسط عن أوروبا . (المؤلف)

(٢) كلونى : مدينة فرنسية ، تقع عند التقاء نهر الساؤون بنهر اللوار . وفيها نشأت فى القرن العاشر حركة إصلاحية للرهبنة البندكتية (نسبة إلى القديس بندكت) . (المترجم)

الحادى عشر . وهى سوْرة تضمنت ــ فيما تضمنت ــ شبوب عدوان مسلح على المجتمعين المجاورين . وهو عدوان كان من أتعس فصول هذه الحقبة وأبعدها عن الإعجاب . إن المسيحيين الغربيين قد نشروا المسيحية فى المستعمرات السكندناوية فى نورماندى Normandy ودانيلاو Danilaw .. ثم أتبعوا ذلك ببسط سلطانهم على عصابات الحرب الاسكندناوية المقيمة فى مرابضها ؛ وكذلك ، متبربرى المجر وبولندا .

وأدّى إصلاح « كلونى » لحياة الرهبنة ، إلى الإصلاح الذى سعى إليه هيلدبراند Hildebrand للنظام الكنسى بأسره ؛ تحت زعامة البابوية ؛ واقترن التقدم المسيحى فى شبه جزيرة أيبريا ، بغزو أملاك الإمبراطورية الرومانية الشرقية فى جنوب إيطاليا ، وسيطرة المسلمين على صقلية وتهديد قلب الإمبراطورية الرومانية الشرقية عبر الأدرياتيك ؛ وإن ظهر ــ بعد ذلك ــ عُقم هذا التهديد . وبلغت حيوية المسيحية الغربية أوجها فى الحرب الصليبية الأولى (١٠٩٥ ــ ٩) . وهى الحرب التى أقامت ــ على حساب الإسلام ــ سلسلة من الإمارات المسيحية الغربية فى سوريا تمتد من أنطاكية وأورفة (وراء نهر الفرات) حتى بيت المقدس والعقبة (على رأس خليج العقبة الذى يؤدى إلى البحر الأحمر) .

وما كان الإنهيار النهائى لسيطرة المسيحية الغربية على حوض المتوسط إبان القرون الوسطى ، بأقل إثارة لعجب مراقبنا الصينى ، لو قُيّض له أن يستعرض الأحداث مرة أخرى ، بعد مضى مائة وخمسين سنة على نهاية الحرب الصليبية الأولى . إذ لم يأت ذلك الوقت ؛ حتى كان المعتدون الغربيون قد خسروا ــ عمليا ــ جميع مراكز حراستهم المكشوفة فى سوريا . ولكن فى شبه جزيرة أيبريا ــ من ناحية أخرى ــ تقلص ملك المسلمين ، إلى مجرد (جيب) حول غرناطة . وراح الغربيون يواسون أنفسهم على خسائرهم فى سوريا ، بمهاجمة أملاك الإمبراطورية المسيحية

الشرقية ، واقتطاعها . إذ راح أحد أمراء الفرنجة يغتصب لنفسه مكان الإمبراطور الرومانى ، فى القسنطينية ، واسمه[1] .

أما فى الشرق البعيد ، فقد قامت إمبراطورية مغولية كبيرة . وداعب المسيحية الغربية أمل مهاجمة الإسلام فى مؤخرته . وذلك ، بتحويل حكام هذه الدولة الجديدة الكبرى إلى القالب الغربى من الديانة المسيحية . وفى سبيل إدراك هذه الغاية ، قطع رسل البابا من المبشرين الرحلة الطويلة ، إلى قره قوروم[2]. وتلاهم ماركو بول بعد ذلك بقليل ، وهو فى طريقه إلى بلاط « قوبلاى خان » .

على أن شيئا من ذلك ، لم يتحقق . فما أن إنقضى ذلك التاريخ الذى حددناه لمراقبنا الصينى الذى تخيلناه ، حتى إنهار الصرح المزعزع للإمبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية عام ١٢٦١ ميلادية . وعادت الإمبراطورية اليونانية الأرثوذكسية ، وإن كان مستقبلها لم يعد مرتهنا باليونانيين ، ولكن بالأتراك العثمانيين .

وحينئذ وجهت المسيحية الغربية طاقاتها العدوانية إلى حدودها الشمالية الشرقية . فإن الفرسان التيوتون الذين نزحوا عن سوريا ، باتوا ينشدون مستقبلهم على ضفاف الفيستولا على حساب الوثنيين من البروسيين والليتوانيين والروس . واقتصر تقدم المسيحية ــ متواصلا ــ فى ميادين شبه جزيرة أيبريا وجنوب إيطاليا وصقلية . ذلك التقدم الذى بدأ فى

---

(١) يشير الأستاذ المؤلف إلى الحملة الصليبية الرابعة (سنة ١٠٤٢) التى فتحت القسطنطينية واستمر حكم الفرنجة بها ١١٩ سنة . ثم استرد قياصرة بيزنطة عرشهم . (المترجم)

(٢) قره قوروم : كانت عاصمة الإمبراطورية المغولية فى ذلك الوقت . أما الدولة المنغولية الحالية — وعاصمتها اولان باتور — فتشمل ما كان يعرف فى الإمبراطورية السابقة بـ « منغوليا الخارجية » ، أما منغوليا الداخلية فإنها الآن جزء من جمهورية الصين الشعبية . (المترجم)

مستهل العصور الوسطى ، وسار قُدُما حتى نهايتها . وأخفق العالم المسيحى الغربى الوسيط فى محاولته مد حدوده صوب الجنوب والشرق ؛ ليضم بين ظهرانيه ، جميع الأراضى التى كانت تابعة — يوما ما — للحضارة الهلينية ، التى يمتّ إليها هذا العالم المسيحى الغربى .

وصفوة القول ؛ لو اتخذ إنسان أساساً لتقديره ما يتمع به العالم الغربى الوسيط من موارد مادية فى : الوفرة ، والسكان ، والذكاء ؛ لما كان من المتوقع أن ينتهى الأمر به إلى نتيجة أخرى .

ثانيا — الغرب فى العصور الوسطى ، والعالم السورى :

عندما شنّ مسيحو القرون الوسطى الغربيون هجومهم على العالم السورى إبان القرن السادس عشر الميلادى ؛ ألفوا سكانه منقسمين فى ولائهم الطائفى ، بين الإسلام ومجموعة متباينة من المذاهب المسيحية المنشقة مثل : المينوفيستية[1] والنسطورية[2] وغيرهما . وهذه المذاهب هى

---

(١) المينوفيستية : يعتنق أتباعها مذهب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح عليه السلام — أى الطبيعة الإلهية . فالسيد المسيح — وفقاً لهذا المذهب — كان على الأرض إلهاً كما هو فى السماء إله . وهذا عكس المذاهب المسيحية الأخرى — عدا القليل — التى تسلم بأن للسيد المسيح طبيعتين . إلهية ، بعد صعوده إلى السماء ؛ وبشرية ، منذ وجوده على الأرض . ومن أتباع المسيحية المينوفيستية فى الوقت الحاضر ، الأقباط المصريون والمسيحيون الأحباش . (المترجم)

(٢) النسطورية : تؤمن بالطبيعة البشرية للسيد المسيح عليه السلام ، وحدها . فهو — طبقاً لهذا المذهب — كلمة الله ألقاها على مريم . ومن ثم تؤله النسطورية الكلمة — فقط — وتنكر إنكاراً باتاً اللقب الذى يضفيه بقية المسيحيين على السيدة « مريم » وهو « أم الإله » . إذ تقول النسطورية ، بأنها مجرد أم المسيح البشرى ، وبذلك تنفى عنها صفة الألوهية التى تسبغها عليها معظم المذاهب المسيحية (عدا البروتستانتية) . ويُدعى أتباع النسطورية الآن بالكلدانيين وهم قليلون ويوجدون فى العراق وسوريا وإيران وروسيا وأمريكا . (المترجم)

محاولات بذلتها النفوس فى سورية قبل ظهور الإسلام ، لتخليص المسيحية من التأثيرات الهلينية .

وقد غدا الإسلام ، إبان مرحلته الأولى بعد الفتح العربى ؛ الدين المميز لهؤلاء العرب الغير المتحضرين . على غرار ما كانت الآرية العقيدة الدينية لأغلبية الفاتحين التيوتون فى مختلف أقاليم الإمبراطورية .

ولأسباب مختلفة ؛ شهدت هذه الحقبة الممتدة من الفتح الإسلامى فى القرن الثامن حتى الحملة الصليبية الأولى فى نهاية القرن الحادى عشر ؛ انسياقا متصلا نحو الإسلام من جانب هذه الشعوب الخاضعة لسلطانه ، إلا أن إعتناقها الإسلام ؛ لم يكن قد استكمل بعد ، عند انتهاء تلك الحقبة . وكان أثر الحروب الصليبية ، أنها عجلت الانسياق إلى خاتمته .

وهكذا ، انبعث المجتمعان الإسلاميان : العربى والإيرانى ؛ من بين حطام المجتمع السورى البائد .

وإذا أخذنا فى الاعتبار أن كلا من المسيحين والمسلمين ، كان يعتبر الآخر — رسمياً — «كافرا» ، وأن أنصار هاتين العقيدتين السماويتين المتزمتتين كانوا فى حرب متصلة ؛ فلعلنا نعجب لهذه الدرجة من الاحترام المتبادل التى أصبح كل من المتحاربين من الفريقين يكنها للآخر . كما نعجب لهذا القدر من الزاد الثقافى الذى تشربه مسيحيو الغرب الوسيط عن هذا الطريق السورى الذى نقل إليهم — إذ ذاك — روح الشعر العربى وأوضاعه ؛ كما تبدت فى شعراء «التروبادور» فى إقليم بروفنس Provence[1] الغنائيون . كذلك حمل هذا المجرى السورى إليهم أفكار الفلسفة اليونانية باللغة العربية على أيدى العلماء المسلمين .

---

(١) بروفنس : إقليم فى جنوب فرنسا . (المترجم)

وفى مجال الحرب ؛ نشأ إنعطاف بين المتحاربين فى كلا المعسكرين . حين اكتشف كل فريق فى الآخر قرباً لم يكن يتوقعه . ومن ذلك أن المسلمين من أهل الأندلس والمتبربرين الأبربرين المسيحيين الذين جاءوا من وراء الحدود ، كانوا — فوق أرض المعركة — يشعرون فى بعض الأحيان بأن ثمة صلة قُربى تجمع بينهم ، أوثق من صلة القربى التى يشعر بها المسيحيون الأبربريون تجاه إخوانهم فى الدين القاطنين وراء جبال البرانس ؛ أو تلك التى كان يحس بها المسلمون الأبربريون تجاه إخوانهم المسلمين فى شمال أفريقيا . ومثل ذلك أيضا ؛ ما حدث فى ميادين القتال فى سورية . فإن المتبربرين من الأتراك الذين اعتنقوا الإسلام فى غمار إجتياحهم أملاك الخلافة ، لم يكونوا كارهين لخصومهم من الفرسان المسيحيين المعاصرين لهم . وهؤلاء الفرسان المسيحيون ليسوا أرفع حضارة من أجدادهم الذين تحوّلوا إلى المسيحية فى غمار اجتياحهم الإمبراطورية الرومانية . وحقا ؛ إن النورمان — وهم رأس حربة الهجوم الفرنجى كانوا مُحدثين فى التحول من البربرية إلى المسيحية ، بقدر ما كان السلاجقة فى الإسلام .

وفى عالم القلم ؛ أصبحت فتوحات الصليبيين الموقوتة فى سوريا ، وفتوحاتهم الدائمة فى صقلية والأندلس — على حساب دار الإسلام — محطات « إرسال » متعددة . أمكن عن طريقها ، نقل الكنوز الروحية للعالم السورى المحتضر ، إلى العالم المسيحى الغربى فى العصور الوسطى . إن الجو النظيف القائم على التسامح الدينى والتطلع الفكرى الذى أسرّ — بعض الوقت — الباب فاتحى بالرمو وطليطلة من مسيحيّ الغرب ، بمقارنته بروح التعصب التقليدية فيهم ؛ هذا الجو النظيف ، كان أصيلا فى الإسلام فى عهده الأول .

على أن الكنوز الثقافية التى تقبّلتها العقول الغربية — فى هذه البيئة السمحة — من أيدٍ إسلامية ويهودية خلال القرنين التاليين ، ترجع إلى

أصول هيلينية وسورية . فلم يكن المجتمع السورى – إذن – هو المبدع لأعمال أرسطو – الصحيح منها أو المشكوك فى نسبتها إليه – ولكن المجتمع السورى كان مجرد ناقل لهذه الأعمال ، التى وصلت إلى الدارسين الغربيين فى القرن الثانى عشر بفضل ترجمتها من العربية إلى اللاتينية . وفى الرياضيات والفلك والطب ؛ لم يقتصر النساطرة المسيحيون – المتحدثون بالسريانية – تلامذة الهلينيين ، ولا المسلمون المتحدثون بالعربية تلامذة النساطرة ؛ لم يقتصروا جميعاً على الاحتفاظ بما أبدعه منها أسلافهم الهلينيون والتفوق فيها ، بل لقد تلقوا كذلك دروسا عن علماء الهند . ثم انطلقوا يبتكرون علما أصيلا من عندياتهم ، يضيفون ما أبدعوه من ابتكارهم .

ففى هذه الميادين ؛ تلقى مسيحيو القرون الوسطى فى الغرب من معاصريهم علماء المسلمين ، نتائج البحث الإسلامى ؛ بالإضافة إلى ما دُعى بنظام العرب فى الترقيم الرياضى الذى حصل عليه المسلمون من الهند . فإذا ما جاوزنا صعيد الثقافة إلى مجال الشعر ؛ وجدنا أن التراث الذى تلقاه الغرب من مسلمى الأندلس ، وهم يمثلون ثقافة سورية ؛ كان نتاجا عربيا أصيلا قُدّر له أن يكون مصدر إلهام لكل ما أبدعته المدرسة الغربية فى الشعر بعد ذلك ، حتى نهاية العصر الحديث للحضارة الغربية . وذلك إن صدق القول بأن آراء وأخيلة روّاد المدرسة الغربية من شعراء « التروبادور » البروفنسيين – بالإضافة إلى نظمهم وإيقاعهم – يمكن إرجاعها إلى مصدر أندلسى إسلامى .

وإذا كان الغرب الحديث قد جاوز بكثير التراث الإسلامى فى مجال العلوم ؛ فإن تأثير الحضارة السورية على الأخيلة الفنية سريعة التأثر عند مسيحيى الغرب الوسيط ؛ ظلت ماثلة فى الأبنية ذات الطراز المدعو بـ « القوطى » . وهى على الرغم من اللقب السخيف الذى تحمله – أى القوطى – الذى أطلقه عليها علماء الآثار فى القرن الثامن عشر ، تحمل على صفحتها شهادة مُسَجلة

تُثبت إقتباسها من نماذج ما تزال باقية فى أطلال الكنائس الأرمنية وخانات[1] السلاجقة . وما انفك طراز الهندسة الرومانى ، نتيجة لثورة فى هندسة البناء انبثقت فى غرب أوروبا إبان القرون الوسطى بتأثير طرز العمارة الشائعة فى العالم السورى .

ثالثا ـ الغرب الوسيط والمسيحية الأرثوذكسية اليونانية :

أدرك هذان العالمان المسيحيان أن التفاهم بينهما ، أشقّ من تفاهمهما مع جيرانهما المسلمين .

وكان الشقاق بينهما نتيجة لحقيقة تاريخية ؛ وهى أن الحضارة الهلينية قد أنجبت مجتمعين شقيقين . فلقد انبعث المجتمعان معا فى أواخر القرن السابع الميلادى ، وانفصمت علاقاتهما نهائيا ، بعد ذلك بحوالى الخمسمائة سنة ؛ وعلى وجه التحديد خلال أعوام ١١٨٢ ـ ١٢٠٤ التى حفلت بالمآسى[2] . وغداة إنبعاثهما ؛ باعد بينهما ـ فعلا ـ إختلاف المزاج ، وتضارب المصالح . وظهر هذا التضارب فى المصالح ، أثناء الصراع على السيطرة على أوروبا الجنوبية الشرقية وجنوب إيطاليا . وزاد الصراع مرارة ؛ نتيجة تنافس كل من الفريقين على إعتبار نفسه الوارث الشرعى الأوحد لكنيسة مسيحية جامعة ولإمبراطورية رومانية ؛ ولحضارة هلينية .

---

(١) الخانات : جمع خان ، وهى النُزُل أو فنادق القوافل . (المترجم)

(٢) تجلت تلك المآسى فى ثلاثة أفعال بشعة ، جعلت من المستحيل رأب الصدع بين الكنيستين المسيحيتين .

الأول ـ مذبحة المستوطنين الفرنجة فى الإمبراطورية الرومانية الشرقية عام ١١٨٢ .

الثانى ـ استباحة حملة عسكرية نورماندية مدينة سالونيك فى عام ١١٨٥ انتقاماً لضحايا المذبحة الأولى .

الثالث ـ قيام حملة عسكرية فرنسية بندقية مشتركة بانتهاب مدينة القسطنطينية عام ١٢٠٤ (الحملة الصليبية الرابعة) . (المؤلف)

وكان النزاع السياسى قمينا بأن يتوارى خلف أساليب المجادلات الكنسية . ومن قبيل المثال :

أولا — فى القرن الثامن ، ثار النزاع فى الإمبراطورية الشرقية المسيحية الأرثوذكسية حول عبادة الإيقونات . فكان أن أيّد بابا روما هذه العبادة . فوقف بذلك موقفا ناهض سياسة الحكومة الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، التى نزعت إلى تحريم عبادة الايقونات . وما كان موقف البابا مُسيّراً بالعامل الدينى ؛ وإنما كان يُعلن قراراً سياسيا ، باسم أهالى المناطق الباقية من أملاك الإمبراطورية الرومانية الشرقية فى إيطاليا الوسطى ؛ يدعوهم به إلى أن يتوجهوا بأبصارهم إلى ما وراء الألب — إلى الجد الأعلى — وبالتالى إلى شرلمان ؛ ليجدوا عنده العون العسكرى على اللومبارديين . ذلك العون الذى لم يجدوه فى القسطنطينية .

ثانيا — فى خلال القرن الحادى عشر ، تصادمت جهود روما والقسطنطينية لتحقيق تجانس فى الطقوس الدينية . فأدّى ذلك إلى الإنشقاق الدينى فى عام ١٠٥٤ . وكان هذا الانشقاق — فى نفس الوقت نزاعا سياسيا : إذ حرصت البابوية على كسب الولاء الدينى من أتباعها فى جنوب إيطاليا ؛ بينما كانوا رعايا سياسيين للإمبراطورية الرومانية الشرقية .

على أنه فى كلتا الحالتين ، لم يكن الصدع بين المجتمعين مما يصعب رأبه :

ففى زمن الحملة الصليبية الأولى — بعد مضى أربعين سنة على آخر هذين النزاعين الدينيين السياسيين — كان الإمبراطور الكسيوس كومنينوس Alexius comnenus يحكم الإمبراطورية الرومانية الشرقية . عهده ؛ أحدث مرور الجنود الصليبيين بأملاكه (فى طريقهم لقتال المسلمين) إضطرابا سياسيا فائقا وسخطا شخصيا . وقد أشادت أخته المؤرخة « حنة كومنينا » بأنفته وتحرّجه من التصريح لجنده بسفك دماء إخوانهم المسيحيين.

ومن بين الدوافع التى عزتها حنه لأخيها الكسيوس لتقريره إيفاد القوات الرومانية الشرقية لحراسة الصليبيين عبر الأناضول ؛ اهتمامه بإنقاذهم من تقطيع الأتراك لهم إربا . إن ما أبداه الكسيوس (حكم ١٠٨١ – ١١١٨) من إحتمال للصليبيين ؛ قد تحوّل فى عهد حفيده الإمبراطور عمانويل Manuel (حكم ١١٤٥ – ٨٠) إلى عاصفة إيجابية نحو الفرنجة ، وولع بعاداتهم . وقام من بين الفريقين أساقفة ؛ كما وُجِد فى الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، سياسيون علمانيون ؛ عُنوا بتجنّب إحداث صدع بين العالمين المسيحيين .

فكيف تأتى إذن – بعد هذا كله – حدوث صدع بين العالمين المسيحيين خلال السنوات بين ١١٨٢ و ١٢٠٤ . ثم اتساع هوة الخلاف بينهما بعد ذلك ؛ إلى درجة دفعت المسيحيين الأرثوذكس الشرقيين ؛ إلى إيثار الخضوع السياسى للأتراك ، على قبول السياسة الكهنوتية لبابا الكنيسة الغربية ؟

لا شُبهة فى أن إشتراطات روما فى تلك المناسبة ، كانت قاسية . ولكن قد يكون العامل النهائى لهذه الكارثة ؛ إزدياد التباين بين هاتين الثقافتين المسيحيتين . وهو تباين ظهر قبل نشوء التصدع السياسى والدينى فى علاقتهما بسبعمائة سنة ، وربما قبله بألف سنة . ثم حدث ظرف زاد الخلاف حدة ؛ هو الانعكاس – المُثير الفجائى غير المتوقع خلال القرن الحادى عشر – فى ميزان القوة وتطلعات المستقبل ، فى هذين المجتمعين المسيحين . وهذا ما سبق أن لفتنا إليه الأنظار فى القسم السابق من هذا الفصل .

ومن نتاج إنعكاس الأقدار السياسية والاقتصادية لهذين المجتمعين ؛ ظهور كل فريق – منذ ذلك الوقت – بمظهر لا يطيق رؤيته . فكان الفرنجة – فى نظر المسيحيين الأرثوذكس الشرقيين – حديثى نعمة ، أوغادا يستغلّون قوة

بهيمية أتاحتها لهم نزوة من نزوات الحظ . وكان البيزنطيون ـ فى نظر الفرنجة ـ شخصيات مضحكة تافهة ؛ ليس لادعاءاتها المتغطرسة مبرر ، ولا تسندها قوة . كان اللاتين ـ فى نظر اليونان ـ برابرة ؛ وكان اليونان فى عرف اللاتين ، فى طريقهم ليصبحوا « مشارقة »[1] .

ومن تلك المصنفات اليونانية واللاتينية الموفورة التى تفسر الكره المتبادل بين الفرنجة والبيزنطيين ؛ يتعين علينا الاكتفاء بذكر بضع عبارات موضحة ، لمتحدث يمثل كلا من الفريقين . ونسوق هنا بينة على تحامل الفرنجة على البيزنطيين ؛ إقتباسا من تقرير الأسقف اللومباردى ليتوبراند الكرمونى Liutprand of Cremon عن رحلته إلى البلاط الرومانى الشرقى ، التى قام بها خلال الفترة ٩٦٨ ـ ٩ م باسم الإمبراطور الرومانى الغربى أوتو الثانى . وكبينة على تحامل البيزنطيين على الفرنجة ، عسانا نقتبس كلمات للأميرة المؤرخة حنة كومنينا ، التى خبرت ـ كارهة ـ الفرنجة تماما ؛ قبل الحملة الصليبية وأثناءها .

وزاد من حدة المتاعب السياسية التى أحاطت بمهمة « ليتوبراند » الدبلوماسية الدقيقة التى اضطلع بها ؛ تقززه من جميع تفاصيل الحياة التى عرضت له فى بلاد المسيحية الأرثوذكسية الشرقية ، فى تلك الأيام . فالقصر المخصص لإقامته ؛ إما على الدوام ، بارد للغاية أو حار للغاية . وتحفظ رجال الأمن فى هذه الحجرات الكريهة ؛ على شخصه وحاشيته ، بحيث أصبحوا فى عزلة . والتجار يغشونه ، والنبيذ لا يشرب ، والطعام لا يؤكل ، والأساقفة اليونانيون من الفقر بحيث عزفوا عن إكرامه ؛ والفراش صلب كالحجر خال من الحشايا والوسائد . فلما ازمع الرحيل ؛ أخذ بثأره من مضيفيه ، كما يفعل تلاميذ المدارس . فكتب على جدران

---

(١) كان تعبير « مشارقة Levantines » يطلق على سكان الساحل الشرقى للبحر المتوسط ـ وعلى الأخص مسيحيى سوريا ولبنان . (المترجم)

القصر ومائدته قصيدة هجاء من شعر لاتينى سداسى الوزن ، سجّل فيها ابتهاجه بانتهاء إقامته فى مدينة كانت « وقتا ما مدينة موسرة مزدهرة ، فأصبحت الآن مصابة بالجدب ، حانثة لقَسَمِها ، كاذبة ؛ مخادعة ، طمّاعة ، شحيحة ، حمقاء » .

اتسمت محادثات ليتوبراند مع الإمبراطور نقفور Nikiphoros ووزرائه بالنكات اللاذعة الى تخللتها . وأعظم رمية مدوية وجهها إليهم فى حديثه ، قوله « إن اليونانيين هم الذين استولدوا البدع الدينية ، وإن الغربيين هم الذين قضوا عليها » . وهذا حق لا ريب فيه . إذ كان اليونانيون قوما متقفين أمضوا قرونا يعتصرون عقولهم فى استنباط التفاصيل والتخريجات اللاهوتية الدقيقة ؛ مما أسفر عن نتائج مدمّرة . بينما كان اللاتين أهل قانون، لاطاقة لهم بهذا النوع من اللغو . وفى أثناء حفل رسمى أقيم فى ٧ يونيه سنة ٩٦٨ ؛ نفخت كلمة « الرومانيين » الملتهبة التى كانت تدّعيها لنفسها كلتــا الإمبراطوريتين ؛ نفخت فى رماد الحقد الأبدى بين مندوبى العالمين المسيحيين ؛ فأحالته إلى ضرام .

قال الأسقف اللاتينى :

« رفض نقفور أن يُتيح لى فرصة الرد عليه وأضاف سابّا « أنتم لستم رومانيين ، إنكم لومبارديون » . وأراد الاسترسال ، وأشار إلىّ بالصمت . ولكنى لم أتمالك نفسى فانتصبت قائلا : إنها لحقيقة تاريخية شائعة ، أن روميلوس Romulus الذى ينتسب إليه الرومانيون ، كان قاتلا لأخيه وابن عاهرة ، وأنه أنشأ ملجأ لإيواء الخارجين على القانون كالمذنبين الممتنعين عن تسديد ديونهم ، والأرقاء الآبقين والقتلة ومقترفى الذنوب الفادحة الأخرى . إنه آوى هؤلاء المجرمين وجمع منهم حشدا من الطغام أسماه الرومانيين . هذه هى الارستقراطية الرفيعة التى منها انحدر أباطرتكم . ولكن نحن — وأعنى اللومبارديين والساكسونيين والفرنسيين واللورين

والسوابين والبورجنديين – تزدرى الرومانيين حقا ؛ إلى درجة أنه عندما يستبد بنا الغضب على أعدائنا ، لا نجد ما ننعتهم به سوى كلمة « رومانى » . ذلك لأن هذا النقد السيئ فى تعبيرنا ، يضم وحده كل مقومات الضِّعة من : الجبن والانحلال والغدر . وجميع النقائص الأخرى »(١) .

إن الإمبراطور بإثارته ليتوبراند ، قد وخز ضيفه اللاتينى إلى حد جعله يفقد أعصابه ، فاندفع ضيفه اللاتينى – فى نفور عام من جميع « الرومانيين » – إلى إعلان روح التضامن التى تربطه برفاقه الغربيين المتحدثين باللغات التيوتونية . وقد استخدم نفور فى حديث تال أكثر وداً ؛ كلمة « فرنجة » بحيث تشمل : اللاتين والتيوتون على السواء . وإن ما أبداه ليتوبراند فى سَوْرة غضبه ، لتبرر إستخدام هذا التعبير . ورغماً عن أن ليتوبراند كان لاتينياً عريقاً فى ثقافته ، متمكناً فى الترجمات اللاتينية للآداب الهلينية القديمة ، إلا أن ذلك الأساس الثقافى الهلينى المشترك ، لم يولّد فى قلبه شعوراً بالتعاطف مع اليونانيين المعاصرين له ، وهم ورثة نفس الثقافة . لقد قامت فعلا بين هذا الإيطالى الذى عاش فى القرن العاشر نفسه ؛ هوّة واسعة . بينما لم تنشأ مثل هذه الهوة بين ليتوبراند وسادته من الساكسونيين .

ومن المسلّم به : أن جميع ما ذكرناه ، كاف ليُلقى من الضوء على شخصية ليتوبراند ، بقدر ما يُلقيه على أى شىء أكثر أهمية . فإن الصورة الهزلية الفجّة التى صوّر بها الإمبراطور – إن حق الاستشهاد بها – لتُلقى مزيداً من الضوء . كان الأسقف اللومباردى رجلا غليظ الطبع ؛ ولو أن اللآلئ البيزنطية التى ألقيت أمامه كانت زائفة – على حد قوله – لكان

---

(١) الفصل الثانى عشر Lituprandi Relation de Legetione Constantino-holitana.

بذلك قد وصم نفسه دون شك ، بأنه خنزير أصيل[1] . إن قياس تفوّق المجتمع البيزنطى على معاصريه من الفرنجة ؛ يبدو فى التباين بين وصف ليتوبراند لرحلته « Relatio » ، والصورة الموضوعية الفاحصة التى رسمّتها « حنه كومنينا » للمغامر النورمنـدى « بوهيمند Bohemund » . وكان هذا المغامر « وحشاً أشقر »[2] ؛ جلب طموحه وشراسته وغدره لوالدها الإمبراطور ، متاعب أشق بكثير من تلك التى سببها الإمبراطور نقفور للأسقف ليتوبراند ومخدوميه من ملوك الساكسون . وإن حنة تبدأ وصفها الدقيق للتركيب الجثمانى لهذا الطراز الرائع من الإنسان الشمالى Nordic ؛ الذى أعاد تركيبه إلى الأذهان النسب التى قررها بوليكليتوس Polycleitus[3] . وتبدأ حنة وصفها ، هذا بالإطراء التالى :

« إن نظيره لم يُرَ فى جميع أنحاء رومانيا[4] . ليس ثمة متبربر أو هلينى يمكن أن يُقاس به . لم يكن أعجوبة فحسب ، بل كان شخصية أسطورية ؛ مجرد وصفها يأخذ بلبك » .

على أن لسعة هـذا التفجّر بفصاحة الأنثى ، كامن فى نهاية العبارة التالية :

« إن الطبيعة قد زوّدته بمنفذ بين تضاعيف خيشوميه الجسيمين ، لتهيئ ، متنفساً لروحة الجبارة المنسعرة بين جنبيه . ذلك لأنه لا يسعنا إلا أن نعترف بأن ثمة ما يأسر فى ملامح الرجل . وإن كان ذلك يحدّ من

---

(١) يشير الأستاذ المؤلف هنا إلى عبارة مأثورة تقرر بأن الخنزير لا يفرق بين اللؤلؤ وطعامه العادى بمعنى عجزه عن التمييز لغبائه . وبالتالى فإن الأسقف اللومباردى المشار إليه فى هذا المبحث ، مثله مثل الخنزير فى العجز عن تمييز جوهر الأشياء . (المترجم)

(٢) تعبير صكه الفيلسوف الألمانى نيتشه للدلالة على الجنس النوردى . ثم استخدمته السياسة الألمانية فى العهد النازى للإشادة بتفوق الجنس الشمالى ، وهذا ما يبعث الأستاذ المؤلف على السخرية من التعبير لإيمانه بالمساواة بين أجناس البشر . (المترجم)

(٣) بوليكليتوس من آرجوس : مثال يونانى (حوالى ٤٤٠ ق . م) . (المترجم)

(٤) يقصد برومانيا هنا : الإمبراطورية الرومانية الشرقية . (المترجم)

تأثيره ، الأثر الرهيب الذى تبعثه هيئته بأسرها . إن صورة الوحش الذى خلا قلبه من الرحمة بادية على كيان الرجل كله . إن ثمة فى ناظريه ما ينم عن ذلك . . . كما ينم عن ذلك أيضاً ضحكته التى تصك آذان الناس كزئير الأسد . إن ملامحه الروحية والبدنية ؛ تبدو كما لو أن الشراسة والنزوة كانتا تتملكانه أبداً . هاتان العاطفتان كلتاهما ، تنشدان منطلقاً فى الحرب على الدوام » .

وهذا الوصف الجذاب لواحد من رؤساء الفرنجة فى عصر « حنة » لا يكاد يدانيه فى حيويته ، إلا وصف قداس للفرنجة قدمته حنة وجعلته فاتحة لسردها لنزول الحملة الصليبية الأولى على العالم المسيحى الأرثوذكسى :

« إن نبأ اقتراب جيوش الفرنجة التى لا يحصى عددها ؛ قد أشاع قلقا بالغا فى نفس الإمبراطور الكسيوس . فإنه وحده ، كان محيطا بما عليه الفرنجة من تهور لا يكبح جماحه ، وتقلب فى الرأى ، وقابلية للأخذ والرد ، وبالخصائص الأخرى للمتبربرين الغربيين المتأصلة فيهم ؛ الأساسية منها والثانوية . وكان (أى الإمبراطور) يدرك جيدا ما عليه هؤلاء البرابرة من جشع لا يهدأ ؛ حتى أصبحوا مثلا للخفة فى التماس المعاذير لتمزيق المعاهدات ، حتى غدا هذا علما على الفرنجة عززته تماما أفعالهم . بل إن الحقيقة كانت دائما أرهب وأقوى من الواقع . وكانت النتيجة أن أهل الغرب بأسرهم — بما فى ذلك جميع القبائل المتبربرة القاطنة بين ساحل الأدرياتيك الغربى وبوغاز جبل طارق — قد شرعوا فى هجرة جماعية جادين فى السير بقضّهم وقضيضهم إلى آسيا عبر بلاد أوربا التى تقع بين هاتين المنطقتين » .

وكانت أشقّ المحن التى كابدها الإمبراطور الكسيوس من عبور الحملة الصليبية الأولى ، ذلك العبء الغير المحدود الذى ألقاه هؤلاء الزائرون الأجلاف الذين لا يأبهون لشىء ، على الإدارة البيزنطية المرهقة بالعمل :

« كان من عادة الكسيوس ، منذ بزوغ الفجر أو على الأقل منذ شروق الشمس ، الجلوس على العرش الإمبراطورى . وكان يعلن بأن أى متبربر غربى – يود مقابلته – يُسمح له بذلك من غير قيد ، يوميا طوال الأسبوع ، وقد دفعه إلى ذلك ، رغبته المباشرة فى أن يمنح المتبربرين فرصة التقدم بمطالبهم . أما الدافع البعيد ، فهو رغبته فى انتهاز كل فرصة يتيحها له التحدث إليهم للتأثير عليهم للتمشى مع سياسته . وكان فى هؤلاء البارونات المتبربرين شىء من الخصائص القومية الخرقاء من : وقاحة ، وطمع ، وعجز عن ضبط النفس عن الانغماس فى أية نزوة تستبد بهم ، وأخيراً وليس آخراً الثرثرة ؛ ولهم فى هذه الخصائص ، السبق على العالم . وقد أظهروا فى إساءة استخدام حقهم فى الدخول على الإمبراطور ، إفتقاراً إلى النظام لايجارى . كان كل بارون يقفو أثر سابقه فى صف متصل . وأسوأ من ذلك ، أنهم إذا ما شغلوا الردهة ؛ لا يعينون لأنفسهم زمنا محدداً لحديثهم ، مثلما كان يفعل خطباء آتيكا[1] . وكان كل من هب ودب من المتبربرين يأخذ ما يحلو له للتحدث مع الإمبراطور . فهم على ما كانوا ، يواصلون الحديث دون توقف ويقدمون مطالب لا نهاية لها .

« إن ما عرف به حديث المتبربر الغربى من ترسّل واستهداف الكسب والتفاهة ، أمر مشهور بالطبع لدى جميع الباحثين فى الخصائص القومية عند الشعوب . أما من قادهم سوء الحظ إلى مشاهدة هذه المناسبات عن كثب ، فقد تزودوا بمعرفة أدق وأشمل لطبائع الغربيين . فعندما كان الظلام يخيم على قاعة الاجتماعات ، كان الإمبراطور المسكين – الذى استمر يعمل اليوم بطوله دون أن يجد الفرصة لسد رمقه – ينهض من فوق عرشه ويبدى حركة فى إتجاه جناحه الخاص . لكن حتى هذه الإشارة الصريحة ، ما كانت لتعفيه من إعتراض المتبربرين له . إنهم كانوا يواصلون خداع

(١) آتيكا : أقليم فى اليونان القديمة ، كانت أثينا عاصمته . (المترجم)

بعضهم بعضاً ، حتى يسبق أحدهم الآخر . بل إن هذا الخداع لا يقتصر على من بقى فى الصف ؛ فإن هؤلاء الذين قابلوا الإمبراطور طوال النهار — مثلا — يحرصون على العودة متذرعين بسبب أو بآخر للتحدث إلى الإمبراطور مرة أخرى ، بينما يظل الرجل المسكين واقفاً على قدميه . وكان عليه أن يتحمل هذا الهراء الصادر عن حشد البرابرة المزدحمين من حوله . وكان من المناظر الجديرة بالمشاهدة ، قدرة هذا الرجل (الضحية) على مواصلة إظهار البشاشة فى الرد على استيضاحات هؤلاء الرعاع ، والهراء من حوله لا ينقطع . وعندما كان أحد رجال البلاط يحاول إسكات المتبربرين ، كان الإمبراطور — على العكس — يوقفه . ! إذ كان الإمبراطور على علم باستعداد الفرنجة السريع لفقد أعصابهم . وكان يتجنب إحداث أى نوع من الإثارة التافهة ، تؤدى إلى إنفجار قد يبتلى الإمبراطورية الرومانية بشر مستطير .

فلا بدع والحالة هذه ، أن نفوراً متبادلا بمثل هذه الشدة ، يحول دون وجود أية تأثيرات ثقافية تبادلية . ورغماً عن ذلك ، فقد أثمرت الحروب الصليبية بعض الثمار المتبادلة بين الفرنجة والبيزنطيين ، وبينهم وبين المسلمين .

فإن مسيحيّ الغرب فى القرون الوسطى — بعد أن استحوزوا على زُبدة فلسفية وعلمية مما تُرجم إلى اللغة العربية من مصنفات اليونان — استكملوا مكتبتهم الهلينية بأن نقلوا إلى لغاتهم الأصلية ، جميع « التراث » الهليني الذى أمكنت صيانته . وعلى هذا : فإن الدين الثقافى الذى يدين به الغرب للشرق ، كان من نوع أسمى من أن يتوقعه أحد .

وإن فرنجة القرن الثالث عشر الذين فتحوا القسطنطينية والمورة ، قد أسدوا لضحاياهم اليونانيين نفس الخدمة الأدبية البارزة — الغير المقصودة — التى قدمها للصينيين ، فاتحو الصين من المغول ، معاصرو الفرنجة . فى الصين

ترتب على نزول الأدبيات الكونفوشيوسية عن عرشها – وقتياً – أن تهيأت فرصة لأن يخرج – ببطء – إلى سطح الحياة الاجتماعية للصينيين أدب شعبي مغمور في لغة دارجة متداولة . وما كان ليتيسر لهذا الأدب الشعبي أن يبرز – على هذا النحو المدوّى في ظل الحكم الثقافي القائم على القمع لموظفي الدولة ذوى العقلية الكونفوشيوسية ؛ ممن ختمت الآداب الصينية القديمة على عقولهم ، فاستعصت على العلاج .

وفى العالم المسيحى الأرثوذكسى الذى اجتاحه المتبربرون ؛ أنتجت نفس العلّة ، الأثر نفسه ؛ لكن على مقياس أصغر . وتمثل الأثر في إزدهار شعر غنائى ، وشعر ملاحم شعبى . ويطالعنا في هذا الشأن ؛ مؤلّف فرنجى من المورة ، ألف «حوليات المورة» ، وعبر فيها عن أحاسيسه في شعر يونانى وطنى متحرر تماماً من القيود الموروثة . وكان هذا الشعر ، إرهاصاً بالشعر اليونانى الحديث في أوائل القرن التاسع عشر .

وأعظم الثمرات التي تبادلها العالمان المسيحيان في القرون الوسطى في الغرب وفى الشرق : النظام السياسى للدولة المطلقة السلطان ؛ كما تبدّى في الإمبراطورية الرومانية الشرقية . ثم انتقل إلى الغرب ، فأصبح أساس الحكم الجارى العمل به في الدولة الغربية التي اقتطعتها أسياف النورمنديين في القرن الحادى عشر من الأملاك السابقة للإمبراطورية الرومانية الشرقية في آبوليا[1] وصقلية . فكان أن غدا نظام الحكم هذا ، محط أنظار جميع الغربيين : سواء من نظر إليه نظرة إعجاب أو نظرة نفور . وذلك ؛ حين تجسّد هذا النظام في شخص الإمبراطور فردريك الثانى » من أسرة «هوهنشتوفن Hohenstofen . ذلك لأن هذا الملك المندفع ؛ إلى جانب ما ورثه عن والدته

---

(١) آبوليا Apulia منطقة في جنوب إيطاليا . (المترجم)

النورمندية من مُلك صقلية ، كان كذلك إمبراطوراً رومانيا غربيا ؛ وفوق ذلك ، كان عبقريا .

أما التطورات التى ألمّت بعد ذلك بنظام الحكم المطلق ، حتى اتخذ مظاهره الجماعية فى القرن العشرين الميلادى ، فقد سبق أن تتبعناها فى مكان سابق من هذه الدراسة .

(ج) تلاقى حضارات الجيلين الأولين

أولا – تلاقى مع الحضارة الهيلينية فى مرحلتها التالية لعصر الإسكندر :

كان الباحثون فى التاريخ الهلينى – من أهل العصر التالى لحكم الإسكندر – ينظرون إلى جيل الإسكندر على أنه يؤرخ خروجا على الماضى ، وإشراق عصر جديد . وهذه النظرة لا تقل فى دقتها ، عن تلك النظرة التى نظر بها الغربيون إلى تاريخهم الحديث . فالانتقال من العصر الوسيط إلى العصر الحديث ، قد تميّز بعدة اتجاهات جديدة صارخة ؛ إنبعثت فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلاديين .

وفى كلا هذين العصرين الحديثين من التاريخ ؛ كان أوضح العوامل أثرا فى التقليل من شأن الماضى – إذا قورن بالحاضر – هو الشعور بالزيادة المفاجئة فى السلطان على البشر . كما يبدو كذلك فى الفتوحات العسكرية ، والسلطان على الطبيعة المادية ، كما يبدو فى الكشوف الجغرافية والعلمية .

إن فتح المقدونيين الإمبراطورية الأخيمينية ؛ كان لا يقل إثارة عن فتح الأسبان إمبراطورية الإنكا (فى أمريكا الوسطى) .

ولم يكن هذا كل شيء !!!

فلو أن يونانيا من أهل القرن الثالث قبل الميلاد ، أو غربيا من أهل

القرن السادس عشر بعد الميلاد ؛ قد طُلب إليه وصف الأحاسيس التى طرأت على شعوره بحلول عصر جديد ، لكان من المحتمل أن يجعل لإحساسه بتضخم القوة المادية التى حققها مجتمعه ، وزنا أقل من إحساسه باتساع الأفق الفكرى لمجتمعه .

فلقد كانت الهند أسطورة ، حتى شق المقدونيون الطريق إليها وسط آسيا ؛ كما شقّ البرتغاليون الطريق إليها ببسط سيطرتهم على المحيط . وفى غمار النشوة التى تولّدت عن حركة الكشف عن الهند ؛ كان الإحساس بالسلطان ، قد كيّفه وضخّمه — فى كلتا الحالتين — الانذهال من تكشّف عالم أجنبى عجيب . وفى غمار النشوة التى أبرزتها فى العالم الهلينى الكشوف العلمية لأرسطو وخلفائه ، وتلك التى أبرزتها فى العالم الغربى حركة بعث « الثقافة الهلينية » ؛ تكيّف الإحساس بالقوة الناشئ عن التوصّل إلى معارف جديدة ؛ فى إحساس بالقصور ، يعنى تذكير الإنسان بجهله النسبى . فإن كل إضافة لمعرفة الإنسان للعالم ، كفيلة بأن تذكّره بجهله .

ويتيسر الانتقال بالمشابهة بين الحقيقتين ، أبعد من ذلك . فإننا نعلم أن تأثير الغرب الحديث ، قد بات عالمى الطابع . وعسانا نذهب — دون تفكير — إلى أن انتشار الحضارة الهلينية فيما بعد عصر الإسكندر ، قد اتخذ شكلا هزيلا ، إذا قورن — بحق — بانتشار التأثير الغربى . فإن الحضارة الهلينية فى عصر ما بعد الإسكندر ، تلاقت مع المجتمعات : السورية ، الحيثية ، المصرية ، البابلية ، السندية ، الصينية . بل إنها قد تلاقت مع كل مجتمع آخذ بأسباب التحضّر ، لا يزال قائما فى تلك الأيام .

لكن لا تفوتنا الآن نقطة اختلاف هامة :

فإننا حين ندرس تأثير الغرب الحديث على المجتمعات المعاصرة له ؛ علينا أن نميّز بين عصر حديث مبكر ؛ كان الغرب خلاله يشعّ ثقافته كاملة — بما فى ذلك الدينية — وعصر حديث متأخر ؛ دأب الغرب خلاله

على إشعاع زُبدة علمانية من ثقافته : أى بعد أن استبعد منها عنصر الدين . وليس ثمة وجود لمثل هذا التقسيم فى تاريخ إشعاع الحضارة الهلينية فى عصر ما بعد الإسكندر . ذلك لأن الهلينية كانت ، إذا قورنت بالغرب — من الناحية الثقافية — أبدر نضوجا . إلا أنها بدأت فقيرة فى مجال الدين . ولم تنبعث هذه الحضارة من يفعتها الدينية ، إلا قبل بداية عصر الإسكندر بقرن كامل .

وفى أزمة التحرر الروحى هذه التى شهدها الهلينيون ، انبعث فى نفوسهم تقزز من التحلل الخلقى الطائش الذى أُثر عن مجمع آلهة الأوليمب البربرية . كما شاعت فيهم نكسة شديدة ضد نوع آخر من الحياة الدينية أعمق وأحلك ، عُرف باسم « عقائد العالم السفلى » ؛ مع ما صاحبها من طقوس الدماء والتراب .

وسرعان ما أحس الناس بجوع شديد وحاجة ملحّة إلى غذاء روحى، لم يجدوا إليه سبيلا . حتى إذا حملتهم فتوحهم العسكرية والثقافية فى عصر ما بعد الإسكندر ، احتكوا بديانات غير هلينية مكتملة النمو . وكان الانفعال الذى بعثته هذه التجربة فى القلوب الهلينية ، ينطوى على الحسد — المشوب بالاهتمام الكبير — لمن خصتهم العناية بامتلاك مثل هذه العطية الغالية ؛ أكثر من أن ينطوى على ازدراء لألاعيب الكهنة وحيلهم . وغدا العالم الهلينى مدركا للحقيقة الواضحة ، وهى أنه يعانى فراغا فى حياته الدينية ؛ وإن كان هذا الإدراك قد سبب له قلقا .

وهذا الموقف الذى وقفه الهلينيون الفاتحون فى عصر ما بعد الإسكندر، إزاء تقبّل ديانات المجتمعات التى وقعت فى أسر الهلينية على الصعيدين الثقافى والعسكرى ؛ كان هذا الموقف أحد العوامل التى أحدثت النتائج الدينية الخطيرة التى ترتبت على التأثير الهلينى العدوانى على ستة مجتمعات أخرى .

ويتعين علينا أن نقيس مد الهلينية وجزرها خلال العصر التالى للإسكندر ، فى إطارها التاريخى ؛ إن أردنا معرفة نتائجها الدينية .

كان الغرض الأول للغزاة المقدونيين والرومانيين ، إستغلال ضحاياهم إقتصاديا . على أن اعترافهم بالغاية الأنبل لفتوحاتهم وهو نشر الثقافة الهلينية ؛ كان لا يخلو من الإخلاص ، مصداقا لما ثبت من المدى الذى ذهب إليه الهلينيون فى ترجمة جهودهم هذه من أقوال إلى أفعال . وكانت الأداة السياسية التى اصطنعها الفاتحون الهلينيون لتحقيق الوعد الذى أعلنوه بمشاركة الشعوب فى الثروة الروحية للثقافة الهلينية ؛ هو تشييد نواة من المستوطنين الهلينيين ، بحيث يكونون مصدر إشعاع للحضارة الهلينية . وكان الإسكندر نفسه هو الذى بدأ هذه السياسة ، على نطاق واسع . واقتفى أثره بعد ذلك ــ طوال أربعة قرون ونصف قرن ــ خلفاؤه المقدونيون والرومانيون ، حتى الإمبراطور هادريان .

على أن نشر الفاتحين الهلينيين الثقافة الهلينية فى صورة سمحة ــ فى قليل أو كثير ــ لا يثير من العجب ؛ قدر ما تثيره محاكاة غير الهلينيين لتلك الثقافة الهلينية ، محاكاة تلقائية . إلى درجة أن الثقافة الهلينية إبان العصر التالى للإسكندر قد انتشرت ــ دون حرب ــ فى أرض لم تحتلها الجيوش الهلينية قط ؛ أو احتلتها ثم جلت عنها سريعا ، فى الفترة التى انحسرت فيها موجة فتوح الإسكندر عقب وفاته .

من ذلك :

أولا ــ غرس الفن الهلينى فى دولة كوشان . وهى إحدى الدول التى خلفت الإمبراطورية اليونانية فى باكتريا ، على جانبى الهندوكوش ؛ إبان القرن الأخير قبل الميلاد والقرن الأول للميلاد .

ثانيا ــ غرس العلم والفلسفة الهلينيين فى الدولتين الساسانية والعباسية اللتين خلفتا الإمبراطورية السلوكية اليونانية .

على أن هذا الغراس إحتاج — إلى أن أثمر — إلى بعض الوقت حتى مرت عليه تجربة الفتح العسكرى اليونانى ، ثم رحيله .

ثالثا — وبالمثل ؛ لم يشرع العالم السورى فى إظهار اهتمامه التلقائى بالعلم والفلسفة الهلينين ، إلا بعد ما بدأ يتحرر من السيطرة الهلينية . تحرر تبلور فى إصطناعه مذاهب خاصة له من المسيحية تجلّت فى مذهبين منشقين هما : النسطورية والمينوفيستية . وكذلك إتخاذه أداة أدبية خاصة ، هى اللغة السريانية .

إن التغلغل السلمى للثقافة الهلينية فى مناطق لم يطأها قط غزاة هلينيون ؛ يلقّن نفس الدرس الذى لقنته من قبل ، إنتصارات الهلينية الفنية والثقافية بعد انحسار السيطرة العسكرية . وهذا الدرس الهلينى ، يُنير السبيل فى الدراسة العامة للتلاقى بين الحضارات المتعاصرة . وهذا الضياء واضح لدارسى التاريخ فى جيل كاتب هذه الدراسة . ذلك لأن هؤلاء الدارسين ؛ تأتى لهم أن يقفوا على القصة بكاملها . على عكس ما يعرفونه عن التلاقى الذى يجرى الآن مع الغرب الحديث . فإن هذا الفيض الغزير من المعلومات المفصلة ؛ لا تقاس به بأية حال من الأحوال ، تلك السجلات الهزيلة الباقية من التاريخ الهلينى . هذا الفيض الغزير ؛ قد أوقفه فجأة فى منتصف القصة ، ذلك الستار الحديدى الماثل فى جهل الإنسان بالمستقبل .

وسواء أصبح لعامل القرة أهميته فى مجال التبادل الثقافى بين المتعاصرين فى التاريخ الغربى — كما كانت له أهميته فى العصر التالى للإسكندر من التاريخ الهلينى — فإن هذا ما يزال حتى عام ١٩٥٢ ، طىّ الغيب . وإن علامة الاستفهام هذه ؛ لتفيد فى تذكير الباحث بأن تلك الأحداث التاريخية التى هى بالنسبة إليه أقل بعدا وأوفر وثائق وأقرب إلى تناوله ؛ هى كذلك ، أضعف هادٍ له فى تقصّيه لتطور البشرية وخصائصها . أما تاريخ التلاقى بالمجتمع الهلينى — على بعده وفقر وثائقه — فإنه يكفل زيادة معرفة الباحث

بهذا التلاقى ، وخاصة فيما يتعلق بنتائج التلاقى بين الحضارات على الصعيد الدينى .

وكان واضحا للمؤرخ الغربى فى القرن العشرين – حتى زمانه – أن التقبّل التلقائى للفن الهلينى فى عالم الصين فى القرن الخامس ، وللعلم والفلسفة الهلينين فى العالم السورى فى القرن التاسع ؛ هذا التقبّل قد سلك نفس الطريق . فإن المبادلات الفنية والعقلية – كالمبادلات العسكرية والسياسية – بين الحضارة الهلينية فى عصر ما بعد الإسكندر والمجتمعات المعاصرة لها ، كانت قد دخلت فى ذمة التاريخ .

ومن الناحية الأخرى ؛ نجد التأثير المتصل الحلقات لنتائج التلاقى هذه ، على حياة البشرية فى القرن العشرين ؛ يُفصح عنه ولاء أغلبية الجيل الحالى الساحقة ، لأحد الأديان الأربعة : المسيحية – الإسلام – المهايانا – الهندوسية . وفى الاستطاعة تتبع التجليّات التاريخية لهذه الأديان فى الماضى ، إلى أحداث – اندرست – تلاقت فيها الحضارة الهلينية مع حضارات شرقية بائدة . وإذا كان مستقبل البشرية قد يُظهر أن هذه الديانات العالمية أقدر من الحضارات فى معاونة البشر على بلوغ الهدف الذى تصبو إليه جاهدة ؛ إذا كان الأمر كذلك ، فإن التلاقى مع الحضارة الهلينية فى عصر ما بعد الإسكندر ، يكون قد ألقى من الضوء على المبحث الرئيسى لأى دراسة شاملة للتاريخ ، أكثر مما ألقاه التلاقى مع الغرب الحديث .

ثانياً – التلاقى مع الحضارة الهلينية لعصر ما قبل الإسكندر :

إن الرواية التى قام فيها المجتمع الهلينى – فى عصر ما قبل الإسكندر – بدور الزعامة ، قد مُثّلت على حوض البحر المتوسط . وهذا هو المسرح نفسه الذى شهد بعد انقضاء ألف وثمانمائة سنة ، مشهداً لرواية قام فيها بالدور الرئيسى ؛ العالم المسيحى فى المغرب الوسيط . وفى كلتا التمثيلتين ؛

أدّى الأدوار ، ثلاثة ممثلون : الحضارة الهلينية (في مرحلتها السابقة لعصر الإسكندر) ومنافسان لها ، هما :

الأول ــ المجتمع السورى . ويمت إلى المجتمع الهليني بصلة الأخوة .

الثانى ــ فضلة متحجّرة من المجتمع الحيثى ، الذى تحلل قبل الأوان . وقد تسنّى للبقية الباقية من ذلك المجتمع أن تحتفظ بكيانها ، بالانزواء بعيداً فى معاقل جبال طوروس .

وفى غمار تنافس هذه الأطراف على السيادة على حوض البحر المتوسط ، قام الفينيقيون يمثّلون المجتمع السورى ، وجوابو البحار عند المجتمع الحيثى . وجوابو البحار هؤلاء ، هم من عُرفوا عند منافسيهم الهلينيين فى البلاد التى نزلوا فيها فيما وراء البحار باسم التيرانيين Tyrrhenians (باليونانية) وبـ « الأترورين Etruscans (باللاتينية)[1].

وكان التنافس فى هذه المباراة الثلاثية ــ التى بدأت فى القرن الثامن قبل الميلاد ــ يدور على السيطرة على المناطق الآتية :

١ ــ غربى البحر المتوسط ، حيث لم يكن السكان ــ على ما هم عليه من تأخر ــ نداً لأى مجتمع من هذه المجتمعات الثلاثة المتنافسة الدخيلة على تلك المنطقة .

٢ ــ شواطئ البحر الأسود المطلة على المفازة الغربية الكبرى للسهوب الأوراسية ، وهى التى تتيح ــ بدورها ــ منفذا إلى منطقة الأرض السوداء الزراعية ، الواقعة على طول أطراف السهوب الشمالية الغربية .

٣ ــ أرض مصر التى ظلت آماداً طويلة تُزرع زراعة كثيفة . وكانت

---

(١) أترووريا : هى موطن الأترووريين . وكانت تقع غرب جبال الأبنين ونهر التيبر . ويرجع العهد بهجرة الأترووريين من جنوب آسيا الصغرى إلى هذه المنطقة حوالى عام ١٠٤٤ ق . م (المترجم)

حضارة مصر ـ حينذاك ـ قد بلغت مرحلة العجز ، فلم تعد قادرة على صد عدوان أى جار غريب ، إلا بالاستعانة بقوى جار آخر .

وكان الهلينيون فى الصراع على هذه المناطق يتمتعون بميزات عدة ؛ رجّحت كفتهم على منافسيّهم :

فكان الموقع الجغرافى أوضح ميزات الهلينين . فإن قاعدة العمليات الهلينية فى بحر إيجه ، كانت أقرب إلى البحر المتوسط وأدنى إلى البحر الأسود ، من القواعد الأترورية والفينيقية الواقعة أقصى الطرف الشرقى من البحر المتوسط . وبذلك كانت القواعد الهلينية أقرب إلى كل من الأهداف السالفة الذكر .

ثم أن الهلينين قد حظوا بميزة أخرى تجلّت فى عدد السكان . إذ طفق سكان اليونان يتكاثرون بفعل إنتصار سكان السهول على سكان الجبال أثناء العصر السابق من التاريخ الهلينى . واستتبع ذلك ؛ ضغط السكان على وسائل المعيشة فى بلاد اليونان ؛ مما زوّد التوسّع الهلينى بقوة متفجّرة حفزتهم على أن يتبعوا تشييد المراكز التجارية فيما وراء البحار ، بالعمل على جعل هذا العالم الجديد «يونان عُظمى»[1] عن طريق توطين سريع ـ وكثيف ـ لمستعمرين يونانيين . والدلائل اليسيرة التى فى حوزتنا ، توحى بأنه : لا الأتروريون ولا الفينيقيون ؛ كان تحت تصرفهم ـ فى هذا العهد ـ مثل هذا القدر من القوة البشرية . وما كان فى وسع أى منهم ـ على أية حال ـ مجاراة اليونان فيما حققوه من تشييد العالم الجديد ؛ وقصر ملكيته عليهم .

والميزة الثالثة لليونان ـ كالميزة الأولى ـ ناشئة عن الموقع الجغرافى لبلادهم . فقد اتفق أن بداية المنافسة على السيادة على البحر المتوسط ؛

---

(١) Magna Graecia

جاءت معاصرة لابتداء آخر وأسوأ جولة من جولات العسكرية الأشورية ؛ التي تعرّض لها الفينيقيون والأترووريون داخل القارة الأسيوية . في حين تنعم الهلينيون بالعيش بعيدين عنها ؛ بُعداً كافياً ، عصمهم من غائلة العدوان الأشوري[1] .

فإن أُخذت هذه العوائق بعين الاعتبار ؛ يصبح توفيق الفينيقيين والأترووريين في إنجاز ما أنجزوه من أعمال ، مثاراً للدهشة والعجب .

ففي السباق على السيطرة على البحر الأسود ؛ لقوا جميعاً — كما كان متوقعاً — هزيمة تامة ، وأصبح البحر الأسود بحيرة هلينية . وخلال فترة هدوء الأحوال في السهوب عقب فوران البدو السيميريين[2] والأسقوذيين[3] ؛ دخل الهلينيون اليونان — وقد أصبحوا أصحاب السيادة على البحر الأسود ، والأسقوذيون أصحاب المفازة الغربية الكبرى للسهول الأوراسية ؛ دخل الفريقان في مشاركة تجارية مربحة تضمنت : تصدير محاصيل الغلال التي يزرعها رعايا الأسقوذيين من فلاحي الأرض السوداء ، إلى اليونان لإطعام سكانها الحضريين في حوض بحر إيجه ، في مقابل السلع الترفية التي أخذ اليونان يصنعونها لتوافق ذوق أمراء الأسقوذيين .

---

(١) بالمثل : تمتع الإنجليز في جزيرتهم خلال القرن السابع عشر بميزة على الهولنديين المقيمين داخل القارة ، وهم منافسوهم على تجارة المحيطات . ومرجع ذلك ؛ إلى أن الهولنديين قد تعرّضوا إلى ما لم يتعرض له الإنجليز ؛ تعرضوا للهجمات العسكرية التي شنها بناة الإمبراطوريات من آل هابسبرج وآل بوربون . (المؤلف)

(٢) السيميري **Cimmerii** : اسم شعب من شعوب غرب أوروبا الأقصى . كان الشاعر هوميروس أول من أشار إليه (الأوديسية — الجزء الحادي عشر / فصل ١٤) . كما أشار إليه المؤرخ هيرودوتس . وحوالي عام ٦٥٠ ق . م غزت القبائل السيميرية مملكة ليديا ودمرت طائفة من مدنها . لكن ملك ليديا « ماجنسيا **Magnesia** عاد فهزم السيميريين خلال الفترة ٦٠٥ — ٥٥٦ ق . م . (المترجم)

(٣) الأسقوذيون : من كلمة **Eeythia** أشار إليهم هيرودوتس في الجزء الرابع من تاريخه . وكانوا يقطنون بين نهري الدانوب والدون . وكان هذا الشعب ينتمي من الناحية العنصرية إلى الآرية . (المترجم)

أما فى غربى البحر المتوسط ؛ فقد لبث الصراع أمداً أطول ، واجتاز تطورات عدة . إلا أنه انتهى كذلك بنصر اليونان .

وحتى فى السباق الأقصر مدى فى سبيل الفوز بمصر — حيث لم يكن عامل القرب الجغرافى إلى جانب اليونان — شاهد القرن السابع (قبل الميلاد) اليونانيين مرة أخرى ، يحرزون قصب السبق . وتم ذلك ؛ بفضل تزويدهم الحكومة المصرية للفرعون المحرر بسماتيك الأول بمن كانوا يدعون « رجال البحر النحاسين » من « الأيونيين والكاريين » . وقد جنّدهم فرعون لطرد الحاميات الأشورية من وادى النيل الأدنى ، خلال السنوات ٦٥٨ — ٦٥١ ق . م .

وقبيل منتصف القرن السادس قبل الميلاد ؛ بدا كما لو أن الهلينيين لم يفوزوا فحسب فى المنافسة على السيطرة البحرية على حوض البحر المتوسط ، لكنهم كانوا قد قطعوا شوطاً بعيداً نحو وراثة الإمبراطورية الأشورية فى القارة ؛ أى أجزائها الواقعة فى جنوب غرب آسيا .

وقبلما يتمكن جنود بسماتيك المرتزقة من اليونان من طرد الأشوريين من مصر بنصف قرن ، كان سنحريب قد أوغرت صدره ، فتنة جريئة قام بها — فى أملاكه على ساحل كيليكيا[1] ، أولئك الدخلاء — رجال البحر النحاسين . فبدا كما لو أن الدولة البابلية الجديدة التى خلفت الإمبراطورية الأشورية ، توشك هى الأخرى أن تقتدى بمصر فى استئجار الجنود المرتزقة من اليونان . هذا إذا افترضنا أن جنودا هلينيين من طلاب المال قد خدموا بالفعل فى حرس بختنصر إلى جانب « لسبيان آ تنيمينيداس

---

(١) كيليكيا Cilicia : مقاطعة على الشاطىء الجنوبى لآسيا الصغرى . وكانت تضم قديما سهل أطنه وطرسوس . وكان يحدها الأبيض المتوسط جنوبا وجبال طوروس شمالا . وظلت جزءا من الإمبراطورية الفارسية ، إلى أن غزاها الإسكندر الأكبر عام ٣٣١ ق . م . وبعد وفاته أصبحت من نصيب بطليموس مصر . وهى الآن جزء من ولاية أطنة التركية . (المترجم)

« Lespian Antimennidas » الذى أمكن المحافظة على اسمه وأفعاله من طىّ النسيان ، بفضل كونه أخاً للشاعر « آلكايوس Alcaius »[1] .

على أن غزو الإسكندر للإمبراطورية الأخيمينية ، قد سبقه وأرهص به ؛ إستعانة الأخيمينيين أنفسهم – على نطاق واسع – بجنود مرتزقة من اليونان . ولعه بدا إحتمال ظهور رجل من طراز الإسكندر على مسرح التاريخ قبل ظهر الإسكندر نفسه بقرنين . ولكن حقا ؛ لقد أُعد المسرح ؛ لا ليظهر عليه شبح للإسكندر ، ولكن ليظهر عليه « كورش » فعلى .

على أن مستقبل يونانىّ القرن السادس قبل الميلاد فى مصر وجنوب غرب آسيا ، ما لبث أن أظلم خلال العشرين سنة – أو نحوها – التى انقضت بين فتح كورش للإمبراطورية الليدية[2] (حوالى عام ٥٤٧ ق . م) وغزو خليفته قمبيز مصر (حوالى عام ٥٢٥ ق . م) فإن غزو كورش لليديا كان أشد الضربتين قسوة ومباغتة . وقد مكّنه هذا الغزو من إحلال سلطان فارسى على دول المــدن الهلينية الواقعة على طول الساحل الغربى للأناضول ، محل السيادة المألوفة التى كانت لمملكة ليديا عليها . ولكن الضربة الأخرى التى وجهها قمبيز ؛ كانت ضربة أخرى مزدوجة . إذ ترتب عليها ؛ الحطّ من الاعتبار العسكرى لرجال البحر « النحاسيين » – من ناحية – ووضع المصالح التجارية اليونانية فى مصر تحت رحمة الفرس ، من الناحية الأخرى .

---

(١) آلكايوس (حوالى ٦٠٠ ق . م) : كان أحد شعراء اليونان الغنائيين . واشتهر فى التاريخ اليونانى بمعارضته الديكتاتورية ودفاعه عن الحريات ، رغما عن انتمائه نفسه إلى عائلة أرستقراطية . (المترجم)

(٢) ليديا : قطر كان يقع فى آسيا الصغرى بين بحر إيجه وميسيا . وقد أصبحت ليديا فى عهد ملكها قارون إمبراطورية تحكم آسيا الصغرى بأسرها . وبعد انقضاء خمسة عشر عاما من حكمه : استولى كورش إمبراطورية فارس على ليديا فأصبحت جزءا من إمبراطوريته . ثم آلت الإمبراطوريات : الرومانية والبيزنطية والعثمانية على التوالى – وهى الآن جزء من الجمهورية التركية . (المترجم)

وبالإضافة إلى ما تقدم ؛ استفحلت حدة هذه النكسات التى حلّت باليونانيين . بما أسبغه الفرس بُناة الإمبراطورية ، على الفينيقيين السوريين من مزايا هامة عاجلة :

فقد طبّق الأخيمينيون نفس السياسة فى معاملتهم لليهود ؛ وقتما سمحوا لهم بالعودة من أسرهم البابلى ، وبإعادة إنشاء معبدهم وإقامة دولة عديمة الأهمية السياسية حول أورشليم مدينة أسلافهم . فمنحوا الحكم الذاتى للمدن الفينيقية السورية الواقعة على طول الشاطئ . بل خوّلوا لهذه المدن سلطانا على الجماعات السورية الأخرى ؛ مع اعترافها بالسيادة الفارسية . وبهذه السياسة ؛ أصبحت المدن الفينيقية تقف على قدم المساواة — على الأقل — مع أقوى دول المدن فى العالم الهلينى . بل إن نجاح تلك المدن الفينيقية اقتصاديا ، ومكاسبها ؛ كان أبعث على العجب . فلقد ألفت نفسها شريكة فى مجموعة مترابطة من الدول (كومنولث) فى داخل القارة ، بعيدا عن الشاطئ السورى للبحر المتوسط ، حتى أبعد مواطن الزراعة فى المنطقة « الأسطورية » الشمالية الشرقية ، الواقعة على الشاطئ « الصّغدى »[1] الجاف من السهب الأوراسى العظيم .

وفى غمار ذلك كله ؛ انبعثت فى غرب البحر المتوسط مستعمرة فينيقية ، فاقت فى القوة والثراء ، المدينة السورية التى انبثقت عنها . تماما مثلما فاقت فى القرن العشرين الميلادى أهم « مستعمرة » للغرب الحديث فيما وراء الأطلسى ؛ فاقت الدول الأوربية التى منها هاجر مواطنو هذه المستعمرة . إن قرطاجنة قد أمسكت بزمام القيادة فى الهجوم الفينيقى المضاد الذى يمكن أن يدعى — وفقا لوجهة النظر اليونانية — بالحرب البونية

---

(١) الصغدى : نسبة إلى الصغد . وهو الاسم القديم الذى كان يطلق على منطقة محيط بمدينة سمرقند . وتكوّن الآن جانبا من جمهورية ازبكستان السوفييتية . (المترجم) .

الأولى ؛ لو لم ترتبط هذه التسمية بحرب أخرى[1] ، جاءت متأخرة فى نفس الرواية التى طالت فصولها .

ولم تكن النتيجة حاسمة ه ولكن يمكن أن يقال إن توسع العالم الهليني قد أوقف فى جميع الجبهات بفعل تآلف أعضاء المجتمعات المتنافسة التى كان يهددها اليونان ، وتنافسهم . ولعله كان يتوقع بعد هذا ؛ أن تثبت الحدود الشرقية والغربية الواقعة بين العالمين السورى والهلينى ، بعد أن كانت متأرجحة حتى ذلك الوقت .

لكن لم يكد يبدأ القرن الخامس قبل الميلاد ، حتى انقلب هذا التوازن . فقد أصبحنا نقف على عتبة حرب من أشهر حروب التاريخ .

فكيف يتسنى للمؤرخ أن يعلل هذا التحول المباغت المشئوم ؟

لعل باحثاً يونانياً فى شئون البشر ، يجد سبب هذه الكارثة فى اختلاط جنسه بأجناس أخرى منحطة ، أو فى الشعور بالغطرسة قبل السقطة الأخيرة ، أو بالجنون الذى تنزله الآلهة بمن يودون إهلاكهم . أما الباحث الغربى ؛ فلعله يصدف عن إقحام نفسه فى خضم هذه التفسيرات غير الطبيعية ويؤثر أن يذهب فى بحثه إلى مدى أبعد من ذلك : على صعيد بشرى بحت .

وكان الدافع البشرى لتجدد الصدام ؛ خطأ ارتكبته السياسة الأخيمينية . وجاء هذا الخطأ نتيجة لسوء التقدير مما يتعرض له بناة الإمبراطوريات وقلما يوفقون فى فتوحات مثيرة فى اتساعها وسرعتها ، على سكان أثبتوا أنهم صيد سهل ، بعدما تحطمت روحهم المعنوية نتيجة للمحن المؤلمة التى توالت عليهم . فى ظل هذه الظروف ؛ ينزع بناة الإمبراطوريات إلى

---

[1] (١) يشير المؤلف هنا إلى الحرب البونية الأولى بين قرطاجنة وروما التى دارت خلال السنوات ٢٦٤ – ٢٤١ ق . م . (المترجم)

نسبة توفيقهم كله إلى جرأتهم هم . دون أن يعترفوا بما يدينون به لأولئك الغزاة الذين سبقوهم ومهدوا لهم الأرض ؛ قبل أن يصل بناة الإمبراطورية فى الوقت المناسب ؛ ليجنوا ثمرها الدانى . وهذه الثقة المفرطة التى غذاها هذا الاعتقاد الخاطئ فى أنهم قوم لا يُقهرون ؛ هذه الثقة ، سرعان ما تدفعهم إلى الكارثة ، حين يهاجمون قوماً لم تُحطّم قوتهم بعد . فيفجئون بروحهم العالية وقدرتهم على المقاومة .

تلك هى قصة الكارثة التى نزلت بالبريطانيين فى أفغانستان فى ١٨٣٨ — ١٨٤٥ م . فإنهم بعد أن غزوا ملك المغول المنهار فى الهند ، توسموا فى خفة ونزق ؛ أن سكان الهضبة الإيرانية سيسلمون لهم طوعاً ، كما سلّم لهم من قبل ، سكان شبه القارة الذين حطمتهم المحن التى توالت عليهم طوال خمسمائة عام من السيطرة الأجنبية ، فصرعتهم وأوهنت عزائمهم . وتوّج هذا كله ؛ بما أصابهم من أهوال الفوضى ، التى كابدوها طوال قرن من الزمان .

ومن المحتمل أن كورش قد توهّم بأنه قد ورّث خلفاءه حدوداً شمالية غربية ثابتة ، وذلك حين أتم فتح أملاك ليديا ، بإخضاعه الجماعات اليونانية الأسيوية التى كانت تعترف قبلا بسيادة ليديا . وإن إنذار آبوللو Abollo لقارون «Croesus»[1] مدن ليديا بأنه لو عبر نهر « خالص Halys » فإن دولة كبرى ستتحطم ؛ لعله — أى الإنذار — موجّه إلى كورش نفسه ،

---

(١) قارون : (٥٤٠ ق . م) هو أحد ملوك ليديا . امتدت إمبراطوريته من الشواطىء الجنوبية الشمالية الغربية لآسيا الصغرى على نهر « خالص Halys » شرقا ، وجبال طوروس جنوبا . وما انفك اسمه حتى الآن مضرب الأمثال فى الثراء الفاحش . وقد أم قارون معبد آبوللو فى دلفى لاستشارته فى مسألة تحالفه مع البابليين ضد الفرس . فأنبأه بأنه لو هاجم الفرس ، ستزال إمبراطورية كبرى من الوجود . ولم يعرف قارون أية إمبراطورية تعنيها النبوءة . ثم تبين فيما بعد أنها إمبراطوريته هو . فكان أن هُزم هزيمة منكرة فى موقعة سارديس Sardis عام ٥٤٦ ق . م ؛ وأخذ أسيرا . (المترجم)

دون أن تذهب نبوءته بما تخبئه الأيام إلى مدى أبعد . لأن كورش بغزوه إمبراطورية ليديا ، قد ورّث خلفاءه — عن غير قصد — مشكلة مع العالم الهليني ، ساقت فى نهاية الأمر ، الإمبراطورية الأخيمينية إلى حتفها .

إن كورش بفتحه أراضى ليديا حتى ساحل الأناضول ، قد تخلّص من الحدّ النهري (نهر خالص) الذى كان بينه وبين ليديا ، وكان يضيق به ذرعا . أما دارا ؛ فقد ضاق بهذا الحد البحرى ، بينه وبين البقية الباقية من أراضى هيلاس « المستقلة » . فدبر للتخلص من هذا الحد ؛ باجتياح هيلاس كلها ، وإخضاعها لسيادته ، فكانت العاقبة : سلسلة من الهزائم التاريخية فى « ماراتون ، سلاميس ، ميجالى » ؛ ما برح ورثة اليونان الغربيون يذكرونها فى القرن العشرين كانتصارات تاريخية .

إن « دارا » بإجابته على ثورة رعاياه اليونانيين فى آسيا ، بالتصميم على غزو بنى قرباهم وما لهم من أملاك فى أوروبا ؛ قد أحال سبع سنوات من التمرّد ، إلى حرب ضروس استغرقت واحدا وخمسين عاما (٤٩٩ — ٤٤٩ ق . م) واضطر الأخيمينيون بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، أن يوطّنوا النفس على فقدان ملكهم على الساحل الغربى من الأناضول .

وفى غضون تلك الحقبة نفسها ؛ مُنيت حملة قرطاجنة على الهلينيين فى صقلية ، بكارثة أشد وقعاً على المعتدى . وتلا هذا النصر الذى أحرزه الهلينيون فى البر فى غرب المتوسط ، بنصر آخر أحرزوه فى البحر ، حين هاجم الأترورريون النقطة الأمامية للعالم الهلينى فى كرمائى فى مقاطعة «كامبانيا» على شاطئ إيطاليا الغربى ، إلى الغرب من نابلى بقليل .

ووقف الأمر عند هذا الحد حتى عام ٤٣١ ق . م ؛ وهو التاريخ المنحوس الذى شاهد اندلاع صراع الأخوة بين الهلينى والهلينى ، فى الحرب الأثينية البلوبونيزية . ومن ثم ؛ فإن الحرب التى دارت داخل أحشاء المجتمع الهلينى نفسه ؛ كانت نذيرا بانهياره . ذلك لأنها — ظلت قائمة — باستثناء

فترات هدنة قصيرة – إلى أن أملى فيليب ملك مقدونيا تسوية عام ٣٣٨ ق . م .

وظاهر أن الحرب الأهلية قد لوّحت للقرطاجنيين والأخيمينيين بإغراء – لا يُدفع – للإفادة من هذا الجنون الانتحارى الذى أقدم عليه خصومهم اليونانيون . أما القرطاجنيون فلم يجنوا من استسلامهم لعامل الإغراء سوى القليل . لكن الفرس أصابوا نجاحاً ملحوظاً ؛ وإن لم يُفدهم نجاحهم طويلا . ذلك لأنه كان من بين نتائج صراع الإخوة فى هيلاس ، أن تمرّس الهلينيون فى فنون الحرب . فما أن شرّع قواد الجيوش من المقدونيين والرومانيين الأسلحة الهلينية الجديدة على الأعداء التقليديين للعالم الهلينى ، حتى انهارت الإمبراطوريتان الأخيمينية والقرطاجنية ، وتم اكتساحهما .

وعلى هذا ؛ دخل العدوان السياسى الذى شنّه المجتمع الهلينى على جيرانه ، مجالا أرحب ؛ استعرضناه فى الفصل السابق . لكن ثمة كذلك ميدان على الصعيد الثقافى ، أنجزت فيه الحضارة الهلينية قبل جيل الإسكندر وبعده ، فتوحات ظلت باقية .

فإن أهالى صقلية الذين بذلوا ما وسعهم من الجهد لمقاومة الغزو اليونانى بقوة السلاح ؛ اصطنعوا طواعية – فى نفس الوقت – لغة المعتدين اليونانيين وديانتهم وفنهم . بل إنه حتى فى « المنطقة الممنوعة » الواقعة وراء « الستار الخشبى » الذى أقامه القرطاجنيون – حيث كان يُحال بين أى تاجر هلينى والتوغّل داخلها – دأب القرطاجنيون على استيراد المنتجات اليونانية التى كانت تفتنهم بما لا تفتنهم به أية سلعة ينتجونها هم . على غرار ما فعلته حكومة نابليون الفرنسية – بعد قيامها بمسرحية تحريم التجارة البريطانية بمقتضى مراسيم برلين – من الاحتيال على استيراد الأحذية والمعاطف البريطانية لاستعمال الجيوش النابليونية :

لقد بدأت عملية نشر الثقافة الهلينية بين المقاطعات الغربية من

الإمبراطورية الأخيمينية ، قبل ظهور هذه الإمبراطورية إلى عالم الوجود بزمن طويل . وتم ذلك بفضل إشعاع الثقافة الهلينية من المدن اليونانية فى آسيا عبر مملكة ليديا . ومصداقاً لذلك ؛ صوّر هيرودوت الملك قارون على أنه من مريدى الثقافة الهلينية المتحمسين لها . بيد أن أنجح الفتوحات الثقافية للحضارة اليونانية فى عهد ما قبل الإسكندر ، تمّت بين الأترورين والشعوب الأخرى الغير الهلينية المقيمة على طول ساحل إيطاليا الغربى . فإن الأترورين قد استحالوا — بالتبنّى — إلى هلينيين ، قبلما يطويهم تحت سلطانهم ، بُناة الإمبراطورية من الرومان الذين راحوا — بدورهم — يقتبسون الكثير من مقومات الحضارة الهلينية ، عن طريق غير مباشر — وهو طريق جيرانهم الأترورين .

وطبيعى أن يكون إصطناع روما للحضارة الهلينية ؛ أهم الفتوحات الثقافية التى حققها الهلينيون فى أية مرحلة من مراحل تاريخهم . ذلك لأن الرومان — أيا ما يكون أصلهم — قد اضطلعوا بعمل ثبت أنه كان أبعد عن قدرة المستوطنين الأترورين على الشاطئ الإيطالى الغربى شمال روما ؛ وفوق متناول المستوطنين اليونانيين جنوبيهم على الشاطئ الإيطالى الغربى . كما لا يقدر عليه رواد الهلينية من الماسيليين القاطنين قرب دلتا نهر الرون . وبعد أن انهارت المستعمرات اليونانية فى إيطاليا ، نتيجة للهجمات المضادة التى شنها الأوسكانيون[1] ، وبعد أن انهار الأترووريون نتيجة للهجمات الوحشية المضادة التى شنها عليهم الكلت ؛ راح الرومان يحملون الحضارة الهلينية — بعد صبغها بصيغة لاتينية — عبر جبال الابنين ونهر البو وجبال الألب . ثم غرسوها داخل القارة الأوربية فيما وراء حوض البحر المتوسط : من دلتا الدانوب ، حتى مصاب نهر الراين ، وعبر بوغاز دوفر إلى بريطانيا .

---

(١) الاسكانيون : شعب استوطن إيطاليا قديما (المترجم)

ثالثا – شيلم[1] وقمح :

أدركنا من استعراضنا لمظاهر التلاق ، أن النتائج المثمرة الوحيدة لمظاهر التلاق هذه ؛ تتجلى فى صناعات السلم . كما تبين لنـــا – بمزيد الأسى – أن هذه المبادلات السليمة المبدعة ، نادرة حقا ؛ إذا قورنت بالمنازعات الحمقاء المدمّرة التى تنشأ عادة عند ما تلتحم ثقافتان – أو أكثر – فى صراع ، إحداهما مع الأخرى .

فإذا ما أنعمنا النظر فى ميدان البحث مرة أخرى ؛ لاحظنا أن الاتصال المتبادل بين الحضارتين السندية والصينية ، قد أنتج تبادلا سلمياً بدا مثمراً بقدر ما بدا – للوهلة الأولى – خالياً من آفة القوة . فلقد انتقلت بوذية الماهايانا من العالم السندى إلى العالم الصينى من غير إندلاع حرب بينهما . وكانت البعثات التبشيرية البوذية تنتقل من الهند إلى الصين ، كما يسافر الحجاج البوذيون من الصين إلى الهند سواء عن طريق البحر عبر بوغاز ملقا أو بطريق البر عبر نهر تاريم ؛ وذلك فى الحقبة الممتدة منذ القرن الرابع إلى القرن السابع الميلادى . وكانت حركة التنقل هذه ، إعلاناً عن الاتصال السلمى الذى أنتج هذا الأثر التاريخى . على أننا إذا بحثنا أمر الطريق البرى الذى كان أكثر الطرق استخداماً ؛ لانجد أن الصينيين ولا الهنود – وهم أهل سلام – هم الذين فتحوه ، ولكن فتحه هلينيون – من بختيارى – كانوا رواداً لمجتمع هلينى دخيل على الحضارتين السندية والصينية ، كما شقّه خلفاؤهم المتبربرون الكوشانيون . ورجال الحرب أولئك الذين فتحوا هذا الطريق ؛ فتحوه لأغراض تتصل بالعدوان العسكرى . فاليونانيون شقّوه لقتال

---

(١) شيلم : الاسم العلمى Vicasativa ويعرف عادة بـ « الدحريج » . (المترجم)

إمبراطورية « موريا » السندية ، والكوشانيون لقتال إمبراطورية « الهان » الصينية .

أما إذا كنا بسبيل البحث عن مثال التلاقى المثمر بين المتعاصرين ؛ ثمراً روحياً خالياً من أية صلة بنزاع حربى ، تعين علينا أن نكرّ البصر عائدين إلى الماضى : إلى تاريخ أبعد من عصر الحضارات من الجيل الثانى ؛ إلى وقت سبق إنبعاث الحضارة المصرية فى ثوب جديد نتيجة لصدمة الغزو الهكسوسى : وهو إنبعاث مد فى عمرها — بشكل خارق — بعد أن كانت قد أتمت فعلا دورة حياتها . ففى ذلك العصر المتقدم — الذى يمتد من نهاية القرن الثانى والعشرين وبداية القرن الواحد والعشرين حتى نهاية الثامن عشر وبداية السابع عشر قبل الميلاد ؛ عاشت جنباً إلى جنب ، دولة عالمية مصرية باسم الدولة الوسطى ، ودولة سومرية عالمية باسم دولة سومر وأكّاد . عاشت الدولتان تتبادلان السيطرة على سوريا — وهى الجسر البرى الواقع بينهما — دون أن يقع بينهما ، على حد معرفتنا : صدام مسلّح . على أن هذا الاتصال السلمى البيّن ، كان كذلك مجدباً إجداباً واضحاً . وهذا ما يحتّم علينا أن نذهب إلى وراء ذلك ، لنعثر على ما نبحث عنه .

بيد أنه فى دراسة مثل هذا العصر المبكر من تاريخ الحضارات ، لا تزال المعلومات التى تتجمع من الحفائر الغربية الحديثة ، تترك مؤرخ القرن العشرين يتخبط فى دياجير ظلام التاريخ : ومع هذا التحفّظ ؛ عسانا نستعيد إلى الذهن كشفنا — الذى لا يعدو أن يكون محاولة — وهو أن عبادة إيزيس وأوزيريس التى طفقت تؤدى دوراً حيوياً فى الحياة الروحية عند المصريين ؛ كانت هبّة جاءت من العالم السومرى فى طور إنحلاله . فإن الشخصيتين اللتين تبعثان الأسى فى القلوب ، وتبثّان العزاء فيها كذلك : شخصية الزوجة (أو الأم الحزينة) وشخصية زوجها (أو إبنها المعذّب) ؛ ظهرتا أول ما ظهرتا باسم : عشتار وتمّوز . وإذا كان حقاً أن هذه

العبادة التي كانت بشيرا لجميع الأديان الأخرى العالمية ، قد انتقلت من المجتمع الذى ظهرت فيه لأول مرة إلى أبناء حضارة معاصرة ، دون صراع أو إراقة دماء . فقد حدث ، ما لطّخ التلاقى الذى حدث بعد ذلك بين الحضارات المتعاصرة .

إذا كان هذا حقاً ؛ فعسانا نرى فيه بارقة من الضياء تشق الضباب الذى يخيم على تاريخ تلك الاتصالات التي قامت بين الحضارات ؛ وقد أخذ كل طرف منها بتلابيب الآخر . . . .

الفصل الثانى والثلاثون

مأساة التلاقى بين المتصادمين

---

(١) تسلسل التلاقى

كان هيرودوتس ، هو الذى كشف خلال القرن الخامس قبل الميلاد ؛ عن أن التلاقى بين المجتمعات المتعاصرة لا يتم على إنفراد ، ولكن فى حلقات متسلسلة مترابطة . بمعنى أنه يترتب على الحدث ، حدث آخر . . وهكذا فى سلسلة متتابعة من الأحداث يقفو بعضها بعضا . وقد توصّل إلى كشفه هذا ؛ حين أخذ على نفسه أن يقصّ خبر الصراع الذى نُشب حديثاً بين الإمبراطورية الأخيمينية ودول المدن الهلينية المستقلة فى بلاد اليونان فى أوروبا . وارتأى هيرودوتس — لكى يجعل روايته مفهومة — أن يضعها فى مكانها بين السوابق التاريخية . حتى إذا نُظر إليها من هذه الزاوية ؛ أدرك أن الصراع اليونانى الفارسى ، هو آخر الأحداث فى سلسلة المصادمات من نفس النوع .

فإن ضحية العدوان ؛ لن يقنع بالتزام جانب الدفاع وحده . فإذا أصاب التوفيقَ دفاعه ، راح ينتقل من الدفاع إلى الهجوم المضاد . ولا ريب أن الفصول الأولى من الرواية التى أوردها هيرودوتس ، تبدو للقارئ الحديث المعقّد ؛ أبعث على التسلية ، منها على الدلالة . ذلك لأن حبكة تلك الفصول ، تدور حول سلسلة متعاقبة من أفعال الاغتصاب لشابات من ذوات الفتنة الطاغية . وقد بدأ الفينيقيون النزاع (وهو ما ينتظره المرء من

مصدر هليني) باغتصابهم « إيو Io »[1] الهلينية ، فيأخذ الهلينيون بثأرهم باغتصاب « يوربا Europa »[2] الفينيقية . واغتصب الهلينيون بعد ذلك « ميديا »[3] أخت ملك «كولتشيس» . واغتصب أهل طروادة هيلين اليونانية ، فثار الهلينيون لكرامتهم وحاصروا طروادة .

إن هذا كله حُمق فى حُمق . « فمن الواضح أن هؤلاء النسوة ماكُنَّ ليُغْتَصَبْن لو لم تكن لديهن الرغبة فى ذلك » ؛ ولا بد أن باريس[4] قد أخفق فى إعادة هيلين إلى وطنها . وظاهر كذلك أن الطرواديين كانوا يؤثرون تسليمها ، لو كانوا فى مركز يتيح لهم ذلك ؛ على أن يكابدوا حصارا دام عشر سنوات . وعلى أية حال ؛ فإنه لما أضرم اليونانيون حرب طروادة ، أخذ آريس[5] مكان إفروديت ربة الحب والجمال ، بوصفها طليعة الآلهة . فهكذا على الأقل ؛ تنبعث الأساطير من التحقيق المنطقى الجاف الذى هو أحد خصائص هيرودوت . ومهما يكن مبلغ شكنا فى سلسلة هذه

---

(١) إيو Io : فى الأساطير اليونانية – كاهنة الربة « هيرا » زوجة زيوس كبير أرباب الأوليمب . أحبها زيوس ، فكان أن حقدت عليها زوجته وطاردتها مطاردة عنيفة ، انتهت بها إلى اللجوء إلى مصر . (المترجم)

(٢) يوربا Europa . فى الأساطير اليونانية أخت فونيكس ملك فينيقيا . أحبها زيوس فتقمص فى شكل ثور وحملها بعيدا إلى كريت حيث حملت منه بمينوس أول ملوك حضارة كريت المينووية . (المترجم)

(٣) ميديا : فى الأساطير اليونانية كانت أخت ملك كولتشيس (مملكة من ممالك القوقاز القديمة) هربت مع « ياسون » اليونانى وقت قدومه إلى القوقاز بحثا عن كنز ، وقتلت أحد إخوتها . ثم قتلت زوجها بعد ذلك بدافع الغيرة ، وعادت إلى بلادها حيث أعادت أباها إلى عرشه الذى كان قد اغتصبه منه أحد أبنائه . (المترجم)

(٤) باريس : فى الأساطير اليونانية – ابن ملك طروادة وهو الذى اختطف هلين . (المترجم)

(٥) آريس : فى الأساطير اليونانية – رب الحرب وكان ابن زيوس كبير أرباب آلهة الأوليمب من زوجته هيرا . أحب أفروديت إلهة الحب والجمال وتزوجها . وقد جُرح فى حرب طروادة وأخذ أسيرا . (المترجم)

الاغتصابات ، فلا جدال فى أن هيرودوتس قد أظهر إدراكا عميقا ، حين اعتبر التلاقى بين اليونان والفينيقيين فصلا مبكرا فى السلسلة التى تضمنت الحرب بين اليونان والفُرس .

ولسنا بحاجة هنا إلى أن نستعيد هذا التسلسل حتى إندلاع الحروب الفارسية ؛ بل سنمضى قُدُماً فى تتبع سلسلة الهجمات – والهجمات المضادة – طوال العصور التالية لعصر هيرودوتس ؛ وننظر إلى أين تقودنا هذه السلسلة .

لم تكن الهزيمة المثيرة التى لقيتها الغزوات الفارسية لبلاد اليونان ، إلا الحلقة الأولى من الجزاء الذى أنزله هذا العمل العدوانى على رؤوس مرتكبيه . وتمثّلت النقمة النهائية فى قرار فيليب المقدونى القاضى بغزو الإمبراطورية الأخيمينية نفسها ؛ وكان الإسكندر الأكبر هو الذى افتتح الفصل الأول من هذه الرواية الجديدة . وبقدر ما وفّق الإسكندر توفيقاً مُثيراً فى تنفيذ وصية والده السياسية ؛ فشل إجزرسيس Xerixes فشلا مريعا فى تنفيذ وصية والده دارا Darius .

وعلى أنقاض الإمبراطورية الأخيمينية التى دمّرها الإسكندر فى القرن الرابع قبل الميلاد ، ومُلك قرطاجنة الذى دمّرته روما فى القرن الثالث قبل الميلاد ، شيّد المجتمع الهلينى سلطانا له على جيرانه ، تجاوز إلى حدّ بعيد ، أقصى أحلام الطموح التى راودت المغامرين الهلينيين الذين أبحروا تجارا إلى طرسوس ، أو جنودا مرتزقة فى مصر أو بابل . لكن العدوان الهلينى ، اندفع بعد وفاة الإسكندر اندفاعا يُنذر بالشر ؛ فاستثار رد فعل من جانب ضحاياه الشرقيين . وعلى مرّ الأيام ؛ وفّق رد الفعل هذا فى نهاية المطاف فى إسترجاع توازن ، كان قد طال أمده فى جانب الهلينيين . حدث هذا التوازن ؛ وقتما وفّق العرب المسلمون البدائيون فى نقض ما أنجزه الإسكندر بعد انقضاء ألف سنة من عبوره الدردنيل . إن العرب بفضل سلسلة حملات خاطفة كالبرق ، قد حرروا الأراضى التى كانت جزءا من

العالم السورى وقتا ما ؛ وتمتد من سورية حتى أسبانيا . وكانت تلك الأراضى حتى بداية القرن السابع الميلادى ، ما تزال تحت حكم الإمبراطورية الرومانية أو خليفتها دولة القوط الغربيين .

ولعل إعادة تشييد دولة عالمية سورية فى شكل خلافة عربية ، انتظمت الأملاك السابقة لكل من الإمبراطوريتين الأخيمينية والقرطاجنية ؛ كان بشيراً بإنهاء هذه السلسلة من التلاقى . على أن من سوء الطالع ؛ أن العرب الذين أخذوا بثأر المجتمع السورى الذى كان وقتا ما ضحية العدوان الهلينى ، لم يقنعوا بتجريد المعتدى من الأراضى التى إنتهكت حرماتها . لأن العرب ارتكبوا نفس الخطأ الذى ارتكبه دارا . حين تحولوا إلى الهجوم المضاد ، دون أن يجدوا لأنفسهم عذرا فى الوقوف عند حدود لا يمكن الدفاع عنها ؛ فيصبح لا مناص فى تحطيمها ، إذا لم يتيسر الارتداد عنها . فحقا ؛ عبر العرب الحدود الطبيعية عند جبال طوروس فى طريقهم لحصار القسطنطينية فى ٧/٦٧٣ ، ثم فى عام ٧١٧ م ، وعبروا الحدود الطبيعية عند جبال البرانس عام ٧٣٢ م لغزو فرنسا . كما اقتحموا فى القرن التالى : الحدود البحرية الطبيعية ، وتقدموا لغزو كريت وصقلية وآبوليا ، وإقامة رؤوس جسور على ساحل البحر المتوسط تبدأ من نهر الرون حتى نهر « جارليانو "Garigliano"[1] . إن هذه الاعتداءات الجسورة ، قد تعرضت للنقمة فى الوقت المناسب .

إذ ألهبت إعتداءات المسلمين خلال القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ؛ الطاقات المتفجرة لمسيحية الغرب فى القرون الوسطى . وعبرت هذه الطاقات عن نفسها فى الحروب الصليبية . وهذه بدورها قد استثارت ما كان متوقعا من رد فعل مضاد من جانب ضحاياها . فإن جهود صلاح الدين وغيره

(١) نهر جارليانو : نهر فى جنوب إيطاليا ، يصب فى البحر الأبيض المتوسط . (المترجم)

من أبطال الإسلام ـ من قبل ومن بعد ـ قد طردت الفرنجة الصليبيين من سورية . وأتم العثمانيون ما عجز عن إتمامه المسيحيون الأرثوذكس من طرد الفرنجة الصليبيين من « رومانيا »[١] ، بالمثل . وعندما أنجز الإمبراطور العثمانى محمد الثانى الفاتح (حكم ١٤٥١ ـ ١٤٨١) صنيع عمره وهو تزويد العالم اليونانى الأرثوذكسى المتحلل بدولة عالمية فى صورة إسلامية ؛ أتاح عمله هذا فرصة أخرى لوضع حد للصراع ، عند نقطة يتوافر عندها التوازن . لكن العثمانيين ، أعرضوا عنها .

وكما اعتدى العرب المسلمون ـ بلا مبرر ـ على بلاد المسيحية الغربية فى فرنسا وإيطاليا وغيرهما ، خلال القرنين الثامن والتاسع الميلاديين (فاستثاروا بذلك فى العصر الوسيط هجوما غربيا مضاداً اتخذ شكل حملات صليبية ، وإن كان قد أخفق فى النهاية ؛ كذلك اقتحم الاتراك المسلمون ـ بلا مبرر ـ بلاد المسيحية الغربية مندفعين على طول الدانوب إلى معاقل الغرب . وفى هذه المرة ؛ اتخذ رد الفعل الغربى ، شكلا أكثر أصالة وأوخم عاقبة .

وحقاً ؛ كان طىّ العالم المسيحى الغربى بين طرفى الهلال العثمانى ، قد بلغ من التوفيق حداً دفع الغربيين إلى تعويض خسائرهم فى البحر المتوسط الذى أقفل فى وجوههم بتسخير طاقاتهم مرة أخرى فى الإقلاع لغزو المحيط ؛ الأمر الذى جعل منهم بعد ذلك سادة على العالم . وإن إستجابة الغرب الناجحة هذه ـ لكن نجاحاً غير ثابت ـ لتبدو لمراقب يقف عند منتصف القرن العشرين وهى تحمل بين طياتها رد فعل مضاد ؛ أو ربما ، جملة من ردود الفعل المضادة .

---

(١) يقصد بها الأستاذ المؤلف : أراضى الدولة الرومانية الشرقية وكانت عاصمتها القسطنطينية . (المترجم)

لقد جئنا عن طريق طويل بدأ باغتصاب « إيو Io » و « يوروبا Europa » ، ولم تلح النهاية فى الأفق بعد .

(٢) تباين الاستجابات

إن عرضنا للتلاقى — أو بعبارة أوضح — لسلسلة التلاقى التى اتخذناها تفسيراً لهذا النوع من السياق ؛ يوحى بأنه فى كل تلاقٍ لا محيص عن وجود معتد فى ناحية ، يقابله فى الناحية الأخرى ، ضحية للعدوان . على أنه لما كانت هذه المصطلحات تنطوى على حكم أخلاقى ؛ يكون من الأفضل أن نستخدم مصطلحين محايدين معنويين : الفاعل والراكس[١] . أو باستخدام مصطلحين ألفناهما فى مستهل هذه الدراسة : الجانب الذى يتحدى ، والجانب الذى يستجيب للتحدى . وإن غايتنا الآن أن ننظر فى أنواع رد الفعل — أو الاستجابة — التى استثُيرت فى مجتمعات واجهت التحدى ، وأن نبوّب هذه الأنواع .

ومن المفهوم بالطبع ؛ أن العدوان الذى يقوم به الفاعل الأصلى ، قد يكون من العنف بحيث يترتب عليه إخضاع الطرف المعتدى عليه أو استئصاله ؛ دون أن يبذل أية مقاومة فعّالة . هذا كان بلا شك مصير كثير من المجتمعات البدائية التى ساقها سوء طالعها إلى ملاقاة الحضارات . إنها قد اندرست مثلما اندرس طائر الـ « دودو dodo »[٢] مع وصول الإنسان الغربى الحديث إلى جزائر موريس Mauritius . وتحايلت مجتمعات أخرى — أكثر أو أقل حظاً — على مد أجلها بشكل غير ملحوظ ؛ مما جعلها موضع اهتمام علماء الأنثروبولوجيا[٣] .

---

(١) الراكس : ما يُحدث رد فعل أو رَكس . (المترجم)

(٢) دودو : طائر كبير اسمه العلمى didius ineptius . يشبه الحمام وبه آثار أجنحة مندرسة . كان يوجد فى جزائر موريس بالمحيط الهندى بأعداد وفيرة ، ثم انقرض . (المترجم)

(٣) علم دراسة الإنسان ، بأوسع المعانى . فهو يتناول دراسة الإنسان أو البشرية من نواحى : الجسم ، الذهن ، التطور ، العنصر ، البيئة . (المترجم)

على أن الحضارات هي محور إهتمامنا . وقد رأينا فعلا ؛ ما يدعو إلى الارتياب فيما إذا كانت أية حضارة قد كابدت هذا المصير : حتى ولو كانت من الحضارات الهشّة ، كحضارات أميركا الوسطى والآندية ، التي تحطمت ولن تُستعاد كرة أخرى . فإنها بعد بقائها فترة طويلة ــ في حياة هي والعدم سواء ــ قد تنبعث كرة أخرى : كما انبعث المجتمع السورى واستأنف قصة حياته بعد ألف سنة من عمره تحت كابوس المجتمع الهليني .

وباستعراضنا النماذج البديلة لرد فعل لحضارة ، معتدى عليها ؛ سنبدأ بتلك النماذج التي هي ردود من نفس النوع ، للفعل الذى أثارها . وتعتبر مقابلة القوة بالقوة ؛ أوضح الأشكال للرد الذى يكون من نفس النوع . مثال ذلك ؛ أن الهنود والمسيحيين الأرثوذكس الذين كانوا ضحايا عدوان العسكرية الإيرانية المسلمة ، قد ردوا على ذلك بأن استحالوا هم إلى مقاتلين . وكان هذا أيضاً ؛ الرد الذى رد به السيخ والماهراتا على سلاطين المغول ؛ ورد الوطنيين من اليونانيين والعرب على العثمانيين . ويحفل التاريخ بأمثلة ردّ فيها فريق ضعيف لا حول له ولا قوة ــ رداً من نفس النوع ــ وذلك بإتقانه الأسلوب الحربي الفني للفريق المعتدى عليه . وقد قيل إن القيصر الروسى بطرس الأكبر قد علّق عقب هزيمة شنيعة في موقعة نارفا Narva على يدى شارل الثانى عشر ملك السويد بقوله « إن هذا الرجل سيلقننا كيف نغلبه » وسواء أكان قد تفوّه حقاً بمثل هذه الكلمات أم لم يذكرها ، فليس هذا بالأمر المهم . إذ تتحدث الوقائع عن نفسها ؛ فتقرر بأن شارل قد علّم وأن بطرس قد تعلّم ، وأن شارل قد هُزم .

وقد انطلق الشيوعيون خلفاء النظام القيصرى خطوة أبعد . فإنهم لم يقتنعوا بامتلاك ناصية الأساليب الفنية في الصناعة والحرب للدول مثل ألمانيا التي كانت عدوة للروس قبل الحرب العالمية الثانية ، وللولايات المتحدة غريمتها بعد هذه الحرب . بل إن الشيوعيين الروس قد ابتدعوا طرازاً جديداً من النزّال ، استعاضوا به عن أسلوب القتال القديم القائم على استخدام

القوة المادية ؛ بصراع روحى ، نصبح فيه الدعاية « الأيدلوجية » هى السلاح الرئيسى ، والحق إن الدعاية التى اصطنعتها الشيوعية كسلاح جديد فى حلبة السياسات الدولية ، لم يكن من صنعها تماما : فقد اصطنعه قبلها المبشرون بالأديان العُليا ؛ ثم لاءمها مجتمع المال والأعمال فى الغرب الحديث ، لتفى بأغراض المعاملات التجارية .

وإذا لم يكن فى وسع الدعاية الشيوعية أن تدخل تحسينا ذا بال على أساليب الإعلان التجارية فى الغرب المعاصر ، ومجاراتها فى سخائها فى الانفاق على الدعاية التجارية ، وكدّها الدائب بحثا عن الأسواق ؛ فقد استهدفت الدعاية الشيوعية وحققت بالفعل نتائج مختلفة عن أسلوب الدعاية التجارية ، وأعظم منها أهمية . ذلك لأنها أظهرت قدرتها على أن تبعث حماسة طال خمودها فى نفوس قوم من الغرب ، ظمئت أرواحهم ، فهفت إلى الغذاء الذى لا يستطيع المرء أن يحيا بدونه . فراحت — من ثم — تلتهم « الكلمة » التى قدمتها لها الشيوعية ، دون أن تستأنى للتساؤل عما إذا كانت هذه الكلمة هى كلمة الرب أو كلمة « المسيخ الدجال » . إن الشيوعية قد دعت الإنسان الحديث إلى أن يخلّص نفسه من حنين — تعتبره هى حنينا طفوليا — إلى مدينة فاضلة خيالية — مُنشِئه — تقوم فى العالم الآخر . وذلك — كما تقرر — بأن يحوّل الإنسان ولاءه ، من إله غير كائن ، إلى جنس بشرى قائم بالفعل ، يستطيع أن يكرّس له جهوده ؛ وذلك بالدأب على العمل لتحقيق فردوس على الأرض .

إن « الحرب الباردة » هى فى الواقع استجابة على الصعيد الدعائى لتحدٍ على صعيد الأسلحة المادية . بيد أنها لم تكن أول استجابة غير عسكرية أثارها التحدى العسكرى ذى الطراز القديم .

إن الاستجابة الروحية لروسيا الشيوعية ، أصبحت أقل تأثيرا روحانيا على رجل الغرب ، إذا ما ذَكّر نفسه — إن احتاج إلى مُذكّر — بأن

هذه الدعاية الأيدلوجية لم تكن إلا أحد أسلحة فعّالة من مستودع سلاح، تمتلكه دولة إمبريالية ، تسلّحت بالفعل من إخمص قدميها حتى رأسها ، بأسلحة من القوة المادية .

ونتنقل إلى حالات استُبعدت فيها تماما مقابلة القوة بالقوة :

ومن الخطأ رد هذا الإجراء أيضا إلى تسام معنوى . ففى مثل هذه الحالات ، غالبا ما يُنسب العدول عن مواجهة القوة بالقوة ، إلى عجز أحد الطرفين عن إستخدام قدر معادل من القوة ، أو إلى أنه قد استخدم القوة فعلا ، ولكنه أخفق .

وثمة مثال صارخ لاستجابة سلمية لتحد عسكرى ، نجده فى تطويق المجتمع السورى للعالم البابلى خلال العصر الأخيمينى . وجاء هذا التطويق نتيجة للتحوّل الثقافى للمتبربرين الإيرانيين الذين غدوا حكاما لدولة عالمية . فإن المبشرين بالثقافة السورية الذين تغلّبوا على غُزاتهم البابليين فى خلب ألباب الإيرانيين ، لم يكونوا مغامرين عسكريين ، ولا تجارا مقامرين . بل كانوا مجرّد « أشخاص مُبعدين ، رحّلهم القواد الأشوريون أو البابليون ليحولوا بينهم وبين إستعادة القوة السياسية والعسكرية لدولتهم سواء فى « إسرائيل » أو « اليهودية » . وقد ثبت نجاح الغزاة الأشوريين والبابليين فى تقديرهم هذا . ولكن أمكن ضحاياهم — مع ذلك — أن ينتزعوا المبادأة فى نهاية المطاف من أيدى مضطهديهم . وكانت غفلة الطغاة تامة ، إلى درجة أنه لم يدر فى خلدهم إحتمال أن يثأر المغلوبون فى الميدان الثقافى لما أصابهم . بل إنهم لم يُدركوا أنهم بأيديهم هم ، قد جعلوا من ضحايا عدوانهم دُعاة ثقافة ، وهو ميدان ما كان ليتأتى لهؤلاء المشرّدين بأية حال من الأحوال ، أن يرتادوه ، لو لم يُوطّنوا فيه رغما عن أنوفهم .

وإذا كانت الجماعة السورية المشتّتة قد بذلت طاقاتها لتطبع تأثيرها

الثقافى فى أذهان الشعوب الأجنبية التى انتشرت بين ظهرانيها ، فقد كان يدفعها لذلك ، الحرص على الاحتفاظ بكيانها كجماعة قائمة بذاتها . وفى تاريخ اليهود وغيرهم من الأقوام الذين إقتُلِعوا من ديارهم ؛ اتجه هـذا الحرص على البقاء ناحية مختلفة تماماً ، وهى الاعتزال بأنفسهم .

ويعتبر الانعزال الذاتى ، ضربا من ردّ الفعل الذى يسلك طريقا على صعيد يختلف عن الفعل الذى أثار ردّ الفعل . وتتبدى سياسة « الاعتزال » هذه فى أبسط صورها حين يمارسها مجتمع يقطن أرضاً بعيدة المنال . فعلى هذا النحو ؛ كان رد الفعل الذى قام به المجتمع اليابانى الجزرى على الدخلاء البرتغاليين ، خلال تلاقيه الأول مع الغرب ؛ قبل أن يدخل مرحلة التصنع . وفى ذلك العصر أيضاً ؛ نجح الأحباش فى إصطناع نفس الاستجابة لتحدّى هؤلاء الدخلاء البرتغاليين أنفسهم . وكذلك هيأت هضبة التيبت معقلا لا يكاد يبلغه أحد ، تحصّنت فيه عقيدة دينية ماهايانية فى أسلوبها التانتارى Tantara[1] ؛ وهى بقية متحجرة من مجتمع سندى بائد[2] .

وما كان لأى نجاح حققه هذا الاعتزال المادى ـ الذى عاونته عوامل جغرافية معينة ـ أن يعدل من ناحية الأهميـة التاريخية « الاعتزال السيكلوجى » الذى ردّت به الجماعات المشتّتة على نفس التهديد الذى

---

(١) الماهايانية : مذهب بوذى تعتنقه بلاد شمال شرق آسيا . والتانتارى من كلمة تانتارا Tantara وتعنى بالسانسكريتية « الخيط » . وهى عبارة عن مراجع دينية تبحث فى قوى السحر الخفية . وهذه المراجع هى أساس المذهب الماهايانى فى الصورة التى يعتنقها أهالى التيبت . (المترجم)

(٢) استولت قوات الجمهورية الصينية الشعبية أخيرا على التيبت فأصبحت جزءا منها . وترتب على ذلك زوال عزلة هضبة التيبت السياسية والاقتصادية والثقافية . (المترجم)

تعرّض له بقاؤها . ذلك لأن الجماعة المشتتة ، كان عليها أن تواجه هذا التهديد ، فى ظروف جغرافية ؛ أبعد من أن تكون عونا لهذه الجماعة المشتّتة . بل كانت تضعها تحت رحمة جيرانها .

والاعتزال على هذا النحو ، إجراء سلبي محض ؛ وحيثما قيّض له أى قدر من النجاح ؛ يكون عادة مصحوبا بردود فعل أخرى ، ذات طابع أكثر إيجابية . فى حياة الجماعة المشتّتة ، يبدو الاعتزال السيكلوجى أمراً مستحيلا ، ما لم يعمد من يمارسونه إلى أن يُبرزوا فى الوقت نفسه — على الصعيد الاقتصادى — كفاية خاصة فى استغلال الفرص الاقتصادية التى تُركت مباحة لهم . وتلجأ الجماعة المشتّتة إلى تدبيرين رئيسين هما : قدرة شيطانية فى التخصص الاقتصادى ، والتزام دقيق لكل ما جاءت به شرائعهم التقليدية . وهذان الأمران تصطنعهما الجماعة المشتتة كبديلين لشيئين لا سبيل إليهما وهما ؛ حدود منيعة أو جرأة عسكرية .

أما الرد على القوة بدفعها على صعيد ثقافى ؛ فقد لجأت إليه أيضا مجتمعات كابدت ضغط قوة أصيلة ، ولكنها تماسكت فلم تتحول إلى شعب مشرّد . مثال ذلك أن رعية العثمانيين من المسيحيين الأرثوذكس ، ورعية السلطان المغولى من الهنود ؛ قد وُفّقوا فى التغلّب على « السيف » بضربة مضادة من « القلم » ؛ واستنام المسلمون غزاة الهند وبلاد المسيحية الأرثوذكسية ، لسراب انتصاراتهم العسكرية الماضية ؛ فعميت عيونهم عن رؤية حقائق الفصل التالى من تاريخهم حين انقسمت مملكتهم وتوزعت بين أيدى الفرنجة . أما الرعية ؛ فقد حزرت انتصارات الغرب القادمة وكيّفت نفسها للنظام الجديد .

بيد أن جميع هذه الاستجابات السلمية لتحدّى البطش التى عرضنا لها ؛ لا تُقاس بطبيعة الحال إلى جانب الاستجابة السلمية الإيجابية الرائعة ، وهى

إقامة دين سام : فإن ضغط المجتمع الهلينى على المجتمعات الشرقية المعاصرة له ؛ إنبعثت عنه إجابة من ذلك النوع ، تبلورت فى ظهور عقائد : سيبيل Cybele(١) وإيزيس(٢) وميترا(٣) والمسيحية وبوذية المهايانا : كما ترتب على الضغط العسكرى الذى قام به المجتمع البابلى على المجتمع السورى ؛ ظهور اليهودية ، والزرادشتية .

على أن هذا الطّراز من الاستجابة ذات الصيغة الدينية ، يتجاوز حدود بحثنا الحالى ، إلى مجال البحث فى الطرائق المختلفة التى قد تستخدمها حضارة ما فى الاستجابة لتحد تقوم به حضارة أخرى . ذلك لأنه إذا ما هيأ التلاقى بين حضارتين ، فرصة الظهور لدين من الأديان العُليا ، فإن دخول هـــذا العامل الجديد على مسرح الأحداث ؛ يعنى بداية مسرحية جديدة بممثلين آخرين وحبكة أخرى :

---

(١) سيبيل Cybele : كانت عبادتها شائعة فى كثير من أنحاء آسيا الغربية . وهى فى الأساطير اليونانية أم طائفة من الأرباب : زيوس ، بوسيديون ، هيدس . ولذلك كانت تعبد على أنها أم الآلهة . وكانت تعتبر فى آسيا الصغرى إلهة الطبيعة أو أم العالم . وكانت عباتها مصحوبة بطقوس وحشية . ودخلت عبادة سيبيل عام ٢٠٤ ق . م حيث توحدت مع الربة اليونانية أوبس Ops (الوفرة) والدة جوبيتر . (المترجم)

(٢) إيزيس : ربة الخصب والنماء عند قدماء المصريين . زوجة أوزيريس ووالدة حوريس . وتعتبر قصة وفائها لزوجها من أجمل وأبدع مآسى الأساطير القديمة . وقد دخلت أسطورتها – فى شكل أو فى آخر – فى كثير من العقائد الدينية . (المترجم)

(٣) ميترا : رب الضياء عند الآريين . وقد جعلت منه العقيدة الزرادشتية إبان ظهورها حاميا لـ « اهورمازدا » إله الخير فى صراعه الأبدى ضد « أهريمان » إله الخير . وقد اتحدت عبادة ميترا فى عهد متأخر مع عبادة الشمس . ودخلت عبادته روما عام ٦٨ ق . م وانتشرت بين الرومانيين على نطاق واسع . وأخيرا اندرست عبادة ميترا فى القرن الرابع الميلادى بفعل انتشار المسيحية . (المترجم)

الفصل الثالث والثلاثون

نتائج التلاقى بين المتعاصرين

(١) أعقاب الاعتداءات الفاشلة

إن التلاقى بين حضارتين متعاصرتين ؛ كفيل بأن يحدث إزعاجا لهما جميعاً ، حتى ولو حدث هذا التلاقى فى أكثر الظروف ملاءمة . كما يحدث حين توفق حضارة ما — فى طور إكتمالها — فى درء عدوان شنته عليها حضارة أخرى . والمثال التقليدى لهذه الحال ؛ هو التأثير الذى أحدثه فى المجتمع الهلينى ، نجاح ذلك المجتمع فى صـــدّ هجوم الإمبراطورية الأخيمينية عليه .

وأول نتيجة اجتماعية ملموسة لهذا الانتصار بالإبداع العسكرى ، تزويد الحضارة الهلينية بحافز استجابت له . فكان أن تفجّرت طاقات الإبداع فى شتى ميادين النشاط . بيد أنه لم تمض خمسون سنة على ذلك ، حتى بلغت العواقب السياسية لهذه الاستجابة نفسها ، ذروتها فى شكل كارثة نزلت باليونان وأخفقت فى تجنبها فى بداية الأمر ؛ ثم عجزت عن استجماع نشاطها السابق . إلا أن أصول تلك الكارثة السياسية التى نزلت باليونان فى الحقبة التالية لمعركة سلاميس Salamis[1] ؛ كانت هى بالذات حوافز حركة البعث الباهرة التى شهدتها أثينا ؛ والتى تفجّرت منها فى العصر التالى لهذه المعركة روائع الثقافة الهلينية .

---

(١) سلاميس : جزيرة من جزائر اليونان القديمة مساحتها ٣٦ ميلا مربعاً . وكانت تتبع دولة آتيكا (وعاصمتها أثينا) . (المترجم)

ولقد لاحظنا فى مكان آخر من هذه الدراسة ، أن هيلاس (اليونان) قد حققت خلال العصر السابق لاندلاع الحرب الفارسية الكبرى ، ثورة اقتصادية استطاعت بفضلها أن تُقيم أود السكان الذين كان عددهم مطّرد الزيادة ، فى نطاق أرض لم تعد قابلة للتوسّع . وتم ذلك عن طريق إحلال نظام اقتصادى جديد يقوم على التخصص والتكافل ؛ محل نظام عتيق كانت فيه كل مدينة دولة هيلينية وحدة اقتصادية قائمة بذاتها . وانعقد لأثينا لواء الزعامة فى هذه الثورة الاقتصادية ؛ فلعبت فيها دوراً حاسما . ولكن ما كان لهذا النظام الاقتصادى الجديد أن يبقى ، إن لم تتيسر صيانته داخل إطار من تنظيم سياسى جديد يتمشى وذلك التنظيم الاقتصادى المبتكر . وهكذا ما وافى القرن السادس قبل الميلاد على نهايته ؛ حتى غدا تحقيق شكل من أشكال الوحدة السياسية ، أمسّ حاجة عاجلة يواجهها العالم الهلينى . ولاح فى الأفق كما لو أن أسبرطه على عهد تشيلون Chilon[١] وكليومينيس Cleomenes[٢] ، هى القادرة على بلوغ الحل المنشودة ؛ وليست أثينا صولون Solon[٣] وبسيستراتوس Peisistratus[٤] .

لكن حدث ــ لسوء الحظ ــ أن اسبرطة تخلت لأثينا أمر مواجهة الأزمة التى واجهها اليونان على أثر القرار المدمر الذى اتخذه دارا ببسط الحكم الأخيمينى على أرض اليونان فى أوروبا ، أسوة بأرضها فى آسيا . فكان أن تزعمت أثينا الموقف وقامت بدور

---

(١) تشيلون : أحد الحكماء السبعة المشهورين فى اليونان القديمة . عاش تقريباً خلال الفترة ٦٢٠ – ٥٥٠ ق م . ويعزى إليه القول المأثور « إعرف نفسك » . يقال إنه مات من شدة فرحه بفوز ولده بإحدى جوائز الألعاب الأثيمية . (المترجم)

(٢) كليو مينيس الأول (٥٢٠ – ٣٩١) : ملك اسبرطة . (المترجم)

(٣) صولون : ٦٣٨ – ٥٥٨ ق . م : مشرّع أثينا المشهور . وأهم نقطة فى تشريعه ، تقسيمه المواطنين وفقا لمساحة ملكياتهم الزراعية . وكان يبتغى من وراء ذلك إيجاد طبقة أوليجاركية تحترف الحكم . وقد زار مصر وتأثر بمشاهداته ودراساته .

(٤) بسيستراتوس (حوالى ٦١٢ – ٥٢٧) سياسى أثينى . (المترجم)

الفتى الأول على مسرح الأحداث : ونجم عن هذا أن هيلاس (اليونان) وهى تهفو إلى الخلاص من ضائقتها عن طريق الوحدة ، ابتُليت بمنقذين اثنين متنافسين ، تكاد تتعادل قوتهما : فكانت الحرب الأثينية البلوبونيزية ، حاصل التنافس بينهما وعُقبى ما تلاها من أحداث :

كذلك كان هذا التحوّل السياسى ، المصير الذى حلّ بالمسيحية الأرثوذكسية خليفة العالم الهلينى . وقد داهمها فى أعقاب انتصارها الأشد إثارة للعجب — وفى لحظة هذا الانتصار — على مجتمع سورى ، استعاد تكوينه . وتفسير ذلك ، أنه غداة انتصار المسيحية الأرثوذكسية على محاولة العرب الاستيلاء على القسطنطينية (٦٧٣ — ٧ م) ، كانت المسيحية الأرثوذكسية على شفا الإقدام على الإنتحار . حدث هذا ، وقتما هدد فيلقان عسكريان — أحدهما أناضولى والآخر أرمنى — بالاشتباك معا فى صراع على السلطان . ولم تنقذ الموقف سوى عبقرية الإمبراطورين ليو الثالث وولده قسطنطين الخامس اللذين استمالا الفيلقين المتنافسين إلى تصفية نزاعهما على أساس الإندماج معا فى إمبراطورية رومانية شرقية موحّدة . ولم يستطع أحد من الفريقين المتنازعين أن يقاوم ولاءه لها ، حين قدّمت نفسها ، كما لو كانت روما بُعثت من الأجداث .

على أن هذا البعث لشبح ، ليس وسيلة تكفل الخلاص المنشود ، وسيلة تتحقق دون أن تنال جزاءها . ذلك لأن الإمبراطور سيروس ، بتحميله المجتمع المسيحى الأرثوذكسى الوليد الأعباء التى يفرضها حكم دولة مطلقة السلطان ، قد تسبب فى أن يتخذ التقدم السياسى لهذا المجتمع ، وجهة غير موفقة أردته على طول المدى .

والآن ، إذا ما التقطنا أمثلة لما يحدث فى التاريخ فى أعقاب إعتداءات فاشلة ، سنجد أن الاستجابات اللاحقة تدلل — بالأحرى — على شدة مراسها :

فلقد انتهى الأمر بالحيثيين ـ مثلا ـ إلى حالة من الضعف ميئوس من علاجها ؛ نتيجة لإنهاك قواهم خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد فى محاولة فاشلة لفتح أملاك مصر فى آسيا . ثم غمرتهم بعد ذلك موجة من هجرات الشعوب التى اندفعت بعد انهيار المجتمع المينووى . ومن ثم ؛ لم يستطع الحيثيون البقاء إلا فى رُكام من الجماعات المتحجّرة على جانبى جبال طوروس .

واتخذت عواقب العدوان العقيم الذى شنّه يونانيو صقلية على منافسيهم الفينقيين والأترورين ، مظهراً أخف . إذ أصيبوا بشلل سياسى ، وإن لم يُعجزهم عن متابعة إبداعهم الفنى والثقافى .

(٢) فى أعقاب الإعتداءات الناجحة

(أ) تأثيرات تصيب الكيان الاجتماعى

لاحظنا فى مكان سابق من هذه الدراسة ، أنه حين يحدث التلاقى بين دولتين متعاصرتين ، وينجم عن ضغط الدولة المعتدية تغلغل إشعاعاتها الثقافية فى كيان الدولة المعتدى عليها ؛ يثبت ـ عادة ـ أن الفريقين المتلاقيين كانا يجتازاه ـ فعلا ـ مرحلة تحلل .

ولاحظنا كذلك ، أن أحد مقومات هذا التحلل ، هو إنشقاق الكيان الاجتماعى إلى :

١ ـ أقلية لا همّ لها إلا السيطرة ، لا الإبداع .

٢ ـ جماهير من الدهماء (بروليتاريا) تحوّلت عن الولاء لزعمائها السابقين ، بعد أن غدوا مجرد « سادة » .

وهذا الإنشقاق الاجتماعى ؛ غالبا ما يحدث فعلا فى الكيان الاجتماعى

لمجتمع يوفّق فى بث إشعاعاته الثقافية فى الكيان الاجتماعى لأحد المجتمعات المجاورة له . والظاهرة الاجتماعية التى هى أبرز نتائج ذلك التوفيق المشئوم — غير المرغوب فيه غالبا — هى تضخيم للمشكلة التى يثيرها نفور جماهير الدهماء (البروليتاريا) .

وما البروليتاريا الداخلية — فى صميمها — إلا عنصراً مزعجاً فى المجتمع ؛ حتى ولو كانت نتاجا محليا بحتا . وتستفحل غلاظتها إذا ما تعززت قوتها العددية وتنوعت أنماطها الثقافية ، بفعل تسرّب عنصر دخيل إلى حياتها . ويقدّم التاريخ أمثلة مذهلة لإمبراطوريات صدّفت عن تضخيم مشكلاتها بالتوسّع فى ضم بروليتاريات أجنبية إليها .

ومن ذلك :

أن أغسطس الأمبراطور الرومانى ، رفض — عامدا — السماح لجيوشه بمحاولة مدّ حدوده إلى ما وراء الفرات .

وفى خلال القرن الثامن عشر وما بعده — أثناء الانتصارات الألمانية إبان النصف الأول من الحرب العالمية الأولى — أظهرت بالمثل ، إمبراطورية النمسا الهابسبرجية ؛ إحجاما عن توسعة حدودها صوب الجنوب الشرقى . بما يتضمنه ذلك من زيادة نسبة العناصر السلافية فى إمبراطورية كانت — فعلا — بالغة التنوّع فى سكانها .

وكذلك حققت الولايات المتحدة الأمريكية بعد انتهاء هذه الحرب ، نفس الغاية بوسائل جد مختلفة . فبمقتضى تشريعات صدرت عامى ١٩٢١ و ١٩٢٤ اختُزل — بعنف — عدد الذين تسمح الحكومة لهم ، بالهجرة إلى أراضيها من وراء البحار . ففى القرن التاسع عشر ؛ انتهجت حكومة الولايات المتحدة مبدأ طابعه التفاؤل أطلق عليه الروائى اليهودى إسرائيل زانجويل

Israel Zangwill الاسم التهكمى « بوتقة الانصهار » . بمعنى أنه قد افترض أن جميع المهاجرين — أو على الأقل جميع المهاجرين من أوروبا — يمكن تحويلهم سريعاً إلى أمريكيين أقحاح متعلقين بوطنهم ، ومن ثم ؛ فما دامت أراضى الاتحاد الواسعة ، فقيرة فى سكانها المشتغلين بالصناعة ؛ تحسن الجمهورية صُنعا بالترحيب بالجميع على أساس مبدأ « الأزيد أبعث على البهجة » . بيد أنه بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها ، سادت وجهة نظر أكثر تشاؤما . إذ لمس الجميع أن « بوتقة الإنصهار » باتت فى خطر الإنهاك بسبب ، العمل الدائم .

أما إن استبعاد أفراد البروليتاريا الأجنبية يؤمّن استبعاد الآراء البروليتارية الأجنبية — أو الآراء الهدامة — فقد كانت الفكرة الخطيرة — فى تعبير اليابانيين — أمرا آخر بطبيعة الحال . وقد أثبتت الحوادث أن الإجابة عنه بالنفى .

إن الحضارة التى تنجح فى عدوانها ، عليها أن تدفع الثمن الاجتماعى لنجاحها . ويتمثّل هذا الثمن فى تسرّب ثقافة ضحاياها الأجنبية ، إلى مجرى حياة بروليتاريتها الداخلية (أى جماهير دهمائها) . ومن ثم ؛ تزداد إتساعاً ، الهوة المعنوية القائمة فعلا بين هؤلاء الدهماء الساخطين وبين الأقلية المتطلعة إلى السيطرة .

وهذا ما أدركه جوفينال Juvenal الكاتب الرومانى الساخر وعبّر عنه فى أوائل القرن الثانى الميلادى بقوله « إن نهر العاصى Orontes فى سوريا أصبح يصبّ فى نهر التيبر فى إيطاليا !! »(١)

---

(١) كناية عن التأثيرات السورية التى ألمت بالمجتمع الرومانى الغربى وتجلت فى ذلك الوقت — بصفة خاصة — فى الإقبال العظيم على إعتناق المسيحية ، وهى عقيدة نشأت فى سورية . (المترجم)

أما فى المجتمع الغربى الحديث الذى ما انفك يُشعّ تأثيره على الكون بأسره ؛ فإن نهر العاصى الصغير لم يعد وحده الذى يصبّ فى نهر التيبر ، بل أصبح نهر الجانج الهندى العظيم ونهر يانج تسى الصينى الكبير يصبّان فى نهرى التيمس والهدسون . بينما عكس نهر الدانوب اتجاهه فأصبح يحمل فى مجراه الأعلى « غربينا » ثقافيا يتألف من معتنقى الثقافات الغربية من أهل رومانيا والصرب واليونان[١] ؛ إلى حيث يرسّبهم فى بوتقة إنصهار — طفح كيلها — مركزها فيينا .

والنتائج التى تتمخض عن عدوان — ناجح — على الكيان الاجتماعى لمجتمع معتدى عليه ، تكون أشد تعقيداً ، من غير أن تكون أقل تدميرا .

فسنجد — من ناحية — أن عنصرا ثقافيا كان عديم الضرر ، أو كانت له فائدته فى الكيان الاجتماعى الذى هو وطنه ؛ سنجد أن هذا العنصر قمين بأن يُحدث نتائج غريبة ومدمّرة ، إن أُدخل فى جسم آخر . وهذه شريعة يوجزها المثل القائل « لحم يتغذى به إنسان يكون سُمًّا لآخر » .

ومن ناحية أخرى ؛ سنجد أنه عندما يوفّق عنصر ثقافى — كان منعزلا فى وقت من الأوقات ، فى شق طريقه فى حياة مجتمع مُعتدى عليه ؛ سنجد هذا العنصر ميّالا إلى أن يجرّ وراءه عناصر أخرى من نفس المنبع .

ولقد صادفتنا بالفعل أمثلة لهذا التأثير المدمّر الذى يقوم به عنصر ثقافى ترك ، موطنه واقتحم وسطاً اجتماعياً غريباً عليه : فلاحظنا — مثلا — طائفة من المآسى التى أنزلها ضغط نظام سياسى معيّن من أنظمة الغرب ، على عدة مجتمعات غير غربية . إن الظاهرة الأساسية ، للأيدلوجية

---

(١) وهى شعوب تنتسب ثقافياً إلى الحضارة الأرثوذكية الشرقية لكنها تأثرت بالحضارة الغربية عن طريق فيينا عاصمة النمسا . (المترجم)

السياسية الغربية هى إصرار تلك الأيدلوجية على اعتبار المجاورة الجغرافية — وهى ظاهرة طبيعية عَرَضية — شرطاً أساسياً لمبدأ المشاركة السياسية . فى بداية تكوين المجتمع المسيحى الغربى ؛ رأينا مصداقاً لهذا — هذا المثل الأعلى يظهر فى بلاد القوط الغربيين ؛ مما جعل الحياة غير محتملة لجماعة محلية من اليهود الذين شُتتوا . ومن ثم ؛ فإن هذا الاضطراب الذى اعتمل على هذا النحو فى بلاد القوط الغربيين ، قد بدأ يُصيب العالم خارج الغرب المسيحى . ذلك ؛ عندما حملت موجة قوية من التأثير الثقافى الغربى الجديد معها إلى أركان العالم — ركناً بعد آخر — هذه الأيدلوجية السياسية الخاصة بالغرب ، وقد قُدّر لها فى أيامنا هذه أن تزداد تضخماً بتأثير الروح الديمقراطية الجديدة ، على النظم القديمة القائمة على السيادة الإقليمية ، كما تُمثّلها الدول الإقليمية .

ولقد شاهدنا كيف أنه فى سياق المائة عام المنتهية عام ١٩١٨ ، استطاعت القومية القائمة على اللغة الواحدة ، أن تمزّق إرباً ملكية الهابسبرج الدانوبية . وهذا التنقيح الثورى الذى طرأ على الخريطة السياسية لأوروبا قد أضفى بركة على التحرر السياسى المؤقت — وإن كانت هذه البركة موضع شك — على شعوب كانت مغمورة فى مملكة متحدة من بولندا وليتوانيا ، ثم قُسّمت فى أواخر القرن الثامن عشر . بين إمبراطوريات أسر : هابسبرج ، وهوهنزلرن ، وورومانوف فبعد أن تداعت عام ١٩١٨ هذه الإمبراطوريات الثلاث التى تولّت عملية التقسيم ، برز إلى الميدان طموح بولونى مصاب بجنون العظمة ، رنا إلى إعادة تشييد الدول البولندية ، وفقاً لما كانت عليه عام ١٧٧٢ م ، واعتبارها أسوارا لأرض هى المجال الحيوى لأمة بولندية ممتازة[1] .

---

(١) استعمل الأستاذ المؤلف هنا الكلمة الألمانية **Lebensraum** التى دأب الساسة الألمان على استخدامها إبان العهد النازى وتذرعوا بها لمهاجمة بولندا وروسيا خلال حرب ١٩٣٩ / ٤٥ . =

بيد أن هذا قد استثار مقاومة عارمة من الليتوانيين والأوكرانيين الذين كانوا شركاء البولنديين — لا رعاياهم — فى الدولة الكبرى التى أنشئت فوق النوازع القومية عام ١٥٦٩ م . وقد هيأت المنازعات القتّالة التى تردّت فيها هذه القوميات الثلاث طوال السنوات التالية — وهى منازعات سيّرتها روح شريرة من القومية اللغوية — هيأت الطريق لتقسيم بولندا من جديد بين الروس والألمان عام ١٩٣٩ ؛ ثم بعد محن مروعة ، مهّدت السبيل لسيطرة روسيا الشيوعية عليها .

على أن الاضطراب الذى نجم عن إدخال نظام غربى تقليدى مصفّى فى بلاد شرق أوروبا التى تكوّن الثغور الشرقية للعالم الغربى ؛ لم يكن بالخطورة التى ترتبت على إدخال « جرثومة » القومية فى الكيان السياسى للإمبراطورية العثمانية . فما كان فى الاستطاعة مقارنة التنظيم الفوضوى الغير العملى للدولة البولندية الليتوانية فى القرن الثامن عشر ، ولا بملكية هابسبرج المستنيرة ذات الطابع المتقلّب ، لا تمكن مقارنة أى منهما بالنظام « الملّى » (الطائفى) العثمانى من ناحية قيمته كحل بديل لمشكلة اشتركت فى مواجهتها هذه الدول الثلاث . مشكلة مدارها اصطناع نظام سياسى على لمجتمع كبير مركّب من جماعات ممتزجة جغرافيا ؛ وحياتها أكثر شبهاً بالحرف والمهن ، منها بقوميات غربى أوروبا المنفصلة عن بعضها جغرافياً .

ولن نحتاج هنا إلى استعادة ما ذكرناه فى صفحة سابقة من هذا الجزء عن الوسائل العنيفة التى استُخدمت لتقطيع أوصال التنظيمات الطائفية العثمانية وتحويلها بالقوة لتتخذ شكلا غريباً عليها ؛ وهو شكل القومية المستقلة ذات السيادة . ونكتفى هنا بأن نلاحظ أعمال العنف التى صاحبت تقسيم

= ودللوا بها على أحقية الشعب الألمانى فى مجال حيوى للتوسع فى أوروبا الشرقية . وكأن الأستاذ المؤلف يشير إلى أن الدولة البولندية رنت فى بداية عهد قيامها وبعد تحررها من ربقة محتليها ، إلى تنفيذ سياسة جائرة نفذتها عليها بعد ذلك دولة أقوى منها هى ألمانيا النازية . (المترجم)

الإمبراطورية الهندية البريطانية ، إلى دولتين قوميتين — الهند وباكستان — تعادى إحداهما الأخرى ، وما صاحب تقسيم أرض فلسطين — التى كانت تحت الانتداب البريطانى — إلى دولتين متعاديتين هما إسرائيل والأردن . هذه الأعمال ومثيلاتها ؛ نماذج للنتائج المهلكة التى ترتبت على إدخال أيدلوجية غربية هى « العصبية القومية » فى بيئة اجتماعية عاشت فيها طوائف عدة ممتزجة فيما بينها جغرافيا ، وقد تمكنت من العيش جنباً إلى جنب بفضل تنظيمها الملّى (الطائفى) .

وبالمثل ؛ فإن الاحتمالات المهلكة التى تنزع العناصر الثقافية إلى إحداثها وقتما تنشقّ عن إطارها الأصيل وتُنقل إلى وسط اجتماعى غريب عنها ؛ يمكن توضيحها بإيراد أمثلة على الصعيد الاقتصادى . من ذلك أنه فى جنوب شرق آسيا — بصفة خاصة — وضح العيان التأثير المعنوى الفاسد الذى ترتب على استيراد أساليب التصنيع الغربى . فإن ثمة ثورة صناعية عجلّت بها المشروعات الاقتصادية الغربية ؛ فأحدثت — وهى تعمل على جمع الوقود « البشرى » لأفرانها الاقتصادية — مزيجاً جغرافيا من أقوام أفجاج لم يتلقوا بعد أى تهذيب اجتماعى[١] .

« ما برحت القوة الاقتصادية فى كل مكان من العالم الحديث ، تُحدث توترا فى العلاقات بين رأس المال والعمل ، بين الصناعة والزراعة ، بين المدينة والقرية . على أن الشرق الذى اصطنع الأساليب الأجنبية ، ليس مجرد فاصل بين الأوروبى وأهالى البلاد[٢] ، ولكنه يقف كذلك

---

(١) تطورت أحوال التنمية الصناعية خاصة والاقتصادية بصفة عامة فى معظم البلاد الأسيوية والأفريقية . إذ أصبحت تسير وفقاً للتخطيط الاقتصادى على أساس التنظيم الاشتراكى لشئون الإنتاج . (المترجم)

(٢) أهالى البلاد : يقصد بهذا الاصطلاح ، السكان الذين ينتسبون بحكم المولد إلى مكان ما . فهم من أهاليه ، عكس الغرباء أو الأجانب عن المكان بمولدهم وإحساساتهم — وهى ترجمة كلمة الإنجليزية natives . (المترجم)

عائقا بين أهالى البلاد والعالم الحديث . إن عبارة « الكفاية » لم تفعل إلا أن أقامت هيكلا ضخماً من ناطحات السحاب على أرض شرقية ، وأسكنت أهالى البلاد فى الطابق السفلى (البدروم) . إن الجميع يسكنون نفس البناء ، لكن البناء نفسه ينتمى إلى عالم آخر ، هو العالم الحديث الذى لا مجال فيه لأهالى البلاد . وفى هذا الاقتصاد المتعدد المظاهر ، نجد التنافس بين الناس أشد هولاً مما هو فى العالم الغربى . وفى هذه البلاد ، نلقى النزعات المادية والعقلية والفردية ، ونزعة التركيز على الغايات الاقتصادية ، نلقاها فى صورة أكمل وأتم بكثير مما هى عليه فى البلاد الغربية المتجانسة . فى بلاد الشرق هذه . نلقى تنافساً قاسيا فى عمليات السوق والتبادل ، نلقى عالماً رأسماليا قوامه المصلحة المالية الذاتية ، عالما يمثل الرأسمالية بأشد مما يمكن للمرء تصوره فيما يدعى بالبلاد الرأسمالية ، وهى بلاد نمت ببطء من أعطاف الماضى ولكنها لاتزال تربطها به مئات الجذور »[١] ... ومن ثم ، فعلى الرغم من أن هذه المنشئات التابعة قد أعيد تنظيمها طبقا للأساليب الغربية ، إلا أنه تنظيم شكلى . وهكذا يتبدّى لنا كما لو أن دولة من العصور الوسطى قد استحالت فجأة إلى مصنع حديث[٢] و[٣] .

---

(١) صفحة ٧٨١ Boeke, Dr. J.H. De Economische Theorie der Dualistische Samenlewing in de Economist, 1935.

(٢) صفحات ٤٢ – ٤٤ Furnivall, J. S. : Progress and welfare in Southeast Asia, New York 1941. Secretariat, Institute of Pacific Relations
وقد بسط المؤلف تفصيلات وجهة النظر التى اقتبسناها فى صفحات ٦١ – ٦٣ .

(٣) إن الصورة التى رسمها المؤلف الأول يرجع العهد بها إلى عام ١٩٣٥ : والمؤلف الثانى فى عام ١٩٤١ . وقد تغيرت تماما : ففى الصين مثلا . اختفى دور رؤوس الأموال الأجنبية تماماً من حياة البلاد الاقتصادية . وأصبحت البلاد الأسيوية الأخرى – عدا قلة – هى التى تهيمن على التنظيمات الاقتصادية وفقاً للمذهب الاشتراكى ؛ وإن كانت هذه الهيمنة تختلف من ناحية السطوة والشمول من بلد إلى آخر . وحقاً كان لابد للتخلص من المتناقضات التى ترزح تحتها البلاد الشرقية – وهى ما يبنها المؤلف – من حل واحد هو التخلص من الاستعمار أولا ، ثم إرساء الاشتراكية فى جوانب الحياة المختلفة وبخاصة الاقتصادية منها . (المترجم)

و « القانون » الثانى الذى نصطنعه لدراسة الإرسال الثقافى والاستقبال الثقافى ؛ مداره اتجاه أنموذج ثقافى توطد فى كيان اجتماعى مُرسِل ؛ إتجاهه لتوكيد شخصيته فى كيان اجتماعى مُستقبِل . ويتم هذا عن طريق إعادة تجميع وتأليف العناصر الثقافية التى يتألف منها هذا النموذج الثقافى ؛ والتى انفصل بعضها عن بعض أثناء عملية الإرسال . ولا بدّ أن يصطدم هذا الاتجاه باتجاه آخر ، يعترضه ويقاومه ؛ من جانب المجتمع المعتدى عليه . ولكن مثل هذه المقاومة ؛ لاتنجح عادة ، إلا فى إبطاء خُطى هذه العملية .

وعند ما نراقب هذه العملية الشاقة (أى عملية التسرّب) وهى تمضى قُدُماً حتى غايتها الصعبة المنال ، حين تتغلب فى آخر الشوط على جميع العوائق ؛ نجد أن العناصر الثقافية المقتحِمة ليست على هذه الدرجة من الانفصال ؛ كما قد يتراءى للبعض . فحقاً ؛ « إن حدوث شىء يقود إلى حدوث شىء آخر » .

وفى الواقع ؛ إن المجتمعات التى تواجه العدوان على هذا النحو ؛ ليست بغافلة دائما عن النتائج التى يُنتظر أن تعقب السماح بدخول عنصر ثقافى غريب ؛ مهما يكن من ضآلته الظاهرة وضعفه البادى عن إلحاق أى أذى . وقد سبق أن طالعتنا فى التاريخ ؛ طائفة من مظاهر التلاقى ، وُفّق فيها مجتمع معتدى عليه فى درء هجوم معتدٍ عليه ، دون أن يهئ له فرصة البقاء ولو وقتيا .

وكذلك مرّت بنا حالات أخرى لمجتمعات تمسّكت بالعزلة لاتريم عنها . وقد كسبت انتصارات نادرة ، ولكنها انتهت بالفشل . ودعونا هذه السياسة بـ « المعتزلة »[1] . وهو اسم كان يُطلق على حزب يهودى

Zealotism (١)

عمل على نبذ أو إقصاء الثقافة الهلينية – كلية – من « الأرض المقدسة »[1] . ويتميز المجتمع المعتزل بعاطفته وحدسه للأمور ؛ وإن كان من الممكن تحقيق سياسة الإعتزال على أسس عقلية صرفة خالية من العاطفة . وأمامنا مثال تقليدى لتلك الحالة الأخيرة ؛ فى قطع العلاقات بين اليابان والعالم الغربى . تلك السياسة التى نفذها – بعد روية دقيقة – هيديوشى Hideyoshi وخلفاؤه من أسرة توكوجاوا Tokugawa خلال الواحد والخمسين عاما المنتهية عام ١٦٣٨ م . وأكثر من ذلك إثارة للعجب ؛ أن نجد هذا الإدراك لكون جميع العناصر المختلفة فى أنموذج ثقافى دخيل معتمد بعضها على البعض الآخر ؛ نجد هذا الإدراك يؤدى – بنفس خطوات التفكير – إلى نتيجة مماثلة فى ذهن حاكم رجعى لبلد عربى منعزل ومتأخر .

إن عقلية المُعتزل من هذا النوع تتضح بشكل لاذع ؛ فى حديث جرى فى العشرينات من هذا القرن بين الإمام يحيى الزيدى إمام صنعاء ، وبين مبعوث بريطانى عُهدت إليه مهمة إقناع الإمام بأن يُعيد – دون نزاع – قطعة أرض تابعة لحمية عدن ، سبق أن احتلها خلال الحرب العالمية ١٩١٤/١٨ . فى خلال المقابلة الأخيرة – بعد أن وضح أن البعثة لن تبلغ غايتها – أراد المبعوث البريطانى أن يحول المحادثات إلى إتجاه آخر ، فأزجى المديح للإمام على مظهر القوة الذى يبدو على جيشه الحديث . فلما شاهد أن مديحه قد وقع من الإمام موقعا حسنا مضى يقول :

وأظن أنكم ستطبقون نُظماً غربية أخرى كذلك ؟

فأجاب الإمام مبتسماً : لا أعتقد .

حقا ؛ هذا يُثير اهتمامى . وهل أجرؤ على السؤال عن أسباب ذلك ؟

---

(١) أى فلسطين . (المترجم)

فقال الإمام : لا أظننى ألتزم بحب نظم غربية أخرى ؛
صحيح ؟ وأية نظم مثلا ؟

فقال الإمام : هناك النظم البرلمانية . إنى أحب أن أكون أنا الحكومة شخصياً . قد أجد البرلمان مُزعجا :

فقال الإنجليزى : أما بالنسبة لهذا ، فبى وسعى أن أؤكد لكم أن الحكومة المسئولة أمام البرلمان ليست بالضروره جهازاً من حضارتنا الغربية . أنظر إلى إيطاليا ، إنها قد استغنت عنها ، وهى إحدى كبريات الدول الغربية .

فقال الإمام : حسناً ! هناك الخمر . إنى لا أود أن أراها تدخل بلادى حيث هى تكاد تكون مجهولة تماماً لحسن الحظ ؛

فقال الإنجليزى : هذا طبيعى جداً . لكن إن كان الأمر كذلك ، فبى وسعى أن أؤكد لكم أن الخمر ليست كذلك ملحقا لا غنى عنه للحضارة الغربية . أنظر إلى أمريكا ، إنها تحرّم الخمر ، وأمريكا كذلك إحدى كبريات الدول الغربية .

فقال الإمام بابتسامة أخرى تعنى انتهاء المحادثة : حسنا ؛ لا أحب النظم البرلمانية ولا الخمر « وما شابه ذلك من أشياء » !

والعبرة من القصة ؛ أن الإمام فى إظهاره حذق فراسته ، قد اتهم مرماه – ضمناً – بالقصور . فإنه باصطناعه مبادئ التكنولوچيا الغربية لجيشه ، قد غرز – فعلا – الطرف الرفيع من الإسفين ؛ ذلك لأنه قد بدأ ثورة ثقافية لن تترك اليمنيين فى النهاية إلا أمام بديل واحد هو « تغطية عُريهم بملابس جاهزة من المصنوعات الغربية » . أى المضى قُدماً حتى النهاية فى إصطناع الأنظمة الغربية .

ولو قُيّض للإمام أن يلتقى بالمهاتما غاندى – معاصره الهندى لسمع

هذا الرأى السياسى الهندى القديس . فإن غاندى بمناشدته قومه العودة إلى غزل ونسج قطنهم بأيديهم ؛ كان — حقا — يرشدهم إلى طريقة تُنجيهم أحابيل من الاقتصاد الغربى . على أن سياسة غاندى كانت تستند على افتراضين ، كان لا مناص من تبريرهما كليهما فى النهاية ؛ لو قُبض لسياسته أن تحقق غايتها : ،

الافتراض الأول : أن يهيأ الهنود لبذل التضحيات الاقتصادية التى يستلزمها تطبيق سياسة غاندى . وهو أمر لم يحدث بالطبع .

ولكن حتى لو لم يُصب غاندى بخيبة الأمل نتيجة لعزوف مواطنيه عن الاهتمام بسياسته الاقتصادية ؛ كان مقضياً على سياسته بالإخفاق . وذلك نتيجة لفساد الافتراض الثانى الذى قامت عليه سياسته ، وهو خطأه فى تقدير القيمة الروحية للثقافة الدخيلة .

فإن غاندى قد أجاز لنفسه أن لا يرى فى الحضارة الغربية — فى طورها الأخير — إلا بناءها الاجتماعى الدنيوى الذى حلت فيه التكنولوچيا محل الدين . وواضح أنه لم يطرأ على باله قط أن حذقه فى استخدام الطرائق المعاصرة للتنظيم السياسى والإعلام والدعاية ، لا يقل « غربية » عن مصانع القطن التى وجّه إليها مطاعنه . لكن على المرء أن يخطو أبعد من ذلك فيقرر أن غاندى نفسه ليس إلا نتاجا لإشعاع ثقافى وَرَدَ إلى الهند من الغرب ؛ فإن الحدث الروحى الذى حرّر « طاقة غاندى النفسية » وأطلق لها العنان ، كان هو التلاقى على هيكل النفس بين روح الهند ، وروح « البشارة المسيحية » كما تضمنتها حياة « جمعية الأصدقاء »[1].

---

(١) جمعية الأصدقاء : عرفت باسم « الكويكوز Quakcers » . أنشاها جورج فوكس (١٦٢٤ — ٩١) لمقاومة التحلل الخلقى الذى انتشر فى انجلترا بعد الحرب الأهلية . واستندت دعوته على تعاليم الإنجيل . قائلا بأن ضياء الرب يكمن فى قلوب الناس جميعاً بلا تفرقة ، وأن على الناس لبلوغ الغفران (الخلاص) إطاعة هذا الضياء والعمل على إظهاره إلى العيان عن طريق المحبة والتجاوز عن الإساءة ومقابلة الشر بالخير . ويتفرع عن هذه المبادئ =

وبعد ، فإن المهاتما القديس والإمام يحيى المحارب قد جمعتهما فكرة واحدة !

ويحدث عادة عند تلاقى مجتمعين ، ويعجز المجتمع المعتدى عليه عن الحيلولة بين طلائع المجتمع المعتدى – أو على الأقل إحداها – وإيجاد مكان لها فى بنائه الاجتماعى ؛ فإن فرصته الوحيدة فى البقاء تكمن فى اصطناع ثورة سيكلوجية . فلعل هذه الثورة (فى المجتمع المعتدى عليه) تمكّنه من إنقاذ نفسه بالتخلّى عن موقف الاعتزال واصطناع أسلوب مضاد يقوم على إتقان محاربة المعتدى ، بأسلحته هو نفسه .

فإذا اقتبسنا مثالا من تلاقى « العثمانيين » مع الغرب الحديث فى مرحلته الأخيرة ، يطالعنا فشل السلطان عبد الحميد الثانى فى تطبيق سياسته الحاقدة القائمة على الاقتباس من الغرب فى أضيق الحدود . فى حين هدف مصطفى كمال أتاتورك إلى الاقتباس من كل قلبه من الغرب ، إلى أقصى الحدود ؛ ملتمسا بذلك طريقاً للنجاة .

وبالأحرى ؛ إن من العبث القول بأن فى وسع مجتمع إقامة جيشه على النمط الغربى ، وترك جوانب حياته الأخرى تجرى على ما كانت عليه . وقد سبق لنا – بالفعل – إيراد أمثلة لفساد مثل هذا الافتراض : فى حالة : روسيا القيصرية ؛ وتركيا إبان القرن التاسع عشر ، ومصر خلال حكم محمد على . فإن الأمر لا يقتصر على جيش يُقام على النمط الغربى ويدعمه العلم والصناعة والتعليم المقتبس من الغرب . ذلك لأن ضباط هذا الجيش

= تقرير جمعية الأصدقاء عدم مشروعية الحرب مهما تكن الأسباب والدوافع . ذلك لأن الحرب شر يخالف طبيعة الرب . لأن الله محبة . ويجب عدم إطاعة الشر بل القضاء عليه عن طريق تعريضه لضياء الرب فى القلوب ، أى بوساطة التسامح . وعندما كان البوليس يهاجم اجتماعات هذه الجمعية ويعتدى الجند على أفرادها ، كانوا نساء ورجالا يمتنعون عن إبداء أية مقاومة .

ومن هنا جاء قول الأستاذ المؤلف بأن غاندى قد تأثر فى دعوته بمبادئ جمعية الأصدقاء .

(المترجم)

أنفسهم يحصلون على أفكار لاتمتّ بصلة إلى مهارتهم فى فنهم ، سيا إذا ما ابتعثوا إلى الخارج ليحذقوا مهنتهم . ويوضح تاريخ هذه البلاد الثلاثة جميعاً ، ظاهرة عجيبة هى قيام جماعات من ضباط الجيش بتزعم « ثورات تحررية » :

فهذا هو المشهد الذى تعرضه : ثورة الديسمبريين العقيمة فى روسيا التى أجهضت عام ١٨٢٥ م ؛ والثورة المصرية بقيادة عرابى باشا التى قُتلت فى مهدها عام ١٨٨١ م ؛ وثورة جمعية الاتحاد والترقى عام ١٩٠٨ م التى لم تكن حقاً عقيمة ، ولكنها انتهت بكارثة بعد مرور عشر سنوات على بدايتها .

(ب) استجابات النفس

أولا – تجريد من صفات الإنسانية

حتى إذا ما تحوّل اهتمامنا عن النتائج الاجتماعية التى يسفر عنها التلاقى بين مجتمعين متعاصرين إلى النتائج السيكولوجية ؛ سنجد من المناسب – مرة أخرى – بذل اعتبار خاص لتأثر كل من المجتمعين على الآخر وهما يؤديان الدورين المتقابلين : دورى « الفاعل » و « الرّاكس »[1] ، أو « المعتدى » و « المعتدى عليه » . . . وسيكون من الأفضل أن نبدأ بدراسة التأثير على الفاعل ؛ ما دام أنه هو الذى استحوذ على المبادأة فى التلاقى .

وإن حضارة ذات نشاط إشعاعى عدوانى وفّقت فى اختراق جسم

---

(١) الرّاكس : ما يحدث ردّ فعل . (المترجم)

اجتماعى غريب عنها ، نجد نماذجها عرضة للاستسلام لأخلاط الفاريسيين[١] الذين يشكرون الله لأنه تعالى ليس كبقية الناس[٢] !!

فإن ثمة أقلية مسيطرة تنزع عادة إلى إزدراء الجماهير التى ألحقتها ببروليتاريتها الداخلية ، بعد إذ كانت تنتمى إلى كيان اجتماعى خضع لهذه الأقلية المسيطرة . وهذه الأقلية المسيطرة ، تعتبر تلك الجماهير التى أخضعتها لها ؛ عناصر دون البشر ، وأقل من الكلاب . وإن النقمة التى تصاحب هذه الفكرة الدنيئة ، تُثير سخرية من نوع خاص . ذلك لأن معاملة فرد من الناس لمخلوق بشرى كتب عليه أن يخضع – وقتياً – لرحمته ، معاملة تقل عن معاملته للكلاب ، هذه المعاملة تعود فتُثبت – لاشعورياً – حقيقة يُنكرها هذا الفرد المتحكّم . حقيقة تقرر بأن جميع النفوس تتساوى أمام خالقها ، وأن الفرد البشرى الذى يسعى إلى تجريد رفاقه من بشريتهم ، لا يجنى من وراء فعله سوى تجريد ذاته – هى الأخرى – من بشريتها .

وعلى كل ؛ لا تتعادل جميع المظاهر المنافية للإنسانية فى شناعتها :

فأقل أشكال المنافاة للإنسانية جوراً ، ما يُظهره ممثلو حضارة ما نجحت فى عدوانها ، ويكون الدين فيها العامل المسيطر والموجّه فى حياتها الثقافية . فى مجتمع مثل هذا ؛ يتخذ إنكار بشرية القوم الذين أُخضِعوا ، شكل توكيد بطلان دينهم . فالمسيحية الغالبة ، تَصِم مثل هؤلاء القوم ، بأنهم وثنيون ، لم يُعمّدوا . والإسلام يدعوهم كفرة ؛ لم يُختَتنوا . هذا ؛ وتُسلّم العقيدتان فى الوقت نفسه ، بإمكان علاج الإنحطاط الاجتماعى لهؤلاء الأفراد المجرّدين من آدميتهم ؛ بهدايتهم إلى الدين الحق .

---

(١) انظر تعليق (٢) الوارد بصفحة ٢١٤ من هذا الجزء من الدراسة .
(المترجم)

(٢) يقصد الأستاذ المؤلف ، تعرض الحضارة لتأثيرات المتزمتين . ويشير هنا إلى إنكار الفريسيين رسالة السيد المسيح جملة وتفصيلا ومحاولتهم الإيقاع به . (المترجم)

وفى كثير من الحالات ؛ راح هؤلاء السادة المسيطرون يطبّقون هذا العلاج الشافى ؛ ، وربما جاء هذا فى غير مصلحتهم ، أحياناً .

ولقد استعانت مسيحية القرون الوسطى ـ لإظهار طابع العالمية فيها ـ بالفن المرئى . من ذلك ما اصطُلِحَ عليه من رسم أحد المجوس الثلاثة(١) فى صورة زنجى . ولما فرضت المسيحية الغربية ـ فى عصرها الحديث ـ وجودها على جميع المجتمعات البشرية الأخرى القائمة بفضل تمكّنها من الملاحة فى المحيطات ؛ أبانت عن صدق إحساسها بعالميتها ، فى إستعداد الغزاة الإسبانيين والبرتغاليين إلى الذهاب إلى أبعد مدى فى العلاقات الاجتماعية ؛ بما فى ذلك الزواج ممن اهتدين إلى المسيحية الرومانية الغربية كما حددها مجمع ترنت « دون نظر إلى اختلاف اللون » . وكانت حماسة الغزاة الإسبانيين فى بيرو والفلبين لنشر دينهم ؛ أشد من حماستهم فى نشر لغتهم ؛ إلى حد أنهم زوّدوا اللغات الوطنية للشعوب المغزوّة بوسائل مكّنتها من مقاومة لغة « قشتالة » . وذلك بتطوير هذه اللغات الوطنية ، لتصلح أداة لنقل الطقوس والآداب الكاثوليكية .

لكن المسلمين قد سبقوا بُناة الإمبراطورية من الإسبانيين والبرتغاليين فى إظهار إخلاصهم لمعتقداتهم الدينية . فإن المسلمين قد تزاوجوا منذ البداية مع من تولوا هدايتهم إلى دينهم ؛ دون اعتبار لاختلافات الجنس . بل إنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك . فإن المجتمع الإسلامى قد ورث عن نص وارد فى القرآن ، إقراراً بطائفة من الأديان « عدا الإسلام » هى ـ رغم ما بها من قصور ـ أديان سماوية أصيلة ، نزل بها الوحى ؛ وهذا الإقرار ؛ أُسبِغَ على اليهود والمسيحيين أولا ، ثم اتسع فشمل بعد ذلك الزرادشتيين والهندوس . بيد أن المسلمين قد أخفقوا بجلاء

---

(١) المجوس الثلاثة هم الذين زاروا السيد المسيح بعد ولادته . (المترجم)

فى الإرتفاع إلى هذا المستوى النسبى من الاستنارة ، وقلما جابهتهم داخل نطاق جماعتهم الدينية ، اختلافات مذهبية بين السُّنة والشيعة . هنا أظهروا بمظهر لا يقل سوءاً عن المسيحيين فى مناسبات مماثلة ؛ سواء فى عهد « الكنيسة الأولى » أو فى « فترة الإصلاح » .

والشكل الثانى من أخف أشكال إنكار السادة المسيطرين ، بشرية من وقع تحت رحمتهم من البشر ؛ هو القطع ببطلان ثقافتهم . وتشيع هذه الفكرة فى مجتمع إنفصم عن تقاليده الدينية وعمد إلى ترجمة قيمها إلى تعبيرات دنيوية . وكان هذا هو قوام التمييز بين الهلينيين و « المتبربرين » إبان تاريخ العدوان الثقافى لحضارات الجيل الثانى . وترى هذا الفصل الثقافى بين البشر : فى علاقات الفرنسيين بهنود أمريكا الشمالية خلال القرن الثامن عشر ، وفى علاقاتهم مع المغاربة والفيتناميين خلال القرن التاسع عشر ، ومع الزنوج الإفريقيين جنوب الصحراء خلال القرن العشرين من ميلاد المسيح . ووقف الهولنديون نفس الموقف فى علاقاتهم مع الشعوب الملاوية فى إندونيسيا . وعمل سيسيل رودس Cecil Rhodes على إضرام هذا المثل الثقافى الأعلى نفسه فى قلوب سكان جنوبى أفريقيا المتكلمين بالإنجليزية والهولندية ، فصاغ شعاره « حقوق متساوية لكل إنسان متحضّر جنوب نهر الزمبيزى » .

ولكن هذا القبس من المثالية ؛ أُخمِدَ فى أفريقيا الجنوبية ، عقب إنشاء الإتحاد عام ١٩١٠م . وأخمده تفجّر إحساس الهولنديين الإفريقيين بقوميتهم ، إحساسا عارما ضيّق الأفق . وعمل هذا الإحساس على توكيد سيادتهم على مواطنيهم من سكان جنوب إفريقيا من أصول البانتو والاندونيسيين والهنود ؛ وهى سيادة لا تقوم على تفوق ثقافى أو دينى ، وإنما تقوم على تفوق عنصرى . على أن الفرنسيين — من الناحية الأخرى — قطعوا شوطا مثيرا فى إضفائهم طابعا سياسيا على أنماطهم الثقافية . فى

الجزائر – مثلا – فُتح باب اكتساب الرعوية الفرنسية الكاملة على مصراعيه منذ عام ١٨٦٥ لجميع الرعايا الجزائريين المسلمين من أهالى البلاد ، على شريطة تقبّلهم الخضوع للتشريع الفرنسى المدنى . بما فيه من الجانب الدقيق المعروف بالأحوال الشخصية : وهو ما تفرضه الرعوية الفرنسية الكاملة على متقبّليها ، آليا[1] .

وقد أخلص الفرنسيون فى تطبيق مثلهم الأعلى بفتح جميع الأبواب السياسية والاجتماعية أمام كل فرد تمرّس فى الأسلوب الفرنسى من الثقافة الغربية الحديثة . وظهر إخلاصهم هذا فى حادث كان له – إلى جانب أهميته فى النضال عن شرف فرنسا – تأثير جوهرى فى مجريات الحرب العالمية الثانية . فبعدما سقطت فرنسا فى يونيه ١٩٤٠ ، تردد سؤال خطير فيما إذا كانت حكومة فيشى أو حركة المقاومة الفرنسية ؛ أيهما سينجح فى تجميع ممتلكات الإمبراطورية الفرنسية فى إفريقية خلف قضيته . وفى خلال هذه الأزمة ، كان حاكم إقليم تشاد التابع لإفريقيا الفرنسية الاستوائية مواطنا فرنسيا من العنصر الزنجى الإفريقى . وقد نهض هذا الزنجى – الفرنسى الثقافة – بمسئولياته فى الوقت المناسب ، فانحاز إلى جانب حركة فرنسا الحرة . وبهذا أقام لهذه الحركة أول موضع لقدمها فى الإمبراطورية الفرنسية ، بعد أن كانت – حتى ذلك الوقت – تستند على لندن ، أساساً .

على أن المقوّم الثقافى – شأنه فى ذلك شأن المقوّم الدينى – فى فصله بين طائفتى السادة المتعالين والأتباع المنبوذين – مهما تعرّض للنقد – لايُقيم هوّة – لا سبيل إلى إجتيازها – بين هذين الفريقين اللذين توزّع بينهما بنو آدم . ذلك لأن فى وسع « الوثنى » أن يجتاز الخط

---

(١) لم يفعل الفرنسيون ذلك رغبة منهم فى « رفع » الجزائريين إلى مستواهم الثقافى ، ولكنهم فعلوه « لتذويب » الكيان الجزائرى توكيداً لنظامهم الاستعمارى فى حكم الجزائر الذى يقوم على أن الجزائر جزء من فرنسا . (المترجم)

الذى يفصله عن فريق السادة ، باعتناقه عقيدتهم . والمثـــل يقال عن المتبربر ؛ فى وسعه أن ينتقل إلى مكان السادة ، باجتيازه امتحانا . أما الدرك الأسفل الذى يصل إليه السيد المتعالى ، فهو أن يَصِمَ المرءَ ، لا بأنه « وثنى » ، ولكن يصمه بأنه من « أهالى البلاد »[١] . وهذا السيد المتعالى إذ يَصِمُ أعضاء مجتمع أجنبى عنه فى صميم بلادهم بأنهم « أهالى » يُنكر عليهم آدميتهم ، إذ يؤكد أنهم – من حيث الكيان السياسى والاقتصادى – ليسوا شيئاً يُذكر . وهذا السيد المتعالى حين يخصُّهم بتعبير « أهالى البلاد » يشاكلهم بغير الإنسان من الحيوان والنبات فى أرض عذراء ظلّت فى إنتظار مكتشفيها من بنى آدم ليدخلوها ويضعوا أيديهم عليها ؛ ووفقاً لهذا القياس؛ لعل حيوان ونبات تلك المناطق، يعاملان : إما كحشرات وحشائش ، أجدر أن تُستأصل ؛ أو كموارد طبيعية تُستبق وتُستغل .

ولقد عثرنا فى سياق أحاديث سابقة ، على مثل قديم لقوم زاولوا هذه الفلسفة البغيضة . وهم تلك العشائر من البدو الأوراسيين الرحّل ، التى وفقت عند ما واتتها الظروف فى توطيد حكمها وإخضاع أقوام مستقرين . وإن بُناة الإمبراطورية العثمانية بمعاملتهم رفاقهم من البشر كما لو كانوا حيوان صيد أوماشية ؛ كانوا لا يقلون عُنفا ومنطقا ، عن بُناة الإمبراطورية الفرنسية فى معاملتهم رعاياهم كمتبربرين . وإذا كان حقاً أن الرعايا الفرنسيين غير المحررين ، أفضل بكثير من « الرعية العثمانية » ؛ فإن من الحق أيضا أن « الحيوان » الآدمى المستأنس الذى دربه الراعى العثمانى ليغدو كلب حراسة ؛ قد وجد أمامه مجالا لمواهبـــه ، أرحب وأبهى مما كان ينتظر الإفريقى « المتطوّر » ؛ إذا وفّق فى أن يصبح موظفا أو أديبا فرنسيا[٢] .

---

(١) أهالى البلاد هى ترجمة كلمة natives وكان يستخدمها المستعمرون – سيما الإنجليز – للتحقير والازدراء . (المترجم)

(٢) انظر تفصيل تحليل الأستاذ المؤلف للتنظيم العثمانى للإمبراطورية العثمانية فى صفحات ٢٨٧ – ٢٩٨ من الجزء الأول من هذه الدراسة . (المترجم) .

وشرّ الآثمين فى العصر الحديث ، الروّاد البروتستانت المتحدثون بالإنجليزية ، الذين ذهبوا فى طليعة توسّع المجتمع الغربى فيما وراء البحار . فارتكبوا خطيئة بُناة الإمبراطورية من البدو ، بمعاملتهم نفوسا بشرية معاملة « أهالى » البلاد . حقا ؛ لقد كرر هؤلاء الرواد البروتستانت ، نفس الجريمة القديمة . وتمثلت أفظع مظاهرها ؛ فى تردّيهم فى الهاوية ، خطوة لم يسبق للعثمانيين الإنحدار إليها . فإنهم فى سبيل توكيد أن « أهالى البلاد » من حيث الكيان لا شيء ، وصموهم بأنهم نسل « أجناس منحطة » ! !

ومن بين الوصمات الأربع التى ألصقها الفريق المتعالى بالفريق الذى جرّده من آدميته ، كانت وصمة الانحطاط العنصرى . أشدّها سوءاً ؛ للأسباب التالية .

أولا — هى توكيد لتجريد فريق من آدميته . فهم — فى عُرف هذا الفريق — لا شيء ، وهم لا يصلحون لشيء . فى حين أن نَعْت المرء بـ « الوثنى » أو « المتبربر » أو « البلدى » — مهما يكن مؤذيا — فإنه لا يعدو إنكار هذه الصفة أو تلك من صفات البشر على هذا المرء وحرمانه أى حق — يقابل هذه الصفة — من حقوق البشر .

ثانيا — أن إنقسام الجنس البشرى بسبب العنصر ؛ يختلف عن إنقسامه بسبب الدين أو الثقافة أو السياسة أو الإقتصاد ؛ من ناحية كونه يُقيم هوة بين الجانبين المنقسمين لا يمكن إجتيازها .

ثالثا — تختلف وصمة الإنحطاط العنصرى عن وصمة إنحطاط الدين أو الثقافة (وإن لم تختلف فى هذا الصدد عن وصمة الإنحطاط السياسى الاقتصادى) من ناحية أنها اتخذت مقوّمها ، أشد مظاهر الطبيعة البشرية سطحية وتفاهة وحقارة : لون البشرة ، أو شكل الأنف ! !

ثانياً ـ نزعة التزمت[١] ، ونزعة المسايرة[٢] :

إذا ما اتجهنا إلى بحث الاستجابة التى يُبديها الجانب المعتدى عليه ؛ يلوح لنا أن أمامه أن يختار أحد أُسلوبين متضادين سبق أن اهتدينا إليهما فيما مضى ، واستخدمناهما فى أجزاء مختلفة من هذه الدراسة . وهما إسمان وردا فى أقاصيص العهد الجديد (الإنجيل) .

فى ذلك العهد ، كانت الحضارة الهلينية تضغط على اليهودية بقوة ، على جميع مستويات النشاط الاجتماعى . فما كان فى وسع أى يهودى يتجاهل أو يتهرب من مواجهة سؤال مداره : هل يغدو هلينيا ، أو لا يغدو هلينيا .

فأما عُصبة المتزمتين ، فقد تألفت من أناس انحصرت سَوْرتهم الفكرية فى دفع المعتدى والإرتداد إلى حصن روحى مُشيَّد مما ورثوه عن تقاليدهم اليهودية الخاصة . وكانت تحركهم عقيدة تقوم على إعتناقهم بأنهم إذا ما تشبثوا بتقاليد أجدادهم والتزموها بحذافيرها ـ ولا شىء غير هذا ـ فإنهم سيستمدون من نبع حياتهم الروحية ـ الذى استماتوا فى الحفاظ عليه ـ قوة خارقة تعينهم على رد غائلة المعتدى .

وأما عصبة المسايرين ـ فى الناحية الأخرى ـ فقد تألفت من أتباع سياسى انتهازى ـ هيرود Herod[٣] ـ نشأ فى منطقة

---

(١) فى الأصل Zealatism : طائفة يهودية ، إعتنقت مبدأ العنف لتنفيذ أغراضها والتزمت فى معتقداتها الفكرية . (المترجم)

(٢) فى الأصل ـ الهيرودية Heroodiamim : شيعة يهودية يضرب بها المثل فى الرياء واصطناع الأساليب الانتهازية والطرق المسالمة لبلوغ الأهداف . انظر إنجيل متى ، إصحاح ٢٢ آية ١٦ . (المترجم)

(٣) هيرود (٧٣ ـ ٤ ق . م) عينه يوليوس قيصر عام ٤٧ ق . م حاكما على الجليل . ثم عينه أنطونيوس عام ٤٠ ق . م ملكاً على إقليم اليهودية . ثم استولى على أورشليم بعد حصار طويل . أعاد إنشاء المعبد فى مظهر فخم . لكن اليهود المتزمتين لم يغتفروا له تشييد مسرح=

أدوم[1]، وكان يقطنها عنصر غير يهودى وضمت فى زمن متأخر إلى مملكة المكابيين . فكان أن تحالف أصله مع عبقريته ليسلك إزاء المشكلة اتجاهاً يتسم بالاعتدال . ومناط سياسة « هيرود الكبير » ؛ دعوة قومه إلى أن يتعلموا من الحضارة الهلينية ، كل ما يثبت أن تحصيله أمر ضرورى للبهود فى الأغراض القضائية والعملية، للانتفاع به فى المحافظة على كيانهم ؛ وليقودهم إلى حياة رغيدة– إلى حد ما – فى عالم اصطبغ بأسباب الحضارة الهلينية . وهذا العالم ، هو بيئتهم الاجتماعية التى لا فكاك منها .

بيد أن نزعة المسايرة بين اليهود ؛ كانت قائمة قبل ظهور هيرود بوقت طويل . وفى وسعنا أن نتتبع بداية إصطباغ اليهود – عن طواعية واختيار – بالصبغة الهلينية ، إلى أيام استقرار طائفة المهاجرين من اليهود بالإسكندرية ، حين كانت هذه المدينة – التى ستغدو بوتقة إنصهار بين العناصر المختلفة – لا تزال تحبو . بل إنه حتى فى مملكة اليهودية Judaea – ذلك القطر الجبلى – كان الكاهن الأكبر يوشع بن ياسون – ويعتبر الأنموذج الأول للمدرسة الهيرودية فى الحنكة السياسية – كان قبل عام ١٦٠ ق . م . منهمكاً فى عمله الشيطانى (من وجهة نظر المتزمتين) فى استمالة إخوانه الأحدث سناً لتعريض أبدانهم تعريضاً معيباً فى ميادين المصارعة الهلينية ، بالإضافة إلى حجب رؤوسهم – فى ابتذال – تحت قبعات هيلينية عريضة الحافة .

= وحلقة للألعاب الرياضية فى أورشليم واعتبروا هذا خروجاً على الدين . خلفه بعد موته ابنه انتيباس وهو الذى قتل يوحنا المعمدان لأن القديس شهر به لزواجه من زوجة أخيه .
(المترجم)

(١) أدوم : منطقة كانت تمتد جنوب فلسطين من البحر الميت حتى خليج العقبة (وموقعها صحراء النقب الحالية) . حارب سكانها اليهود حرباً متصلة ، لكنهم خضعوا لهم فى عهدى داوود وسليمان ثم ثاروا عليهم وحصلوا على حريتهم . (المترجم)

(٢) المكابيون : (١٧٥ – ١٦٤ ق . م : عائلة يهودية شهرت السلاح ضد محاولات أنطيوخس إيبفانس لإحلال الهلينية محل اليهودية فى إقليم اليهودية Judea فى فلسطين .
(المترجم)

وقد استثار هذا الاستفزاز ، رد فعل من جانب المتزمتين المعاصرين له ، على نحو ما سجله كتابا المكابيين فى العهد القديم (التوراة) .

كذلك لم تُستأصل نزعة التزمّت بين اليهود بعد كارثة تدمير روما مدينة أورشليم عام ٧٠ ميلادية ؛ ولا بعد تدميرها تماماً عام ١٣٥ ميلادية . ذلك لأن الحاخام يوحنا بن زكاى قد استجاب لهذا التحدّى بأن قدّم لليهود إطار نظام صـــارم ، ومجموعة من الخصال السيكلوجية ، السلبية العنيدة . الأمر الذى مكّن اليهود من الحفاظ على حياتهم الطائفية المميزة لهم فى غمرة تشتتهم ؛ حينما أصيبوا بالعجز السياسى وغدوا فى مهب الرياح .

ومهما يكن من شىء ، فإن اليهود لم يكونوا الطائفة السورية الوحيدة . كما لم يكن المجتمع السورى ؛ الحضارة الشرقية الوحيدة ، التى انقسمت تحت تأثير تحدى الحضارة الهلينية إلى معسكر تسوده نزعة المسايرة ؛ ومعسكر تتغلب عليه نزعة التزمّت . فإن إنتفاضات العبيد فى المزارع السورية فى صقلية خلال القرن الثامن قبل الميلاد ـ واتسمت بالطابع المتزمّت ـ قد قابلها فى روما خلال عصر الإمبراطورية التالى ؛ تيار متدفّق متسم بروح المسايرة من جانب السوريين المحررين الذين أخذوا بأسباب التحضّر الهلينى . واعتنقت طبقة من المجتمع السورى أكثر ثراء ونفاقاً ، نزعة المسايرة ؛ حتى أن الأقلية الهلينية المسيطرة ، قد أبدت استعداداً لاتخاذها شريكاً لها فى الحياة الاجتماعية . لكن نزعة المسايرة هذه ، قد قابلتها نزعة تزمّت ، تجلّت فى تعبئـــة الأديان السورية العليا ـ عدا اليهودية ـ لتحقيق الانفصال الروحى عن المجتمع الهلينى ؛ واستخدام تلك الأديان كأدوات لشن حرب دنيوية ثقافية . وحقاً ؛ إن الزرادشتية والنسطورية والمينوفيستية والإسلام ، قد اقتفت ـ جميعاً ـ خُطى اليهودية فى هذا الانحراف الروحى عن السبيل

المستقيم الذى يحض الدين عليه[١] . لكن الحركات الثلاث الأخيرة ، خففت – بعد ذلك – من نزعتها المتزمتة ، باصطناع روح المسايرة ؛ بأن ترجمت إلى لغاتها المقدسة ، روائع الفلسفة والعلم اليونانيين .

فإذا انتقلنا إلى إلقاء نظرة إلى ردود الفعل السيكلوجية التى أبدتها المجتمعات التى تلاقت مع مسيحية الغرب الوسيط ؛ فسنلتقى بأكمل أنموذج فى التاريخ لنزعة المسايرة ، عند الغزاة الإسكندناويين فى سالف أيام بربريتهم ووثنيتهم . فإنهم قد استحالوا – نتيجة لأحد الانتصارات الكبرى التى أحرزتها ثقافة الغرب – إلى شراح وناشرين لأسلوب الحياة فى الغرب المسيحى ؛ تحت اسم النورمان . فلقد مضى النورمان قدماً ، لا فى اعتناق العقيدة المسيحية وحسب ، بل فى اصطناع لغة وشعر الأهالى الذين يتكلمون الرومانية فى دولة اقتطعوها لأنفسهم فى قلب بلاد الغال من الإمبراطورية الكارولنجية

ومصداقاً لهذا ؛ فإنه عندما رفع العازف النورماندى الفرنسى الاسم « تايليفر Taillefer » عقيرته بالغناء ليبعث الحماسة فى رفاقه الفرسان وهم فى ركضهم إلى معركة هاستينجس Hastings[٢] ، لم يكن ينشد لهم أبياتاً من الساجة الشعبية[٣] بلغة الشمال ؛ لكنه كان ينشد لهم أغنية رولان بالفرنسية . وقبلما يشرع وليم النورماندى فاتح انجلترا – وهو مطلق اليدين – فى غرس الحضارة الغربية الوليدة فى ذلك الإقليم المتأخر المنعزل الذى ناله بحد

---

(١) يشير المؤلف إلى أن الدين – أى دين – يحض على المسايرة ، لا على التزمت . (المترجم)

(٢) هاستينجس : اسم مدينة بانجلترا على بعد ٦٢ ميلا من جنوب شرق لندن . جرت بالقرب منها عام ١٠٦٦ عام موقعة هزم فيها وليم الفاتح دوق نورماندية الإنجليز بقيادة هارولد . (المترجم)

(٣) الساجة : قصة شاعت فى القرون الوسطى تحكى مغامرات بطل إيسلاندى . (المترجم)

السيف ؛ كان مغامرون نورمانديون آخرون ، قد راحوا يعملون فى مدّ حدود العالم المسيحى الغربى فى الناحية الأخرى المقابلة ، على حساب كل من المسيحية الأرثوذكسية ودار الإسلام فى : آبوليا ، كالابريا ، صقلية . وأعجب من ذلك ، نزعة المسايرة التى أبداها الإسكندناويون الذين بقوا فى أوطانهم ، بتقبّلهم الثقافة المسيحية الغربية .

وهذا الموقف الذى وقفه أهل الشمال بتقبّلهم ثقافات غريبة عنهم ، لم يكن مقصوراً على ثقافة الغرب المسيحى وحدها . إذ نلمس هنا الموقف المساير فى تأثر النورمانديين فى صقلية بالفن والنظم البيزنطية والإسلامية . كما نجده فى اقتباس سكان أيرلندا والمستوطنين الشماليين فى الجزائر الغربية ، من الثقافة الكلتية المسيحية فى أقصى الغرب من أوروبا . كذلك نرى تأثير النورمانديين بالثقافات الأجنبية فى تقبّل السكندناويين الروس غُزاة البرابرة السلاف فى حوض الدنيبر Dnieper ونيفا Neva للثقافة المسيحية الأرثوذكسية.

وفى المجتمعات الأخرى التى تلاقت مع مسيحية القرون الوسطى الغربية ، نجد نزعتى « المسايرة » و « التزمّت » ، فى وضع أكثر توازناً . فمثلا نرى أن رد الفعل المتزمّت الذى وقفته دار الإسلام إزاء الحروب ، قد وازنه — إلى حد ما — نزعة المسايرة — على النموذج النورماندى — التى أبداها الأرمن فى كيليكيا ، الذين يعتنقون المذهب المونوفيسىّ ؛ إزاء أسلوب الحياة فى الغرب المسيحى .

وفى الإمكان تتبع هاتين الاستجابتين السيكلوجتين فى تاريخ تلاقى كل من الأرثوذكسية والعالم الهندى ، بالحضارة الإيرانية الإسلامية المعتدية . ففى الكتلة الرئيسية من العالم المسيحى الأرثوذكسى الواقع تحت سيطرة الإمبراطورية العثمانية ؛ تشبّثت أغلبية السكان بعقيدة أجدادهم ؛ وآثروا الاحتفاظ باستقلالهم بكنيستهم ، مقابل خضوعهم لنظام سياسى أجنبى . على أن هذه النزعة المتزمتة ، قد عادلتها — إلى حد ما — حتى على

الصعيد الدينى – أقلية تحوّلت إلى الإسلام بدافع من الطموح السياسى أو الاجتماعى . وانساق عدد أكبر بكثير ، وراء نزعة إنتهازية مسايرة ، تجلّت فى مظاهر طفيفة ، لكن لها مغزاها . ومدارها إقبال هذا العدد الكبير من المسيحيين على تعلم لغة سادتهم واصطناع لباسهم . واتخذ رد الفعل من جانب الهندوس تجاه السلطان المغولى نفس الاتجاه إلى حد كبير ؛ مع فارق أن التحوّل إلى ديانة الفاتحين فى الهند كان على نطاق أوسع بكثير ، وبصفة خاصة بين الطبقات البائسة فى المجتمع فى شرق البنغال . وكانت هذه الطبقات قد اعتنقت الديانة الهندوسية ، ولكنها كانت قريبة العهد بالوثنية ؛ وذرارى هذه الطبقات ، هم الذين كوّنوا – فى القرن العشرين الميلادى – الإقليم الشرقى الذى انفصل عن الهند وألحق بباكستان .

وفى فصل سابق من الجزء الحالى من هذه الدراسة ؛ وصفنا – بإيجاز – مظاهر تلاقى المجتمعات المعاصرة للغرب الحديث . فإن اقتضانا الأمر إعادة درس تلك المدونات – ونحن فى مرقبنا السيكلوجى الحالى – سنجد أن هذا تلاقى ؛ تصحبه هاتان النزعتان ! نزعتا التزمّت والمسايرة ؛ إما واحدة بعد أخرى ، أو متصادمتين معاً .

وقد تُنتقى حالة مجتمع الشرق الأقصى فى اليابان كمثال محدد تحديداً واضحاً . فإن اليابانيين – بعد أن مرّوا بتجربة المسايرة – دخلوا مرحلة من التشتت العنيف الناجح ، بنزعة التزمّت . وكان ذلك وقتما فصَم حُكم توكوجاوا علاقات اليابان بالغرب . على أن أقلية يابانية ضئيلة أصرّت على تمسكها بنزعة المسايرة . أولئك هم اليابانيون الذين آمنوا بالمسيحية فى الخفاء وظلوا أكثر من مائتى عام على ولائهم السرّى لعقيدتهم الأجنبية المحرّمة . ولم يستطيعوا المجاهرة بعقيدتهم مرة أخرى ،

إلا بعد ثورة ميجى[1] عام ١٨٦٨ . على أنه حدث قبل ذلك التاريخ بوقت قصير ، أن تعزز موقف المسيحيين اليابانيين بحركة أخرى ، سادتها هي كذلك نزعة المسايرة ، وإن اختلفت فى منحاها . كان مناط هذه الحركة ، إقبال طائفة من المسيحيين اليابانيين — فى الخفاء وبمعونة الهولنديين — على دراسة علوم الغرب الحديث فى صورته الدنيوية المتأخرة . فلما اندلعت ثورة « ميجى » ، سيطرت هذه النزعة المسايرة فى صورتها الجديدة على سياسة اليابان وحققت نتائج أذهلت العالم أجمع .

ولكن هل سادت هذه المرحلة الأخيرة نزعة المسايرة وحدها ؟

هنا نواصل بحثنا حيث يتوافر فى أحد الاصطلاحين المختارين — ولربما فيهما معا — شيء من صفة « تكافؤ الضدين » .

فبالنسبة لنزعة التزمت ، الغاية واضحة . إنها تهدف إلى الإعراض عن الأنعُم الأجنبية[2] التى تروّعها . وتتسلسل الوسائل المتنوّعة لصدها من الوسيلة الإيجابية القائمة على شن حرب علنية بأسلوب « المكابيين » ، إلى الوسيلة السلبية القائمة على الاعتزال بالنفس . ويتم هذا الاعتزال سواء عن طريق إجراء تتخذه الحكومة بإغلاق الحدود — كما حدث فى اليابان — أو بإجراء يتولاه الأفراد باستمساكهم بخصائص طائفتهم — كل فى مجاله الخاص — على غرار ما يفعله اليهود فى غمار تشتتهم .

أما روح المسايرة — من الناحية الأخرى — فإن وسائلها واضحة .

---

(١) الإمبراطور ميجى جد الإمبراطور الحالى هيروهيتو . وفى عهد الإمبراطور ميجى ، عادت اليابان إلى الاتصال بالحضارة الغربية . (المترجم)

(٢) فى الأصل « الأنعم اليونانية » . ويعنى الأستاذ المؤلف فى الواقع « الأجنبية » . ذلك نظراً لاقتباسه اصطلاحى : التزمت Zealotism والمسايرة Herodianism من التوراة ويمثلان كفاح اليهود بأسلوبين مختلفين ضد محاولة إغراق كيانهم فى خضم مؤثرات الحضارة الهيلينية . (المترجم)

فإنها تقوم على تقبّل عطايا الأجانب بأذرع مفتوحة . سواء تجلت فى عقائد دينية ، أو فى أدوات آلية .

ولكن ماذا عن الغاية ؟

إن أصحاب نزعة المُسايرة الكاملة ـ مثل السكندناويين والنورمانديين والشماليين ـ كانت غايتهم التى سعوا إليها جميعاً ـ ربما دون وعى وإن كانوا قد بلغوها فى نهاية المطاف ـ هى الاندماج الكامل فى الحضارة التى تلاقوا معها . ومن الشائع فى تاريخ الغرب الوسيط ، أن النورمانديين قد اجتازوا فى سرعة مذهلة ، مراحل : التحوّل إلى المسيحية ، والزعامة ، والزوال . ولقد اقتبسنا فى موضع سابق من هذه الدراسة سطرين خطهما مراقب عاصر ذلك العهد : وهو وليم الآبولى :

إنهم حوّلوا إلى عاداتهم ولغتهم أولئك الذين ينضوون تحت لوائهم .
فكانت النتيجة ـ من ثم ـ اندماجا عنصريا ؛

لكن هل هذه هى دائماً الغاية التى تسعى إليها نزعة المُسايرة ؟

إذا كنا قد فسّرنا تفسيراً صحيحا سياسة هيرود الكبير : فإن هذا البطل الذى أُطلق اسمه على نزعة المُسايرة ، وقد اعتقد ـ عن خطأ كما سبق أن نوّهنا بذلك لدى فحص حالات أخرى ـ بأن إعطاء جرعات شافية صغيرة من الحضارة الهلينية هو أفضل الوسائل التى تضمن للطائفة اليهودية حياتها . ولا مراء فى أن نزعة المُسايرة التى اتبعتها اليابان ؛ كانت أقرب إلى السياسة التى ُعزيت إلى هيرود ، من تلك التى مارسها النورمان .

فقد آمن ساسة اليابان المحدثون بأن لا سبيل لليابان لتغدو دولة كبرى على النمط الغربى ، إلا بإحداث ثورة تكنولوجية ُتمكّن المجتمع اليابانى من المحافظة على خصائصه الذاتية . وتعنى هذه السياسة ؛ السعى إلى تحقيق الغاية من نزعة التزمّت بالوسائل التى تصطنعها نزعة المُسايرة . ويؤكد

تشخيصنا هذا ؛ ما ورد بالمرسوم الصادر عام ١٨٨٢ م ، وبمقتضاه قامت الحكومة اليابانية — وهى الحكومة التى أخذت بأسباب التكنولوجيا الغربية الحديثة — قامت بتنظيم دين للدولة ؛ اختارته من مجموعة طقوس الشينتو Shinto[1] . وبذلك استعيدت وثنية رسخت فى اليابان قبل أن تدخلها البوذية ، لتستخدم أداة لتأليه الشعب والمجتمع اليابانيين ، والدولة اليابانية القائمة . وأمكن الحكومة التحايل على تنفيذ غايتها هذه ؛ بإحياء رمز عبادة الأسرة المالكة من قديم الزمن ، وقد اشتهرت بأنها ترجع بنسبها إلى آلهة الشمس ، مما جعلها فى موضع التقديس . وقد احتفظت هذه العقيدة بقداستها الاجتماعية المتوارثة فى شكل عبادة إله يتجسد فى شخص الإمبراطور الحاكم .

وإن الصعوبات التى تلازم تطبيق هذين الاصطلاحين البديلين — التزمت والمسايرة — اللذين بدا لأول وهلة أنهما يمثلان مجرد انقسام فى وجهة النظر ؛ هذه الصعوبات أصبحت تتراءى أمام أعيننا كلما ولينا وجهنا أى اتجاه .

---

(١) لا تعتبر الشينتية عقيدة دينية بالمعنى المفهوم . لكنها مجموعة طقوس تتجه جميعها إلى عبادة روح الطبيعة القادرة فى جميع مظاهرها سواء فى الإنسان أو الحيوان أو النبات أو الجماد . فالأباطرة العظام لهم معابد تعبد فيها أرواحهم وكذلك أبطال اليابان . كما توجد معابد تعبد فيها السيوف التى خاض بها أصحابها معارك انتصروا فيها ، على اعتبار أن للسيف روحاً مكنت صاحبه من الانتصار . وهناك معابد للجبال ذات الشكل الخاص أو القداسة التى أحاطتها بها الأساطير مثل جبل فوجى . وثمة أشجار مقدسة وملابس . . الخ . وتعتبر المرآة شيئاً مقدساً لأنها تعكس الشمس جدة العائلة الإمبراطورية ، وعلى الرغم من تقدم اليابانيين التكنولوجى العظيم فإنهم لا يزالون مصرين على الاستمساك بطقوسهم الوطنية . ولما احتل الأمريكيون البلاد ألغوا مسألة العقيدة الرسمية ومنحوا حرية العقيدة للجميع . وتنتشر البوذية فى أرجاء البلاد لكن أتباعها لا يجاوزون ٤٠٪ من عدد السكان ، بالإضافة إلى أنها مختلطة بالعقائد الشينتية اختلاطاً معقداً . وعلى الرغم من الجهود الضخمة والأموال الطائلة والدعايات المريضة التى تبذلها الهيئات التبشيرية المسيحية ، فلا يجاوز عدد المسيحيين الأربعمائة ألف بل إن هؤلاء المسيحيين تختلط عقيدتهم الجديدة بطقوس آبائهم الشينتية . أما المسلمين فلا يجاوز عددهم المائة .
(المترجم)

فأين نضع — مثلا — الحركة الصهيونية ؟

واضح أن الحركة الصهيونية قد جلبت على نفسها سخط اليهود الملتزمتين فى إخلاصهم لتقاليد عقيدتهم . فالصهاينة — فى نظرهم — موصومون بالزندقة بإقدامهم على تنفيذ العودة المادية إلى أرض الميعاد بإرادتهم وباستخدام القوة ؛ فى حين أن هذه العودة ، حق لله وحده ينجزه فى الوقت الذى يراه مناسبا . على أن الصهاينة قد جلبوا على أنفسهم كذلك استنكار طائفة المُسايرين من أتباع فكرة إندماج اليهود فى المجتمعات التى يعيشون فيها ؛ وتمضهم الفكرة التى يرونها مجافية للعقل التى تقول بأن اليهود شعب ليس كمثال أحد . وقد ذهب هذا الفريق إلى أبعاد شتى فى إعتناقه النظرية العصرية المتحررة التى تنادى بأن العقيدة اليهودية — كغيرها من العقائد — يفعة[1] استنفدت أغراضها .

وأمامنا شخصيتان من أعظم شخصيات القرن العشرين — لينين وغاندى — يبدوان لنا كلاهما ، لغزا محيّرا . إذ يلوح أنهما يواجهان الطريق فى نفس الوقت . فأنت قارئ فى كتاباتهما نقداً رتيباً للغرب وأفعاله . لكن تعاليمهما مع ذلك مشبّعة بعناصر من تراث الغرب . فتعاليم لينين مشبّعة بالتفكير المادى الذى انحدر إليه من كارل ماركس ؛ وتعاليم غاندى مشبعة بالتقاليد المسيحية كما انحدرت إليه على أيدى أتباع جورج فوكس Gearge Fox[2] . فإن غاندى فى شجبه نظام الطبقات فى الهند ، ما كان إلا مبشراً بمبادئ من تراث الغرب فى ميدان لم يُحسن استقبالها .

---

(١) اليفعة الدينية وفقاً لآراء المؤلف ، قد انبثقت عنها المجتمعات . وبالتالى فإن ثمة فريقاً من اليهود المتحررين ينادى بأن الديانة اليهودية مثلها مثل الأديان الأخرى ، قد عاونت على إبراز المجتمعات وانتهت رسالتها عند هذا الحد ، ولم يعد لها تأثير على مجريات الأمور الدنيوية . (المترجم)

(٢) جورج فوكس : مؤسس جمعية الأصدقاء — كويكرز . (المترجم)

واعتبار نزعتى الترمت والمسايرة خطتين لا محيص للهيئات السياسية فى المجتمعات المعتدى عليها أن تختار إحداهما ؛ إلا فى حالات قليلة بسيطة ــ أو بولغ فى تبسيطها أثناء هذه المناقشة ــ هذا الاعتبار ؛ يتضاءل حتى يغيب فى ضباب من تناقض المرء مع نفسه . لكن علينا أن نذكر أننا لم نبدأ ببحث هاتين النزعتين كمخطط اجتماعية / سياسية ، ولكن بدأنا ببحثهما كردود أفعال لنفوس أفراد . وعلى هذا الأساس ؛ يمكن اعتبار نزعتى الترمت والمسايرة كمثالين لردى الفعل المتبادلين اللذين دعوناهما بـ « السلفية » و « المستقبلية » . وقد سبقت لنا دراستهما فى جزء سابق من هذه الدراسة[1] : وقت بحثنا موضوع « الانشقاق فى النفس البشرية » ؛ ذلك الانشقاق الذى يبين عن نفسه فى الحضارات التى انهارت ، ثم مضت فى طريق التحلل .

وفى هذا المجال ؛ عرفنا السلفية بأنها محاولة للارتداد إلى إحدى تلك الحالات السعيدة التى يتطلع إليها الناس فى عصور الاضطرابات بحسرة ؛ وربما أخذوا عليها مثالية لا يبررها التاريخ . وكلما بعد العهد بها ، إشتد الحنين إليها . وواضح أن هذا التعريف ينصب على نزعة الترمت .

وفى نفس السياق ، وصفنا السلفية بما يأتى :

« إن ثمة شعوراً بالفشل ، أو ــ حيث لا يوجد فشل ــ شعور بالتفاهة ، يكتنف عملياً ، جميع أمثلة السلفية التى بحثناها . وليس السبب بالبعيد عن الإدراك . إذ تستنكر طبيعة السلفية ذاتها ، فعل صاحبها ؛ لإصراره على التوفيق بين الماضى والحاضر . . . فإذا حاول استعادة الماضى دون أن يأخذ الحاضر فى اعتباره ، من شأن حافز الحياة الذى يتجه بطبعه صوب التقدم ، أن يحطم بناءه الهش إلى شظايا . فإن ارتضى ــ من الناحية

---

(١) انظر مبحث السلفية فى الجزء الثانى من هذه الترجمة : صفحات ٣٨٤ ــ ٤٠١ . ومبحث المستقبلية فى نفس الجزء صفحات ٤٠١ ــ ٤٠٩ . (المترجم)

الأخرى – إخضاع نزوة خياله المتصلة بإحياء الماضى ، لإنجاز فعل يجعل من الحاضر شيئاً مفيداً ؛ عندئذ تبرهن سلفيته على تدليسها » .

وقد عُرِّفت المستقبلية فى ذلك المجال بأنها محاولة للهروب من حاضر كريه ؛ وذلك بالقفز إلى مستقبل مجهول لا يعرفه أحد . على أن هذه الحركة جالبة للهلاك أيضاً . فهى – كما هو الحال فى نزعة المسايرة – تقوم على محاكاة نُظُم مجتمع آخر وتقاليده الخلقية . وعلى أحسن فرض ؛ تكون هذه المحاكاة مَسْخاً للأصل ، لا يبعث على الإعجاب . فى حين أنه على أسوأ فرض ؛ تجىء مزيجاً متنافراً من عناصر شتّى متنافرة .

ثالثاً – التبشير :

هل كل ما أصاب نزعتى « التزمت » و « المسايرة » من فشل متشابه ، هو الكلمة الفاصلة التى ألقاها وحى التاريخ ، إذا ما التُمِس عنده تفسير النتائج الروحية لمظاهر التلاقى ؟

فإن كانت تلك حقاً هى الكلمة الفاصلة ، لتبدىّ طالع البشرية كريهاً ، ولا نتهينا إلى نتيجة مبناها أن الحضارة إنما تسعى اليوم إلى تحقيق محاولة غير عملية لصعود منزلق وعر .

ولعلنا نذكر ؛ أن هذا المسعى الجليل قد فتح بابه ، تحوّل جديد شعرت فيه طاقات الطبيعة البشرية بقوة خيالها وعزمها وقدرتها على التطور بأنها ندّ للمصاعب التى تقف عقبة فى وجه التطور الذى تسعى إليه البشرية ، فى هذا العصر الخطير من تاريخ الإنسان .

فهذا الإنسان الذى انقضى عليه حين من الدهر ، وقد اتجهت فيه – بسبب عدم تبصّره وتفاهة تدبيره[١] – ملكة المحاكاة عنده إلى الماضى .

---

(١) استخدم الأستاذ المؤلف تعبيراً يفصح عن عدم التدبير أو التفكير بعد فوات الوقت ،=

فعكف على محاكاة شيوخه وأسلافه فى حياتهم البدائية[١] . هذا البدائى قد نهض اليوم بحرر جذوة نشاطه من إسارها[٢] ؛ وذلك بأن يوجّه هذه الملكة التى لا غنى عنها فى حياته الاجتماعية – وهى ملكة المحاكاة – بوجهها نحو شخصيات مُبدعة ، تتبدى له روّاداً يرشدونه سواء السبيل .

وقمين بباحث يعيش فى الوقت أن يَسأل نفسه :

إلى أى مدى يمكن لهذه الحركة الجديدة أن تحمل أبناء الثقافة البدائية الأولى ؟

وهل يجدون مَعيناً مُدّخراً من النشاط النفسى ، يغترفون منه ؛ وعندئذ يواصلون أعمال الخلق والإبداع .

فإذا كانت الإجابة على هذا السؤال الأخير بالنفى ؛ لكان ذلك نذير شؤم للإنسان ، وهو لما يستكمل نضجه فى عملية التحضّر .

حقاً ؛ إن صاحب النزعة المتزمتة ، إنسان يتطلع إلى الماضى . فى حين أن صاحب نزعة « المسايرة » ، يخيل إليه أنه يتطلع إلى الأمام ؛ ولكنه فى الواقع يتطلع إلى جانبيه ، محاولا أن يكون نسخة طبق الأصل من جيرانه ..

= اسم رب يونانى تردده الأساطير اليونانية رمزاً لعدم التدبير هو ابيميثوس Epimitheus . ذلك لأن أخاه (بروميثيوس نصحه أن لا يتقبل عطية الإله زيوس وكانت امرأة جميلة فاتنة اسمها باندورا . لكن ابيمثوس تقبل العطية مدفوعاً بجمال هذه المرأة وفتنتها ومنساقاً بتهوره . فكانت العطية وبالا على الجنس البشرى . (المترجم)

(١) وهذه ظاهرة دعاها الأستاذ المؤلف – بالسلفية – الجزء الثانى من هذه الترجمة – صفحات ٣٨٤ – ٤٠١ .

(٢) عكس ابيميثوس المشهور ، كان أخوه بروميثوس Promitheus فى الأساطير اليونانية علماً على التدبير والتبصر ، ولقد قاده حبه للبشرية إلى اختلاس المعرفة الإلهية – وفى طليعتها جذوة النار – وقدمها إلى الإنسان . (المترجم)

فهل هذه هى نهاية القصة ؟

لعل الإجابة الصحيحة أن هذه قد تكون نهاية القصة . إن كانت القصة بأكملها قد ضمّها تاريخ الحضارة بين دفتيه ، وكان جهد الإنسان للتحضّر ليس إلا فعلا فى قصة التلاقى الدائم بين الإنسان وخالقه . فى قصة الطوفان – كما وردت فى سفر التكوين – كانت عُقبى الجائحة التى كاد الخالق الغاضب أن يستأصل فيها ذرية آدم ؛ وعده تعالى لنوح وركاب سفينته الناجين « فلا تكون أيضا المياه لتهلك كل ذى جسد »[1] .

حقا ؛ لقد وُفّقنا فعلا فى سياق إثباتنا فشل نزعتى « السلفية » و « المستقبلية » ، إلى العثور على احتمال ثالث وتفسير ذلك :

إذا ما تحدّى الحياة ظهور قوة ديناميكية جديدة أو حركة خلاقة انبثقت من أحشاء الحياة نفسها ؛ فلن يُقضى على الفرد الحى – أو الجماعة القائمة – بأن يقف موقف الاختيار السقيم بين أمرين :

الأول – إنهيار ؛ عن طريق استدامة ما دعوناه فى مكان سابق بالوضع الشاق السيء ؛

الثانى – إنهيار عن طريق تفجير ثورة .

فإن ثمة طريقاً وسطاً للخلاص . وذلك بإيجاد حالة من التوافق المتبادل بين الوضع القديم والاتجاه الجديد ؛ الأمر الذى يمكن من تحقيق حالة من الانسجام بينهما على مستوى عال . وهذه هى – فى الواقع – العملية التى قمنا بتحليلها فى الجزء من هذه الدراسة الذى ناقشنا فيه « نمو الحضارات »[2] .

وبالمثل ؛ عندما يتحدى الحياة إنهيار حدث فعلا ، فلن يُقضى على الجماعة – أو الفرد – التى تكد لتستبقى من القَدَر قدرتها على الكفاح من أجل

---

(١) سفر التكوين : أصحاح ٩ آية ١٥ . (المترجم)

(٢) صفحات ٣٧٢ – ٤٠٦ من الجزء الأول من هذه الترجمة .

الحياة ؛ لن يقضى عنها بأن تقف موقفاً لا يقل سقماً عن الموقف السابق فى اختيار أحد أمرين :

الأول ــ محاولة الوثوب الصريح من الحاضر إلى الماضى (نزعة السلفية) .

الثانى ــ محاولة القفز صراحة من الحاضر إلى مستقبل لا يُرام (نزعة المستقبلية) .

وهنا ــ كذلك ــ يتسع المجال لطريق الوسط ؛ ومناطه انسحاب المرء أو الجماعة بحركة انفصال تتلوها عودة تتبدى فى شكل تجلّى[1] (الحلول والتناسخ)[2] .

ولعلنا نستطيع إضفاء طابع مادى على هذه المصطلحات المجردة :

إن عدنا كرّة أخرى إلى القرن الأول الميلادى : إلى ذلك الركن القائم[3] من الإمبراطورية الرومانية ، حيث راح كل فريق من أصحاب نزعتى « التزمت » و « المسايرة » ــ اللذين أسبغنا على اسم فريق كل منهما مفهوماً أوسع ــ يبحث عن طريق للخلاص ، فلا يهتدى إلا إلى طريق مغلق لا منفذ له .

وإن عدنا كذلك إلى تركيز اهتمامنا ؛ لا على أى من هاتين الطائفتين ، ولكن على طائفة أخرى معاصرة لهما :

فإن بولص قد نُشِّئ بمدينة طرسوس غير اليهودية[4] على أساس كونه فريسياً Pharisee (أى ذو منحى ثقافى منعزل) ؛ وتلقى هو نفسه وفى المدينة نفسها ، تعليماً يونانياً ، والفى نفسه مواطناً رومانياً . فكان أن انفتح أمامه

---

(١) صفحات ٤٢٠ – ٤٢٧ من الجزء الثانى من هذه الترجمة .

(٢) أى تظهر فى شكل آخر . (المترجم)

(٣) أى فلسطين . (المترجم)

(٤) أو الأمية Gentile فى عرف اليهود ، وبالعبرية « جويم » وتعنى غير اليهودى من عناصر البشر . (المترجم)

الطريقان : التزمت والمسايرة . ولما كان شاباً ، فقد آثر نزعة التزمت . لكنه عندما شفى من هذه النزعة المتزمتة العنيدة — بفضل الإلهام الذى نزل عليه وهو على طريق دمشق — لم يتحول إلى اعتناق نزعة المسايرة . فلقد تكشف أمامه طريق بنّاء ، تسامى على هاتين النزعتين جميعاً . إذ راح يجتاز الإمبراطورية الرومانية مبشراً ؛ لا باليهودية ضد الهلينية[1] ، ولا بالهلينية ضد اليهودية[2] ؛ ولكن مبشّراً بمسلك جديد فى الحياة ، مستمد على السواء — دون حقد — من الثروة الروحية لهاتين الثقافتين المتنابذتين . وما كان فى وسع أى حدود ثقافية أن تقف فى وجه الدعوة الجديدة . فالكنيسة المسيحية ؛ لم تكن مجرّد مجتمع جديد من نوع الحضارات التى عمدنا إلى بحث مظاهر تلاقيها مع بعضها بعضاً ؛ ولكنها كانت مجتمعاً من نوع آخر .

(١) وهذا من مظاهر التزمت Zealotism . (المترجم)

(٢) وهذا من مظاهر نزعة المسايرة Herodianism . (المترجم)

حاشـــية

«آسيا» و «أوروبا» ـ حقائق وأوهام

أخذ هيرودوتس على عاتقه فى المقدمة التى كتبها لتاريخه ؛ أن يستخدم مرة أخرى تفسيرا فارسيا للباعث الذى ساق الأخيمينيين إلى اتخاذ موقف الهجوم ضد الهلينيين . وفى تقديره ؛ أن الفرس اعتقدوا أنهم ورثوا ثأر دم ، وأنهم مشدودون إلى واجب الانتقام من الهلينيين لحصارهم طروادة ونهبها . وعلى هذا النحو ؛ كانت الحربان الكبيرتان ـ حرب طروادة والحرب الفارسية ـ حادثين فى صراع بين أوروبا وآسيا ، متصل الحلقات من الناحية التاريخية .

ولا حاجة بنا أن نقرر بأن الفُرس كانوا ـ تاريخيا ـ جاهلين تماما بمثل هذا الالتزام . وإذ كانوا لم يتتلمذوا على الشاعر هوميروس ؛ فمن الجلى أنهم لم يعرفوا شيئاً عن حروب طروادة ؛ هذا إن فُرض وكانت الحرب قد وقعت فعلا . ولا حاجة بنا إلى القول كذلك أن الصورة التى رسمها هيرودوتس ، صورة خيالية من الوجهة التاريخية . فهى تفترض أنه كان ثمة تضامن فى المشاعر بين الطرواديين والفُرس ؛ باعتبارهم جميعاً من أبناء آسيا . وتظهر سخافة فكرة هيرودوتس هذه ، إذا تصورنا صراعا تاريخيا بين أوروبا وأمريكا يشبه تمام المشابهة ذلك الصراع بين الفُرس واليونان : يُمثّل فيه الرئيس واشنجتون فى هيئة دارا وقد اندفع للانتقام من أوروبا بسبب عدوان سابق قام به كورتيس[1] ـ وهو فى هذه المشابهة أجاممنون[2] ـ على المكسيك !

---

(١) كورتس : هو القائد الأسبانى الذى فتح المكسيك فى القرن السادس عشر . (المترجم)

(٢) أجاممنون : من أبطال ملحمة هوميروس الشعرية ـ الإلياذة ـ وهو الذى قاد الهجوم على طروادة (المترجم)

ورغما عن وضوح تفاهة رأى هيرودوتس ؛ فإن للرأى طرافته وأهميته من حيث أنه أذاع على الألسنة بأن إعتبار « أوروبا » و « آسيا » كخصمين ووحدتين متعارضتين ، ما تزالان تظهران على خرائطنا ، تفصل بينهما حدود برية خُطّت على طول السلسلة الطويلة لتلال قليلة الأهمية — نوعاً ما — تدعى جبال الأورال . وهيرودوتس لم يخترع هذه الفكرة ؛ لأن آسيا كانت بالفعل مترادفاً متداولا للإمبراطورية الفارسية فى كتاب ايشخيلوس(٣) المعروف باسم « الفُرس Persae » والذى ألفّه عام ٤٧٢ ق . م . ولكن « الصراع بين أوروبا وآسيا » كان المبحث السائد الذى يجمع بين عناصر مؤلف هيرودوتس . وإن مهارته فى معالجة الموضوع ، هى المسئولة — إلى حد كبير — عن الذيوع الذى قُدّر لهذا الخيال الهليني ، الذى نشأ إبان القرن الخامس قبل الميلاد .

وقد استقر هذا الوهم وقتما أحدثت عقلية هلينية واسعة الخيال ، تغيرا ثوريا فى دلالة هذين الاسمين الجغرافيين التقليديين عند اليونان « أوروبا » و « آسيا » . وتم هذا التغيير عن طريق تحويل الاسمين من مصوّرات الملاحين إلى الخرائط السياسية لكتاب الشئون السياسية ، وإلى الرسوم البيانية لعلماء الاجتماع فى دراستهم مواطن الثقافات . ولسوء الحظ ، نُفخت الروح فى هذه الجرأة الخيالية . فإن ما يعمد إليه الملاح من التمييز بين الشاطئين المتقابلين لسلسلة مسالك المياه الواقعة بين البحر المتوسط والبحر الأسود ، أمر طبيعي ومفيد له فى أغراضه . إلا أن هذه السلسلة من المسالك المائية ، لم تتمش قط مع أية حدود سياسية منذ فجر التاريخ البشرى حتى وقت كتابة هذه الدراسة ؛ اللهم إلا فى غضون الفترتين الوجيزتين : ٥٤٧ / ٥١٣ ق . م ؛ و٣٨٦ / ٣٣٤ ق . م. أما عن مطابقة هاتين القارتين — فى تعبير

---

(٣) ايشخيلوس : يعتبر أعظم كتاب التراجيديا اليونانية . ويقول الرواة أنه كتب ما يقرب من تسعين قصة . ولكن لم يبق من مسرحياته سوى تسع . وتعتبر قصته « الفرس » من أروع ما كتب ، وهى تخليد لنصر أثينا فى سلاميس عام ٤٨٠ قبل الميلاد . (المترجم)

ملاحين — لمواطن الثقافات المختلفة ، فإن المؤرخ لن يستطيع أن يضع أصبعه على أية فترة شهدت أى تنوع ثقافى ذى قيمـــة بين « الآسيويين » و « الأوربيين » . إذ لا فرق بينهم ، إلا أنهم يسكنون الضفتين المتلاصقتين المتقابلتين للبوسفور وبحر مرمرة . وما بين هاتين الضفتين ليس بأعرض مما بين ضفتى نهر الهدسون ، ولا يكاد يبلغ ما بين ضفتى نهر الأمازون .

إن تعبير « آسيا » عند أهل الملاحة من اليونان للدلالة على القارة التى تعين الحد الشرقى الذى يقيد حرية حركته فى بيئته فى بحر إيجه ، ويبدو أنه قد اشتق من الاسم المحلى المعاصر لمستنقع فى نهر كايستير Caijster[١] . وقد أظهرت بعض الحفائر الحديثة أن لفظ « آسيا » قد ورد فى السجلات الحيثية ، وكان يُطلق على ولاية من ولايات غرب الأناضول فى القرن الثالث عشر .

ويحتمل أن لا تكون كلمة « آسيا » هى الاسم الحيثى الوحيد الذى وجد طريقه إلى اللغة اليونانية . إذ يُظن أن كلمة باسيلوس Basilus — وتعنى باليونانية الملك — كلمة غير يونانية ، اشتُقَّت من اسم ملك حيثى حقيقى كان يدعى « بياسيليس Biyassilis » ؛ وكان مقر حكمه مدينة قرقميش Carchemish على الفرات . خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد . ويقترب هذا الزمن ؛ من العهد الذى كان فيه القرصان الآخيون يُنشئون أولى اتصالاتهم بشاطئ « بامفيليا Pamphylia »[٢] . فإذا كان هذا الاشتقاق صحيحا ، فله يضع لفظ باسيليوس على نفس المستوى مع لفظ « قرال Kral » ويعنى الملك فى طائفة من اللغات السلافية ؛ ومن المعروف أنه مشتق من اسم الإمبراطور شارلمان (أو شارل العظيم)[٣] .

---

(١) كايستير : الاسم القديم لنهر كوتشوك ميندير Kuchuk Meinder فى آسيا الصغرى ويصب فى خليج على بعد ٣٥ ميلا من جنوب شرق أزمير . (المترجم)

(٢) قطر قديم كان يقع على الساحل الجنوبى للأناضول . (المترجم)

(٣) Karolous Magnus alias Charlemagne

أما أصل تعبير « أوروبا Europa » ، فإنه أكثر التباسا : فلعله تصحيف يونانى للكلمة الفينيقية « إرب » المقابلة لكلمة « غرب » العربية ؛ وتعنى الناحية المظلمة حيث تأفل الشمس فى الغرب . أو إن لم يكن اللفظ تعبيرا فنيا مستعارا من الملاحين الفينيقيين ، فلعله لفظ يونانى أصيل يعنى « الأرض العريضة »(١) على النقيض من الجزائر . أو لعله إسم آلهة كانت « عريضة الوجه » ؛ لأنها تمت إلى فصيلة البقر .

ومهما يكن من أمر ؛ فإن الإسمين فى اعتبار أهل الملاحة ، استُخدما للتفرقة بين أراضى القارة والجزائر . والملاح إذ كان يتحسس طريقه صوب الشمال على طول الشاطئ الأسيوى أو الشاطئ الأوروبى لأرض القارة ؛ كان يشق طريقه عبر ثلاثة مضايق متتابعة : الدردنيل والبوسفور وكيرش . ولكن عندما كان يقود سفينته فى مضيق كيرش ويجتاز بحر آزوف ثم يصعد فى نهر الدون إلى قمة الملاحة النهرية ؛ كان يلقى نفسه وقد وصل إلى نقطة فقدت عندها القارتان المتقابلتان ذاتيتهما المنفصلتين . أما بالنسبة لسكان الأراضى الواقعة شمالا — سواء كانوا من بدو السهوب الأوراسية أو الفلاحين الأوراسيين زراع حزام « الأرض السوداء » الذى يمتد من المنحدرات الشرقية لجبال الكربات حتى المنحدرات الغربية لجبال التاى — لم يكن للتفرقة بين أوروبا وآسيا أى معنى مفهوم ، ولكنه كان من أقلها جدوى . ولم يكن ثمة — دائماً — معنى لما كان يُلقى فى الفصول المدرسية من التفرقة بين « روسيا فى أوروبا » و « روسيا فى آسيا » ؛ لكن لعل هذه التفرقة ما كانت لتضير أحدا . وعلى غرارها كانت التفرقة بين « تركيا فى أوروبا » و « تركيا فى آسيا » ؛ لكنها كانت مصدر قدر كبير من تشويش الذهن .

---

(١) Terra firma

إن الحدود الحقيقية بين مواطن الحضارات ، لاعلاقة لها بمثل هذه الأوهام العتيقة : إن ثمة حقيقة جغرافية لاجدال فيها ؛ ندعوها « أوراسيا » . وإنها لتبلغ من الضخامة واعوجاج الشكل بحيث نقتطع منها — للوفاء بأغراضنا الدراسية — بضعة من أشباه القارات . والهند أوضحها تحديدا بفضل جبال همالايا التى تكوّن حدودها البرية . وأوروبا شبه قارة أخرى ، لاريب فى ذلك . إلا أن حدودها البرية — عكس الهند — ما برحت أشبه بعتبة منها بتخوم . وهى — بالتأكيد — تقع بعيدا عن غرب جبال الأورال .

سياق الاستدلال



الباب السادس

الدول العالميـــة

الفصل الثالث والعشرون ـ غايات أم ذرائع

لخص المؤلف نهج الكتاب حتى النقطة الحالية ، ثم يورد الدوافع التى دعته إلى المضى فى البحث ـ فى أجزاء متتابعة ـ فى موضوع الدول العالمية ، والأديان العالمية ، وعصابات الحرب من المتبربرين .

فهل يُنظَر إلى الدول العالمية على أنها ليست سوى المراحل النهائية للحضارات ، أم على أنها مقدمات لمراحل ارتقاء تالية ؟

الفصل الرابع والعشرون ـ سراب الخلود

إن المواطنين فى دول عالمية لا يرحبون ـ فى معظم الأحيان ـ بإقامتها فحسب ، ولكنهم يؤمنون بخلود هذه الدول . ويظلون عاكفين على إعتقادهم هذا ، ليس فقط حين يتضح أن الدول العالمية تُشرف على الانهيار ؛ بل إنه ليستمر حتى بعد زوالها . ويترتب على هذا ؛ عودة نظام الدولة العالمية إلى الظهور كـ « شبح » للدولة العالمية الأصيلة . ويطالعنا ـ من قبيل المثال ـ ظهور الدولة الرمانية المقدسة فى المجتمع الذى تبنته المسيحية الغربية ، شبحاً للإمبراطورية الرومانية فى العالم اليونانى ـ الرومانى .

وقد نجد تفسيراً لذلك فى الحقيقة القائلة بأن الدولة العالمية تقف داعية للتجمع بعد فترة من الاضطرابات .

الفصل الخامس والعشرون ـ وهكذا تكدّ لغيرك

تُمْنَى نظم الدولة العالمية بالفشل ـ على طول المدى ـ فى الاحتفاظ ببقائها . لكنها ـ فى الوقت نفسه ـ تخدم أغراض نظم أخرى ، وبصفة خاصة ما اتصل منها بالأديان العُليا للبروليتاريات الداخلية .

١ ـ قدرة الدول العالمية على التوصيل :

تُتيح الدول العالمية ـ بفضل فرضها النظام والتجانس ـ وسيلة للتوصيل الجيد ؛ ليس فقط من الناحية الجغرافية بين الأجزاء التى كانت فيما مضى دولا إقليمية منفصلة ولكن ـ من الناحية الاجتماعية ـ بين طبقات المجتمع المختلفة .

٢ ـ سيكلوجية السلام :

إن التسامح الذى يراه حكام الدول العالمية أمراً لازماً للمحافظة على كيانهم ، يشجع على انتشار الأديان العليا . وهذا ما تصوّره الفكرة الشائعة (التى عبر عنها ملتون فى أنشودته عن عيد الميلاد) القائلة بأن الإمبراطورية الرومانية قد أرسلتها العناية الإلهية لصالح الكنيسة المسيحية .

على أن مثل هذا التسامح ليس عالمياً أو مطلقاً . وفضلا عن ذلك فإن هذا التسامح نفسه ـ فى صورة نزعة مناهضة للعسكرية ـ سيثبُت أنه فى صالح المعتدين الدخلاء سواء أكانوا برابرة أو أصحاب حضارات مجاورة :

٣ ـ صلاحية النظم الإمبراطورية للعمل :

(ا) المواصلات :

تخدم الطرق البرية والمسالك البحرية وصيانتها بانتظام ؛ الناس ، خدمتها لأغراض الحكومة . مثال ذلك أن القديس بولص قد استخدم الطرق الرومانية فى أداء رسالته .

فهل ستستفيد الأديان العليا فى الوقت الحاضر من نظام المواصلات العالمى الواسع النطاق الذى يُهيئه الأسلوب التكنولوجى الحديث ؟

إن تم ذلك ، فإن الأديان العليا ستجابه مشكلات يمكن توضيحها من خلال استعراض تاريخ البعثات المسيحية التبشيرية فى العوالم الغير المسيحية ، فى عصور سابقة .

(ب) الحاميات العسكرية والمستعمرات :

تخدم غايات الحضارة مثلما تخدم غايات الحكومة . بل إنها تساهم كذلك فى التحوّل البروليتارى الذى يميز المجتمعات المتحللة .

ومن الواضح أن عصابات الحرب من المتبربرين هم أكثر المستفيدين من ذلك . ولكن الديانات العليا ، تستفيد هى الأخرى . ويسوق المؤلف أمثلة لتعزيز رأيه من انتشار الإسلام . كما انتشرت عبادة ميترا ؛ من حامية إلى أخرى على طول حدود الإمبراطورية الرومانية . وانتشرت المسيحية من مستعمرة إلى أخرى . ومن قبيل المثال ، أهمية مستعمرتى كورنث وليون — وكلتاهما أنشأتهما الحكومة الرومانية — فى تاريخ الكنيسة المسيحية فى عصورها الأولى .

(ج) الأقاليم :

يستخرج المؤلف سياسات متناقضة من تاريخ الدولة العالمية الصينية . كما يستخلص من انتشار العقيدة المسيحية أمثلة لجدوى استخدام الديانات العليا للتنظيم الإقليمى .

(د) الأمصار :

تؤثر عوامل مختلفة فى تحديد موقعها . وقد يثبت أن العاصمة الأصلية التى أقامها الغزاة الذين أنشأوا الدولة العالمية ، غير صالحة دواماً للغاية من إنشائها .

ويسوق المؤلف عرضاً للعواصم وانتقالاتها : وتظل بعض العواصم التى فقدت أهميتها السياسية ، محتفظة بذكراها كمراكز للديانات .

(هـ) اللغات الرسمية والكتابات الخطية :

يبين المؤلف المشكلات التى تجابه حكام الدول العالمية فى اختيار اللغات الرسمية ، ومختلف الحلول التى يوفقون إليها . ويذكر أن تداول بعض اللغات – مثل الأرامية واللاتينية – قد جاوز كثيراً فى الزمان والمكان ، اتساعاً أبعد مدى ؛ من حدود الإمبراطوريات التى انتشرت فيها أولا .

(و) القانون :

هنا كذلك اختلف حكام الدول العالمية كثيراً – أحدهما عن الآخر – فى المدى الذى ذهبوا إليه فى فرض نظمهم الخاصة على رعاياهم . وقد طبقت أنظمة قانونية لدول ، على طوائف لم تُشرّع لها هذه الأنظمة . مثال ذلك ؛ استخدام المسلمين القانون الرومانى ، وانتفاع الكنيسة المسيحية به ، واقتباس مؤلفى شريعة موسى من قوانين حمرابى .

(ز) التقويم والموازين والمقاييس والنقود :

يُبيّن المؤلف مشكلات تعيين التقويم ، والارتباط الشديد بين التقاويم والدين . ويذكر أن الطرائق المستخدمة فى الوقت الحاضر لحساب الزمن ، ما يزال بعضها من مخلّفات الرومان أو السومريين . ثم يُقرر أن الثورة الفرنسية قد فشلت فى الاستغناء عنها .

ويوضح المؤلف بالنسبة للموزاين والمقاييس ، المعركة بين النظام العشرى والاثنى عشرى . ويبين بالنسبة للنقود ؛ أهميتها وأساسها فى المدن اليونانية ، ثم انتشارها بفضل دخول هذه المدن فى نطاق الإمبراطوريتين الليدية والأخيمينية . ثم يتناول ، بالبحث النقود الورقية فى العالم الصينى .

(ح) الجيوش القائمة :

يعتبر المؤلف الجيش الرومانى ، مصدر إلهام للكنيسة المسيحية .

(ط) الإدارات الحكومية :

يوضح المؤلف مشكلات الإدارة الحكومية ؛ بعقد مقارنة بين سياسة كل من أغسطس وبطرس الأكبر ، والحكم البريطانى فى الهند ؛ ثم يوضح طابع الإدارة الحكومية فى كل من الصين ، والهند تحت الحكم البريطانى . ثم يذكر مدى تأثير الإدارة الرومانية الحكومية فى إعداد ثلاثة من كبار مؤسسى المسيحية الغربية.

(ى) المواطنة :

يعتبر توسيع حقوق المواطنين ميزة يُضفيها حكام الدول العالمية على رعاياهم . وتعاون على خلق جو من المساواة ، تزدهر فى ظله الأديان العليا .

الباب السابع

الأديان العليـــا

الفصل السادس والعشرون – أفكار بديلة للعلاقات بين الأديان العالمية والحضارات

١ – الأديان باعتبارها سرطانات :

طالما أن العقائد الدينية تنمو فى الكيانات الاجتماعية المتداعية للدول العالمية ، فطبيعى أن يُنظر إليها كسرطانات ؛ سواء من جانب المعارضين لها من المعاصرين ، أو من جانب مدرسة من المؤرخين المحدثين .

ويسوق المؤلف أدلة على خطل هذا الرأى . ومن رأيه أن الأديان

تميل إلى إنعاش الشعور بالواجب الاجتماعى فى مريديها أكثر من اتجاهها إلى حطمه .

٢ ـ الأديان باعتبارها يفعات :

إن لكل من حضارات الجيل الثالث التى ما تزال قائمة فى الوقت الحاضر ، عقيدة دينية تعتبر قوام تلك الحضارة . وعن طريق الدين ، تتصل الحضارة بصلة النسب ، بحضارة أخرى من حضارات الجيل الثانى ؛

ويحلل المؤلف ما تدين به الحضارة الغربية الحديثة للعقيدة المسيحية .

وعلى العكس من ذلك ، تنتسب حضارات الجيل الثانى إلى الحضارات السابقة عليها ، بروابط أخرى . ويرى المؤلف أن هذه الحقيقة تُوحى بإعادة النظر فى الخطة التى سلم بها فى سياق التاريخ ، حتى الآن ؛

٣ ـ الأديان باعتبارها أنواعا سامية من المجتمع :

(ا) تصنيف جديد :

يقرن المؤلف قيام الحضارات وسقوطها ، بدورات عجلة دولاب ، تدفع عربة الدين إلى الأمام . ويعرض المؤلف خطوات التقدم الدينى ماثلة فى أسماء : إبراهيم وموسى والأنبياء العبرانيين والمسيح . ويُعتبر كل منهم ـ على التوالى ـ ثمرة لتحلل المجتمعات : السومرية والمصرية والبابلية والهلينية ؛

فهل يتيح توحيد عالم اليوم ، الأمل فى تقدم أسمى ؟

فإن كان الأمر كذلك ، تعيّن على الأديان العليا أن تتعلم دروسا صعبة .

(ب) مغزى ماضى الأديان :

يسلّم المؤلف بأن تاريخ الأديان العليا — حتى اليوم — يلوح أنه لا يهيئها للدور الذى يرسمه المؤلف فى دراسته .

(ج) الصراع بين القلب والعقل :

إن ضغط العلم الحديث على الدين ، لم يكن الصراع الأول من نوعه . فإن الصراع بين المسيحية الأولى والفلسفة الهلينية ؛ قد انتهى بإيجاد حل وسط يوفق بينهما . وارتضى الفلاسفة بمقتضاه « حقيقة » الوحى المسيحى ، على شريطة أن يسربل ذلك الوحى نفسه بلغة الفلاسفة . ولقد أصبحت هذه السرابيل الهلينية البالية — منذ أمد طويل — مصدرا للحيرة ؛ بتحملها الكنيسة المسيحية وزر إخفاق عدد من القضايا الغير الدينية التى لا تتصل بالمسيحية بسبب .

ويبين المؤلف أن الدين يجب أن يسلّم للعلم فى جميع ميادين المعرفة الثقافية التى يستطيع العلم أن يقيم لنفسه فيها مجالا . وعنده أن الدين والعلم يعنيان بضربين مختلفين من الحقيقة ، وأن دراسة اللاشعور فى علم النفس الحديث ؛ تلقى ضوءاً عميقاً على طبيعة الاختلاف .

(د) بشائر مستقبل الأديان :

إن السمة المميزة للأديان ؛ إجماعها على الإيمان بإله واحد حق . وهذا ما يفرّقها عن جميع أنواع المجتمعات الأخرى . ويُفصح المؤلف عن نتائج هذا الاختلاف .

الفصل السابع والعشرون — دور الحضارات فى حياة الأديان

١ — الحضارات باعتبارها إفتتاحيات :

يبحث المؤلف معجم الإصطلاحات التكنولوجية التى استعارتها الكنيسة

المسيحية من الحضارة الهلينية ، ثم حولتها إلى استعمالات جديدة . ويعتبر ذلك مثالا لما يدعوه بظاهرة « الأثرية » (أى التسامى) .

ومن رأيه أن الحضارة الهلينية قدأدت دور الافتتاحية للعقيدة المسيحية .

٢ — الحضارات باعتبارها نكوصا :

يبين المؤلف ما يتلو ذلك من انحطاط لهذه المصطلحات التكنولوجية عند ما يستخدمها المجتمع الغربى فى مجالاته الدنيوية ، هذا المجتمع الذى انبعث عن الكنيسة المسيحية ، ثم تحرر من سلطانها .

الفصل الثامن والعشرون – نشر الدعوة الدينية فى العالم

إن خروج الحضارة المنتمية إلى دين على هذا الدين ، يرجع إلى خطوات خاطئة ارتكبتها العقيدة الدينية . هذه الخطوات نتيجة حتمية لتضمين روح الدين فى نظام كهنوتى يهدف إلى بث الدعوة إلى العقيدة الدينية فى أنحاء العالم .

ويسجل المؤلف أربعة نماذج للخطوة الخاطئة :

(ا) سيطرة سياسية تهيئ سبباً معقولا للمساس بالسلطات الدنيوية ، بحسبانه تدخلا فى قيامها على أداء واجباتها المنوطة بها .

(ب) النجاح الاقتصادى الذى لابد وأن يُلازم أداء الواجبات الاقتصادية « بحرارة » كما لو كانت تؤدّى للخالق ، لا للإنسان .

(ج) تحويل الكنيسة مجموع ذاتها إلى إله يُعبد .

فهل يعجز الدين عن الوعد بـ « عصر ذهبى » يتراءى فى نهاية المطاف؟

ربما يتيسر ذلك فى « العالم الآخر » . لكنه لن يقع فى عالمنا هذا . فإن الخطيئة الأزلية تقف عقبة كأداء . و « هذا العالم » إقليم فى ملكوت الرب ؛ لكنه إقليم متمرد ؛ ومن طبيعة الأشياء أن يبقى كذلك .

الباب الثامن

عصور البطولة

الفصل التاسع والعشرون ـ سياق المأساة

١ ـ حاجز اجتماعى :

عصر البطولة ، نتيجة اجتماعية وسيكلوجية لتبلور الثغور ـ أو التخوم الحربية ـ القائمة بين الدولة العالمية لحضارة متحللة ، والمتبربرين القاطنين وراء هذه التخوم . ويمثّل بحاجز أو سد مقام على وادٍ ؛ فيوجد ـ بذلك ـ خزاناً عليه .

ويورد المؤلف فى هذا المبحث وفى غيره من مباحث الفصل التالية ، ما يتضمنه هذا التشبيه .

٢ ـ تراكم الضغط :

يتزايد الضغط على الثغور ـ أو السد ـ كلما تعلم المتبربرون القاطنون خلف التخوم ؛ الأساليب التكنولوجية الحربية للحضارة التى يقفون إزاءها بالمرصاد . ويجد حراس الحضارة أنفسهم مضطرين إلى استخدام المتبربرين أنفسهم . ثم ينقلب هؤلاء الجنود المرتزقة على سادتهم ، ويوجهون ضربتهم إلى قلب الإمبراطورية .

٣ ـ الاجتياح ونتائجه :

لا مناص من أن يتطور نجاح البرابرة المنتصرين ، إلى أداة لهزيمتهم . فإنهم ـ إجمالا ـ غير أكفاء لمجابهة الأزمة التى أوجدوها بأنفسهم . ومع ذلك فإن البرابرة يقومون خلال محنتهم ؛ ببطولات أسطورية ومُثل عليا للسلوك ؛ مثل تلك التى وردت فيما كتبه هوميروس عن آلهة النقمة ،

وما ورد فى فضيلة « الحلم » عند الأمويين . وينتهى المطاف بعصر البطولة المشوش – فجأة – فى صورة مذهلة . ويتلوه « عصر مظلم » تعود فى خلاله قوى القانون والنظام تؤكد وجودها بالتدريج . وهكذا تنتهى « فترة الفراغ » لتنبعث حضارة جديدة .

٤ – الخيال والحقيقة :

يُشير المؤلف إلى تصنيف « هسيود » الغريب للعصور ؛ إذ يجعلها وفقاً للمعادن : الذهب ، الفضة ، البرونز ، الحديد . وأن ثمة عصراً هو « عصر الأبطال » يُدرج بين عصرى البرونز والحديد .

و « عصر الأبطال » هو فى الواقع عصر البرونز ، ويُضفى عليه هوميروس من الخيال ما يجاوز الحقيقة . وعند المؤلف أن فتنة شعر البطولة الذى أنتجته البربرية الظافرة ، هى التى خدعت « هسيود » وشاعر العصر المظلم التالى . ولقد خدع شعر البطولة التالى هذا أيضاً ، أتباع الرايخ الثالث الذين مجّدوا « الوحوش الشقراء » للبربرية « النوردية » .

على أن البرابرة كانوا حلقة اتصال ارتبطت عن طريقها حضارات الجيل الثانى – التى أنتجت الأديان العليا – بحضارات الجيل الأول .

حاشية – كتيبة الجند من النساء الشيطانات

يسوق المؤلف تفسيراً لما قامت به النساء الشيطانات من دور بارز فى مآسى عصور البطولة . ليس فقط فى الأسطورة ، وإنما فى الواقع كذلك ؛

الباب التاسع

الاتصال بين الحضارات فى المكان

الفصل الثلاثون – امتداد ميدان الدراسة

إن الحضارات التى يمكن دراستها دراسة وافية ، كل منها على حدة ،

فى مراحل نشوئها ونموها واستطالتها وانهيارها : إن هذه الحضارات تصبح دراستها غير مفهومة فى مرحلة تحللها النهائى .

ومن ثم يرى المؤلف ضرورة دراسة اتصالاتها ، وهى فى هذه المرحلة الأخيرة . ويذكر أن طائفة من المناطق الجغرافية مثل ، سوريا وحوض نهرى سيحون وجيحون ، كانت معالم بارزة فى تاريخ هذه الاتصالات : وليس من قبيل المصادفة ، أن هذه المناطق نفسها والأجزاء المجاورة لها مباشرة ، قد ضمت المواطن التى شهدت مولد الأديان العليا .

الفصل الحادى والثلاثون

عرض للتلاقى بين الحضارات المعاصرة

١ – منهاج العمل :

نقترح البدء ببحث التلاقى بين الغرب الحديث وجميع الحضارات المعاصرة له : ويمكن تأريخ بداية العصر الحديث من تاريخ المجتمع الغربى بحدثين :

وقع الحادث الأول مباشرة قبل نهاية القرن الخامس عشر .

ووقع الثانى مباشرة بعد بداية القرن السادس عشر .

والحدث الأول هو إمتلاك ناصية فنون الملاحة فى المحيطات . والحدث الثانى هو تفكك عرى وحدة العالم المسيحى: تلك الوحدة التى أقامتها البابوية وحافظت عليها :

وكان « الإصلاح » البروتستانتى – بالطبع – مرحلة فى عملية طويلة من التطور بدأت فى القرن الثالث عشر ، ولم تستكمل حتى القرن السابع عشر . بيد أن « الإصلاح » نفسه ، قد باغت نفس الجيل الذى شهد رحلات كولومبوس وجاما : وبعد هذا ، نخطو فى التاريخ خطوة إلى الوراء وندرس صلات الغرب فى مرحلة تاريخه الوسيط ، مع المجتمعين المنافسين له ، اللذين

تلاق بهما . ثم ندرس بعد ذلك صلات المجتمع الهلينى . ونختم البحث بإلقاء نظرة على صلات أسبق من نفس النوع .

وإذ نعالج موضوع صلات العالم الغربى الحديث ؛ سنرى أن هذه الفصول من التاريخ – ولو أنها معروفة لنا بالتفصيل حتى الوقت الحاضر – غير مستكملة كلها أو ربما أكثرها ، ولا تزال تحمل علامة إستفهام .

٢ – العمليات وفقا لمنهاج :

(١) التلاق بالحضارة الحديثة :

أولا – الغرب الحديث وروسيا :

كابد الموطن الأصيل للمسيحية الأرثوذكسية الروسية ؛ الشيء الكثير من إغارات وغزوات قامت بها دولة بولندا – ليتوانيا وهى إحدى الدول الغربية الإقليمية ، منذ القرن الرابع عشر وما بعده . ومنيت بخسائر لم تستطع استردادها كلها إلا فى عام ١٩٤٥ ميلادية . ولقد تلقى بطرس الأكبر إشعاع الثقافة الغربية باستجابة تتسم بالمسايرة والترحيب . بيد أنه بعد أن مر قرنان على خطط الاقتباس من الغرب طبقا لخطوط وافق عليها الغرب نفسه ، وجد أن نظام بطرس الأكبر بعد أن وُضِعَ موضع التجرب ، تبينت أغلاطه وأخطاؤه ، وقتما صدمته محنة الحرب العظمى الأولى . فكان أن اقتلعه وحل محله نظام غربى الأصل ، مرتد من المبادئ الغربية ، هو ؛ الشيوعية .

ثانياً – الغرب الحديث والكتلة الرئيسية للمسيحية الأرثوذكسية :

تغلغلت الثقافة الغربية فى هذا المجتمع الذى ضُمّت أجزاؤه بعضها إلى بعض تحت حكم دولة عالمية دخيلة عليه هى الإمبراطورية العثمانية . ولقد تغلغلت هذه الثقافة ، بادئة بالطبقات الدُنيا إلى العليا ، على عكس ما حدث فى روسيا . وحدث ذلك ابتداء من القرن السابع عشر وما بعده ؛

وكان من المحتمل أن يؤدّى ذلك إلى غلبة التأثير الغربى على إمبراطورية الباديشاه بتأثير اليونانيين الفناريين . بيد أن الحركات الوطنية قد تغلّبت لسوء الحظ ، فأدت إلى حطم الإمبراطورية إلى دول إقليمية . وأخفقت روسيا فى أن تكفل لنفسها زعامة هذه الشعوب : سواء وفقا لأسس جامعة أرثوذكسية ، أو جامعة سلافية . وإن كان قد فُرِض على بعضها أخيراً نظام جامعة شيوعية روسية .

ثالثا — الغرب الحديث والعالم الهندى :

فرض الغرب هنا نفسه فى شكل دولة عالمية دخيلة ، حلّت محل دولة عالمية دخيلة أخرى ، هى الإمبراطورية الإسلامية المغولية التى كان قد أصابها التفكك . ولقد استخدم الحاكم البريطانى صفوة من الهنود ، مثلما استخدم الباديشاه العثمانى صفوة من المسيحيين الأرثوذكس الشرقيين . وجاء الوقت الذى نجحت فيه هذه الصفوة الهندية — فى حين عجز الفناريون — فى تغليب العنصر الهندى فى إدارة الأملاك البريطانية السابقة ، مع الاحتفاظ به سلميا ، ما خلا الاستثناء الضخم المتصل بانفصال باكستان .

وناقش المؤلف النقاط القوية والضعيفة فى الإدارة البريطانية الهندية ، وأبدى أن مشكلة السكان هى السحابة التى تخيم فى أفق مستقبل الهند .

رابعا — الغرب الحديث والعالم الإسلامى :

فى مطلع العصر الحديث من تاريخ الغرب ، كان المجتمعان الإسلاميان الشقيقان « الإيرانى » و « العربى » ، يقفان سدا فى وجه جميع المسالك البرية التى تصل ممتلكات المجتمعين الغربى والروسى بسائر أنحاء العالم . بيد أنه تلا ذلك مباشرة ، إنقلاب مثير لمصير العالم الإسلامى وفى غير مصلحته . وترتب على ذلك الإنقلاب فى ميزان القوى أن عددا من

حُكام الدول الإسلامية قد راحوا يطبّقون سياسة بطرس الأكبر القائمة على « مسايرة الغرب » ، بدرجات متفاوتة فى التوفيق .

ويضم العالم الإسلامى مواطن ثلاثة من الحضارات الأربع الرئيسية . ولقد تعززت الثروات الزراعية الطبيعية لهذه المناطق ، بفضل الكشف عن ثرواتها المكنونة من النفط . ونتيجة لذلك ، أصبحت المناطق ، الإسلامية بمثابة بستان الكرم لعالم القرن العشرين الذى تتصارع فيه روسيا والغرب .

خامسا ــ الغرب الحديث واليهود :

لم تتلاءم فكرة « التشتت اليهودى » مع النظام الغربى القائم على دول إقليمية متجانسة ، وفى استعراض تاريخى يبدأ ، لا من مستهل العصر الحديث من التاريخ الغربى ، ولكن من بداية المجتمع المسيحى الغربى نفسه ، تمكن ملاحظة ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى (أى فى تاريخ القوط الغربيين) ــ استبانت خلالها فائدة اليهود رغما عن كراهية الجماهير لهم ، وسوء معاملتهم إياهم . إذ كان المسيحيون الغربيون (كما قال سيسيل رودس عن الرؤساء المتخرجين من اكسفورد) « أطفالا فى الشئون المالية » .

المرحلة الثانية ــ تعلم فيها المسيحيون الغربيون أن يكوّنوا لأنفسهم يهودا منهم . فكان أن طُرد اليهود (ويطالعنا فى هذا الصدد طرد اليهود من إنجلترا عام ١٢٩١) .

المرحلة الثالثة ــ كان فيها المجتمع الغربى قد أصاب من الكفاءة ما جعله يسمح لليهود بالعودة إليه مرة أخرى (مثال ذلك عودتهم إلى انجلترا عام ١٦٥٥) ، والترحيب بخبرتهم فى عالم المال والتجارة .

بيد أن العصر الذى اتسم بتحرره والذى تلا ذلك ، لم يُثبت أنه آخر القصة .

ويختتم هذا القسم بدراسات للنزعة المناهضة للسامية ، وللصهيونية .

سادساً ــ الغرب الحديث وحضارتى الشرق الأقصى والحضارات الأمريكية الأصيلة :

لم يكن لهذه سابق اتصال بالغرب قبل أن يدخل الغرب فى مرحلته الحديثة . وقد بدا للعيان أن جميع الحضارات الأمريكية قد زالت من الوجود ؛ ولو أن هذه الفكرة قد تكون مضللة . ومن عجب أن تسير جنبا إلى جنب ؛ قصص ضغط الغرب الحديث على الصين واليابان . ففى كلتا الحالتين ؛ لقيت الثقافة الغربية ترحيبا فى شكلها الدينى المبكر الحديث . لكن تلا الترحيب ، إعراض عنها . ثم جاء بعد ذلك تأثير الأسلوب التكنولوجى الغربى . ويُعزى ــ إلى حد كبير ــ الاختلاف بين تاريخى البلدين إلى حقيقة مبناها أن الصين إمبراطورية واسعة مفتوحة الأبواب ، فى حين أن اليابان جماعة جزرية محكمة . ولكن المجتمعان فى حالة خسوف وقت كتابة هذه السطور : فالصين رزحت تحت السيطرة الشيوعية ووقعت اليابان تحت السيطرة الأمريكية . وكان المجتمعان كلاهما ــ كالهند ــ يواجهان مشكلة تضخم السكان .

سابعاً ــ خصائص التلاقى بين الغرب الحديث والمجتمعات المعاصرة له :

إن الحضارة الغربية الحديثة ، هى حضارة « طبقة متوسطة » . ولقد رحّبت المجتمعات الغير الغربية التى نمت طبقتها المتوسطة فيها ؛ بالطابع الغربى الحديث . فإن رغب حاكم حضارة غير غربية لايضم مجتمعه طبقة متوسطة وطنية أن يصبغ بلاده بالصبغة الغربية ؛ فإن عليه أن يصطنع تحقيقا لغرضه ، طبقة متوسطة فى شكل طبقة مثقفة . وهذه الطبقات المثقفة ؛ تنقلب فى النهاية على سادتها .

(ب) التلاقى مع مسيحية الغرب الوسيط :

أولا — مد الحروب الصليبية وجزرها :

دخلت المسيحية الغربية فى القرون الوسطى ، حقبة من التوسع فى القرن الحادى عشر . وتلتها فترة من الأفول ثم الارتداد على بعض الحدود دون أخرى ، بعد ذلك بقرنين .

ويحلل المؤلف عوامل هذا الامتداد ؛ وما تلاه من إرتداد .

ثانيا — الغرب الوسيط والعالم السورى :

كان ثمة أوجه شبه مشتركة بين كثرة الصليبيين وخصومهم المسلمين . فلقد كان « الفرنج » النورمنديون والسلاجقة الأتراك — كلاهما — فى سالف عهدهما برابرة اعتنقوا حديثا الدين الأسمى للمجتمع الذى انخرطوا فيه والذى سيطروا عليه من عدة وجوه . ولقد أثر إشعاع الحضارة السورية فى المجتمع المسيحى الغربى الأقل تقدما . وبدا ذلك فى الشعر والعمارة ، وفى الفلسفة والعلوم .

ثالثا — الغرب الوسيط والمسيحية اليونانية الأرثوذكسية :

قام بين هذين المجتمعين المسيحيين ؛ نفور أشد مما كان بين أى مجتمع منهما وبين جيرانه المسلمين . ويظهر هذا النفور المتبادل فى اقتباسات من تقرير ليوتبراند الأسقف اللومباردى عن مهمته إلى القسطنطينية ، كما يظهر أيضا فى الصورة التى رسمتها حنا كومنينا فى تاريخها للصليبيين .

(ج) التلاقى بين حضارات الجيلين الأولين :

أولا ـ التلاقى مع الحضارة الهلينية فى عصر ما بعد الإسكندر :

تلاقت الحضارة الهلينية فى هذه الحقبة مع كل حضارة معاصرة لها فى العالم القديم . ولكن النتائج التى ترتبت على الإشعاع الهلينى الذى أعقب هذا التلاقى ؛ لم تثمر ثمرتها ، ولم تستكمل فاعليتها ؛ إلا بعد انقضاء بضعة قرون من تحلل المجتمع الهلينى نفسه . ولقد جاوز إنتشار الثقافة الهلينية فتوحات الجيوش الهلينية كثيراً . مثال ذلك ، انتشارها فى العالم الصينى .

ويتميز عهد الإسكندر فى التاريخ الهلينى ؛ بتوسع تمكن مقارنته بشق المحيطات فى تاريخ المسيحية الغربية . بيد أنه بينما كان الغرب ــ فى طوره الحديث ــ يحرر نفسه من عقيدته الدينية اليفعة (أى المسيحية) ؛ لم يكن لدى الحضارة الهلينية مثل هذه اليفعة ؛ ومن ثم كان توقها للدين ، يعظم ويشتد .

ثانيا ــ التلاقى مع الحضارة الهلينية فى عصر ما قبل الإسكندر :

كان ثمة صراع بين ثلاثة متنازعين فى سبيل السيطرة على حوض البحر المتوسط وهم : المجتمع الهلينى فى عصر ما قبل الإسكندر ، والمجتمع السورى ، وبقية متحجرة من المجتمع الحيثى تتكون من الاتروريين . ولقد تبدّى المجتمع السورى على السواء : فى قوة الفينيقيين البحرية ، وفى الأمبراطورية الأخيمينية ؛ فى المراحل التالية من القصة . وقد ثبت أن أهم الفتوحات الثقافية هى صبغ روما بالصبغة الهلينية ؛ وقد تم هذا بطريق غير مباشر هو تحوّل الأتروريين أولا إلى الثقافة الهلينية .

ثالثا – الشيلم والقمح :

إن النتائج الوحيدة المثمرة للتلاقى بين الحضارات ، هى ما يتم إنجازه فى ظل السلام . وأورد المؤلف أمثلة لهذا من التلاقى بين الحضارات : السندية والصينية والمصرية والسومرية .

الفصل الثانى والثلاثون – مأساة التلاقى بين المتعاصرين

١ – ترابط التلاقى :

إن تحدّيا من جانب واحد ، يقود – على الصعيد الحر – إلى إحداث تحدٍّ من الجانب الآخر . ويواصل التحدّى الأخير سيره ليُصبح عدوانا ؛ يثير بدوره دفعا .

ويتتبع المؤلف سلسلة من مظاهر التلاقى بين « الشرق » و « الغرب » إبتداء من عدوان الإمبراطورية الأخيمينية على اليونان ، حتى ردود فعل الشعوب الغير الغربية خلال القرن العشرين ضد الاستعمار الغربى :

٢ – إختلافات الاستجابات :

ليست الاستجابة الحربية ، بالاستجابة الوحيدة المُتاحة . ومصداقا لذلك ، تعزز روسيا الشيوعية أسلحتها بالحرب الايدلوجية . وحينما تتعذر الاستجابة الحربية أو تفشل تجربتها ، تُحدث الشعوب المغزوة رد فعل بوساطة الاحتفاظ بذاتيتها لجماعات . ويتم ذلك عن طريق إستنبات دينها استنباتا كثيفا . ويطالعنا المثال التقليدى عن تلك الاستجابة المتمثّلة فى اليهود منذ تشتتهم .

وتتمثل الاستجابة السامية ؛ فى إيجاد دين أعظم سموا يأسر إليه آسريه ، على طول المدى .

الفصل الثالث والثلاثون ـ نتائج التلاقى بين المتعاصرين

١ ـ أعقاب الإعتداءات الفاشلة :

قد يترتب عن النجاح فى ضد العدوان ، إشاعة النزعة الحربية فى المنتصر ؛ بما يتلو ذلك فى النهاية من نتائج جائحة .

ومصداقا لذلك ؛ قاد انتصار اليونانيين على المعتدى الأخيمينى ، إلى إنهيار الحضارة الهلينية فى خلال خمسين سنة .

٢ ـ فى أعقاب الاعتداءات الناجحة :

(ا) تأثيرات تصيب الكيان الإجتماعى :

يتمثل الثمن الإجتماعى الذى يقتضى الحضارة التى وفقت فى عدوانها ، اداءه ، فى تسرب ثقافة ضحاياها الغرباء إلى مجرى حياتها ذاته . ويشابه ذلك فى تأثيره على ضحايا العدوان ؛ ولكن مع زيادة فى التعقيد . ويطالعنا فى هذا الشأن أن إدخال المثل والنظم الغربية على المجتمعات الغير الغربية ، غالبا ما ينتج نتائج محيرة . ذلك لأن ما هو طعام لشخص ، قد يكون سما لآخر . والواقع أن الفشل هو مصير محاولة إدخال عنصر من عناصر ثقافة أجنبية ، مع استبعاد بقية العناصر .

(ب) استجابات النفس :

أولا ـ تجريد من صفات الإنسانية :

يستسلم المغير إلى الكبرياء المتعجرفة ، فيعتبر الشعوب المغروة « كلابا خاسرة » . وهكذا يتنكر لمبدأ أخوة الإنسان للإنسان . وعندما يعتبر « الكلب الخاسر » كافرا ، فإنه قد يستعيد منزلته البشرية بفضل « الهداية » . وعندما ينظر إليه على أنه « متبربر » ، فإنه قد يستعيد منزلته البشرية

عن طريق إجتيازه امتحانا . بيد أنه عندما يُنظر إليه وفقا للاصطلاح الشائع عند المستعمرين « وطنى » ، عندئذ يفقد الأمل ؛ إذ يغدو عاجزا عن خلع سيده أو هدايته إلى عقيدته .

ثانيا – التزمّت والمسايرة :

يتضمن الإصطلاحان تميزا قريب المنال ، بين الإعراض عن طباع الفاتح وقبولها . بيد أن القيام بفحص أشد قُربا ؛ يوحى إلى الذهن بأن التميز ليس قريب المنال بالدرجة التى تظن فى بداية الأمر .

ويفسّر المؤلف هذه النقطة بدراسة اليابان الحديثة وبدراسة سيرتى غاندى ولينين .

ثالثا – التبشير :

يذكر المؤلف أن الانهزام الذاتى للمتزمتين والمسايرين الأصليين ، قد وقف حائلا ضد عمل القديس بولص الفذ .

حاشية – آسيا وأوروبا – حقائق وأوهام

تولدت آسيا وأوروبا ؛ إسمين للسواحل البرية المقابلة التى تواجه الملاحين اليونانيين فى رحلاتهم بين بحر إيجه والبحر الأسود . ولم يُسفر إضفاء مغزى سياسى أو ثقافى على الاصطلاحين عن شيء سوى البلبلة . إذ تعتبر أوروبا ، شبه قارة من قارة أوراسيا محددة تحديد سيئا .

تصـــويب

صفحة	سطر	خطأ	صـــواب
٣	١٩	سيطرة	مسيطرة
١٧	١١	لطور	لطرد
١٧	١٦	إستملكها	إستمساكها
٢٠	١١	الذين	اللذين
٢٤	١٩	بلى	بل
٢٤	الأخير	الإراديين	الإداريين
٣٨	٢٣	تنظما	تنظيما
٤٥	٩	الجزيت	الجزويت
٤٥	١٠	للعالم	العالم
٤٦	٨	السائد	السائدة
٦٥	٨	نستعد	نستعيد
٧٥	٨	امت	اتسع
٨٧	٣	الحلافة	الخلافة
٩٤	١٨	يبالغ	يبلغ
٩٨	١٥	علاقتها	علاقتها
١١٣	٧	مملكلة	مملكة
١٥٣	١١	عقائد	إلا عقائد
١٧٨	١	يأتى	يتأتى
١٨٢	٣	طرقه	طريقه
١٨٢	١٥	قإن	فإن
١٨٢	٢٠	تخلص	تخلّص
١٨٥	٩	أحد	إحدى
١٩٢	٨	الطبيعية	الطبيعة
١٩٦	٦	إليها	لمن
١٩٨	١١	بمكس	يمكس
٢٢١	١٦	جافز	حافز
٢٢٥	١٦	شأنه	شأن
٢٣٨	١٧	– إلى حد ما –	تعتبر – إلى حد ما
٢٣٨	١٩	بتقديمه	بتقديمها
٢٤٠	١٤	الغلظ	الغليظ
٢٤٠	١٨	مستخدماً	مستخدمة
٢٧١	١١	ينبغى	ينبنى
٢٨٠	٢٩	١٩٥٣	١٤٥٣
٣٢٢	١٤	الموحلة	المرحلة
٣٢٩	٤	العنوى	العددى
٣٥٣	٥	ما يتمع	ما يتمتع
٣٧٨	٥	ولعه	ولعله
٣٨١	١٧	مدن	ملك
٣٨٨	٣	المتصادمين	المتعاصرين
٣٩٩	٢١	إله الخير	إله الشر
٤٠٠	١٠	بالإبداع	(تشطب)
٤٠٠	١٦	طاقات الإبداع	طاقاتها بالإبداع
٤٠٣	١٥	يجتازاه	يجتازان
٤٠٧	٢٠	الدول	الدولة
٤٠٨	٩	الشرفية	الشرقية
٤١٤	٣	أحابيل	من أحابيل
٤٢٨	١٨	التشتت	التشبث
٤٣٦	٤	فملا	فصلا
٤٤١	١٩	فله	فإنه



فهـــرس

الجزء الثالث من « مختصر دراسة للتاريخ »

الموضوع | صفحة

الموضوع — صفحة

الإشـــــراف اللغـــوى : **حسام عبد العزيز**

الإشـــراف الفـــنـى : **حسن كامل**

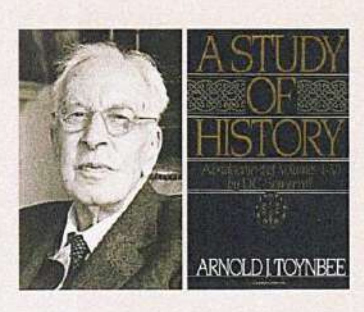
التصميم الأساسي للغلاف : **أسامة العبد**



تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة







يذهب توينبى فى هذا الكتاب إلى أن دراسة التاريخ تعنى - فى حقيقتها - دراسة المجتمعات أو الحضارات، وهو يقسمها إلى إحدى وعشرين حضارة اندرس معظمها ولم يتبق منها فى زماننا الذى نعيشه سوى خمس حضارات هى المسيحية الغربية، والمسيحية الأرثوذكسية، والإسلامية، والهندية، والشرق الأقصى، ثم مخلفات حضارات متحجرة غير معينة الشخصية كاليهودية.

يدور الكتاب حول ثلاثة محاور: انبعاث الحضارات، وارتقاء الحضارات، وانهيار الحضارات.

بخصوص انبعاث حضارة ما فإن توينبى يصدف عن الفكرة التى تذهب إلى تفوق عرق ما وتفرده بصنع الحضارة، فالأعراق - فى معظمها- ساهمت فى صنع الحضارات وفى تقدمها، كما أنه يصدف عن البيئة الجغرافية كعامل أهم فى انبعاث الحضارة.

ويرى توينبى أنه بين إحدى وعشرين حضارة هناك خمس عشرة حضارة تتصل بصلات البنوة بحضارات سابقة عليها؛ فالحضارة الإسلامية- على سبيل المثال - هى محصلة اندماج حضارتين كانتا متميزتين فى الأصل هما الإيرانية والعربية وهما - معا - ترجعان إلى حضارة مندرسة هى الحضارة السورية التى تتفرع بدورها من الحضارة السومرية.

تصميم الغلاف: نسرين كشك